مذكرات معلمة
(عصفورة السياج)

تأليف : رشاد نوري

ترجمة: روشن بدرخان

منتدى إقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com

لمزيد من الكتب وفي جميع المجالات

زوروا

منتدى إقرأ الثقافي

الموقع: HTTP://IQRA.AHLAMONTADA.COM/

فيسبوك:

HTTPS://WWW.FACEBOOK.COM/IQRA.AHLAMONTADA/



مــذكرات معلـمـة

(عصفورة السّياج)

تأليف
رشاد نوري

ترجمة عن التركية
روشن بدرخان

اشراف عام:إبراهيم بهلوي & عماد درويش

تصميم: عماد درويش

رقم الايداع:(2360)

مطبعة: هيفي

سنة: 2009

الفهرس

الى المعلمة الناشئة التي ما كادت تسير في خضم الحياة حتى اعترضتها العقبات فنالت من نفسها وجعلتها تشكو وتتذمر ولم تعط بالأ لنصحي وارشادي وطالما رعيتها بقلبي وأعطيتها من نفسي ما يجعلها في بصيرة وتعقل من أمور الحياة المليئة بالعلقم أكثر من الحلاوة والشهد. أقدم مذكرات معلمة لأثبت لها ان لا طعم للحياة بدون نضال ولا خير في حياة ممهدة لا تعتور طرقاتها الأشواك. وما الحياة سوى جهاد وكفاح يزين جنباتها ويعطي رونقا لما تأتي من أعمال.

سيري يا صديقتي الصغيرة ولا تضجري ...

ذللي الصعاب بطموحك، ومهدي العقبات بعزمك وايمانك وأعطي من قلبك الزاخر بالحيوية والنشاط لتنالي ما تصبو إليه نفسك من هناء وسعادة.

زميلتك
روشن بدرخان
دمشق _ هاتف: 11229

الجزء الاول

القسم الاول

1

بينما كانت معلمة البيان تتكلم في أعلى السلم مع راهبة عجوز ضحوك لمحت مرور سيدة ملتفة بملاءة سوداء، تسير بخطوات متثاقلة يبدو على ملامحها استغراقها في التفكير. فقالت المعلمة:

ـ ماسور! هناك سيدة مرت، لا شك انها ولية طالبة ضلت هل نعلم الإدارة بذلك؟

أجابتها الراهبة العجوز ضاحكة وكانت بدورها قد رأت السيدة :

ـ عجباً لك يا آنسة (اوراني) ألم تعرفي عصفورة السياج؟ وانت التي تحملت عذابها السنين الطوال وقاسيت الأمرين من طيشها وشيطنتها.

لم تستطع معلمة البيان التصديق إذ كيف يمكن ان تكون عصفورة السياج تلك المرأة المهمومة التي مرت كالخيال من الدهاليز الطويلة المظلمة دون ان تثير أي ضجة او صخب؟ فقالت:

ـ ماذا تقولين يا ماسور؟ أتظنينني أجهل عصفورة السياج؟ أتشبه هذه المشية مشيتها؟ لا أظنك رأيت فريدة تسير هكذا بتمهل واضطراب. ان عصفورة السياج لا تسير بل تقطع الردهات قفزاً ولا تستطيع المرور بدون جلبة او غناء وصفير. هل تمر عصفورة السياج من الدهليز دون ان تسلم على كل تمثال تصادفه بالانحناء ومد اللسان؟ هذا لا يمكن أبداً. ان التي مرت هي سيدة متزنة حتى يمكن القول بأنها سيدة سئمت الحياة.

ضحكت الراهبة العجوز ثانياً ولكن الحزن كان بادياً في بسمتها وقالت:
- أعطت الإدارة لعصفورة السياج شهادتها نهار الأمس وهي تعود اليوم الى ذويها وانني مثلك دهشت عندما رأيتها قبل هنيهة ملتفة بملاءتها السوداء فكدت لا اصدق عيني.

امتدت قامتها كثيراً وارتسمت معالم الجد والألم والتفكير على ملامحها بعد ارتداءها الملاءة. ليس هذا فقط يا آنسة اوراني هناك اسباب أخرى.. عندما أتت إلينا عصفورة السياج كانت طفلة لم تتجاوز التسع سنوات فقضت عشرة سنوات في القفص. لا شك انك تعلمين بأن فريدة أعطت المدرسة اسم القفص.
قضت فريدة عشر سنوات كالطير المحبوس يخفق قلبها بشدة كلما تطلعت الى الخارج من وراء القضبان الحديدية التي تفصل الباحة عن الطريق. وأخيراً دنا يوم الخلاص.. هذا أيضاً من تعابير فريدة _ ففتحنا لعصفورة السياج قفصها قائلات.
- أنت حرة طليقة يا فريدة.
وما ان سمعت ذلك حتى جمعت أغراضها وارتدت ملاءتها فبدا على تلك المرحة اللعوب وقار المراة الساكنة المتزنة. انني أذكر حتى الآن وظيفة الانشاء التي أعطيتها لصف فريدة في العام الماضي حيث سألت تلميذاتي: (ما العمل الذي تفكرين القيام به عند تخرجك من المدرسة؟).
أثقل السؤال كاهل التلميذات وأخذن بالتفكير العميق يعالجن الحياة والعمل بحيرة وفزع. ورأيت من خلال سطورهن ان فراق المدرسة يعذبهن جميعاً ما عدا فريدة طبعاً، فإنها لم ترَ داعياً للفزع بل استرسلت بجوابها هكذا بجنون فقالت: (آه يا معلمتي العزيزة لا ادري أي شيطان ضجر ألهمك هذه الاسئلة الغريبة!.. أتسألين ماذا سأصنع في الحياة؟ لا أرى خيالات صبيانية أوهى من التفكير ببرامج تسلية او عيد. هل يكون للطيور او للنسيم او للمياه المتدفقة المنسابة برامج؟ وبكلمة أوضح هل سمعت ببرنامج لعصفورة السياج؟ أظنك يا معلمتي لا تنكرين بان ليس في الحياة اويقات ألذ وأمتع من حياة المخلوقات الصغيرة ذات العقول البسيطة التي لا يتسع

عقلها لتنظيم سنن تسير على ضوءها اسباب عيشها ولهوها. انا واثقة بانك ستغضبين مني لكتابتي الصريحة فتقللين من علاماتي لعدم تفكيري كرفيقاتي بحياة الجد والعمل. ولكن ما العمل وانت تعلمين بانني أصرح بشعوري ببساطة وبدون تنميق ماذا يصنع العصفور إذا أفلت من القفص؟ انه يسرح ويمرح ويغرد ويقضي أيامه أعياداً يتمتع خلالها بالسعادة والسرور. طبعاً ساكون مثله لكنني سأتألم قليلا لبعادي عنكم، وما انا في الحقيقة سوى عصفورة سياج صغيرة نشأت بينكن فأحببتكن. سأفرح كثيراً إذا صادفت إحداكن بالطريق ولكن لا تأملن أبداً بأنني سأخطو خطوة واحدة الى القفص ولو مرة في العمر لأراكن مثلاً. كلا! هذا لن يخطر لي في بال...

هكذا كان جواب فريدة تقريباً على سؤالي.

قطبت الآنسة اوراني حاجبيها وضمت شفتيها باستغراب قائلة:

ـ حقاً ان حالتها الروحية خطرة وانني أخاف جداً من مستقبل فتاة هوائية على غرارها. ان ميول عصفورة السياج ونظرتها الى الحياة تجعل الانسان في شك قاطع من حياتها المقبلة. لأنني أظنها لا تستطيع ادارة نفسها بهذه المشاعر والأفكار.

أجابت الراهبة العجوز:

ـ هنا تخطئين يا آنسة. قضيت ما يقارب الخمسون عاماً في المدرسة اختلط بالبنات وقد مرت الألوف بين يدي وكم خدعت مثلك بالظواهر فأعطيت احكاماً مغلوطة، ولكن عندما تعقبت الكثيرات من تلك الألوف في الحياة العملية وكنت الشاهدة لانتصارهن او فشلهن، لسعادتهن او شقائهن رأيت ان الوجوه السعيدة التي نراها في الحياة لا تكون لأصحاب الأرواح المبهمة والأحلام الخصبة الواسعة.. فالمخلوقات المرحات في الطفولة اللواتي لا يحسبن للدهر أي حساب يصبحن في الكبر اقوى تحملاً وثباتا واقداماً في حياتهن العملية. وان لم يطمئن المرء لأعمالهن الصبيانية في طفولتهن يجابهن الحياة بصدور رحبة ويناضلن بحزم وعزم، ولا بد من انتصارهن في النهاية. فالحياة تمنح السعادة والهناء بقدر احتمال المرء للمصائب والأهوال.

استرسلت الراهبة العجوز في حديثها وشعرت بطلاقة ونشاط وهي تشير من النافذة الى الجبال العالية:

تأملي الجبال! إلا توافقينني بان نظرة الربيع وحلاوة الصيف تكون دائما بنسبة ما يكلل هذه الجبال من ثلوج خلال فصل الشتاء؟ كلما ازداد الصقيع والبرد كان الربيع مزهراً وجميلاً. فلكل موسم حقه وما كل موسم إلا درجة ترتقي بها الطبيعة الى موسم أجمل منه. وهكذا الاطفال، دعيها تأخذ حقها من الطفولة واللعب والمرح ليتسنى لك التلذذ بجليل أفكارها وعظمة أعمالها في الكبر. وانني أراهن بان فريدة ستوفق في الحياة ولا اخشى عليها ضراً من المستقبل مهما عضها الدهر بنابه وأدارت لها الايام ظهر المحن فأنها ستتغلب وتنتصر.

لم تعرفيها قبل هنيهة عندما مرت بتؤدة وسكون لانها كانت حتى الأمس تقفز على الحبل بتنورتها القصيرة المزقة الحواشي من فرط الطيش واللعب. الم تتبدل بيوم واحد؟ فتصبح بين عشية وضحاها آنسة هادئة بل سيدة وقور. لا تظني ذلك السكون هو تردد عصفور حديث العهد بالطيران يخشى التنقل من غصن الى آخر. كلا و لا تظني بان معالم الحزن البادية على محياها وليدة ألم الفراق لأشخاص اعتادت عشرتهم. ان سكونها سائق غريزي يدفعها الى حياتها الماضية. انا واثقة بان هذا السائق الغريزي سيكون مشعلاً ينير لها سبل الحياة ويريها أضمن الطرق وأنجعها لتسلك طريق السعادة والهناء. أنا قانعة بسعادة فريدة وتوفيقها ولكنني عجوز ويحتمل ان لا أرى ذلك، لكنك ما زلت شابة فان لم ترمكما الظروف بدروب معاكسة فانك سترين صدق حدسي وتخميني.

* * *

لم تستطع فريدة ضبط دمعتين تدحرجتا على خديها عند وداعها للمديرة. أتبكي عصفورة السياج؟ ولم يتسن لأي معلمة او صديقة رؤية دموعها خلال العشر سنوات الماضية.

ان دموع فريدة أعادت المديرة الى ذكريات يوم يرجع تاريخه الى ما قبل خمس سنوات. نادتها في ذلك اليوم لتعلمها بوفاة أبيها، فلم ترها تبكي بل حولت عينها نحو النافذة وتطلعت الى الأفق البعيد حيث أضاعت بتلك الحركة ما تجمع من الدمع في مآقيها واخفت اضطرابها وألمها بالتحديق الى الجبال الشاهقة المترائية خلال زجاج النافذة. وهكذا باصرار عنيد استطاعت كبت حزنها الثائر، وما أدارت رأسها بعد السكون حتى رأت ارتجاف المديرة واصفرارها وحزنها العميق لجلد الطفلة وصبرها.

اقتربت فريدة من المديرة بحزن وانكسار وابتسمت كأن المديرة بحاجة الى العزاء والسلوى مسكت يديها وقالت:

ـ ما العمل يا (ماسور) وكلنا الى الزوال؟ لا تجهدي نفسك بالألم هذه هي مشيئة الأقدار ولا راد لحكمها ومشيئتها.

عندما خرجت فريدة من غرفة الادارة لم يكن الحزن بادياً على محياها وكأن بالصدمة قد فتحت قلبها للطيش والضجيج فقضت يومها بشغب ولعب أقوى وأشد من المعتاد وفي المساء عقدت يديها على رأسها بتكاسل واسترخاء واستسلمت لسبات عميق خلال حصة المطالعة كتلميذة خاملة كسول لا تعير الدرس والمدرسة أي اهتمام.

أما في اليوم التالي كانت فريدة عصفورة السياج المرحة ترسل الضحكة تلو الضحكة وتوزع النكات ذات اليمين وذات اليسار لا تختلف عن فتاة الأمس بشيء.

ان هذا الحادث ذكر المديرة بكيفية دخول فريدة الى المدرسة وأيقظ في قلبها خيالات بعيدة المدى رجعت بأفكارها الى ما قبل عشر سنوات. كان الفصل صيفاً مثل اليوم عندما دخل الى هذه الغرفة ضابط تركي أحرقت حرارة الشمس وجهه فبدأ أسمر اللون قاسي القسمات.

دخل وبيده طفلة سمينة لم تتجاوز الثمان او التسع سنوات، وبعد تردد قصير أورثه اياه خجله الممزوج بنقاء السريرة قال:

ـ جئتكن لأدخل ابنتي فريدة في مدرستكن. فقدنا أمها منذ زمن طويل وكانت جدتها ترعاها، اما وقد انتقلت الجدة المسكينة الى رحمة ربها قبل فترة وجيزة وانا

منتقل بحكم الوظيفة في الضواحي والأرياف فليس بالإمكان الاحتفاظ بها عندي. وان يكن لديها بعض الاقارب المقربين في الاستانة الا أن هناك بعض الاسباب التي لا أريد من أجلها ترك ابنتي عندهم. ولأقل مقدماً ان ابنتي شيطانة طائشة فان قبلتن احتمالها أبقيتها عندكن.

ان صفاء سريرة الضابط وخجله كان يناقض تماماً ما يبدو على أساريره من الخشونة والقسوة وهذا ما وقع موضع القبول في نفس المديرة فوعدت الضابط المسكين الاعتناء بابنته، وان السنين العشر التي انقضت شهدت على برها بوعدها لأنها أحبت فريدة كابنتها واعتنت بها اعتناءً كبيراً. لم يكن الاعتناء مقتصراً على المديرة وحدها بل كل المعلمات والطالبات حتى والخدم كانوا يحبون فريدة، ولو لم تتغلب عاطفة الحب على أي شعور آخر لما استطاعوا احتمال أعمالها الصبيانية المستمرة، كانت مشهورة بطيشها وهي كالزئبق تماماً يستحيل ضبطها فلا النصيحة ولا التهديد حتى ولا العقاب كان يعيد السكون الى حركاتها.



عندما رات المديرة فريدة ملتفة بملاءتها المنسدلة على جسمها المديد وقد أكسبته وقاراً مقروناً بالحزن والأسى، رجعت بفكرها الى الوراء فتراءت لعينها اعمال عصفورة السياج المليئة عبثاً ومجونا فأخذت تستعرض تلك القصص الواحدة تلو الاخرى.

ذات مرة بينما كانت المديرة مارة بجانب غرفة الرسم سمعت من الصف جلبة كان قوامها الصياح والضحك حتى ان صوت المعلمة المبحوح من كثرة التهديد الفاشل يكاد لا يصل الى الآذان. ضوضاء التلميذات كان يطغى على صوت المعلمة المسكينة. اقتربت المديرة من النافذة لتستطلع السبب فرأت فريدة واقفة على المقعد في ركن الغرفة وقد وضعت خصلة من شعرها المقصوص على ذقنها تضحك رفيقاتها بحركات مثيرة سببها تلك اللحية المستعارة. وما ان وقعت عينا فريدة على المديرة حتى انحنت بقوة على المقعد كأنها تركع في الصلاة ثم رفعت رأسها بشكل مضحك عجيب واضعة سبابة

يدها على فمها ترجو المديرة السكوت. ثم ارسلت قبلات متواصلة طيرتها من اناملها الصغيرة في الهواء بحركات خفيفة جذابة.

اضطرت المديرة للابتعاد خشية ان لا تتمالك نفسها من الضحك إذا دخلت الصف بعد ما رأت تلك الاوضاع المثيرة المضحكة من عصفورة السياج التي لم تتورع عن طلب الشفاعة والرجاء بالقبلات حتى من المديرة.

ومرة أخرى شكت المعلمات فريدة بداعي انها تضع الملح في أطباق رفيقاتها عند الاكل. ذهبت المديرة بنفسها الى غرفة الطعام مغتاظة مهددة. وما ان دخلت الغرفة حتى رأت عصفورة السياج تحت المناضد منهمكة بجمع فتات الخبز ووضعها بسلة علقتها بذراعها. نادتها المديرة بصوت جاف مشبع بالوعيد:

ـ فريدة! تعالي الى هنا..

خرجت فريدة من تحت الطاولة وجلة خائفة تسعى جهدها لإخفاء السلة بين طيات مريولها الفضفاض. وصلت متماهلة تجر رجليها جرا. فسألتها المديرة:

ـ ألا تستحين بأعمالك يا فريدة؟ ..

رفعت الطفلة عينيها ببراءة واستغراب وتأملت المديرة لحظة بدهشة ثم قلبت شفتيها وقالت:

ـ هل تفكرين يا (ماسور) بان جميع الفتات وإعدادها لإطعام الكلاب عمل رديء يستحق العقاب؟

ـ أي كلاب، وأي طعام؟

ـ الكلاب الموجودة في الخربة المجاورة للمدرسة يا (ماسور).

لو ترينها تركض إلي فرحة لأحببتها مثلي. استقبلتني ليلة الأمس من مسافة بعيدة ولم تستطع الصبر حتى الخربة. لها الحق طبعاً فلو كنت جائعة مثلها لما صبرت.. ولكن لا أدري لما ركبت رأسي وصحت بها. "عبثا تتعبين نفسك. لن أطعمك قبل الوصول الى الخربة" رمتني الكلاب على الارض من شدة تعلقها برجلي بغية الوصول الى الطعام، ولو لا تدخل بائع كعك صادف مروره من هناك لما استطعت الإفلات منها.

سمعت المديرة قصة فريدة بسكون ممزوج بالدهشة ثم سألتها:

ـ حسنا، هلا أخبرتني عن الطريقة التي تخرجين بها من المدرسة؟ أيسمح لك البواب بذلك؟

أجابت فريدة:

ـ في المرة الاولى خدعت البواب بادعاء طلب الأخت (تره ز) له فأبعدته عن الباب ولكن في المرة التالية لم أجرب ذلك ليقيني بان الحيلة لن تفيدني فبدأت أقفز عن حائط غرفة الغسيل المنخفض الى الطريق: ولكن أرجوك يا (ماسور) لا تخبري أحداً بذلك كيلا تشدد الناظرات المراقبة عليَ فتبقى الكلاب المسكينة جائعة بدون طعام. تظهر الكلاب التمرد وتعصي أوامري لكنني أحبهما رغم كل عصيان. وأنا أيضاً اخطىء وأقوم بأعمال صبيانية مزعجة لكنني اشعر دوماً بحبك لي وعطفك عليَ. أليس كذلك يا ماسور؟

إن صفاء فريدة وبراءتها خلال ذلك الاعتراف اضحك المديرة بدل ان يغيظها. خاصة عندما أعادت الكرة- كما فعلت يوم اصطناع اللحية- فجمعت يديها الى بعضها وقالت:

ـ أرجوك يا (ماسور)! لا تقولي لأحد لأنني لن أستطيع الهرب إذا علموا بذلك.

أزالت شبح الغضب عن ناظري المديرة بتوسلاتها المعسولة الممزوجة بالفكاهة والنكتة فأنستها العقاب واخذت السلة منها قائلة:

ـ سأرسل طعام الكلاب مع البواب يا فريدة. وإذا عاودت الهرب سأضطر الى حبسك في القبو مع الفحم والحطب.

بعد ما استعرضت المديرة أعمال فريدة خلال السنين العشر اقتربت منها وقبلتها قائلة:

ـ فريدة! ابنتي.. وبختك كثيراً في سنين الدراسة لفرط مرحك وأعمالك الصبيانية لكنني الآن أتمنى من صميم قلبي ان تبقي كذلك. حافظي يا بنيتي على مرحك، فالمرح يجلو النفوس ويطرح ما علق فيها من اكدار ومتاعب. هناك مصائب جسيمة تعتور طريقنا في الحياة ولا يمكن الصمود حيالها إلا بالمرح وسعة الصدر. هيا يا

فريدة كوني نشيطة وسعيدة أما نحن فإننا سنفتقدك طويلاً إذ بغيابك سيذهب طيب الربيع، وتطير شعلة براقة من المدرسة. مسكينة عصفورة السياج!..

*   *   *

2

كان والد فريدة نظام الدين بك ضابطاً في الخيالة برتبة مقدم. تزوج بفتاة عريقة النسب من الاستانة. وفي نفس العام نقلت وظيفته الى ديار بكر ولم يستطع العودة ثانياً الى الاستانة. قضى ست سنوات تنقل خلالها بين مناطق كردستان والعراق وجميع البلدان العربية تقريباً. أما زوجته كزيدة كانت سيدة نحيفة مريضة لا تستطيع احتمال تلك التنقلات والتقلبات الجوية من مناخ جبلي قارس الى مناخ بادية محرقة، لكنها كانت تحب زوجها بشدة وتخلص له فلم تستطع إيجاد مبرر يخولها العيش بعيداً عنه. لم يجد إصرار عائلتها ولا توسلات ودموع أمها العجوز لردعها عن الالتحاق بزوجها أما تنقلات ذلك المقدم الدائمة كانت أشبه بسفرات سندباد متلاحقة متقاربة لم تجعل له النصيب بالإقامة شهرين او ثلاثة في منطقة واحدة. وكلما بدأت رحلة جديدة كلف نظام الدين بك زوجته باصرار قائلاً:

ـ هيا يا كزيدة! اذهبي الى الاستانة ولو لقضاء موسم واحد أستعيدك بعدها إني رغم سكونك أشعر بانك تتحرقين شوقاً لمرآى موطنك وأمك المسكينة. والحق ان قلبي لم يعد يحتمل قراءة كتب تلك البائسة. لا بأس من ذهابك لقضاء بضعة شهور هناك

في الواقع كانت الزوجة تذوب حسرة وشوقاً حتى انها لم تغمض عينها مرة الا وتراءت لها مناظر الحديقة التي تكتنف قصر أبيها وكانت تسمع خرير المياه المنسابة على الحصى بخفة وسكون ثم وجه أمها المتحسرة لمرآها فلا تستطيع فتح عينيها دون تساقط الدمع منها. ولكن كان حبها لزوجها اكثر من ان تعطي بالا لإحساسها ومشاعرها، بل كانت تجيب إصرار زوجها باصرار اقوى واشد ولا ترضى الذهاب بل تقول:

ـ لن اذهب وحدي. خرجنا من الاستانة معا وسنعود سوية فلا تطلب مني المستحيل.

ولدت فريدة خلال هذه الرحلات الطويلة بقرية عربية وكانت المحفة سريرها الاول. لم يكن باستطاعة كزيدة هانم إرضاعها او الانشغال بها لضعف بنيتها ومرضها. لكن الظروف كانت مواتية جمعتهم بامرأة بائسة فقيرة تدعى (فاطمة) وضعت طفلها في الوقت الذي ولدت فيه فريدة فلم تبق بلا مرضع تحنو عليها. أما فاطمة كانت رغم بؤسها وشقائها امرأة مرحة قوية تميل بغريزتها لرعاية الاطفال وطيبة القلب. لم تأل جهداً للاعتناء بفريدة لم تكتف برعايتها بلبنها بل دعمت ذلك بحبها الأكيد وحنانها القوي ولم تفارق العائلة خمس سنوات كانت كزيدة هانم تزيد خلالها اصفراراً وذبولاً. حتى انها كانت تبقى أياماً طويلة منكمشة في ركن غرفتها تقاسي آلاماً مبرحة تمنعها من إطباق عينيها لحظة لتستريح. أما الطفلة كانت تسرح وتمرح بالفلاة ترعاها فاطمة وتحنو عليها لا يهمها البرد القارس ولا الحر الشديد. لم يخطر ببال المربية ان تسعى لوقايتها من تلك التقلبات الجوية أبداً وكثيراً ما حملتها كصرة تربطها في ظهرها وتدور بها الساعات الطوال تحت أشعة الشمس المحرقة. وكم تسلقت وإياها أشجار البلح كالسنجاب. خدمت فاطمة الطفلة بتربيتها الأولية فجعلت منها طفلة قوية البنية مثلها.

نقلت وظيفة الوالد مرة الى قرية على شاطئ دجلة وكان فصل الصيف في تلك السنة قائظاً جداً حتى ان الحرارة كانت ثقيلة كالرصاص تطرح الاهلين كالأشلاء المبعثرة فلا يستطيعون حراكاً. يقضون معظم يومهم في السراديب وينتشرون في الليل على سطوح منازلهم بغية الانتعاش. أما فاطمة فقد اكتشفت في أقصى القرية محلا كانت مياه الدجلة تمر من بين صخرتين عاليتين اتخذتهما كحوض للسباحة تأتي إليه بفريدة كل صباح وتنزل وإياها الى الماء طلباً للانتعاش. وكثيراً ما كانتا تقضيان خمس او ست ساعات في الماء تلعبان وتغنيان وإذا شعرتا بالتعب والنعاس أخرجتا رأسيهما وتوسدتا الرمال وأبقتا جسميهما في الماء مستسلمتين الى نوم هادئ مريح تحتضن كل منهما الاخرى بحب وحنان.

سرت فريدة بحياة الماء كثيراً حتى انها بقيت تبكي وتتذمر عندما نقل أبوها من تلك القرية. وفي أحدى الايام أرادت احدى المعلمات اختبار طالباتها بتمرين فسألتهن عن ذكرى أول عمل قمن به في طفولتهن. ولما جاء دور فريدة استرسلت بتفكير عميق ثم قالت:

ـ لا أدري والله ما السر لتخيلي وظني بانني ولدت كالسمكة في بحيرة ما... كلما فكرت بطفولتي يتبادر الى ذهني منظر الماء والسباحة ولا أجد ذكرى غيرها لطفولتي...

عندما سمعت المعلمة والطالبات ذلك ظنن ان الجواب ما هو إلا نكتة فكهة من النكات التي تجود بها قريحة فريدة كل يوم من الصباح حتى المساء بلا فتور او كلل فاستغرقن بالضحك. لكن من أعمال هي حياتها في الماء مع مربيتها فاطمة. وما فكرت فريدة مرة بطفولتها حتى تراءت لها الصخور والبحيرة.

كانت فريدة قوية البنية ممتلئة الجسم لا يصدق أبداً انها ولدت من أم نحيله مريضة. فالحياة التي قضتها مع مربيتها في الهواء الطلق وتحت أشعة الشمس جعلت منها انسانة قوية جداً، إلا ان نظرها كان ضعيفاً إذا واجهت النور القوي أثر بعينيها الشهلاوتين فأصبح فتح جفنيهما عسيراً.

ان أول حزن شعرت به فريدة كان لفراق مربيتها إذ تزوجت فاطمة برجل من كربلاء وذهبت إليه. بقيت فريدة مدة طويلة بادية الضجر والملل كالطفل عندما يبعد عن ثدي أمه مرضت بعدها لان الطفلة اعتادت على فاطمة اكثر من والديها ولم ينسها حسرة فاطمة سوى فارس من بغداد كان جندياً عند أبيها اسمه (حسين) أصيب في احدى المعارك بوركه فأصبح أعرج واخرج من الجندية استخدمه المقدم في منزله وكان يشبه فاطمة تماماً بحبه للاطفال وروحه المرحة. ما ان رأته فريدة حتى احبته كثيراً. لا تستيقظ من نومها في الصباح حتى تركض بسرعة الى احضان حسين ولا تفارقه الا في المساء عندما تذهب الى سريرها لتنام تعبة منهكة من كثرة القفز واللعب.

استبدل حسين مكان لهوها من الفلاة الى الثكنة، فاعتادت ان تقضي يومها في الثكنة مع الجنود. وكان للجنود مهارة لا تنكر بإيجاد وسائل اللعب والتسلية: وكان البعض من تلك الالعاب خطراً ومثيراً. ولكن فريدة كانت تفضل تلك الالعاب عن غيرها.
كثيراً ما كان يلهيها برفعها بين ذراعيه وقذفها كالكرة في الفضاء ثم يتلقفها ثانية. وأحياناً كان لا يستطيع ضبط الطفلة فتقع على الارض وتتألم كثيراً ولكنها لا تبكي أبداً. إذ كانت هناك مقاولة بينهما إذا وقع احدهما خلال اللعب لا يبكي ولا يخبر الآخرين وهكذا اعتادت فريدة كتم الأسرار منذ طفولتها كالكبار حرصاً على بقاء محبة حسين وصداقته.
كان بعض الجنود يعزفون على الناي احياناً فيحمل حسين فريدة على رأسه كالصرة ويرقص وكلما قفز او ركع امسكت بأذنيه وشعره خشية السقوط وهي تقهقه مسرورة.
اعتاد ان يركبها على الخيل وكان يستفيد من فرصه غياب أبيها فيأخذ الحصان من الإسطبل ويركب عليه محتضناً فريدة يركض بها بالفلاة الساعات الطوال. لكن هذه التسلية لم تدم طويلاً لان الوالد ضبطها مرة فضرب حسين حتى أوجعه.
كثيراً ما كانا يتخاصمان فيدير كل منهما ظهره للآخر ولكن لا تنقضي دقائق حتى يتعانقان متضاحكين لا يستطيع احدهما الابتعاد عن الآخر.
قضت فريدة على هذا الشكل ست سنوات من عمرها ازداد مرض أمها خلاله فطلب الأب إجازة ليأخذ زوجته الى الاستانة تأخر وصول الموافقة رغم ملاحقة العائلة ورغم برقيات الرجاء والإلحاح التي أرسلها المقدم الى ذوي الشأن. ذهب المقدم الى بيروت لملاحقة أعماله فبدت الحيوية على وجه الزوجة حالما رأت البحر وكأني بها استمدت النشاط والقوة من تدفق البحر وأمواجه. لم تبق كالأول نائمة مسترخية لا تستطيع حراكا بل دبت الحياة في وجنتيها فتوردتا والنشاط في جسمها فتحسن قليلاً. ظهر بريق الأمل في كلماتها وبدأت تبتسم للحياة وتهتم نوعاً بما يدور حولها. شعر المقدم بسعادة كبيرة لنشاط زوجته وحيويتها أنسته ما هي به من مرض ولكن لم

تطل سعادة الزوج إذ بعد فترة قصيرة وجدت كزيدة ميتة وقد سقطت بالقرب من صندوق كانت تهتم بترتيبه. وجدت جثة هامدة وقد صبغ الدم فمها النحيل بقطرات تدفقت من حلقها وانساب على الارض.

في اليوم التالي وصلت الموافقة ولكن لا لسفره الى الاستانة بل الى طرابلس مع ترفية في رتبته. لم يتكدر الضابط لذلك لان زوجته أصرت على عدم العودة بدونه فلم يعود بعدها وقد فقد كل أمل وسعادة في الحياة. كيف يرجع وحيداً وبأي وجه يقابل أم كزيدة السيدة العجوز التي فقدت كل هناء بعد ابنتها العزيزة؟.. كان قلبه يطفح بالحسرة والألم وكان سفره الى طرابلس سبباً للفراق عن شخص آخر عزيز. إذ عليه إرسال فريدة الى جدتها وبارساله البنت يكون على الاقل قام بخدمة وعزاء نحو السيدة المفجوعة بابنتها. لا شك ان حفيدتها هي آخر ما تبقى لها في الحياة من أثر ابنتها وستكون خير عزاء وسلوى.

هناك أسباب اخرى تضطره لإرسال فريدة، وهو انها أتمت السادسة من عمرها ولم يعد بالإمكان إبقاؤها مع الخدم. لا يمكن تربية فتاة في الثكنات بين الجنود. إذاً لا مناص من إرسالها. فكر الأب بكل ذلك ثم قرر إرسال فريدة الى جدتها.

أرسل نظام الدين بك ابنته الى الاستانة صبيحة يوم سفره الى طرابلس وأرسل معها الجندي حسين الذي كانت تحبه حباً جماً.

فأنستها رفقته فراق أبيها.



3

جاءت ابنة موفورة الصحة تفيض نشاطاً وحيوية الى السيدة العجوز من الطريق الذي أرسلت فيه ابنتها قبل سبع سنوات.

اجتمعت الخالات في قصر الجدة لاستقبال فريدة وما ان رأت بكاءهن حتى جفلت وتعلقت برقبة حسين كالقطة البرية الصغيرة وقضت الساعات وهي تخبئ وجهها بصدره. وكلما دنت إحداهن منها علا صراخها وازدادت انكماشاً والتصاقاً. عبثاً حاولن ابعادها عن حسين وتقربها منهن.

فكرت الجدة بوسيلة تقرب الفتاة إليها فأرسلت بطلب الببغاء الى غرفتها وما ان رأت الطير الجميل حتى بان السرور على وجهها وتمتمت بكلمات لم يفهمها سوى حسين فترجمها لهن قائلاً:

ـ تسأل فريدة إذا كنتم تعطونها الببغاء؟

ـ أجابت الجدة بصوت يقطر حباً وحناناً..

ـ إذا جئت قليلاً لأحضاني أعطيتك الطير يا فريدة.

ابتسمت فريدة وقالت أشياء فسرها حسين ضاحكاً:

لا تعرف فريدة اللغة التركية وهي تسأل ألا تضربها السيدة لطلبها الببغاء؟

أما الخالات اللواتي كن يبكين قبل لحظة ضحكن من حركات فريدة وعدم معرفتها للغتها. تعذبت الجدة أياماً ريثما الفت الحفيدة عشرتها. كانت تأخذ فريدة الى حضنها فتقص لها القصص الحلوة الجذابة وهي تتأمل وجهها الصغير. وكلما استكشفت خطاً من الخطوط التي تشبه كزيدة يحز الألم قلبها لكنها تعتصره بصدرها كيلا تخيف الدموع حفيدتها الصغيرة.

صعب على فريدة اعتياد حياة القصر إذ لم تكن تألف الضجيج ولذا لم تألف أولاد الاقرباء. وكلما اقتربوا منها هربت واختبأت بالزوايا والأركان.

بعد وصول فريدة ببضع ليال أتت بحركة أخافت جدتها خوفاً شديداً. استيقظت الجدة كسابق عادتها وقد وضعت سرير الطفلة في غرفتها حيث تقوم مرات كل ليلة تغطيها وتشد ما ابعدت من أغطية على جسمها الصغير، وهي ترعى النجوم وتشكو ألمها الدفين الى الليل البهيم. دنت من السرير فلم تجد الطفلة فيه فكادت تفقد عقلها. صاحت على الخدم واستيقظ كل من بالقصر على الضجيج وتراكضوا يحملون الشموع والمصابيح مفتشين غرف الدار وأنحائه. لم يتركوا مخزناً للمياه ولا بئراً حتى أدلوا المصابيح إليه علهم يعثرون على أثر لفريدة فذهبت أتعابهم أدراج الرياح. خطر حسين على بال السيدة فجأة إذ لا بد له من معرفة طباع الطفلة. ركضت إليه وكانت غرفته بعيدة في ركن الحديقة لم يصل ضجيج أصحاب القصر إليه فبقى غارقاً في نومه ولم يشعر بما حدث. وصلت الجدة الى باب غرفة حسين وبيدها شمعة تستنير بها في الظلام وما ان دنت من الباب حتى أطفأ النسيم الشمعة. دقت السيدة الباب بهدوء فلم تسمع غير شخير حسين جواباً لطرقاتها. فتحت الباب على مهل ودخلت بخفة فبدت لها في الظلام كومة بيضاء بين أحضان الجندي. أشعلت عود ثقاب رأت بنورها الضئيل وجه فريدة الملائكي وهي مستغربة بنوم عميق تعانق الجندي بيديها الصغيرتين بقوة خوفاً من الإفلات منها.

كان حسين مضطراً للعودة الى بلده بعد بضعة أيام. شعرت الجدة ان فراقه سيكون صعباً. جربت ان تستحصل على اذن يخوله البقاء بضعة شهور تكون فريدة قد تعودت خلالها على أقربائها لأنها تخاف كثيراً من عاقبة الألم الذي سيفاجئ قلب الطفلة وما سيسببه ذلك الفراق من الوحشة في نفسها لكنها لم تفلح. كذلك حسين شعر بوحشة الفراق وألمه وانقطع عن اللعب مع فريدة قبل يومين من سفره وأخذ يقبع في زاوية وقد أجلس فريدة على ركبتيه والألم يحز قلبه فيجري الدمع مدرارا من مآقيه. يدفن وجهه بين طيات ثوبها الزهر يشهق بالبكاء كالاطفال.

دنت ساعة الرحيل وما ان شعرت فريدة بذلك حتى أخذت بالصراخ والعويل ترمي نفسها على الارض باكية منتحبة تتضرع الى جدتها بعبارات لا تفهمها ولكنها تدرك من وضع يديها الى صدرها انها كانت تتوسل إليها أن تبقى لها حسيناً.

انقطعت فريدة مدة عن الاكل بعد سفر حسين وأثر الفراق على جسمها الغض فقضت أياماً طريحة الفراش عبثاً حاول الاهل جلب السرور الى قلبها بجمع أطفال العائلة والجيران. كانت تضيق ذرعاً بالاطفال. تطردهم بالأحجار والعصي. لم تحب شيئاً مما حولها سوى الببغاء لأنه تعلم بسرعة بعض الكلمات التي لقنته إياها باللغة العربية فأصبح رفيقها ومدار انسها.

بعد اسبوعين من سفر حسين وصلتها هديته النفيسة وكانت صندوق تمر. لو أعطيت الدنيا بأسرها لما سرت اكثر من سرورها بتلك الهدية. كانت أكولة شرهة لم تبق ثمرة في الصندوق الى اليوم التالي. لكنها قضت الأسابيع تتسلى باللعب بنواة التمر إذ جمعتها في خيط مع بعض الخرز الازرق صنعت منه عقداً حلت به رقبتها وزرعت قسماً في الحديقة وتعهدته أشهراً بالسقي وهي تنتظر نموه وتأمل بقلب الحديقة الى حرج نخيل.

ان فرح فريدة أنسى الجدة مصائب الدنيا ولم يكن أحد بالقصر يستطيع ضبطها. لا ينقطع لعبها وصراخها حتى منتصف الليل. إذا سكن القصر من ضجيجها ساد الخوف والارتباك إذ لا بد من وقوع حادث لفريدة أسكتها عن الضحك والغناء. ان لم تحرج نفسها أو تقع بشكل مؤذ جربت الهرب من القصر أو قطعت قوائم الكراسي بالمنشار أو صبغت الستائر بالدهان المختلف الالوان. والحاصل سكوتها دليل قاطع على انهماكها بأعمال مؤذية ضارة. تارة تتسلق شجر السرو لتصنع للطيور أعشاشا من الخشب والقماش وطوراً تعلو سطح القصر لتقذف من المدخنة الاحجار على الطاهي فتسبب له الفزع.

في احدى الايام رأت أمام القصر عربة خالية من السائق تنتظر الضيوف. بلمح البرق قفزت إليها وألهبت ظهر الجياد بسوطها الصغير فبدأت العربة تركض بسرعة

جنونية. نجت من الموت على الاحجار بأعجوبة. ومرة أخرى سحبت (طشت) الغسيل من الحديقة الى البحر ووضعته في تيار المياه لتجعل منه زورقاً تقوم عليه بنزهة بحرية. وكذلك نجت من الغرق بطريق الصدفة. وهكذا كانت لا ترى يوما إلا ومصابة بجرح. حتى ان احد الاقرباء كان يقول لها كلما رآها مشيراً الى اصابعها الملفوفة. (هذه ليست أصابع بل هي نوافذ أضرحة أولياء) لان يديها على الدوام مربوطة بسبب الجروح والكدمات.

لم تتآلف مع احد من اولاد خالتها سوى (كامران) لأنه كان طفلاً مؤنسا حليما يكبرها بخمس أو ست سنوات. وكان أشقر الشعر أجعده يشبه ببشرته البيضاء وعينيه الخضراوتين صبية مدللة. كان حاذقاً بالتكيف حسب ميول فريدة وطباعها. لم تستثقله فريدة كبقية الاطفال بل أحبته لكنها غضبت منه يوماً فقذفته بحجر أصاب رجله وأدمى أصابعها. وما ان سمع اهل القصر صراخ كامران حتى تراكضوا مستطلعين لكنها نجت من جزائهم بتسلقها أقرب سنديانة بخفة القرود. لم ينزلها من السنديانة التهديد والوعيد حتى ولا العفو عن الذنب الذي أتته. أرادوا إنزالها بواسطة البستاني لكنه ما ان تسلق الشجرة حتى سارعت بالهرب والصعود. خشي البستاني عليها إذا أصر في الصعود لأنها لا تحسب للهلاك والخطر أي حساب فاضطر للتراجع والنزول من حيث صعد. لم يستطع احد إنزالها عن الشجرة حتى المساء وكان الظلام وحده المقنع لها للتنازل عن شجرتها.

بقيت فريدة عند جدتها حتى بلغت التسع سنوات من عمرها. وكانت خير سلوى للعجوز في سنواتها الاخيرة.

صادف وجود نظام الدين بك في الأستانة عند وفاة الجدة إذ نقلت وظيفته من طرابلس الى (روم ايلي) فاستفاد من فرصة انتقاله وعرج على ابنته ليراها

أحرج وفاة الجدة موقف الوالد المسكين ولم يكن بوسعه أخذ فريدة معه والسير بها في البر والبحر دون والدة تحنو عليها. أرادت خالتها الكبرى إبقاءها عندها فلم يوافق الوالد على ذلك. صعب عليه أن يجعلها عبئاً على كاهل خالتها. وكانت هناك أسباب

أخرى تمنعه من تركها بينهم. إحداها هو ان فريدة ستكون دخيلة على خالتها إذ لم يبق لها شيء من مخلفات جدتها. فالسيدة العجوز أهملت ادارة شؤونها بعد وفاة زوجها الباشا وأوكلت أمورها الى بعض الخدم حيث أساءوا ائتمانها فاستدانت ولم يبق مناص من بيع القصر وتسديد ما عليها.

فكر نظام الدين بك طويلاً واستشار اصحابه فقرر أخيراً إدخالها في مدرسة (نوتردام دوسيون) حيث تكون داخلية. ولا بد لاحتمال (شيطنات) فريدة من راهبات يستطعن إدارتها بصبر ورزانة.

لم يجدِ تعقل الراهبات وصبرهن نفعاً لردع فريدة عن أعمالها الصبيانية. لم تترك فريدة يوما شيطنتها حتى ان معلمة رأتها تقفز مرة من شجرة الى اخرى لم تستطع السكوت بل قالت:

ــ فريدة ليست طفلة عادية بل هي عصفورة سياج.

وهكذا شاع هذا الاسم في انحاء المدرسة وأصبح اسمها في الدار والمدرسة. أعجب الاسم فريدة وجعلت منه حجة للتملص من بعض الذنوب. إذا جابهها احد بغلطة ارتكبتها أسرعت للتخلص بهز كتفيها استخفافا وهي تقول:

ــ ما العمل؟ ماذا ينتظر من عصفورة سياج؟

كانت فريدة تقضي عطل المدرسة عند خالتها في مقرها البعيد. وكان للخالة عدا ابنها كامران ابنة تصغره بسنة واحدة تدعى (نجمية) تشبه أخاها كثيراً بهدوئها وحلمها. يشمل القصر السكون ولا تبدأ العواصف فيه إلا عندما تحضر فريدة ولا تنتهي حتى تعود الى المدرسة.

كلما دخلت فريدة الى القصر من الحديقة وقد أحرقت الشمس جلدها فأصبح يقشر كجلد السمك وثيابها مهلهلة الاطراف ممزقة ومتسخة نصحتها خالتها وأشارت الى كامران الذي لا ينفك عن الجلوس على كرسي يهزه وهو يقرأ بكتابه قائلة:

ــ تأملي أخاك كامران كيف يقضي أوقاته هادئا يقرأ بسكون رغم انه صبي.

ما أن تسمع فريدة ذلك من خالتها حتى تقترب من كامران وهي تضحك ثم تقول:

ـ ما قولك لو ناديناك كامران هانم؟ كم يليق بك أن أناديك يا أختي بدل أخي...

قارب كامران من العشرين وهو يشبه الفتيات بهدوئه ورقته فضلا عن اهتمامه بثيابه وأناقته وبشرته البيضاء وعينيه الخضراوتين. كانت فريدة تتخذ من كل ذلك وسيلة للتمني لو كان بنتاً وتقول بحسرة: آه! لو كنت رجلاً..

احتدم النقاش يوما بين كامران وبعض قريباته عن بعض أزياء السيدات فأخذت فريدة بالضحك على مهلها. انتبه كامران لذلك وسألها:

ـ ماذا يضحكك يا فريدة؟

استمرت على ضحكها وأجابت:

ـ لا شيء تذكرت حادثا..

ـ ماذا تذكرت؟

ـ لا اقول.

ـ هيا، هيا! دعي الدلال يا فريدة وحدثيني بماذا تفكرين إذ لا بد من قولك وأنت لا تملكين الصبر على نواة لتبتل في فمك.

ـ سيكون ذلك غريباً ولكن لا بأس.. عندما سمعتك تبحث عن الأقمشة تأكدت ان الطبيعة اخطأت في خلقك.. كان عليك أن تأتي للدنيا بنتاً ولكن اصغر من سنك الحالية. مثلاً بعمري أنا في الثالثة أو الرابعة عشر واكون أنا رجلاً بعمرك الآن.

استدارت الرؤوس نحوها متمتمة:

ـ أي! وبعدها؟..

أجابت فريدة بعد قليل من التردد والخجل:

- ماذا يكون بعد؟ آخذك لنفسي.. يعني أتزوجك... ضحك الجميع وقالت خالتها الصغيرة:

- لا بأس يا فريدة.. ان بالإمكان ان تتزوجا وأنتما بحالتكما الراهنة فليكن كامران الزوج وأنت الزوجة.

انكمشت فريدة للحال وقطبت حاجبيها ثم قالت:

ـ نعم هذا ممكن أيضاً ولكن تأكدوا بأنني لم افكر بذلك. افا تبا لي كم انا خجلى من تصرفاتي. لم أعد صغيرة عما قريب سأدخل عامي الرابع عشر. لا أدري ما السبب لما يدور على لساني وما أقوم به من أعمال صبيانية. لم أعد طفلة والحقيقة ان ما أثرثر به لا يليق بصبية مثلي حقاً انه لمزاح غير مستحب..

بدأت فريدة عامها الرابع فبدأ ربيع عمرها يتضوع بأريج حيويتها العطرة. قامتها قصيرة الا انها معتدلة. لها عينان شهلاوتان وشعر أسود فاحم يزيد من حلاوتها لونها الاسمر المشرب بحمرة تفيض نشاطاً وحيوية. كثيراً ما كان الاهل يمزحون معها للونها قائلين:

ـ قماشك جيد متين لا يبوخ ولا يبلى...

لم يرق لعين فريدة شكلها أبداً. وكانت تخاطب نفسها دوماً قائلة:

ـ ماذا أعمل بإنسانة كالكرة فما دامت الطبيعة أصابتني بمصيبة كوني فتاة لم لم تشفق عليَ فتخلقني طويلة القامة، نحيلة الخصر، ذات شعر ذهبي وعينين خضراوتين؟...

وكلما دنت من المرآة تألمت وصاحت:

ـ آه! ما أقبح شكلي! ما هذا اللون القاتم كأني به صنع رسام ثائر على فرشاته بعصبية ثائرة فاخرج دمية قاتمة مستنكرة... انظروا يا ناس الى حاجبي وفمي ما أقبحها!... كلما تأملت شكلي أظنني دمية رخيصة في احدى الواجهات الحقيرة..

ثم ترتد على المرآة يائسة حنقة تمد لسانها مستهزئة بشكلها لناظريها.



4

كانت فريدة تفضل من العطل المدرسية عطلة عيد الفصح لأن حديقة القصر محاطة بشجر الكرز فتجد ثمرها ناضجاً خلال تلك العطلة وهي تحب الكرز حباً جما وتتغذى خلال الاسبوعين من العطلة كالعصافير من الكرز وحده تقريباً، ولا تعود الى المدرسة حتى تقطف أعلى ثمرة مختفية في أعلى غصن.

في عصارى أحد الايام بينما كانت تأكل الكرز في أعلى شجرة تطل على الطريق وتقذف بذورها. وقعت نواة على طربوش أحد المارة فكان سيداً كهلا. أرادت فريدة اخفاء نفسها بين أوراق الشجرة لكنها لم تتمالك نفسك عن الضحك من حيرة ذلك السيد، وما ان رأى تلك الصبية تركب الغصن كأنه حصان وعرف بأنها هي التي قذفته بالنواة حتى احتدم غيظاً وقال:

ـ ان عملك مشين يا آنستي. والحقيقة ما توقعت هذا العمل من صبية بعمرك.

وضعت فريدة يديها على صدرها ببراءة طفلة لم تتجاوز الخمس سنوات ثم قالت:

ـ سامحني يا سيدي حدث هذا قضاء أو بالأحرى نتيجة قلة الانتباه..

سذاجتها خففت من وطأة غضب الرجل فابتسم قائلا:

ـ ألا تعلمين يا آنستي بأن قلة الانتباه تضر كثيراً بصبية مثلك؟

سألت فريد بنفس السذاجة: كيف ذلك يا سيدي؟

تطلع الرجل إليها باهتمام وابتسم قائلاً:

ـ مثلاً أنا أتردد بعد هذا الحادث من طلبك لابني..

قلبت عصفورة السياج شفتيها وقالت:

ـ ان خوفي من هذه الناحية ليس بشديد يا سيدي. إذ مهما يكن لا أظن أحداً يخطبني لابنه.

ـ كيف تعلمين ذلك؟

ـ لان لي عيوبا! اكبر وأعظم من تسلقي الاشجار وقذفي البذور أولاً لست غنية وعلى ما سمعت الرجال لا يرغبون الزواج من فقيرة مهما كانت مزاياها حتى انهم لا يتنازلون بلفتة أو بسمة متى علموا بفقرها... وكذلك ينقصني الجمال وإن سئلت فانني أرى ذلك أشد من الفقر...

أعجب الرجل بكلامها وقال بدهشة:

ـ آه! هل انت قبيحة يا آنستي الصغيرة؟..

أجابت فريدة غاضبة:

ـ أرجوك يا سيدي أن لا تسترسل بتهكمك اللاذع. انظنني لا اعرف شكلي؟ أيكون شكل المخلوق الذي يدعى بنتا هكذا كالكرة؟. لا! قامة طويلة، خصر نحيل، شعر أشقر وعينان زرقاوتان. نعم هذا ما يتطلب لفتاة...

وبينما كانت فريدة تبحث باضطراب عن قبح منظرها بائسة متألمة كان السيد يطلق الضحكات العالية في الهواء. وبرقة رجل وصل الى عمر أب أو جد سألها بحنان:

ـ ما اسمك يا ابنتي العزيزة.

ـ عصفورة السياج يا سيدي.

ـ ما هذا الاسم؟

ـ أف! عفواً هكذا ينادونني في المدرسة لكن اسمي الحقيقي فريدة. وكذا ألا تجد اسمي مستديراً بارداً مثلي؟.. انه خالي من كل ظرف وحلاوة يا سيدي..

اسمعي يا آنسة فريدة الحقيقة ان اسمك جميل مثلك. أرى طباعك وانني آمل ان يكون حظك سعيداً ايضاً. ليتني أعثر على زوجة مثلك لابني..

ـ إذا تسمحون لي أن ألقي الكرز على ابنكم الفاضل؟..

ـ طبعاً، طبعاً.. انا راضي حتى وان ألقيت الكرز فأدميت بها عين الخبيث...

ـ اسمحوا لي أن ابدأ بإطعامكم قبله.. سأبقيكم دقيقتين عرضة لحرارة الشمس ولكن لا بأس أرجو المعذرة.

تسلقت الاغصان بخفة سنجاب صغيرة فصاح السيد الكهل خائفاً:

ـ أرى الاغصان تتمايل وأخشى سقوطك.. كفى.. كفى...

اما فريدة لم تعط بالا لصياحه بل كانت تشد الاغصان وتجمع الكرز وهي تحدثه قائلة:

ـ لا بأس عليّ يا سيدي لطالما سقطت حتى الآن وهناك ندب في صدغي يتمم جمالي الذي حدثتكم عنه. ليس بوسعكم رؤيته ولكن هي الحقيقة.. ان بهذا القدر الكفاية فلألف الكرز بمنديلي وأرميه لكم.

ثم أخرجت من جيب صدارتها منديلها ولفت به الكرز قائلة:

ـ اطمئن يا سيدي فالمنديل نظيف للغاية.

ثم ألقت الصرة الى السيد فقال:

ـ اشكرك يا آنسة ان إلقاء المنديل من عندك هين سهل ولكن أنى لي إعادته إليك وانت فوق شجرتك؟

أجابت:

ـ ليكن المنديل هديتي لك لأنك اعجبت بي.

ـ كيف يكون ذلك؟

ـ طبيعي للغاية. هناك شيء آخر سأعود الى المدرسة بعد أيام ثلاث فاستفيد من هذه الهدية. هناك عادة شائعة في مدرستنا عند العودة من العطل تتفرق البنات ثلاثا أو أربعا فيختبئن بركن بعيد من الحديقة أو في المقاعد الخلفية من الصف ويأخذن بالتحدث عن غرامياتهن خلال العطلة. هناك أشياء كثيرة فمن قصاصات الشعر الى اجزاء رسائل.. فمناديل.. فصور وأزهار يابسة.. ماذا أقول لا ادري.. هناك أشياء جمة لا تنفع لشيء.. لله! ما اكثر العشاق أو المغرمين حتى ان من كثرتهم لا يستطيع المرء حصر أسمائهم... لكل واحدة منهن ثلاث أو اربع متيمين من الأهل والجيران.. ناهيك عن الدموع والزفرات. هذه أوضاعهن جميعا وان رأيتهن لا يخامرك أي شك في سلوكهن لسكونهن وهدوئهن.. تأكد يا سيدي بأنني لا أبالغ إذا قلت لك بان هذه حالهن حتى ان هناك تلميذة اسمها (كله مانتين) إذا رأيتها جاثية أمام تمثال العذراء

لظننتها قديسة نقية سابحة في العبادة منصرفة بكليتها الى الصلاة... انها غريبة الاطوار تحب دوما رجالاً بعمر أبيها.. لم يحب الانسان؟ أليس ليدخل السرور والسعادة الى قلبه ونفسه؟.. هي بالعكس تحب لتبكي وتشقى.. على كل أنا أسترق السمع عن بعد فأعرف كل شيء وإلا فصديقاتي لا يستودعنني سراً يا سيدي.. لان لي قصوراً آخر فالحصاة تكاد لا تبتل تحت لساني... إذا أسررت لي بشيء لا يبقى في سري بل أقوله حالاً. ومهما جربت الكتمان لا استطيع.. أما قلت لك يا سيدي ان الباري جل وعلا لم يترك (حسناً) لم يتحفني به؟... الخلاصة ان أهدأ صديقة عندي لها عشيق أو اثنان على الاقل وأنا الوحيدة التي ليس لي أحد. والكلام بيننا بانني أصبحت أشعر بالخجل من ذلك فلذا تعرفي بك سيحسن إليَ...

ـ ما نوع الاحسان يا آنسة؟

ـ إسمع! عندما أعود الى المدرسة سأسمعهن أنا أيضاً زفراتي. سأغمض عيني وألقي برأسي على كتفي وأتجنب اللهو والمرح. أنزوي في الاركان الخالية. بديهي أن صديقاتي سيجتمعن حولي متصايحات:

ـ عصفورة السياج، ماذا دهاك؟ لا بد انك عاشقة..

ـ سأنكر ببرود فلا يصدقن ذلك مني بل يصررن قائلات:

ـ لا بد من حدوث طارئ جديد على حياتك يا عصفورة السياج..

عندئذ سأقول بأنني رأيت شاباً كان يمر في الطريق لمحته من خلف سياج الحديقة- طبعا لا استطيع القول بأنني رأيت كهلاً- على كل لست كاذبة ففي شبابك كان شعرك أشقر.. أف! دوما نرى المتناقضات فالله عز وجل يخلق الشاب أشقر والبنت سمراء... ماذا أقول؟.. ها! نعم سأقول بأنني أعطيت الشاب الجميل ذا الطول الفارع منديلاً بداخله..

سرحت فريدة بخيالها ثم قالت متسائلة:

ـ لا يستحسن أن أقول أعطيته كرزاً أليس كذلك؟ لأنه على كل حال لا يعطي المرء لمن يحب فاكهة.. فلذا عليّ ان أقول أعطيته ورداً.. كلا هذا أيضاً لا يجوز إذ لم تجر العادة على اعطاء الورد بالمناديل.. لا بأس عليّ شيئاً... عندها ستسأل رفيقاتي:

ـ ماذا قال لك الشاب؟

فأجيب متفاخرة بأنه أعجب بي كثيراً. وهكذا تكون غلطتي سببا لتخليصي من طور الفتاة البشعة الحمقاء التي لا تعجب أحداً... والآن مع السلامة لا أريد زيادة ازعاجك بالوقوف تحت أشعة الشمس المحرقة.

تركها السيد الكهل ضاحكا وقال يمازحها:

ـ اكون مسروراً جداً يا آنسة إذا ألقيت لابني كرزاً. أرجو أن لا تبخلي عليه بذلك.

أجابت فريدة بطور جدي:

ـ لا أستطيع وعدك بذلك لهذا الموسم يا سيدي.. لنر... سأسعى للبقاء بعد انتهاء العطلة ولكن... ان لم أنجح سيبقى إعطاؤه الكرز للموسم القادم.

وكان من جملة ما تتسلى به فريدة هو كلما حصلت على قطعة من الخشب أخرجت للحال مطواتها من جيب صدارتها وبدأت بنقش الخشبة برسوم بديعة. وهكذا أخذت هذه السلوى من نفسها مجرى الميل والهواية على مر الأيام. وأخذت النقوش طريقها الى التحسن والإبداع فأصبحت زخرفة جميلة تسر لها العيون. لم تنته من محادثة السيد الكهل حتى ركبت غصناً وفتحت مطواتها وبدأت بنقش بعض الزخارف على غصن الشجرة واستهواها العمل وغرقت فيه. على حين غرة طرق مسامعها وقع أقدام آتية من صوب القصر. فرقت الاغصان بيدها الصغيرة وأخذت ترقب الطريق باهتمام. رأت ابن خالتها كامران سائراً والسيدة نريمان بجانبه يتجاذبان أطراف الحديث. أما نريمان فهي زوجة أحد الاقارب البعيدين توفي زوجها قبل سنة فخلفها أرملة أكثرت من التردد على قصر كامران بك بعد وفاة زوجها. وكانت تبلغ الخامسة والعشرين من عمرها نحيلة القوام ظريفة. أحبها واحترمها جميع أهل القصر ما عدا فريدة.. لم تستطع عصفورة السياج هضم حركاتها وكلما رأتها كانت تقول غاضبة:

ـ أف! لله ما أقبح دلعها! ان حركاتها لا تطاق وهي لا تنفك لحظة عن الغنج والدلال.
منذ مدة طويلة بدأت تلاحظ اهتمام كامران ابن خالتها بتلك الأرملة ولذا ما ان رأتهما حتى انكمشت على نفسها متسترة بالاغصان وأخذت ترقب حركاتهما باهتمام. على كل لم يكونا بطور يستطيعان معه الانتباه لعصفورة السياج.. نريمان تسير بتؤدة وقد اكبت برأسها الى الأمام تلعب بالأعشاب بعصاة في يدها وعلى فمها ابتسامة حيرى.. أما كامران المتخلف عنها قيد خطوة يحدثها بأشياء وفمه يكاد يلامس رقبتها وكأني به يقرب أنفه من شعرها وجسمها ليملأ رئتيه برائحتها الذكية.. وكلما اقترب فم كامران من رقبة نريمان أتت بحركات كأن أنفاسه دغدغت جسمها فسحبت رأسها ضاحكة. بقيا على تلك الحال سائرين حتى وصلا الى مقعد خشبي تحت شجرة صنوبر كبيرة فألقت نريمان نفسها على المقعد وهي تلم أطراف ثوبها مشيرة الى كامران بالجلوس. لكنه لم يستطع الجلوس لفرط عصبيته فاستند بقبضتيه على ظهر المقعد واسترسل في حديثه بحرارة وهو يكاد يلمس بشفتيه رقبة نريمان..
لم تستطع فريدة سماع ما يدور بينهما من حديث. كل ما استطاعت سماعه كلمات: (نريمان) حبيبتي.. ملاكي.. سمعت ذلك من كامران الذي لم تسمعه في القصر مرة ناداها باسمها وحده بل كان يردفه بعبارات التبجيل والاحترام وإذا به اخترق القيود كلها وأصبحا خلين لا أثر للكلفة بينهما.
استغرقت نريمان برسم أشياء على الرمل بعصاتها وهي تبتسم لكلامه. انحنت فريدة قليلاً واستطاعت رؤية ما تخطه نريمان على الارض فكان كلمة (لا) بالفرنسية..
سكت كامران وأخذ يتطلع حوله ليتأكد من خلو الحديقة من الناس. وعندما تأكد من خلوها بنظرة أخيرة ألقاها هنا وهناك مد ذراعيه وأراد مسك نريمان من كتفيها لكن الشجاعة خانته في اللحظة الاخيرة فوقف مشدوها لا يدري ماذا يعمل. مثله كمثل أولئك المبتدئين في السباحة يقفون على الشاطئ يقدمون رجلاً ويؤخرون أخرى لا يجدون وسيلة تحرر قلوبهم من الخوف ليندفعوا الى البحر. أما نريمان فكانت تراقب كل حركة يأتي بها كامران وكأني بها كانت تنتظر بفارغ الصبر

قبلاته. فلذا ما ان رأته يبعد فمه عن رقبتها التي شعرت بحرارة أنفاسه عليها حتى رفعت راسها وسألته شيئاً لا داعي له. لكن نظراتها كانت تشع ببريق حار لم يترك لكامران المجال للتفكير فقبض على ذراعيها بشدة وأرادت نريمان التملص منه في بدئ الامر إلا انها لم تقاوم بل تراخت وألقت براسها على صدره فجأة فلم يتمالك نفسه عن تقبيلها من شعرها رافعاً ذقنها بيده مقرباً وجهه منها. لم يدم ذلك الوضع طويلاً اذ اجفلهما وابل من الكرز تساقط على حين غرة عليهما من فريدة التي أعدت للوضع عدته وجمعت حفنة من الكرز مترقبة تلك اللحظة التي أدركتها بالبديهة..

ما ان رأت نريمان عصفورة السياج حتى أخفت وجهها بيديها وندت من فمها صرخة خفيفة ركضت على أثرها نحو القصر.

ارتبك كامران أيضاً وفكر لحظة بالهرب والالتحاق بنريمان لكنه أيقن أن فريدة ستذيع الحادثة في أرجاء القصر بأقل من لمح البصر. وهناك الفضيحة والعار له ولنريمان فلذا لا بد من السعي لشراء سكوت فريدة بأي ثمن كان.

الخوف من الفضيحة أنسى كامران خجله وارتباكه فاقترب من الشجرة باذلا كل جهد متظاهراً بالهدوء والسكينة. نادى فريدة قائلاً:

ـ طفلتي العزيزة! انزلي إليّ.. لديّ ما أقوله لك.

استرسلت فريدة بقهقهة طويلة صاخبة ثم قالت:

ـ اتمم حديثك الذي شرعت به مع السيدة نريمان ثم ارجع إليّ.

ـ فريدة ان ما رأيته لم يكن سوى مزاحا بسيطاً.. أرجو أن لا تحمليه محمل الجد..

اجابت فريدة ببراءة قاسية اللهجة:

ـ طبعاً، طبعاً.. ما اجمله من مزاح!..

ـ ولكن من يسمع ذلك لا يظنه مزاحا يا فريدة.. وقد يرمي باللغط تلك السيدة المحترمة الهادئة نريمان ويفكر بها سوءاً.. وانت أصبحت شابة تدرك ذلك وتقدر الاوضاع..

ـ أتخشاني. هل تعتقد أنني سأذيع ما رأيت؟

ـ لا أعتقد ذلك ولكن من يدري؟

أجابت فريدة بنفس البراءة القاسية:

ـ سأسعى جهدي للكتمان ولكن.."أشارت الى لسانها الاحمر الصغير" لا أستطيع ضمان هذا اللعين.. أنا أنوي الكتمان لكن الخبيث يذيع.. مثلا اليوم عندما يجتمع شملنا على المائدة يفلت من يدي فيقول.. آه! ما أقبح ذلك..

كان العرق ينصبب من كامران وهو يستمع الى فريدة تحت الشجرة. فقال:

ـ فريدة حبيبتي! انزلي إليّ واسمعي ما سأحدثك به.

ـ لا يا كامران بك. ان عبدتك ما زالت مشغولة هنا.

أراد كامران اخفاء ما سببه مزاحها له من عصبية فقال:

ـ أقسم لك بأنني سأتسلق الشجرة وأنزلك قسراً.

أجابت فريدة ضاحكة:

ـ لا، تستطيع ذلك. وما أصعب تسلق الشجر على شاب مثلك كان قبل هنيهة يفرك يديه بأدب واحتشام.. ويتكلم بلغة راقية تشبه الشعر.. حقاً ما اصعب إبدال ذلك الطور بتسلق الشجر كهرة برية.. ان ذلك يثير الضحك والسخرية.. وأدهى من ذلك سقوطك يا سيدي...

نظر كامران إليها بحيرة.. لأن عصفورة السياج كانت تسخر منه.. وكيف؟ تسخر وهي تمثل دور صبية هادئة لا تلميذة صغيرة طائشة...

ضحك الشاب وأخذ بالتسلق قائلاً:

آه! يا شيطانة سأريك الآن...

ما أن رأت انهماكه وعذابه لجهله الاعمال الصبيانية حتى تعالت ضحكاتها وقالت:

ـ يا للخسارة! لا تعذب نفسك يا سيدي. كفاك عذاباً ومشقة.

فقال كامران:

ـ سأريك ذلك عندما اقترب منك يا فريدة..

أظنك واثقا من احترامي لك ولا اريد تعذيب روحك اللطيفة. ما زال صراخك وانينك يرن في أذاني عندما رشقتك بحجر أصاب قدمك قبل سنوات مضت. واليوم ماذا تصنع ان سقطت لا سمح الله وأصابك سوء؟.. ستكون بلا شك موضع هزء وسخرية لأنك لا تستطيع ضبط نفسك عن البكاء رغم كونك في سن الشباب والتعقل. تصور ما أغرب بكاء عاشق كان يقول الشعر قبل هنيهة لسيدة يحبها حقاً انه أمر يثير الضحك في النفوس ولا يتمالك المرء ضبط نفسه لمجرد تصور الوضع..

كانت فريدة تقول ذلك وقد احمر وجهها من شدة الضحك حتى أصبح كشقائق النعمان. اعتاد كامران ضحكها ككل شخص عرف فريدة لكن ضحكها اليوم لم يكن يشبه بحال ذلك الضحك المألوف منها. لأنه لم يكن اليوم ضحك طفلة طائشة شيطانة بل كان ضحك يخفي بين طياته كثيراً من المشاعر والأحاسيس.. فلذا توقف كامران متطلعا الى وجهها مستغرباً فيها هذا الانقلاب.. وكأني بها انقلبت فجأة من تلميذة طائشة الى شابة بهية الطلعة جذابة الحركات فوجئ كامران برؤيتها فارتعش..

بينما كان يفكر بما جرى ويستعرض الامور سمع فريدة تقول بصوت أكثر اتزاناً وأشد استهزاء:

- أيليق بك إزعاج عصفورة السياج المسكينة في أعالي الشجر؟ بينما لديك ملائكة بوسعك مطاردتها واللعب معها في الحدائق الغناء بين الازهار والمروج.. وبالأخص ان عصفورة السياج لم تقترف ذنباً تجازى عليه...

تابعت فريدة حديثها وهي تتابع التسلق أيضاً. وكلما رأت اقتراب كامران منها جمعت بدون اكتراث ما يقع في متناول يدها من الكرز..

كاد كامران يسقط فلم يرَ بدأ من التمسك بالاغصان فقالت له ضاحكة:

- كفاك يا كامران بك تشبثاً بالخطر فالتسلق ليس من اختصاصك.

لم يجب كامران واستمر على التسلق بجراة وخفة خارقتين. كثيراً ما تكون عزة النفس الجريحة منبعاً للجرأة والقوة عند مرهفي الاحساس والشعور. قارب الخطر من فريدة فلذا أرادت أن تقوم بعمل بهلواني تستطيع النجاة به. لكنها لم تكن

مطمئنة الى الغصن الذي تقف عليه وهذا ما منعها من الإتيان بحركاتها المنقذة كالقفز السريع على الارض. وهكذا جاء دور كامران للضحك والمزاح فقال:

ـ ها أنك ترين يا فريدة بانني كسبت المعركة وتوصلت للقبض عليك.

نظرت عصفورة السياج الى الاسفل لكنها لم تجرأ على القفز ولذا أرادت اخفاء فشلها بلعبة جديدة فقالت باستخفاف وهي تهز كتفيها.

ـ توفيق عظيم لا ينكر!.. ولكن لا أريد ان أكون السبب لحادث يلم بك فأكون عرضة لغضب نريمان هانم ومصدراً لألمها واضطرابها. سأنزل إليك ولا لزوم لتجشمك الخطر.

جلس الاثنان على الغصن متلاصقين ولم يتجاسر كامران على النظر الى وجهها وقال:

ـ أراك واثقة ومتأكدة من حادث نريمان هانم رغم أقوالي بأن ذلك لم يكن اكثر من مزاح برئ..

وأخذ لسانه يتلعثم فلم يستطع اتمام حديثه.

فقالت فريدة برزانة وسكون لا ينتظران منها:

ـ كامران! كان بوسعي أن أزيد ازعاجك بمزاحي لكنني أشعر بأن قلبك يخفق باضطراب ولا أريد المزيد في همومك ولذا أؤكد لك بأنني سأحفظ سرك ولن أفشيه...

ـ ما البرهان على ذلك؟

ـ الدليل هو بلوغي الخامسة عشر من سني حياتي.. مهما كانت البنت طائشة تحب التنقل والحركة كعصفورة السياج فانها ما ان تبلغ الخامسة عشر حتى يتغير مفهومها للحياة وتتزن نظراتها وتشعر ببعض الاشياء.. أليس كذلك يا كامران؟ كيف تريدني أن أبوح بأشياء كهذه أمام الناس؟

ـ لا أظن ولكن ربما عملت ذلك بطريق المزاح مثلاً...

ـ لو كان هناك نكتة فنعم.. ولكن يقيني بأنه عمل صادر من القلب فلا...

ـ أؤكد لك يا فريدتي بأنه كان أمراً بسيطاً لا أهمية له.. كان..

قطعت عليه الكلام قائلة:

ـ كفى لا تسترسل.. قلت لك بانني بلغت الخامسة عشرة ومن الصعب جداً إقناع فتاة بهذا السن ان أعمالاً رأتها بعينها كانت مزاحاً.

لم يصدق كامران ما سمعته أذناه ونظر إليها حائراً لأنها بشكلها الحالي، مريولها الأسود وحركاتها العابثة ويداها في جيوب المريول لا توحي للنفس بأنها أكثر من طفلة. ولكن الكلمات التي فاهت بها لم تصدر عن طفلة بريئة بل عن صبية تفيض شعوراً وغموضاً. وكأني بكامران قد رآها في ذلك اليوم لأول مرة فضحك بعصبية ظاهرة وقال:

ـ فريدة! يا للغرابة! كنت أتخيل عينيك عسليتين وإذ بي أراهما مائلتين للصفرة..

ما كاد يفوه بتلك الكلمات حتى شعر بندم يلسع قلبه لأنه ما من شك بان عصفورة السياج ستجيبه على كلماته بضحكة رنانة تهتز لها الاغصان وتجعل منها نكتة تتفكه بها أياماً طويلة ولكن.. لم تضحك فريدة بل تأملت عصفوراً كان يطير في السماء وقالت:

ـ ربما لم تعر ذلك انتباهاً فيما مضى فلذا لم تر لون عيني..

ـ ماذا تعنين بقولك يا فريدة؟

انتفضت عصفورة السياج وتهيأت للهبوط من الشجرة قائلة:

ـ لا شيء.. لا شيء.. كلام فارغ..

وعندما رأت نظرات كامران العميقة الحالمة هزت كتفيها وقلبت شفتيها كالعادة وقالت هازئة:

ـ حبذا لو يكون لكلام عصفورة السياج مغزى أو مرام...

ـ لنجلس قليلاً يا فريدة.

ـ لماذا يا سيدي؟ من يعلم ما تقاسيه الآن نريمان هانم من عذاب لم لا تذهب فتعيد الراحة والسكينة الى قلبها؟.. اذهب يا عزيزي وطمئنها بأن لا خوف عليها من عصفورة السياج، لترتاح مما هي فيه.

استعادت فريدة طورها المعتاد وعادت كالأول مشاكسة هازئة فلم يجرأ كامران ان يصر عليها بالبقاء. وبينما كانا يسيران راجعين نحو القصر تولاه قلق شديد واخذ يستعيد في نفسه كلماتها: "السبب ظاهر ما صدق وانتبهت.." ترى هل قالت عصفورة السياج ما قالته عن قصد؟ توقف فجأة عندما رآها تركض واثبة نحو كلب كان نائماً في حوض جف ماؤه وتنهد قائلاً:

ـ نعم! الحق ان كلامها كان دون قصد أو مرام..

اما فريدة اخذت تلاعب الكلب يقلبها على الارض تارة وتقلبه اخرى وتأخذ راسه بين يديها فتتأمله بعينين تفيضان حرارة.. ثم تمطره بقبلات حارة قوية صادرة عن قلب مفعم بالحب والحيوية.



5

في صبيحة أحد الايام قالت بسيمة هانم:

ـ أضاعت نريمان خلال وجودها بيننا إسورتها واليوم وجدتها شايسته وهي تنظف الغرفة التي اعتادت نريمان البقاء فيها. كانت الاسورة ملقاة بين أغطية احدى الأرائك. انتبهوا يا أولادا فان كان طريق أحدكم نحو (بشكطاش) فلنرسل الاسورة معه إليها.

كان كامران جالساً في احدى الزوايا بتراخٍ يتصفح جرائد الصباح فما ان سمع ما قالته أمه حتى تسرعت دقات قلبه وبذل جهداً كيلا يظهر ارتباكه وقال:

ـ أنا ذاهب اليوم الى استانبول لقضاء بعض الاشغال، إذا وجدت متسعاً من وقتي سأمر الى بشكطاش وأترك الاسورة لصاحبتها.

فأجابت الأم:

ـ تهاونك وإهمالك معلومان لدينا فلذا أخشى نسيانك. هل لي أن أعتمد عليك يا بني؟

ـ لا أظن بأنني سأنسى.. لأنه بالقرب من دار نريمان هانم لي صديق مريض يجب عليّ زيارته لأنني لم أزره منذ أمد طويل. وبطريقي الى دار المريض أمر فاترك الاسورة.

لم تبق نريمان هانم بعد ذلك الحادث في القصر بل عادت في اليوم التالي وبأول قطار الى دارها في استانبول. وكان كامران يبحث من يوم رحيلها عن وسيلة يذهب بها إليها ليراها. وها قد مضى اثنا عشر يوماً ولم يجد سبباً وليس بالإمكان زيارة شابة بدون سبب خشية إثارة الظنون ولا يريد دعوتها لاجتماع بكتاب يرسله إليها فيقوم بعمل يخشى عاقبته. فليترك الامور للصدف. ما أجملها من صدفة أتاحت له رؤية من يحب..

بينما كان يدق باب نريمان هانم كان قلبه أيضاً يخفق بشدة. ربما يجد الشابة وحدها في الدار فيتاح له قضاء ساعة او أكثر معها على انفراد.. ومن يدري ما يحدث خلال تلك الفترة؟..

فتحت الباب امرأة متوسطة السن قائلة:

- أتسألون عن نريمان هانم؟ ذهبت منذ يومين الى قرية قريبة دعيت إليها. ستبقى هناك أسبوعاً على ما أظن.

جمد كامران وفكر لحظة بان لا يترك الاسورة لتكون حجة لعودته بعد أسبوع ولكن ماذا يقولون عنه إذا فعل ذلك؟ ربما خامرتهم الوساوس والظنون من زيارته فالأفضل ان يسلمها. وبتباطؤ ظاهر مد يده نحو المرأة وسلمها الاسورة قائلاً:

- أضاعت نريمان هانم اسورتها عندنا. وجدناها اليوم فأحضرتها أرجو تسليمها لها.

- نعم قالت لنا ذلك.

- أرجو ان تبلغيها احترامي وتقولي لها بان كامران أحضرها.

استغرب كامران شعوره عندما عاد من بشكطاش إذ لم يشعر بحزن لعدم رؤيته نريمان، وأخذ يفكر بالسر لان علاقته بنريمان كانت علاقة لا بد لها أن تترك الأثر في نفسه ولكن...

وصل كامران الى الجسر ليأخذ القطار الى داره ولكن هناك وقت طويل للمساء فماذا عليه لو عرج الى (بك أوغلي) وزار فريدة في مدرستها.

لم يعتد كامران زيارة فريدة في المدرسة أكثر من مرة او اثنتين خلال المدة الطويلة التي انقضت لان الزيارة كانت من وظائف أمه وشقيقته.

قال الشاب لنفسه: لنرَ ماذا تعمل المجنونة.. هذه وسيلة طيبة لأطمئن منها عما قامت به في الدار عن الحادث؟ أتراها استطاعت كبح جماح ثرثرتها أم فشت الحادث؟

لم يستطع كامران ان يستعلم من فريدة شيئاً بالنسبة للوقعة المشؤومة حيث انها عادت بعد يومين من ذلك الحادث الى المدرسة وكانت خلال تلك الفترة. سترسله في طيشها ولعبها لم تترك فرصة أو مجالا لكامران ليحدثها عن الموضوع.

مر على احدى حوانيت الحلوى واشترى لها مقداراً من الحلويات والسكاكر لأنه يعلم بأنه ليس هناك هدية أحسن وقعاً في نفس عصفورة السياج من الحلويات. لكن الصدف كانت تسخر من كامران اليوم إذ لم تكن فريدة أيضاً في المدرسة. أخذت الراهبات الطالبات الى نزهة خلوية حباً بالاستفادة من شمس أيار اللطيفة.

من عادة كامران البقاء في قصره قلما يذهب الى استانبول لكنه الآن يشعر برغبة في الذهاب وعندما ذهب بعد يومين الى استانبول برر ذهابه لنفسه قائلاً: (لا بد أن حادث نريمان أثار أعصابي).

مر على المكتبة في (بك أوغلي) فاشترى بعض الكتب ثم فكر بشراء بعض الحلوى والسكاكر لفريدة وحباً بتبرير فعلته كان يخاطب نفسه قائلاً: (ما العمل وقد وقعنا في قبضة العصفورة؟ علينا أن نسد فمها ببعض المآكل الشهية ونشتري سكوتها. علينا أن ندفع الضريبة لنأمن شر ثرثرتها).

دخل المدرسة وفي أعماقه شعور غريب يقول له بعدم وجود فريدة في المدرسة اليوم أيضاً. خامره هذا الشعور رغم إبلاغه انتظارها في الصالة. بعد دقائق رأى فريدة قادمة وقد اصطبغت شفتاها باللون الازرق تخفي يديها في جيب صدارتها. تقفز كالفراشة وما أن دخلت حتى اقتربت منه وأحاطت الأغراض الملقاة على المنضدة بنظرة فاحصة ثم قالت ضاحكة:

ـ ما هذه اللفتة السامية يا حضرة كامران بك؟ في الواقع انها ثمن سكوتي ولكن... مهما تكن أشعر بخجل. وجدت بعلبة الأمس سكاكر طيبة. آه يا كامران بك! أنا عاجزة عن التعبير. يشعر المرء بذوبان قلبه وهو يذيب السكرة في فمه..

بينما كانت تصف السكاكر والحلوى بتلك المبالغة الظريفة كان كامران يضحك قائلاً:

ـ احضرت لك اليوم هدية انفس من تلك يا فريدة. هاك العلبة افتحيها..

ثم اراها رزمة الكتب حباً بالتنكيت. خطفتها العصفورة من يده وأخذت تمنحها باعتناء من يخاف على إفلات عصفور من يده وما أن رأت الكتب حتى أفلتت من فمها صيحة اعتراض وقلبت شفتيها تقول:

ـ عبثاً تحاول يا كامران! لا أثر للشعور في قلبك.. بعد ما تملئ النفس بالأمل تتخلى عن الانسان فتلقيه على وجهه يتخبط..

انطفأت الابتسامة فجأة عن شفتي كامران لان فريدة لم تقل ما قالت بطور طفلة وجدت الكتب بدل ما تنتظر من حلوى، بل قالت ذلك بمشاعر وطور امرأة تحطمت آمالها..

ان هذا الصوت العميق الطافح بالحزن والأسى، وهذه النظرات الحالمة الكئيبة، وهذه الوقفة البائسة ذكرت كامران بنفس الوضع والحالة يوم حادثة شجرة الكرز. أترى هناك شعور داخلي أخذ يستيقظ في أعماق الصغيرة نحوه؟ أم ماذا؟..

تطلع كامران باهتمام لعيني عصفورة السياج وقال لها بصوت مفعم بالرقة والإيناس: لا يمكن لآمالك أن تفشل بسببي يا فريدة.

وكان بوسع حركة بسيطة ان تفضح سر الصغيرة إلا أن رؤيتها للرزمة الاخرى أنقذتها من ذلك. أدركت الحيلة وأسرعت لتمزيق الرزمة بصبر نافذ وهي تصفق طرباً وتقول:

ـ يا لها من هدية جميلة! كأني بها معرضاً للصنائع والبدائع.. فأجاب: انظري، وتذوقي السكاكر يا فريدة. اكتشف ما يروق لك وتلذذين به قلبك. أليس كذلك؟

اعتادت فريدة أن ترتمي بأحضان من يجلب لها السرور عندما يشتد بها الفرح، تشبعه ضماً وتقبيلاً. لأنها لا تستطيع بحال ان تكتم مشاعر الفرح في نفسها. وكثيراً ما صدر منها ذلك في غرفة الصف وللمعلمة. وهكذا أثار منظر الحلوى الجميلة السرور في نفسها فلم تستطع كبح جماحها وارتمت بأحضان الشاب يتطاير بريق السعادة من عينيها. عندما شعر كامران بأنفاسها تشارك أنفاسه، وبعينيها ترقب عينيه، وشفتيها الملوثتين بالحبر الازرق تلتصق بشفتيه، اهتز جسمه ولم يستطع اخفاء ذلك. همت بتقبيله ولكن... توقفت فجأة وأدارت رأسها بسرعة وقد اصطبغت وجنتاها بحمرة الخجل وأخذت تضحك بفتور قائلة:

ـ لا مؤاخذة يا كامران.. أصابني على حين غرة من شدة الفرح مس من الجنون ونسيت أنني تخطيت السن التي تبيح لي تلك الاعمال وها أننا أصبحنا بسن لا يجوز لأحدنا فيه أن يقبل الآخر..

اسودت الدنيا أمام كامران وأخذت أذناه تطنان وأطرق دون ان ينبث بكلمة. تابعت عصفورة السياج كلامها:

ـ جئت في آونة انقذتني من مأزق حرج يا كامران. كنت في حصة المستظهر وقارب دوري وانا لا أعرف كلمة من الدرس. كاد قلبي يتوقف عن الحركة لخجلي واضطرابي. إذا بهم ينادونني لمقابلتك سأجد الدرس منتهيا عند العودة ان شاء الله. أعطتني المعلمة اذن خمس دقائق للاقاتك لكنني سأضيف دقائق اخرى لذلك. فلذا أرجوك أن لا تسرع بالهرب مني.. بحجة الشواغل والاعمال.. أعني أنني سأبدأ بالتهام الحلوى. إذ كيف أستطيع الصبر حتى نهاية الدرس لالتهام ما تحويه العلبة؟.. حدثني بأخبارك سأستمع إليك وأنا آكل.

غرقت في تأمل محتويات العلبة كأنها تتأمل مجوهرات نفيسة وأخذت تخرج القطعة تلو الاخرى وتضعها على جريدة كانت فوق المنضدة وهي بسرور:

ـ ان التهام هذه القطع الطيبة تستلزم الفن والصنعة يا كامران.. وأنا اكتشفت هذه الصنعة.. انظر مثلاً أنت لا ترى مانعاً من التهام هذه القطعة الصفراء قبل الحمراء... والحقيقة ان ذلك خسارة لا تعرض.. لأن الحمراء أشد حلاوة من الصفراء وبها طعم نعناع فان أكلت الصفراء قبلها تضيع عليك لذتها اللطيفة. والرائحة الشعرية الجذابة التي تفوح منها. آه. ما أطيبها من سكاكر...

قربت سكرة من شفتيها وكأنها تكلم عصفوراً في يدها أخذت تقول، وتقول مسرورة تاكل وتتلذذ. فقال لها كامران:

ـ أعطني سكرة يا فريدة.

ـ لماذا؟

ـ الا تكرمينني وأنا ضيفك؟

مدت يدها بالقطعة الى كامران وقالت ضاحكة عجبة:

- أخطأت وكانت غلطة عندما فتحت العلبة أمامك. إذا بدأت بأكل ما أحضرته لي لم أستفد شيئاً.

ثم أخذت قطعة سكر وضعتها على لسانها وألقت رأسها الى الوراء بحركة أسدلت خصلات من شعرها الجميل على وجهها فأكسبتها وداعة ورقة. لم تشأ إخبار كامران عن لذة طعم ما تأكل لأنها تخشى على السكرة من السقوط، فلذا أخذت تسعى لإفهامه عن لذة مذاقها بحركات تأتيها بيديها وعينيها. أضفى هذا الجهد في الحركات حمرة على وجنتيها أظهرت الكثير من مفاتن جمالها الخلاب.

لم يكن كامران استطاع بعد التخلص من أثر ما تركه عناقها قبل هنيهة في نفسه من شعور خدر أعصابه وشل حركاته. وكأني بعصفورة السياج قد نسيت تماماً ما حدث وكطفلة تناجي دميتها بدأت تكلم قطع الحلوى وتمزح. منظرها كان يبعث السرور في النفس. لم يرها كامران يوماً أجمل من هذا اليوم في مرحها ونكاتها. لكنه رغم ذلك كان هذا المرح يبعث الاضطراب في أعماق كامران ويتزايد ذلك لحظة بعد أخرى وبقناعة يشوبها الحزن قال الشاب محدثا نفسه:

- ما زالت عصفورة السياج طفلة صغيرة...

في تلك اللحظة وجدت فريدة قطعة حلوى مذهبة على هيئة نجمة فرحت بها فقالت:

- لنرَ يا آنسة! أقول يا آنسة لأن من يراك لا يظنك أكثر من آنسة شقراء تلهب القلوب عاطفة.. فيتراءى الى الناظر إليك بانك لا تهتمين بالشوكولاته ذات الوجه الاسمر التي بجانبك لكنك ترمقينها بطرف عينك نظرات دل، وتظلمينها بالخفاء قائلة: آه! يا ظالمة أعددت لك قصاصاً مدهشاً.. أتدرين ما هو؟ طبيعي أنك تفهمين أنني سآكلك... أنا لا أحب المرأة التي تسرف في البهرجة.. أليس كذلك يا كامران؟ أيحق للمرء أن يعذب من أحب؟

هددها كامران بحركة من اصبعه قائلاً.

ـ أي فريدة! كفاك ايماء وغمزاً..

أخذت فريدة قطعة الشوكولاته بعدما أتمت التهام السكرة الصفراء وقالت:

ـ أما أنت أيها العاشق الأسمر الجذاب.. أصبحت الحياة صعبة عسيرة عليك بعد فراقك لمعشوقتك. سأريحك من عذابك بارسالك الى حبيبتك الشقراء لأكون على الأقل جمعتكما ولو بالموت..

تراءى من فرجة الباب خيال راهبة تتمشى في البهو. مدت فريدة لسانها للخيال وعجلت بجمع أغراضها وهي تقول:

ـ اف لهن! لا يدعن الانسان في هناءته يا كامران.. أنا مضطرة للذهاب. أستودعك الله واشكرك للطفك وهداياك.

جذبها كامران من يدها قائلاً:

ـ أحب أن أسألك شيئاً. -وخفت صوته عن قبل- آمل ان لا تكوني أذعت شيئاً عن الحادثة امام احد.

وان اضاع كلام كامران شيئاً من مرح فريدة واعاد الألم والتفكير العميق الى عينيها البراقتين إلا أنه أشعرها ببعض الارتياح. رفعت أصبعها الى صدغها وبحيرة مصطنعة سألت:

ـ اي حادث انا لا اتذكر شيئاً.

ـ سررت لهذا كثيراً يا فريدة..

ـ يلذ للمرء كثيراً أن يتحدث عن سر قد اكتشفه ولكن.. هناك هداياك التي تلذ لي بنسبة أعم وأكبر.. بوسعنا ان نطلق على هداياك اسم (بدل سكوت). أليس كذلك يا كامران؟ آه ما أخبثك!! استودعك الله يا عزيزي.. سلامي لمن في القصر.

ثم خرجت تقفز بوثبات خفيفة في الممرات وهي تلعب بالملفات التي تحملها كالكرة الى أن اختفت في أحد المنعطفات. انتظر كامران مؤملاً أن تلتفت ولو مرة نحوه قبل أن تغيب لكنها لم تفعل وقد احتوتها ظلمات المسافة والبعد..



6

كان موسم الصيف يمر هادئاً ساكناً في تلك السنة في قصر كامران.. لأن خالة فريدة المدعوة عائشة والمتزوجة بمحافظ (تكفور داغ) قد دعت ابنة أختها لقضاء شهرين من العطلة عندها.

وهكذا تركت عصفورة السياج في القصر فراغاً ووحشة كانت تذكرها الخالة بسيمة هانم باستمرار. وكم كانت تقول:

أصبح القصر كالطاحونة المقطوعة الماء.. شيطانة، طائشة لكنها تبعث المرح والسلوى في قلوب الجميع. انها حركة القصر ونشاطه.. أقسم بأنني اشتقت لها كثيراً..

كانت بسيمة هانم تشكو فراق فريدة باستمرار. أما فريدة كتبت لخالتها عدة رسائل تمدح فيها (تكفور داغ) بشكل غريب كتبت مرة تقول:

"كلما انقضى يوم أشعر بانكماش لأنني أخاف من اقتراب عودتي وبعادي عن (تكفور داغ)...

أوشك شهر آب من الانتهاء وكامران يشعر من مدة بضعف وتعب يتزايدان يوماً بعد يوم ولا يدري لذلك سبباً. ربما كان السبب شدة الحرارة في أيام الصيف الثقيلة..

لبى في إحدى الليالي دعوة رفاقه الى حفلة أقاموها في (علم داغ) قضى الشبان يومهم بالغناء والشراب وما ان دب الظلام حتى أشعلوا النار هنا وهناك يتسامرون ويتفكهون والبدر يسحرهم بجماله وضيائه.

لم يستطع كامران احتمال متاعب تلك الدعوة لضعف بنيته. فلذا ابتعد عن رفاقه في ألذ ساعات اجتماعهم وتمدد داخل عربة وجدها بعيداً عنهم في الفلاة وأخذ يرقب النجوم المتلألئة الصافية فاستغرق بنوم هادئ لذيذ.

قارب الصبح وبدأت رائحة الدخان تصل من أكوام النيران التي أخذت بالانطفاء. في تلك الفترة بينما كان كامران غارقاً في نومه شعر بيدين تضغطان بشدة على كتفيه

وقد ارتجفت خصلة شعر ناعمة على جبينه بعدما لامس وجه وجهه لاحظ منه زرقة الشفتين فقط. فتح الشاب عينيه فرأى طلائع الصباح تطرد جيوش الظلام والقمر أخذ بالمغيب وراء الأفق البعيد. وهناك عصفورة سياج تزقزق فوق غصن قريب. ترى هل كان ذلك الحلم من وحي تلك العصفورة؟.

شعر الشاب بأن نفسه التعبة المضنية قد امتلأت بخيال فريدة.. فلم يستغرب ذلك بل حدث نفسه قائلاً: أنا احب فريدة كثيراً..

قالها بثقة ويقين.. كان الرفقاء نائمين تحت الاشجار وقد التحفوا معاطفهم وانكمشوا على انفسهم من رطوبة الجو عندما قام كامران واعد لنفسه حصاناً انتقاه من بين الخيول الموجودة على مقربة منه. واخذ طريق العودة تحت أضواء الفجر الضعيفة ولم يفكر أبداً بإعلام رفاقه عن وجهة رحيله..



7

اقترب المساء وأخذ الظلام يزحف رويداً رويداً الى الحديقة. بدأت نسمة عليلة تبعث الحيوية تهب على بحر مرمرة الراكد منذ الصباح. أخيراً تلطف عزيز بك فترك كامران وشأنه بعدما أرهقه بالتجول أربع ساعات في الكروم والحدائق باحثاً منقباً وقال:

- الهواء أصبح رطباً لا أطيقه. وانني آسف لعدم استطاعتي مرافقتك يا كامران. لا بأس من سيرك على الشاطئ إذا أردت.

بينما كان كامران يهم بالخروج من باب الحديقة قال له عزيز بك:

- ربما صادفت الجماعة ان سرت الى يمين الطريق العريض. سوف لا تتمالك خالتك نفسها من الصراخ عندما تراك لأنها بشوق زائد إليك.

عندما عاد كامران من (علم داغ) قال لأمه بأنه يشعر بضيق وتعب وانه يشعر بكابوس جاثم على صدره لن يتخلص منه ما لم يخرج بعيداً يبدل الهواء في بورسه أو احدى المصايف الاخرى. وبديهي بأن بورسه والحمامات الحارة لا تطاق خلال ذلك الشهر القائظ من الصيف وان كان يفضل رؤية الاماكن التي لا يعرفها من قبل. فلذا قال لأمه وكأن خاطراً فاجأ رأسه: - ماذا يكون يا أمي لو ذهبت الى (تكفور داغ). لا شك بأنني سأستفيد من المناخ وبنفس الوقت أكون قمت بزيارة خالتي عائشة التي لا تنفك عن اللوم والعتب علينا كلما جاءت بزيارة للقصر. انها وسيلة طيبة لإرضاء خالتي. سأقضي عندها أياماً أستجم خلالها. وهكذا أعد الشاب نفسه بحقيبة يدوية خفيفة واتجه نحو (تكفور داغ) في أول باخرة ذاهبة. وصل حوالي الظهيرة من اليوم التالي. كانت الخالة مدعوة والأولاد الى مزرعة مجاورة فبقي كامران مع صهره وحدهما حتى المساء يستمع الى حوادث المزرعة والزراعة.

يقع قصر عزيز بك وسط حديقة غناء تفصلها عن البحر طريق واسعة جميلة. اتجه كامران في نزهته نحو الساحل فمر بطريقه على بساتين محاطة بجدران قصيرة وسياج كثيف. ابتداء الخريف هنا مبكراً وأخذت الاعشاب والأزهار البرية بالذبول.

امتلأت الطرقات بالاوراق اليابسة المتساقطة من الاشجار فكان يسمع حفيف الورق في كل خطوة يخطوها.

أما كامران فانه بحكم مزاجه الخيالي المتشائم كان يلتذ برؤية كل ما من شأنه أن يزيد من الوحشة والكآبة في نفسه الساكنة. ولكن في هذا المساء كان يداخله شعور غريب فيشعر بفرح يكاد يطير به الى السماء ما عساه يكون؟ لا بد أن تكون المياه الجارية المتلألئة فوق الحصى تدغدغها والنسيم العليل ومنظر البحر ولد في نفسه ذلك الشعور.

بعد مسافة سارها أخذت الطريق تفقد من سعتها وشعر باحتمال ظهور عصفورة السياج من بين احدى تلك الاسوار فاشتدت ضربات قلبه واستولاه اضطراب ورعشة. خجل من نفسه لذلك الشعور الذي يشبهه هو لشاعر عاشق تلميذ لم تتجاوز سنة الخامسة عشرة فقال لنفسه: آه منك يا عصفورة السياج! ان مجرد توهمي باحتمال خروجك من إحدى المنعطفات يجعلني أرتعش باضطراب.. أنا الذي كنت أضيق ذرعاً كم شيطنتك فيما مضى.. لا انني مريض.. فليس هذا بأمر طبيعي..

الطريق ما زالت كثيرة الالتواء والمنعطفات وكامران يسير ويقطع الطريق بأمل ظهور فريدة ولكن.. قطع مسافة طويلة والضالة المنشودة لم تظهر. خالج اليأس نفسه وجلس على أول حجر صادفه فوق جسر متهدم.. استولى الظلام على المكان وبدأت أضواء نيران الصيادين تنعكس من الساحل فتعدل من رهبة الظلام واضمحل كل أمل من ظهورها..

ليس من المعقول بقاءهم حتى تلك الساعة المتأخرة في ضيافة الناس فلذا عودتهم من طريق أخرى وربما كانوا بانتظاره في الحديقة بعدما سمعوا من عزيز بك وصوله فأن تأخر قلقوا عليه وربما ظنوه ضل الطريق في الظلام.. وما أن خطرت له كل هذه الخواطر حتى قام وأخذ بالمسير بخطى سريعة لا يتلفت.. على حين غرة شعر بوقع أقدام آتية نحوه وجلبة وضوضاء شعر بعدهما بالاطفال يركضون نحوه مهللين فرحين وقالت له خالته عائشة هانم وهي تقبله بشوق: من أين ظهرت يا كامران؟ ما هذه المفاجأة؟

أما ابنة خالته الكبرى مزكان كانت تسير في الطليعة مع فريدة فركض الصغار نحوهم يتصارخون إلا أن الخالة قالت لهم: يا أولاد دعوهما ولا تخبروهما لنرى ماذا تصنعان إن رأتاه على حين غرة.. لكن الاطفال كانوا بسن لا يدركون معه لذة المفاجأة فلذا تابعوا ركضهم نحو الصبيتين.. ما ان سمعت فريدة بوجوده حتى اقتربت نحوه تقول ببساطة: نهارك سعيد يا كامران ما الذي جاء بك الى هنا؟ لم يخطر في بالي قط أنك تستطيع البعاد عن استانبول الحلوة.

كان لكلمات فريدة وقعا سيئا في نفس كامران لأنه كان يأمل من عصفورة السياج ترحيباً وحسن وفادة عند اللقاء.

مشت فريدة ومزكان في الطليعة وتبعتهما بقية الجماعة. كانتا في سن واحدة لكن هيئة مزكان بالمعطف العريض والحجاب تجعلها تبدو للناظر كسيدة محترمة بالنظر لفريدة وبالعكس كانت فريدة تبدو طفلة صغيرة بالنسبة لمزكان.

كانت عصفورة السياج مرتدية فستاناً يتناسب وفتاة أصغر منها سناً. فالقبعة الكبيرة التي على رأسها كانت تعطي الظلال الكثيفة على وجهها الحلو الصغير. وحذاؤها بكعبه القصير كان يجعلها تسير براحة وتقفز كالاطفال فتردد الصخور صدى قهقهاتها العالية وبينما كان كامران يجيب باقتضاب يشوبه الألم على أسئلة خالته المتعلقة باستانبول كانت الضحكات ترن في أذنيه فيقول لنفسه: أنا أحب هذه الطفلة ولكنني عبثا أحاول إن طلبت منها إدراك ذلك ولا بد من متاعب تسببها لي ان استمر حبي لها. وعلاقتي بها ستكون حزينة بالنسبة لي.. عندما اقتربوا من باب الحديقة اقتربت فريدة من كامران وجذبته كأنها تريد أن تفضي إليه سراً وقالت:

ـ كامران تباطأ بالدخول من فضلك... وبعد أن قربت وجهها منه قالت: لا شك بأنك جئت من استانبول حاملاً الهدايا أليس كذلك؟ ولا بد ان حصة الاطفال من الهدية ستكون كبيرة فلذا أرجوك أن لا تضع كل شيء أمامهم دفعة واحدة لأنك تعلم بأنني أحب دوما أن تكون لي حصة الأسد...

كانت تدفع رأسها الى الوراء وهي تتكلم ليتسنى لها رؤية كامران من تحت ظلال قبعتها الكبيرة وعيناها تبرقان كنجمتين لامعتين في الظلام فلم يتمالك كامران نفسه من مداعبة ذقن الفتاة باذلا جهده لستر ضعفه بالنكات والمزاح وقال:

ـ اصبحت شابة يا فريدة.. كيف تطلبين مني أن أدع لك حصة الأسد؟ واستمر بمداعبة ذقنها بيد ازداد ارتعاشها.. أخذت فريدة بالضحك فشعر بأنها تدبر مكيدة جديدة فقال:

ـ لماذا تضحكين هكذا ألست على صواب؟

ازدادت فريدة اقتراباً منه واخرجت لسانها كأنها تسخر وعضت عليه بأسنانها البيضاء دون ان تتكلم. سألها كامران: ماذا تعنين بهذا؟ فقالت: أنا لا أطلب حصة الأسد يا كامران بك... هذا طلب لساني الذي يقاسي الأمرين لضبط نفسه عن البوح بما لا أريد.. فلذا علينا أن ترشوه حينا بعد لنأمن شره على مدى الايام...

فقال لها: أراك تعودين للحادث يا فريدة وأراني لن أتخلص من لسانك بأي حال.. على كل أقسم لك بأنني منذ ذلك اليوم المشؤوم لم أرَ...

أغلقت فريدة بيدها الصغيرة فمه فأسكتته قائلة: لا تكذب يا كامران.. ما الداعي لتضليلي؟ أوه! انهم ينادوننا فاذهب وسأبقى أنا لأجمع "الحباحب".. قبل مدة جمعت منها عدداً ألصقه على خدي نريمان آه لو رأيتها كم كانت تبدو جميلة بذلك فلو زينتها باللآلئ لما بدت بذلك الجمال..

وما أن قالت ذلك حتى ابتعدت راكضة واختفت بين الشجر في الظلام ولم يبق منها سوى رنين ضحكاتها الرقيقة.



8

ـ نحن مدعوون اليوم الى مزرعة الحاج عمر الاسكوبي ولا شك انها دعوة مكلفة..

ـ صحوت اليوم تعباً يا صهري.. أظن أن نزهات الايام الماضية أرهقتني.. فلذا أرجو أن تسمح لي بالبقاء في الدار.

ـ لا يا بني.. ان البقاء في الدار يضيق النفس وأظن بأنك تروح عن نفسك هناك.. لا بد من وجود موسيقى وغناء..

أجاب كامران بتراخ مبالغاً بإظهار تعبه: بالعكس يا صهري ان لم أسترح اليوم سأصبح غداً مريضاً.

ـ أنتم شبان وأقوياء! سقى الله أيامنا عندما كنا لا نعرف معنى للتعب والمرض. تكبد المسكين مصاريف باهظة للدعوة التي يقيمها على شرف قدومك. لو تذهب كنت تسلو أتعابك ولكن على كل افعل ما يحلو لك..

ـ اذهبوا انتم ودعوني في الدار أستريح...

لا سأخبره عله يستطيع تأجيل الدعوة ليوم آخر تستفيد منه...

ـ كما تريد يا صهري..

لم يترك عزيز بك كامران لوحده ولا يوماً منذ حضوره وها قد انقضى أسبوع على وصوله الى (تكفور داغ) وكل يوم يذهبان من قرية الى اخرى ويحلان ضيوفاً على أعيان وموظفي البلدة والكل يتسابقون للترحيب بهما حباً بإرضاء المحافظ عزيز بك. سعى كامران مراراً للانقطاع عن تلك الدعوات إلا ان عزيز بك لم يدعه ينقطع حباً بتسليته وإكرامه وكم مرة قال فيها: ان هذه الدعوات ليست مجرد تسلية وقتل وقت بل هي دروس لك في آداب المجتمع والاحتكاك بالناس تزيدك معلومات وخبرة. هناك فوائد لا نستطيع تعلمها من الكتب في المدرسة ولا بوسع أي شاب تعلمها في استانبول

دون السفر والاتصال بباقي طبقات الشعب.. والمجتمع لا يختبر بالكتب بل بدرس نفسيته وعاداته بالتماس به في كل مناسبة...

لم يكتف المحافظ بإجباره على تلبية الدعوات بل كثيراً ما أجبره على الذهاب معه الى سراي الحكومة ليطلع على أعمال الدولة يختبر الوظائف بأمثلة حية صحيحة..

واخيراً استطاع كامران اليوم ان يتخلص من صهره بداعي مرضه. اما عائشة هانم التي أدركت الحيلة قالت ساخرة: لا أخالك تستعيد راحتك قبل عودتك الى استانبول يا كامران..

شمل الجو سكون حزين من جراء ما هطل في الليل من الامطار فالشمس محتجبة تحت طبقة من الغيوم الخفيفة التي تشبه الدخان أو الضباب والكون تشمله رطوبة لذيذة منعشة والمراكب تتراءى من بعيد كالظلال الراكدة على سطح البحر الهادئ.

خرج كامران الى الحديقة وحده ليستفيد من رواء وبهجة ذلك الطقس اللطيف وإذا به يصادف مزكان فسألها: من أين أنتِ آتية يا مزكان؟

- انني عائدة من زيارة صديقة مريضةُ.

- ان الرطوبة لذيذة اليوم...

- مهما يكن من لطافة في الطقس فانه خريف...

علقت مزكان طرفها على صخرة كبيرة واستمرت بشكواها وهي تلعب بمظلتها البيضاء تفتحها تارة وتغلقها أخرى وتقول:

- يمضي الصيف هنا بشكل لا بأس به يا كامران.. أما الشتاء فثقيل ينقضي على نمط واحد فلا مجال للسلوى والزيارات وهو يسير ببطء يزهق الروح. أما والدي فهو متعلق بالحياة هنا لدرجة انه لا يستطيع تصور انتقاله الى محافظة أخرى ولا يطيق صبراً لفراق هذه الامكنة التي تجلب الحزن في الشتاء وخاصة بوحدتها وركودها.

على كل فالحياة هنا مؤقتة بالنسبة لك.. مهما تطل فلا تتعدى الشتاء او الشتاءين..

وأراد كامران بكلامه هذا أن يفهم مزكان بأنها وصلت لسن ستصبح فيه عروساً عما قريب...

أطرقت الشابة رأسها الى الارض خجلة ولم تعط جواباً. تمادى كامران في مزاحه قائلاً:

- على كل لا يمكن الجزم ربما اصبح ارتباطك هنا ابدياً.. هناك كثيرون من الشخصيات المعتبرة فربما يطلبك أحدهم فتتزوجين وتصبحين من أهالي (تكفور داغ).

هزت مزكان رأسها: لا سمح الله...

وهكذا أخذا يسيران نحو الشاطئ ويقطعان الطريق بالكلام. وبينما هما سائران صادفا صياداً عجوزاً أشعل النار بين صخرتين ليغلي القطران عليها ويصلح مركبه البالي وما أن راى مزكان حتى سألها قائلاً:

- ما الخبر يا آنستي الصغيرة.. مضى يومان لم أر خلالهما ماريكا؟. فأجابت مزكان: ذهبت ماريكا الى الكنيسة اليوم... فقال الصياد: آه يا آنستي كم يكون جميلاً لو استطعنا إدخالها في دين الإسلام لان ابن رئيس الصيادين عيسى يتلهف للزواج منها وكم سمعته يقول لا بد من إسلامها والتزوج بها...

فسأل كامران مستغرباً: من هي ماريكا يا مزكان؟ قاومت مزكان ضحكة ارتسمت على وجهها بالعض على شفتيها وبصوت خافت قالت لكامران: (ماريكا هي فريدة ابنة خالتنا...) وبما أن أهل البلدة وخاصة الملاحون لا يتصورون رؤية فتاة بسن فريدة لا تتحجب وليس بالإمكان إقناع فريدة بالحجاب فإننا عرفناها بشكل زائرة مسيحية أتت لقضاء مدة من الصيف بيننا. آه لو سمعتها وهي تقلد لهجة وحركات اليونان لهلكت من الضحك..

فتضاحك الاثنان وقال كامران: يا للبشرى ها قد توفقت فريدة بزواج طيب مع ابن رئيس الصيادين...

فأجابت مزكان: هناك كثيرون يطلبون التقرب من فريدة من مستوى رفيع لا يشبه طبقة الصيادين. مثلا: هاك ذلك الضابط الذي يمر أمامك إنه مغرم بفريدة لدرجة إنه يهرب صباح كل يوم من الوظيفة حباً برؤيتها وقد ظنها في بادئ الامر مسيحية لكنه خبيث فضولي ككل أرباب ذلك السلك سأل ودفق الى أن توصل للحقيقة. وعلى

حد قول بائعة الحليب العجوز إنه أصبح أسير هوى فريدة يحبها بجنون وسيرسل أمه لتخطبها في هذين اليومين..

ـ هل تعلم فريدة بذلك؟ - طبعاً

تلهى كامران بحجر أخضر اللون رآه في الارض حبا بإخفاء ارتباكه وقال: طالع حسن.. إنه شاب جميل حسن الموقع والطلعة..

لم تحر مزكان جوابا فسألها كامران: ماذا تقول فريدة؟ اتقبله زوجا وتجده جميلاً أم ماذا؟

قلبت شفتيها وبلهجة من لا يريد إفشاء سر يعلمه قالت: من يدري!

أما كامران فلولا بقية من الارادة لاستحلفها القول بما تعلم لكنه اكتفى بقوله: لا بد أنك تعرفين من أمرها أشياء يا مزكان...

لم تجب مزكان بل اكتفت بالسكوت وتابعت سيرها ولم يجرأ كامران على الإلحاح بالسؤال بل تبعها ساكنا قانطا. وصلت الشابة الى خندق فهمت باجتيازه بوثبة لذا لمت أذيالها ولكنها استدارت فجأة نحو كامران قائلة بوجل: كامران بودي أن أقول لك شيئا ولكن اخشى ان أكون قد افشيت سراً بقولي رغم أنني أشعر بضرورة إفشائه...

ـ تفضلي بما تريدين يا مزكان.

فقالت مزكان بسذاجة بريئة وكأنها تتحدث عن أمر عادي بسيط: فريدة تحبك كثيراً يا كامران...

لم يصدق في بادئ الامر كامران ما سمعته أذناه أهذا صحيح؟ لا بد أن يكون عبث أطفال ولكن ماله يرتعش وقد أصفر وجهه؟ ضبط نفسه وقال بصوت مضطرب وابتسامة حزينة: أنت غلطانة يا مزكان لا أظن ذلك أبداً لأنني لم أشعر بدليل عما تقولين...

قالت الشابة بحماس وتأكيد: أقسم لك بذلك يا كامران.. لأنني سمعته منها وهي حزينة تود اخفاء شعورها لأنك تحب غيرها وهي مطلعة على ذلك.. مسكينة فريدة!..

ـ هل قالت فريدة ذلك؟ أحقاً ما تقولين يا مزكان؟ سعى جهده لضبط نفسه وبدأ يعض شفتيه كطفل يمنع نفسه من البكاء. وفي تلك اللحظة سمعا جلبة مع سقوط تنكة وصياح الصياد: (تبا لك يا كافرة). علما بعد لحظة ان كلبا قلب وهو يركض "تنكة" القطران فلحقه الصياد يرجمه بالحجارة راكضاً يريد القبض عليه. مرّ الكلب أمامهما ودخل مغارة كانت بالقرب منهما فتعالي صياح الصياد فرحاً وهو يقول: ها قد وقعت بالفخ أيها اللعين سأقبض عليك وأدق عنقك...

اشتركت مزكان مع كامران بالرجاء من الصياد ان يترك الكلب المسكين فأجابهما الصياد بادي التأثر: بعثر لي القطران فضاع علي ثمنه الذي اقتطعته من طعام أطفالي.. فماذا تريدانني أن أعمل أليس هذا كثير بالنسبة لي؟..

سأله كامران: بكم تقدر خسارتك يا عم؟

فأجاب: انفقت اليوم ثلاثين قرشا لتصليحه وكل يوم يحدث شيء جديد يوقعني بمصاريف لا قبل لي على احتمالها... انه مركب بال قديم لا ينفع فيه التصليح والترقيع ففي كل يوم ثقب جديد يحتاج للإصلاح.

ـ بكم يشترى المركب الجديد يا عم؟

استند العجوز على مجدافه وسرح بعينيه الزرقاوتين الباهتتين مفكراً وقال: سبع أو ثمان ليرات على الاقل... هناك مركب للبيع يصر صاحبه على قبض عشر ليرات ثمناً له.. والحق انه يساوي عشرين ليرة ولكن آه! من أين لنا ذلك المبلغ؟

أخرج كامران من محفظته عشر ليرات مدها نحو الصياد فتطلع الصياد حوله حائراً وقال: ما هذا يا بني؟ فأجاب كامران:

هذه هدية ماريكا لك يا عم...

ـ هدية ماريكا؟ وما شأنك بذلك يا بني؟

أنا قريب ماريكا وسمعتها مرة تقول: بودي أن أشتري مركبا جديداً لعمنا الصياد.

ـ ما أسمك يا بني؟

فقالت مزكان ضاحكة: يوركي.. واستدارت نحو كامران قائلة: لا بد أن يكون اسم قريب ماريكا- يوركي..

نظر الصياد بحيرة الى الليرات العشر التي أصبحت في يده وقال:

ما أطيبها من قلوب تحب الخير والراحة كما ينص دين الإسلام.. فقال كامران: هناك شرط تطلبه ماريكا بدلا عن هديتها لك وهو أن تطلق على مركبك الجديد اسم (عصفورة السياج) فأجاب الصياد فرحاً: على الرحب والسعة.. سأكتب ذلك بماء الذهب على المركب وانني بدوري اسأل الله لكما التوفيق في الدارين..



وبينما كانا يدخلان من باب الحديقة سمعا ضحك الاولاد وجلبتهم تختلط بصياح الدواجن الهاربة بعجل كأن هناك شيئا يفزعها... فقالت مزكان: هلم بنا نرى فريدة ماذا تعمل لا بد لها من اختراع جديد لف الاطفال حولها. كانت فريدة تتأرجح في أرجوحة نصبتها على شجرة غليظة الجذع وقد ارتدت ثياب المدرسة وحولها دستة من اطفال البيت والجيران يتصايحون: أختي فريدة ضعيني معك... خذيني إليك.. انا أحب الارجوحة .. وفريدة تزيد من سرعة الارجوحة غير مبالية بما يقوله الاطفال غارقة بين الاشجار تعلو تارة وتهبط اخرى تستمع لحفيف الاشجار وكان بين الاطفال من يتباكى مصراً على الوصول إليها غير هياب بما يحيقه من الخطر وعبثا حاول الخدم ابعادهم.

أما عائشة هانم الواقفة بالنافذة تتفرج عليهم كانت تصرخ بين الحين والآخر: آه منك يا فريدة استوجس خوفاً من خطر تسببينه يا ابنتي.. أما هي فلا تبالي بشيء بل تزيد بقذف الارجوحة وقد احمر وجهها فأصبحت كشقائق النعمان وخصلات شعرها تتطاير على رقبتها ووجهها وتكاد تطير الارجوحة وكثيراً ما تبقى مختفية عن الانظار لحظة تمر عليهم وكأنها ساعات من الخوف.

أصبح صياح الاطفال لا يطاق فاضطرت فريدة الى الهبوط تفادياً لما قد يحدث من خطر لأحدهم وكانت غاضبة تتمتم بغيظ: لا فائدة.. عليَ ان أتأرجح في الليل عندما ينام الاطفال إذ لا راحة لي في الدنيا وانا بينهم.

اخذ الاطفال يحيطونها بلهفة وتوسل قائلين: خذيني معك يا "آبلا" خذيني.. وفريدة تسعى جهدها للتخلص من أيديهم وتقول: لا! لا! انا لا اريد ايقاع نفسي بمسألة تسبب الوجع لرأسي... فتردهم خاسرين.

تداخلت خالتها من النافذة تقول (فريدة حبيبتي سايري الاطفال قليلاً ونفذي رغائبهم يا روحي).

استدارت فريدة نحو النافذة وقد سترت عينها من الشمس بيدها وهي تقول: ألا تغضبون مني ان وقعوا أو جرى لهم حادث؟

فأجابت عائشة هانم ضاحكة: هل لا بد من وقوعهم يا ابنتي؟ هزيهم بهدوء وطيبي خاطرهم. رفعت فريدة حاجبيها بتظلم وأجابت بلهجة أم تتململ من ابنها الشيطان: أف يا خالتي أراك لا تعلمين شيئاً عن طباع عصفورة السياج.

هل يؤمن لها ملاعبة الاطفال والاعتناء بهم؟ بينما تلاعبهم بوداعة ورقة وتركبهم الارجوحة واحداً بعد الآخر وبهدوء وتبدأ الارجوحة تروح وتجيء يبدأ الشيطان بإيقاعها:.. (وبدأت تقلد محاورة الشيطان معها) (هلمي! أزيدي.. اسرعي) فتجيب متوسلة: (لا! أرجوك كفاني هذا فان بجانبي طفل) ولكن هل للشيطان ان يقف؟ فهو يقول باستمرار: (هلمي فريدة.. هلمي فريدة) ويلح بتشويقه متواطئاً مع الاغصان والحبال وكلها تقول: (هلمي فريدة اسرعي فريدة...) وعندها تقع الواقعة.

استغرقت عائشة هانم بالضحك مع كامران ومزكان والخدم جميعا لتمثيلها وكلامها اللطيف.

هزت فريدة رأسها كطفلة لم تتجاوز الثامنة وتابعت تقول: (كيف تصبر عصفورة السياج على تشويق ذلك الظالم يا خالتي؟).

رفعت فريدة الى صدرها طفلاً كان يداعب أطراف ملابسها متوسلاً راجياً وأخذت تلعب بشعره الاصفر قائلة: انا مالي؟ اخشى ان أؤذيك وأسبب لك الما.. وأرته بأُصبعها كامران وقالت ساخرة: اذهب الى أخيك كامران لأنه لطيف.. رقيق كآنسة وديعة فهو اعتاد الهدوء والسكون منذ طفولته يجلس في القصر ساعات طويلة على كرسيه الهزاز يتظاهر بقراءة كتاب في يده وهو سارح بخياله في الأجواء العالية.. وبوسعه ان يؤرجحكم وينشغل بكم بكل هدوء وحنان.. ولكن ينقصه شيء واحد وهو انه لا يعرف ان يغني لكم مهلهلاً كالأم الرؤوم على كل احرص يا صغيري ان يبعد النعاس عن أجفانك الصغيرة لأنك ان نمت فلا بد من سقوطك وهو يسقط معك لعدم استطاعته ضبطك بذراعيه النحيلتين اللطيفتين وبديهي عدم استطاعته دمية مثلك يزيد وزنها العشر كيلوات... (كانت ترقب بطرف عينها حركات كامران وهي تتكلم علها تكتشف إغاظته او عدمها) وهكذا تبكيان معاً من ألم السقوط يا عزيزي.

كان كامران يضحك بهدوء وهو يتطلع بحنان وكأني به يقول: الآن أدركت لمَ تعاملني بكل هذا الظلم والجفاء.. وبحركة آلية سريعة خلع سترته فألقاها على الأعشاب وأسند يديه الى خصره يقول: انا ضليع بتسلق الارجوحة يا ابنتي الصغيرة فان كنت تثقين بجرأتك وإلمامك هلمي والميدان مفتوح لكلينا.

مدت فريدة لسانها وأتت بحركات تظاهرت بها الخوف لكنها شعرت من نظرات كامران الحالمة ما يساور نفسه من أحزان لا مجال معها للسخرية والتنكيت فلذا توقفت وقد اصفر وجهها وقالت وهي تعض شفتيها: عندي الجرأة الكافية... فان أحببت هلم وأرني شطارتك.. وبقفزة واحدة تسلقت الارجوحة.

قالت عائشة هانم: بربك يا كامران دع عنك الطيش ولا تكن ولداً.. هل بالإمكان لأي عاقل ان يسير بمشورة فريدة.

كان اضطراب الخالة ظاهراً... .

فقال الشاب وهو يشمر القميص عن ساعديه: سأريك يا خالتي كيف اضبط هذه الفتاة المتبجحة كمن يلقط الحجل من الثلج.. سأضطرها للتوبة والاستغفار عن طيشها... .

سحب الخدم الاطفال من حول الارجوحة تفادياً للحوادث وفسحاً للمجال.. ينتظرون بسكون ما سيكون... .

بدأت الارجوحة تتحرك على مهل وكانت فريدة من شيطنتها تدخر جهودها حتى يتعب غريمها... وبعدها تقوم بما أرادت من الحركات لتوقعه في الأخطار وتكيد له.. وهكذا لم تكن تحرك اكثر من ركبتيها كلما لزم الأمر.

ازدادت سرعة الارجوحة وتزايد حفيف الاغصان فسمعت زقزقة الحبال.. ولكنهما لا يتكلمان كأن كل كلمة يقولانها تنقص من الجهد الذي يودان إبقاءه للأرجوحة فقط.. وفجأة لامس شعر كامران غصناً فتهدل وتبعثر حتى غطى وجهه وعينيه... فقالت فريدة ضاحكة: كيف حالك يا كامران هانم؟ ألا تطلبين النجدة بعد؟.. .

فأجاب : سأجعلك تطلبينها انت يا فريدة.

ـ مستحيل! ليس بإمكانك ذلك لأنني لو مت من الجزع والألم وتبعثرت أشلائي لن أستغيث او أطلب النجدة.

تولدت القسوة في نفس فريدة من نظرات كان يسددها إليها كامران من عينيه الخضراوتين اللتين تشعان بريقاً لذيذاً من بين خصلات شعره الاشقر المتهدل ولأول مرة في حياة فريدة شعرت بحب التعذيب فلذا ثنت ركبتيها وبكل ما أوتيت من قوة دفعت الارجوحة حيث غابت بين الاغصان بشدة. عندها سمعت صوت عائشة هانم الصارخ يقول: (كفى.. كفى) كان الاثنان يطيران وجهاً لوجه يتنفسان معاً وكثيراً ما أختلط شعرهما المتطاير وصعب تفريقه والحاصل كان يسبحان في حلم لذيذ.

ـ ان قوتك أشد مما حسبت يا كامران.

ـ أما قلت لك بأنني سأتغلب عليك وأقهرك.. .

ـ لا تحسبني خائفة إلا انني أشفق على وجهك الحلو اللطيف من جراح يصيبه أثر السقوط.

ـ أتشفقين على وجهي؟ هذا دليل حبك له... .

ـ لا! لا اشفق على وجهك لأجلي بل لأجل نريمان هانم من يدري كيف يكون أثر سقوطك على نفسها.

قالت فريدة ذلك بدون إرادة وهي في شبه غيبوبة وقد بهت لونها وذبلت عيناها.. وكانت هذه أول مرة تلفظ فيها اسم نريمان بعد حادث شجرة الكرز.

قال كامران بصوت خفيف كأن التعب أعياه: أقسم لك بأنني لا أشفق على وجهي لأجل نريمان.. بل انني أود الاحتفاظ بروائه حباً بإرضاء آنسة اخرى صغيرة تحبني كثيراً ويكون ألمها شديداً إذا تهشم.

ـ أي عصفور ثرثار نقل لك هذا الخبر؟

ـ نقلته لي ابنة خالتي مزكان.

ارتجفت فريدة كطفل صحا من نومه فزعاً إثر قطرات ماء بارد أصابت وجهه وتأوهت من أعماق قلبها وتمسكت بالحبل كأنها خشيت ان يفلت من يدها ساعية ان تخلص وجهها من لمسات شعر كامران خافضة بصرها نحو الارض لا تحير جواباً.

فقال لها الشاب بنفس الصوت الهادئ: حضرت الى (تكفور داغ) لأراك يا فريدة.

ذهلت فريدة مما سمعت ولم تستطع ان تتمالك نفسها فوقع رأسها على صدر كامران دون وعي منها وما زالت الارجوحة تذهب وتجيء وبعينين أخضلتا بالدموع رفعت رأسها تقول وهي تتصنع الابتسام بلهجة المتكلم الضعيف المغلوب على أمره: هلم ننزل يا كامران أراني تعبت كثيراً... سيفلت الحبل من يدي.. أرجوك.

دفع الشاب الارجوحة بما تبقى له من قوة وقال: لا يا فريدة سوف لا أدعك تنزلين قبل ان اسمع من فمك الحلو بقبولك إياي خطيباً... لا أتركك الى ان نقع معاً ونموت معاً.

اغمضت فريدة عينيها واشارت بـ (نعم) ثم ألقت برأسها على صدره كعصفور جريح يجود بأنفاسه الاخيرة.

وبينما كان رأسيهما يغيبان بين الاغصان الكثيفة كانت شفاه كامران تلامس عيني فريدة بشغف فأفلتت فريدة يديها عن الحبل وجلة. لكن الارجوحة كانت تهبط من طرف كامران لحسن الحظ فضمها الى صدره بكل ما أوتي من قوة ليتفادى الخطر إلا ان توازن الارجوحة قد اختل فوقع الاثنان بين صراخ وفزع المتفرجين إلا ان حركة يقظة أتى بها الجنائني أنقذتهما من خطر محيق!.

فتحت فريدة عينيها بعد غيبوبة قصيرة لترى نفسها بين أحضان خالتها. أرادت السيدة ان تمسح الدم من ذقنها دون ان تشعرها به وبحنان سألتها:

- أتتألمين من شيء يا ابنتي؟

- كلا يا خالتي.

- إذن ما معنى هذه الدموع التي تذرفينها؟

ألقت فريدة برأسها على صدر الخالة ومسحت عينيها بأطراف أناملها قائلة بسكون: ان بكائي سبق سقوطي يا خالتي ولم يكن من ألم السقوط.



عاد كامران الى استانبول بعد يومين يعلن خطوبته على ابنة خالته فريدة فسرت بسيمة هانم لخطوبة الشابين التي جرت ببساطة وسكون ولكنها رغم سرورها لم تستطع ضبط نفسها من إبداء ما تشعر به من مخاوف فقالت لأبنها: انت شاب جميل وغني وكثيرات يرغبن الزواج منك فلذا كان بالإمكان اختيار عروس انسب من فريدة وان كنت شخصياً أرجح زواجك من فريدة بحكم الأنانية لأنها قريبتي وبإمكاني السيطرة عليها كما أريد.. ناهيك عن انها ذكرى أمي العزيزة وكزيدة حبيبتي المسكينة. انها وديعة اثنين من أغلى الناس علي.. لكنني اخشى ان لا تستطيع هذه

الطفلة البسيطة إسعادك وعندما افكر باحتمال عدم تقديرها لك وإسعادك بسبب طيشها وخفتها يتولاني حزن وكمد.

كانت بسيمة هانم تريد محادثة ابنها بأشياء اخرى تتردد في إيضاحها عندما قرب كامران يده من فم أمه يسكتها بقبلات حلوة راجياً منها السكوت وهو يقول: أمي! لا تنغصي عليَ تشوقي بالله عليك.. دعيني وشأني فانني أريدها على أي حال كانت.

وهكذا افهم كامران أمه مدى اهتمامه بالطفلة فاطمأنت وقالت له وهي تداعب شعره:

ـ لم اقصد وحقك السوء بكلامي يا كامران.. ارجوا ان لا يخطر ببالك اي خاطر.. انها ما زالت طفلة وبديهي انك ستنتظرها ثلاث او اربع سنين على اقل تعديل... وحتى ذلك الحين ستكون قد أتمت دراستها وتعقلت فأصبحت سيدة كاملة لا عيب فيها ولا قصور.



9

أوشك الخريف على الانتهاء ولم تبق أوراق على الاشجار فالحدائق قاحلة جرداء لا تزينها سوى ازهار قليلة من ازهار الشتاء. جلس كامران في احدى الامسيات على مقعد في الحديقة ليستريح من تعب نزهة قام بها في ذلك النهار. يداعب بين الحين والآخر رأس كلب صيد جاثم تحت رجليه.على حين غرة فتح الحيوان عينيه الصفراوين وسلط أذنيه يستمع حواليه.

ضغط كامران رأس الحيوان بشدة ليضجعه ثانية لكنه لم يفلح فقفز الكلب بشدة وأخذ ينبح وهو يركض. أدار كامران رأسه ليتبين سبب ركض الكلب فرأى من بعيد فريدة تسير نحو القصر. ان مجيء عصفورة السياج من المدرسة في هذا الوقت المتأخر وحدها لم يكن منتظراً ترى ما السبب؟ نسي الشاب تعبه وأسرع نحوها ولما وصل وجدها تجلس القرفصاء تداعب الكلب وتقبله تارة وتشد أنفه او شفته اخرى وبدون ان تدير وجهها نحو كامران قالت له:

انظر يا كامران ما اكبر فم الكلب ألا يشبه التمساح؟

ابتسم كامران بمرارة ولم يجب وبقي يتأملها. تركت فريدة الكلب واخذت تنفض ما علق في ذيل ثوبها من غبار ثم مسحت يدها بمنديلها ومدتها الى خطيبها تقول:

نهارك سعيد يا كامران كيف حال خالتي آمل ان لا يكون مرضها ذا أهمية.

فأجابها كامران حائراً: انها بخير والحمد لله.

ـ سمعت بأنها مريضة ولذا جئت في هذه الساعة المتأخرة.

ـ من قال لك ذلك؟

ـ ان ابنة الصيدلي القريب من هنا تلميذة في المدرسة وكانت منذ ايام مأذونة، عادت صباح اليوم ولما سألتها حوادث القصر أخبرتني بمرض خالتي.

ـ انها أخبار ملفقة لا صحة لها بتاتاً. ما أغرب هذا.

- سررت جداً لخلوها من الصحة أحمد الله على صحة خالتي يا كامران.. عندما سمعت الخبر اضطربت وانشغل بالي وطلبت إذناً من المديرة فقالت بأنها لا تتركني احضر وحدي وبالصدفة كانت (سور آل كس) ذاهبة الى (قرتال) فجئنا معاً حتى محطة (أرتكوى) هل خالتي ونجمية هنا؟ قالت هذا وركضت نحو الباب تريد الدخول إلا ان كامران منعها بجذبها من يدها قائلاً:

فريدة لقد مضى عشرة أيام ولم نر بعضنا خلالها... ورغم ذلك أراك متسرعة لتركي.. فهل يترك المرء خطيبه هكذا وبهذه السرعة دون ان يقضي معه وقتاً يحدثه ويروح عنه... كثيراً ما تهيأ لي انك تتهربين من لقائي وأكاد أصرح بذلك ولكن... .

خفضت فريدة بصرها خجلة مرتبكة وقالت: ليس هذا... ان معطفي ثقيل... وكذلك حذائي يضايقني.

وكانت أعذاراً واهية تألم منها كامران كثيراً وترك يدها قائلاً:

- لا بأس يا فريدة اذهبي.

عندها ترددت عصفورة السياج ولم تبد حراكاً وقالت: لا! يمكنني خلع معطفي وانا هنا.. وحذائي... على أي حال سأحتمل مضضه.

- لدي حوادث مهمة اريد ان أقولها لك يا فريدة.. حتى إنني فكرت بزيارتك صباح الغد لآخذك من المدرسة ولكن كأنك شعرت بما أريد فحضرت.. ألا تودين ان نسير قليلاً في الحديقة؟ وأراها بيده طريق الحديقة المنعزل فقالت:

- ان هذا الطريق بعيد فلنذهب نحو الباب.. وها قد قارب وقت وصول القطار فبإمكاننا رؤية الركاب والتسلي وقطع الوقت.

لم يحر كامران جواباً بل تبعها حيث ارادت والألم يحز في نفسه لأنه كان يحلم بحياة خطوبة لذيذة لا تشبه بحال ما يراه الآن.. كان ينتظر من خطيبته كل عطف واهتمام... ولكن عصفورة السياج بعد إعلان الخطوبة تبدلت بشكل غريب واصبحت تتهرب منه تكاد لا تجتمع به وحيداً كأنها تخاف منه او تكرهه. وكثيراً ما تألم لخاطر يجول في نفسه وهو ان حب فريدة لم يكن اكثر من هوس صبياني. وهكذا

سارت أمامه ويدها بجيوب معطفها تلعب بالأحجار التي تدوس عليها كطفلة صغيرة وهو يتبعها حزيناً متألماً. يقول لنفسه:

ما أسخفني عندما توهمت بان هذه المخلوقة البسيطة تكن في نفسها مشاعر عميقة ورقيقة.

وما ان وصلا نحو الباب حتى أشارت فريدة الى حجر كبير امامهما وقالت: أنجلس هنا يا كامران؟

ـ على كيفك افعلي ما يروق لك... يا فريدة. وأراد ان يجلس إلا ان فريدة جذبته من يده قائلة:

ـ لا تجلس على الارض اليابسة لأنك حساس لا تحتمل الخشونة.

وخلعت معطفها ومدته على الحجر وبعد تردد قصير قالت خجلة:

ـ أليس من واجبي الاعتناء بك بعد الآن يا كامران؟

ان عملها وكلماتها جلبت بعض الاطمئنان لقلبه وجلسا بجانب بعضهما متلاصقين بصفاء فسألته فريدة باستحياء:

ـ ما الأمر الذي تود بحثه معي؟

ـ ان لساني لا يدور بفمي لأقوله يا فريدة... هناك اضطرار يؤلمني ويعذبني كثيراً.. وإذا كان ما قلته لمزكان في (تكفور داغ) صحيحاً اعتقد بأنه سيؤلمك أيضاً...عمنا نور الدين بك....

قاطعته فريدة وقالت: انتظر يا كامران أليست هذه الضوضاء آتية من حديقة بهاء الدين بك.. طبعاً... انها من هناك... وأظن ان اولاد أخيه وصلوا.. لقد مضى ستة شهور لم أرَ خلالها نظمية.

لم تنتظر عصفورة السياج جواب كامران بل سرعان ما ألقت بنفسها الى الطريق تنادي: (نظمية.. نظمية) فظهرت من الحديقة المجاورة شابة تماثلها في العمر مع طفلين صغيرين فقالت فريدة وهي تهز يدها مرحبة: (نظمية! هلا جئت مع اخويك

الى هنا لأراك) ثم التفتت نحو كامران تقول: ما أطيبها من فتاة! انا احبها كثيراً أتأذن لي بمحادثتها قليلاً؟

وفي منتصف الطريق رفعت إليها الطفلين لتقبلهما بحنان ثم بدأت الحديث مع نظمية.

امتعض كامران من الوضع واصفر وجهه غاضباً وبذل جهداً كبيراً كيلا ينخرط في البكاء حزناً لما جرى.. وقال محدثاً نفسه: حقاً انها عصفورة سياج والاخلاص منها محض وهم وخيال.

كانت فريدة تتكلم نظمية تارة والطفلين اخرى.. وتطيل الثرثرة والأحاديث. اخيراً عادت الى كامران بعد ان وعدت الطفلين باللعب بالكرة في الصباح الباكر.

ـ ها انا صاغية وكلي آذان يا كامران.

ـ ما الذي أزعجك مني يا كامران؟

سألته بنفس الوضع الصبياني الذي اعتادت القيام به باستمرار وهو ان تقلب شفتيها وترفع حاجبها... نفذ صبر الشاب ولم يعد بوسعه الاحتمال فقال: تألمت منك جداً يا فريدة... بينما كنت أحدثك عن اشياء تسبب اضطرابي وتشجيني لم تشائي الاستماع لآلامي بل تركتيني وبدون ان تشغلي بالك بما سأحدثك به دعوت اولاد الجيران وحدثتهم بنشوة وطرب اكثر من عشر دقائق لم تفكري خلالها بي او بأملي أبداً.

سمعت فريدة كلامه وهي مقطبة كتلميذة تصغي بألم لتكدير وملاحظات معلمتها ومن فرط عصبيتها أخذت تلعب بأطراف ثوبها.

وما ان سكت كامران لفرط خجله من تظاهره بضعفه من تلك الطفلة الصغيرة الطائشة حتى رفعت عصفورة السياج عينيها إليه بسذاجة وحزن ثم قالت:

ـ لأنني اعرف سبب ألمك واضطرابك قمت بهذه الاعمال الصبيانية علني أنسيك ما بك من آلام... سمعت بأن عمنا جاء من ايران منقولاً الى مدريد وعينك كاتباً في المفوضية هناك ستسافر معه الى مقر عملك في بحر اسبوع... عرفت هذا صباح اليوم... .

لم يصدق كامران ما سمع وسألها:

ـ أحقاً يا فريدة...أحقاً ما تقولين؟

وكأنها أتت ذنباً عظيماً ارتبكت وبحياء زائد وصوت مبحوح يقرب من التنفس ثابرت على الكلام:

ـ قلت لك بأنني سمعت ان خالتي مريضة ولذا جئت اليوم أليس كذلك يا كامران؟ لم أخفي عنك السبب؟ انا كذبت... جئت استفسر عن صحة ما سمعت لأنني فكرت بأنه لو كان صحيحاً لا بد من إعلامي والمرور على المدرسة لتراني.. وهكذا كنت بين عاملين قويين تارة اصدق واخرى اقول بأن الخبر مغلوط.. ولكن ما ان سمعتك تقول بأن هناك حادث يزعجك وربما أزعجني حتى تأكدت من صحة ما سمعت فاستولى الألم والكدر على قلبي ولو لم تسعفني نظمية بظهورها لأتيت أمراً معيباً وضعفاً لا يغتفر ببكائي يا كامران لو بقيت بجانبك استمع إليك.

كان الألم مجسماً في عينيها المبللتين بالدموع... أمسك كامران يدها بحنان وقال: أشكرك لعواطفك النبيلة يا فريدة.

ـ تشكرني؟ ولماذا؟

أخذ الشاب يداعب شعرها ويدها برقة وحنان ثم قال:

ـ انا سعيد وسعيد جداً رغم ما بي من ألم عميق... لو خطرت لي كلماتك وانا احتضر سأنسى الموت وأتلذذ باستعادتها... ان هذه الدقائق القليلة التي كشفت لي عن قلبك ومدى حبك ستكون نعيمي الخالد ولن أنساها أبداً.

لا تنظري إلي هكذا يا فريدة... ما زلت طفلة صغيرة... ومن الصعب ان تدركي مدى حبي لك وإحساسي نحوك... على كل انا راضٍ ويكفيني ان اسمعك تقولين بأنك متألمة لغيابي الموقت عن الاستانة.

إن كان حبك لي عظيماً للدرجة التي حدثت عنها مزكان... عليك ان تحدثيني... قولي ولو لمرة واحدة يا فريدة لأسمع اعترافك بما يكنه قلبك الصغير من مشاعر نحوي.

عضت عصفورة السياج شفتها كي لا تضحك ثم قالت:

ان مزكان صديقتي صديقة الطفولة والصبا وبوسعي ان ابوح لها بمكنونات صدري ولكن انت... انت رجل رغم شبهك الكثير لآنسة صغيرة رقيقة... كيف أتجرأ لإفشاء سر أحمله بين ضلوعي... انا لا احب الشعر الاشقر وأخاف العيون الخضراء... ان بها قوة شيطانية تخيفني جداً... لا تحسب يا كامران ان كلامي فكاهة ومزاح انا أقول الحقيقة.... في الواقع لا استلطف هذا اللون.

وبينما كانت تقول ذلك كانت تقرب وجهها من وجه كامران وتتأمل عينيه وتقول: نعم! انا لا استذوق العيون الخضراء ولا احب الرجل ذا التقاسيم النسوية الرقيقة ولكن لا أدري كيف حدث ما حدث؟

ان هذه الشكوى البريئة كانت اقوى من أي اعتراف... عمت النشوة مشاعر الشاب وأراد ان يمسكها من رسغيها مقترباً بوجهه نحو وجهها ولكن انتفضت عصفورة السياج بشدة وأفلتت منه قائلة:

انتبه يا كامران فان قذفتك بحجر على رجلك رأيت الوجع كيف يكون؟

أخذ الاثنان يضحكان بسرور...

ـ هل بوسعك خلق عذر يمكنني من البقاء هنا الى ان تسافر؟

ـ طبعاً! فكرت بذلك.. لكنني لم أتجاسر لعرضه عليك لأنني خشيت عدم موافقتك.. لأنك منذ إعلان الخطوبة وانت تتهربين مني كأنك تخافين مني.

ـ انا اعمل ذلك؟ آه يا له من افتراء يا كامران!

ـ عندما طلبت منك ان تعودي معنا من (تكفور داغ) لنعلم أمي بخطوبتنا قلت: (لا! سأبقى انا هنا حتى آخر العطلة...) لم أتظاهر بألمي ولكن يعلم الله كم تأثرت وحزنت... بعدها عندما جئت الى استانبول وطلبت منك ان تتأخري في الذهاب الى المدرسة قلت: (لا يمكن ذلك ستبدأ الدروس ويسبقني الصف وهذا لا أرضاه). قلت هذا وانا اعلم مدى عدم اهتمامك بالدرس والمدرسة... وهكذا بقيت ليلة فقط شغلت خلالها بالضيوف الكثيرين دون ان تهتمي بي رغم انني قلت لك: (فريدة هلمي

نتمشى قليلاً في الحديقة فالقمر ساطع والطقس جميل...) فأجبت بدون اكتراث: (ما الداعي للتجول في الظلام كالخفاش وهناك جمع لذيذ وبالإمكان قتل الوقت والتسلية).. هذا البعض مما جرى.. أتريدينني ان اعدد الباقي؟... اسمعي! قبل مدة جئت لأراك في المدرسة فلم تحضري لرؤيتي بل ارسلت لي خبراً تعتذرين بأنك مشغولة.. كرري قولك... قولي: أهذا افتراء... .

ضربت فريدة بقدمها ثائرة حانقة كالاطفال وقالت بعناد طبعاً اقول.. قلت لي لنرجع من (تكفور داغ) معاً لنعلن الخطوبة فلم اقبل لأن قلبي كان يخفق حينذاك مضطرباً وجلاً احسب ألف حساب لما ستقوله أمك وما سيكون وقع الحادث في نفسها فكان من المحتمل ان تصب خالتي جام غضبها عليّ معتقدة بأنني لعبت دوراً كبيراً بهذه المسألة فتلقى التبعة على كتفي... وبعد عودتي من هناك كان بإمكاني البقاء مدة في الدار ولكن... شعرت بأن كل من في الدار يرمقني بنظرات غريبة غير مستحبة تزعجني وكم مرة سمعتهم يرددون هازئين: ها هي العروس... وعندما طلبت مني أن أتنزه في الحديقة خطر للحال الى خاطري نزهتك تلك مع نريمان هانم... فلم استطع مسايرتك... هل تظن بأنك أنسيتني ذلك الحادث بما قدمته لي من هدايا ظريفة لطيفة؟.. أما في المدرسة....

وأخذت تضحك عالياً وهي تصفق جذلة فرجاها كامران بإصرار وتوسل: قولي بالله عليك! خبريني بالسبب يا فريدة!

في ذلك الصباح شعرت بحنين للشيطنة وأردت ان أودع حياة العبث واللعب فسحبت درج زميلتي (قله مانتين) وجدت قطعة (كاتو) ثقبتها من الجانب وأملأت بها حبراً أزرق... وعندما جاءت زميلتي لتأكل (الكاتو) امتلأ فمها حبراً... آه لو رأيتها يا كامران كم كانت مضحكة بشكلها... لم أتمالك نفسي بل ضحكت بشدة حتى لم أستطع الحراك واستلقيت على أحد المقاعد. أدركت (قله مانتين) انني الجانية فهجمت علي غاضبة. أردت الهرب ولكن لم استطع لأنها استطاعت ان تلحق بي وتحبسني بين المقاعد وتدهن وجهي بما تبقى في يدها من قطعة الكاتو... عندما

تركتني كان وّجهي مصبوغاً بالحبر والكل يضحكن مني... وفي تلك الاثناء علمت بحضورك.. آه لو رأيتني في تلك الحالة... كنت مرتبكة خجلة لا ادري ماذا اعمل... لو حدث ذلك قبل الآن... فلا بأس ولكن كيف يمكنني مقابلتك بذلك الوجه المصبوغ بعد الخطوبة.

شعر كامران بفرح شديد مجبول بحزن عميق وقال:

- يا للخسارة! عندما بدأت أفهمك حكم علي بفراقك يا لصعوبة ذلك! يكاد الألم يفطر قلبي.

لمست فريدة بيدها جبين كامران بحجة رفع خصلة من شعره تهدلت وبحنان لم تظهره في أي وقت لأي انسان قالت: لا تتألم يا كامران! لم نخطب لأكون السبب لإيلامك، انا أود ان اكون دوماً مجلبة لسرورك.



10

ان كثيرين من أقارب كامران الذين كبروا وشاخوا لم يستطيعوا إدراك حقيقة نفسية كامران وكم كانوا يعطفون عليه لبساطته وعدم اهتمامه لشيء في الحياة سوى الكتاب والوحدة... فكان على الدوام يفضل البقاء في الدار لا يحب أبداً الاختلاط مع الناس وهذا ما دعا عمه لأخذه الى مدريد عله يستطيع بإبعاده عن الدار ان يلقيه في المجتمع وبين الناس فيعلمه طرق الاستفادة من شبابه ويخرجه من طور آنسة صغيرة الى طوره الحقيقي ورجولته الصحيحة.. وقد جاء بكتاب أرسله العم لبسيمة هانم: بوسع ابننا ان يعيش برغد ورفاه بما لديه من ثروة ولكن حوادث الدنيا عجيبة وليس بالإمكان معرفة ما تخبئه الأقدار من حوادث فلذا أريد ان افتح له طريقاً يسلكها في المستقبل فيأمن شر غوائل الدهر الغاشم فليتعلم هنا الحياة ووسائل الكفاح بدل ان يقتل الوقت في ركن داره بين الكتب بعيداً عن العالم والمجتمع.. إنه حر يستطيع العودة إليكم في أي وقت شاء ولكن أظنه يفضل البقاء لأنه رأى الحياة بمحيطها الواسع ويكفيه انه أصبح باستطاعته ان يضع على بطاقته تحت اسمه عنواناً يعد فخراً وهو (موظف مفوضية) وهذا أهم بكثير من بطاقة يكتب عليها (كامران جودت بك) لا يعرف الناس ولا الناس يتعرفون إليه.

لاقى هذا المنطق وقعاً حسناً وارتياحاً في نفس بسيمة هانم التي عشقت الشهرة والصيت في جميع سنين حياتها. أما كامران فقد أعجبته السياحة والتنقل لأغراض تختلف تماماً عن أغراض أهله وأقاربه.

أخطأ الأهل بتحليل نفسية كامران عندما ظنوه شاباً بسيطاً يفضل الوحدة والانزواء. ان كامران ذو نفسية شاعرية عميقة طموح لتحليل واكتشاف خبايا النفوس البشرية يسعى بكل ما أوتي من قوة لاستكشاف كل ما يحيطه من أماني وأحلام وما ان تحقق حلم واصبح حقيقة حتى انطفأت حرارة التنقيب في نفسه

وفقد الحلم رونقه وأخذ يفتش عن اشياء اخرى مجهولة كان يعيش بآراء متباينة ومختلفة مع من حوله في الحياة... يعيش بأحلامه في صمت وهدوء وكثيراً ما قضى غرامياته دون ما ضجة... كم أحب نساء لم يشعرن بغرامه... كان يجلس أمامهن ساكناً يبتسم ويحدق بالنظر إليهن حال وجودهن يتغزل بجمالهن في وحدته... ذلك الجمال الذي تلذذت نفسه به كثيراً خلال جلساته الحلوة اللذيذة.

ان ما يشعر به نحو فريدة لم يشبه قط تلك الأحاسيس التي مرت به في حياته.. كان يفكر في الماضي ان العاطفة مهما اشتدت واتقدت واضطرمت فإنها محكومة بالكبر والعجز ثم التلاشي والفناء... ولكن هذا الفراق فراقه عن فريدة كان يشعره بأنه لا يخمد من عاطفته شيئاً بل يزيدها قوة وحيوية تنمو وتشتعل على مر الايام.

قرر كامران البقاء في مدريد ثمانية شهور على الأكثر يعود بعدها في الصيف الى استانبول ولكن الذي لم يعقد النية على البقاء في وظيفة ان مركز اكثر من سنة تجول أربع سنوات في انحاء أوربا لم يتخلل تلك المدة أي فاصل.. تسلى الشاب كثيراً في أوربا فأطفأت تلك السلوى دون ان يشعر ذلك الحنين الذي كان يشعره عند سفره لحياة استانبول. فلم يزر بلدته خلال تلك المدة الطويلة أكثر من ثلاث مرات بمأذونية شهر او شهرين.

رغم تجاوز العم الستين من عمره كان شغوفاً بالملذات لم تمجها نفسه وكان يقول لكل من ينصحه بالاعتدال حرصاً على صحته (ان أحسن أنواع الموت هو الذي يداهم المرء وبيده الشراب وعلى شفته القبلة).

لم يكن بوسع شاب في مقتبل العمر ككامران ان يعيش متحفظاً في كنف عم كانت تلك فلسفته في الحياة.. فخاض خلال الأربع سنوات بمغامرات لا حساب لها إلا ان كل مغامرة لا تدوم اكثر من شهرين... إلا واحدة منها عذبت الشاب كثيراً حدثت له في سويسرا مع سيدة تركية. كانت علاقة قوية عميقة.. لم يطرأ على علاقته بفريدة اي فتور من تلك العلاقات الطارئة التي لا تعدو عن كونها مغامرات طيش وشباب.. فالموفقيات السهلة التي كانت تلازم كامران في مغامراته وتسعده كانت بحكم الفعل

تمحو خيال خطيبته من نفسه ومخيلته فلا يبقى أي اثر لذكراها في قلبه ولكن عندما تبوء المغامرة بالفشل يتراءى له خيالها من جديد محاطة بإطار من تلك الآلام، آلام الفشل المؤقتة فتنسيه حزنه وتكون له نعم السلوى.

عندما عاد مع عمه بعد أربع سنوات وقد طلق العم الوظيفة الى غير رجعة كان يشعر بألم يحز في قلبه.. لأنه ترك هناك غراماً ما زال دخان نيرانه يتصاعد الى أنفه.. غراماً لم يجن منه الثمار التي كان يود جنيها... لكنه ما وصل الى المحطة وتراءت له عينا فريدة تبرقان تحت الحجاب المنسدل على وجهها اللطيف حتى نسي كل شيء وانصرف بكليته لتلك النظرات.

مهما طرأ التبديل في حياته فإنه ما زال يشعر بسلطة تلك العينين اللتين لامستا شفتيه في الارجوحة قبل أربع سنوات في (تكفور داغ) سيبقى ذلك الشعور خالداً في نفسه وان ركد ونام في بعض الأحيان.



بقي يومان للعرس وانقلب القصر الى خلية تعج بالناس.. فالأقرباء جاءوا منذ اسبوع الى القصر وشمروا عن سواعدهم ليشاركوا اهل القصر بالاعمال. يكتب البعض بطاقات الدعوة والبعض يتجول في الاسواق لإتمام الاشياء التي مازالت ناقصة والبعض تعهد بالقيام بأعمال ترتيب السفرة والطعام.

الكل يعمل بنشاط إلا عصفورة السياج.. انها لم تتقيد بأي عمل بل كانت كالاطفال تقفز من هنا الى هناك دون عمل تقوم به وكثيراً ما عرقلت سير الاعمال فاختل النظام وعم التشويش. مثلاً قبل يوم واحد أرادت ان تشارك الاهل بالعمل فاختارت لنفسها إطعام الصغار ولكنها ما ان بدأت بالعمل حتى عمت الفوضى غرفة الطعام وجعلت خزانة الأكل مبعثرة منبوشة.

بينما كانت بسيمة هانم تجلس مع بعض قريباتها يتحادثن بشئون هامة تتعلق بالعرس فتح الباب فجأة ودخلت الخياطة بلباسها الاسود وشعرها الرمادي تعبة منهوكة تقول:

ـ قضيت نصف ساعة أفتش على العروس يا سيدتي... وهناك ضرورة لأخذ قياسها لأجل فستان العرس والعروس غائبة تعطلت أعمالي... أتراها ذهبت الى جهة ما؟

أجابت بسيمة هانم: الى أين تذهب يا آنسة لا شك من وجودها في القصر.

ـ فتشت القصر كله من غرفة النوم حتى المطبخ والحديقة فلم أجدها ولم اعثر على أحد رآها.

وقفت بسيمة هانم ضاحكة تقول: يستحيل عليها ان تهدأ وتتزن أخشى ان تكون قد ذهبت الى الجيران.. اقتربت من النافذة لترى أحداً تسأله عنها. رأت قرب باب القصر أولاداً يتلاعبون ضاحكين فنادتهم قائلة:

ـ ارأيتم فريدة يا أطفالي؟

فأجاب احدهم: آبلا فريدة هنا يا امرأة عمي.. ها هي تلعب معنا.

علت القهقهة في الصالة وتراكضت السيدة نحو النافذة ليتفرجن على العروس وهي تلعب. رأينها آتية نحو النافذة وهي تقفز وتتراكض فيلحقها الاطفال وقد ارتدت مريولاً اسود هو ما تبقى لها من حياتها المدرسية.

ضحكت بسيمة هانم بخجل ترافقه الحدة وقالت: أقسم بأن هذه الفتاة طائشة ولا يمكن بأي حال ان تعقل وتتزن... ثم نادتها: فريدة ابنتي ما هذا العمل الذي تعملينه؟ انهم يفتشون عليك منذ نصف ساعة فأين انت تعالي بسرعة.

رأت فريدة السيدات واقفات عند النافذة يتطلعن عليها فأرادت الهرب مستترة بالاشجار دون ان تدعهن يرينها وقالت: اسمحي لي بدقيقة يا خالتي استبدل خلالها ثيابي.

ـ لا! احضري بشكلك فانا منتظرتك بسرعة. واستدارت نحو قريباتها تقول لهن: أرجوكن وأتوسل إليكن ان تسدين بعض النصح لهذه المجنونة عساها ترتدع وتعود الى

صوابها. إذا كانت هذه حالها اليوم فماذا ينتظر منها في الغد عندما تصبح ربة بيت وأم اولاد.. آه! عندما اقترب زواجنا هدأنا ولم نفتح فمنا بكلمة قبل اسبوع.

دخلت فريدة خجلة وجلة تخفي ارتباكها بابتسامة صفراء فقالت لها الخالة ابنتي فريدة! انظري الكل يعيبون أعمالك... اتركي بالله عليك هذا الطيش. ستصبحين عما قليل سيدة منزل فهل بعدها طيش ولعب؟

قطبت فريدة ووقفت كأنها معاقبة في المدرسة وقالت: آه يا خالتي هناك يومان طويلان وعريضان لأصبح سيدة منزل.. عندما فكرت بأنني بعد يومين سأقسر نفسي لأضبطها واتظاهر بالهدوء والكمال امام المدعوات كنت أجن حزناً وكمداً.. فكرت بأنني سوف استطيع بعد غد إتيان أي عمل من شأنه ان يصدر من طفلة فلذا أحببت ان أودع حياة الطيش واللهو فارتديت ملابس المدرسة ونزلت لآخر.

ضحكت السيدات ثم قالت الخالة عائشة الآتية من (تكفور داغ): لها الحق فريدة لم لا تستفيد من آخر ايام الطفولة وتودع حياة اللهو أنى لها ذلك بعد ما تختلط بالبيت والاطفال. اسمحوا لها ان تصنع ما تشتهيه اليوم.

قطبت بسيمة هانم محتجة وقالت: عافاك الله يا عائشة.. حقاً! انك قمت بما رجوته منك أحسن قيام.. ثم استدارت نحو فريدة تقول: لا تسمعي كلامهن يا ابنتي وانتبهي إليّ ولا تنسي بأنني (حماتك).

رفعت فريدة بيدها ملابسها قليلاً وانحنت تؤدي التحية على الطريقة الاجنبية المتبعة في مدرستها والنشاط والحيوية يشعان من عينيها البراقتين وقالت: أستميحك عذراً يا خالتي... لا تتعجلي فهناك يومان طويلان لتصبحي حماة... وعندها اسمع نصائحك وأقوم بكل ما تطلبينه خير قيام... أما اليوم فانني ما زلت عصفورة سياج... وانت الخالة التي احتملت نقائص العصفورة برقة وحنان. وكثيراً ما ضحكت وراقت لك تلك الاعمال... ثم حملت بسيمة هانم ورفعتها عالياً وهي تقبل وجنتيها ويديها بمحبة ولهفة.

كان ذلك مفاجأة للسيدة لم تعرف كيف تتخلص منها ولا ماذا تصنع.. أدت عصفورة السياج بعد ذلك التحية للسيدات الموجودات في الصالة وتسللت من الباب راكضة ترسل الضحكات العالية.

❋

عندما طلب من فريدة ان تلبس ثوب العرس ليطمئنوا على صحة مقاساته احمر وجهها خجلاً وأخذت تداعب وجنات رفيقاتها الموجودات في الغرفة راجية متوسلة: أرجوكن ان تخرجن من الغرفة لأنه يستحيل عليّ استطاعة ارتداء الفستان بحضوركن... تخيلن عصفورة السياج بفستان طويل.. آه! ما أسخف ذلك انه يجلب الضحك للكل حتى انا لا أتمالك نفسي عن الضحك كلما تصورت ذلك... آه لو قبلوا رجائي وسمعوا مني ان أزف بدون هذا الفستان.

وكلما دنت الخياطة منها بالفستان زاد خجلها واحمرارها وكأنها تتهرب من رجل غريب يعترض سبيلها فترتجف... اخذت مزكان تؤنبها بشدة لأنها كانت قد سبقتها فأصبحت زوجة منذ سنتين لمحام ثري يقطن في استانبول فشجعتها قائلة: لا مناص من ارتدائك الفستان الآن لنتأكد من خلوه من العيوب.. إذ من يدري لعل به أغلاطاً يجب تعديلها قبل يوم الزفاف.. وهذا ما حدث لنا جميعاً عندما تزوجنا.

ألقت فريدة نفسها بأحضان مزكان تعبة منهوكة والدم يتصاعد من وجهها وأخذتا بالكلام على مهل: مستحيل... رغم أنني اشعر بسخافة ما اعمل.. فانني لا استطيع القيام بما يطلب مني... ارجوك أتوسل إليك أخرجيهن من الغرفة أولاً وبعدها نرى ماذا يكون.

ـ طيب سأبقى معك وحدي.

ـ لا ارجوك اخرجي انت أيضاً ولأبقى وحدي.

ـ فريدة! ما أسخفك.. لا تنسي ان هذا الزواج الذي تستقبلينه هو صنع يدي.

ـ أتفاخرين؟ هل تظنين نفسك أتيت عملاً طيباً؟

ـ كيف ذلك؟ تشكين يا فريدة؟ هل أسأت إليك بعملي؟ ألا تحبين كامران؟

ـ لا أدري.

وبعد ارتباك دام لحظة قصيرة أخفت وجهها في عنق مزكان وبصوت يكاد لا يسمع قالت: (أشكرك) شعرت مزكان بعدها بحرارة دمعتين سقطت على عنقها.

لم تبحث فريدة خلال الاربع سنوات أمر خطوبتها وطالما أجابت صديقاتها عندما يسألنها بكلمة: لا أدري... ولذا كانت كلمة (اشكرك) مع الدمعتين هي أول حديث قالته فريدة بشأن زواجها.

سألتها مزكان: أتحبينه كثيراً؟ وأكثر من قبل يا فريدة؟

ـ لا أدري.

ـ أتحبينه بعد غد هكذا بكلمة (لا ادري) إذا سألك عن درجة حبك له؟

انتفضت فريدة وقالت: مزكان ارجوك اخرجيهن من الغرفة لأرتدي الفستان وأرى نفسي بالمرآة وأبدأ انا بالضحك عليها وبعدها ربما اعتادت عيني وألفت المنظر فأتجرأ لدعوتكن... آه نعم سأضحك كثيراً سأسخر من نفسي بشدة.



عندما ارتدت الفستان ووقفت أمام المرآة لم تجرأ على الضحك لأن الخيال الذي تراءى لها في المرآة هو صورة شابة غريبة تماماً عنها. كانت شابة جميلة ذات قوام جميل وخصر نحيل... ولأول مرة في حياتها لم تسخر من وجهها ومنظرها فتخرج لسانها استخفافاً... بل شعرت بأنها تحب هذا الوجه وانه جميل.. وأخذت تتأمله باستحسان.

طال انتظار الصديقات وأخذن يقرعن الباب يردن الدخول ونادتها إحداهن محتجة تقول: فريدة كفانا انتظاراً ها نحن ذاهبات.

ـ انتظرن قليلاً أرجوكن... عندما انتهي من الارتداء سأناديكن!.. اسمحن لي بلحظة فقط.

ما من مرة تكلمت فريدة بهدوء إلا وأتت بعدها بلعبة شيطانية فلذا قالت إحداهن: أقسم بأنها تخدعنا للدخول بعد ما تخلع الفستان فالأحسن ان ندخل بالقوة وأخذن بدفع الباب بقوة وبدأ عراك مثير.. اختلط الاطفال مع الكبار وهم يدفعون الباب من الخارج وفريدة تقاوم بكل ما أوتيت من قوة لتمنعهم من فتحه... والجميع يتضاحكون وقد لذ العمل للاطفال فأخذوا يضربون الارض بأقدامهم الصغيرة صائحين: (هجوم... هجوم... هنا الحرب).

اخذت الخياطة تصرخ من الداخل: أرجوكم الكف عن هذا العمل الصبياني لأن الفستان كاد يتمزق من الصراع والمقاومة... فلم يسمعها أحد لشدة الضوضاء... صدف دخول كامران الى البهو خلال المعركة فسمع الاصوات العالية فسأل مستغرباً: ما الخبر؟ لم هذه الجلبة؟

ـ لا شيء... ارتدت عروستك فستان العرس ونحن نود رؤيته وهي تمانع... قل لها انت ان تفتح الباب... علها تجيب طلبك.

اقترب كامران من الباب ضاحكاً وقال: افتحي فريدة... انا بالباب... وليس هناك غريب.

وما ان سمعت فريدة صوته حتى صرخت وجلة وتمسكت بالباب بقوة المستميت... استمر كامران على الكلام وقال:

افتحي فريدة فمن يحق له الدخول اكثر مني؟ دعيني ادخل واراك... وإذا اردت نتعاون بمنعهم من الدخول.

اخذت فريدة تتوسل ضاحكة: أرجوك يا كامران ان تذهب ان دخول الجميع أهون عليّ من دخولك فلذا أتوسل إليك ان تبتعد... لأنني على وشك البكاء.

لم يعط كامران بالاً لتوسلاتها بل تعاون مع البقية على فتح الباب ولم تكف مقاومة فريدة لردعهم... انفتح الباب على مصراعيه وهربت عصفورة السياج صارخة

والتفت بمعطف عثرت عليه في طريق هربها وانكمشت بداخله ترتعش. ضربت الخياطة كفاً بكف ناحبة تقول: ويلاه ضاع الفستان... تمزق الفستان.

جذب كامران المعطف فرحاً بانتصاره وقال: لم يبقَ بد من الاستسلام... عبثاً تقاومين... دعي المعطف وإلا جذبته بالقوة.. هاك الفرصة سأعد للخمسة.... واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أر.... واه! ماذا جرى لك يا فريدة؟

أخفت فريدة وجهها بين ثنيات المعطف وأخذت تبكي بنشيج. ارتبك كامران وخاف على عروسته فبدأ بإخلاء الغرفة بالرجاء تارة والمقاومة اخرى وأشار للخياطة المستغربة من أطوار العروس إشارة يفهم منها معنى (لا بأس) لأن هذه العصبية الغير منتظرة من فريدة أثارت عطفه وألمه نحوها... فأحنى قامته فوقها بحنان يقول: فريدة حبيبتي لم أقصد إيلامك ولم أتصور قط مدى تأثرك. سامحيني فأجابت وهي لا تزال تخفي وجهها: طيب.. ولكن أرجوك ان تذهب للحال.

ـ بشرط واحد وهو موافاتك لي في الحديقة تحت شجرة الصنوبر.. أتعدينني بذلك؟

ـ حاضر أقسم لك بأنني سأحضر، اذهب الآن... انصاع كامران لطلبها مختاراً وخرج من الغرفة لأن مصيرها بيده وبإمكانه ان يسعد او يشقي تلك المخلوقة الصغيرة وبديهي بان حبه لها يجعله ان يكون رقيقاً لطيفاً.

خلعت فريدة فستان العرس وعادت لارتداء فستانها الزهر القصير وارتدت مريول المدرسة فوقه من جديد وأرادت ان توافي كامران بالحديقة دون ان يراها احد لأنها متأكدة بأنهم سيسخرون منها... فلذا تسللت من الباب الخلفي تود الخروج الى الحديقة في غفلة من الجميع.. تقابلت على حين غرة بسيدة غريبة تتدثر ملاءة سوداء وتحجب وجهها بنقاب كثيف تحرص كل الحرص على اخفاء معالمه.

لم تعط بالاً للسيدة في بادئ الامر لأنها اعتادت زيارة الكثيرين والكثيرات خلال الايام الأخيرة ولكن السيدة الغريبة اتجهت نحوها تقول: آنستي! هل تسمحين...!

ـ تفضلي... هل من خدمة؟

ـ أليس هذا قصر المرحوم سعد الدين باشا؟

ـ نعم يا سيدتي.

ـ هل انت من القصر؟

ـ نعم.

ترددت السيدة قليلاً ثم قالت: اريد مواجهة الآنسة فريدة... تماسكت عصفورة السياج عن الضحك لأن وقع كلمة (آنسة) ولأول مرة من سيدة غريبة كان يثير الضحك في نفسها.

لم تتجرأ عصفورة السياج لتعريفها بأنها المقصودة... لأنها خشيت سخرية السيدة وعدم تصديقها ولذا أطبقت شفتيها تمنع ضحكها وقالت:

ـ اسألي من القصر يا سيدتي.

وكان مرادها ان تسرح من الباب الخلفي فتبدل ثيابها وتعود لمقابلة السيدة بشكل يتناسب مع ما تطلق عليها السيدة من لقب... لكن السيدة كانت واقفة كمن لا يتجرأ على الدخول.. وقالت:

اسمعي يا حبيبتي اريد مواجهة فريدة هانم دون معرفة احد من القصر... ان ما سأقوله لها في غاية الأهمية... سررت من الصدفة التي جمعتني بك فكم اشكرك لو تكرمت وناديت لي فريدة هانم الى هنا دون ان يشعر احد بذلك.

تطلعت فريدة الى السيدة باستغراب وكان الظلام لا يمكن فريدة من رؤية وجه السيدة المختفي تحت نقابها الكثيف... وبعد تردد قصير قالت: انا فريدة التي تطلبين يا سيدتي.

ـ انت؟ أعني فريدة خطيبة كامران بك يا ابنتي... أحنت فريدة باستحياء وقالت: انا هي يا سيدتي.. لم أشأ تعريفك بنفسي لخجلي من هيئتي وملابسي.

ساد السكوت بين الاثنتين قليلاً شعرت فريدة خلالها بثورة واضطراب السيدة فقالت: سيدتي! انا بانتظار أوامرك.

ظلت السيدة ساكتة لا تحير جوابا فأرتها فريدة مقعداً طويلاً كان بالقرب منهما وقالت: هيا نجلس هناك ثم حدثيني بالداعي لرؤيتي.

ـ من التي أتشرف بمحادثتها يا سيدتي؟

أخيراً قررت السيدة الكلام... رفعت بحركة عصبية ملحوظة النقاب عن وجهها فلاح من تحته وجه لا بأس بجمالها شقراء الشعر تبلغ الثامنة والعشرين او الثلاثين من عمرها.

فأجابت السيدة: انا رسولة جئت من قبل صديقة... لم أشأ الحضور في أول الامر.

استغربت فريدة وضع السيدة فسألتها:

ـ هل لي سابق معرفة بتلك الصديقة يا سيدتي؟

ـ كلا هي لا تعرفك لكنها تعلم بانك خطيبة كامران بك.

ـ إذن؟

لم تجد فريدة كلاماً تستمر به وأخذت ترتجف دون ان تدرك سبباً لذلك... فساد السكوت بينهما ثانية مدة من الزمن بدأت بعدها السيدة الكلام بجرأة اليائس:

اسمعيني يا فريدة هانم عندما جئت الى القصر كنت احسب بانني سأقابل خطيبة كامران بك وهي آنسة تقاربني سناً وبديهي بأنه عندئذ لا تكون مهمتي صعبة شاقة كما اصبحت الآن عندما رأيت امامي آنسة حلوة صغيرة وتعرفت إليها بأنها فريدة هانم التي اريد مقابلتها. ولا أنكرك بانني لأول وهلة استصعب الامر وأردت العودة حالاً من حيث أتيت دون ان أفاتحك بشيء ولكن عندما استعرضت خطورة المهمة التي آليت على نفسي القيام بها توقفت ورأيت نفسي مجبرة لقول كل شيء مهما كان صعباً عسيراً.

ثم أخذت السيدة يد فريدة برقة غير منتظرة وقالت:

انا لا اخشى او أتورع من إيلام سيدة مترفة ناضجة أعمتها السعادة والغرور ولكن يصعب عليّ كثيراً ان أوقظ شابة صغيرة بل طفلة من حلمها اللذيذ وأكون سبب ألمها... ولكن ماذا اصنع؟ هذا ما يدعوني إليه واجب الصداقة... قولي بربك أتحبين كامران بك يا آنستي؟

سحبت فريدة يدها من يد السيدة منتفضة تقول: ماذا يعنيك من ذلك يا سيدتي؟

ـ لأن هناك امرأة غيرك تحب كامران وهذا ما يدعوني للسؤال.

ـ هذا ممكن يا سيدتي... لأن كامران شاب لطيف... ورأيت في الماضي بأم عيني تهافت السيدات عليه ينشدن الحب في أحضانه. وكم مغامرات وقعت له ولكن رغم كل ذلك طلب يدي واختارني زوجة له.. على كل أصبح مربوطاً بي منذ أربع سنوات وقد صفى حساباته مع الناس منذ ذلك الحين _على حد تعبير التجار_ فهل من داعي لزيادة الإيضاح يا سيدتي؟

وما ان أكملت فريدة حديثها حتى استعادت حرصها المعتاد وشعرت شعور المنتصر الفائز.

هذه هي النقطة التي تخطئين بها يا آنستي.. لأن كامران بك لم يصف حساباته بعد ويغلق دفاتره كما تقولين بعد ما خطب فتاة حلوة لطيفة مثلك.. عفوك يا آنستي لإيلامي لك بهذا الشكل.. ان كامران بك بقي مسترسلاً في لهوه وعبثه كما كان.. وتعرف قبل عامين بالسيدة التي جئت لأكلمك بشأنها.

لا! لا! ان هذا مستحيل... لا يمكن حدوثه من شاب ربط مصيره فعلياً بفتاة فأعلنت خطوبتهما.

أراك طفلة اكثر مما أتصور يا فريدة هانم... لم تتعرفي على الحياة والنفوس البشرية بعد يا آنستي.. ان ما أسرده لك هو حقيقة واقعية لقد عاش خطيبك مع السيدة شهرين في سويسرا... شهران قضياهما معاً فنسي عمله... ونال جزاء تجاوزه مدة المأذونية عند عودته الى الوظيفة.

اسمحي لي ان اقول لك ان هذا كذب يا سيدتي... اشعر بسفالة عملك... انا أكره روحك الشريرة.

لا تتسرعي يا ابنتي بحكمك واسمحي لي ان أسرع بسرد القصة عليك لأنني اشعر بنزق الطفولة الذي يكاد يخرجك من طورك..اسمعي يا فتاتي... مرضت صديقتي بعد وفاة زوجها فأشار عليها الاطباء بالسفر الى سويسرا للاستشفاء والاستجمام لأنها كانت بعد الصدمة من أحوج الناس للراحة والهدوء... اعترض كامران سبيلها فالتقيا

وكان شاباً جذاباً ومنور (صديقتي) مريضة بائسة لم تستطع مقاومة اصراره وإغرائه.

ربما تظنين بصديقتي السوء وتحسبينها امرأة مستهترة ذات روح دنيئة لسرعة وقوعها في شباكه... لكن الحقيقة ليست كما تحسبين يا فريدة هانم... قبل كل شيء اخفى كامران عنها أمر خطوبته تماماً.. وألقى في روعها بأن علاقته بها ستنتهي بالزواج وهكذا توهمت المسكينة بان هذا الحب سيكون خير وسيلة تنسيها حزنها وأساها بعد الفاجعة التي أصيبت بها بوفاة زوجها الذي لم تهنأ بحبه وعشرته.. هذه كانت حالها عندما تعرفت عليه... فكيف تقولين؟ أما كنت تتورطين مثلها لو كنت في محلها؟

تأوهت فريدة بألم وبصوت يكاد لا يسمع أجابت: لا يا هانم!.

استمرت السيدة على الكلام بحزن تقول: انك ما زلت طفلة ويظهر انك لم تجربي الكدر ولا تفهمين الألم انا آسفة لإيلامك ولكن ماذا أصنع وهناك صديقتي المسكينة التي تعيش بدون أمل... أرجو ان لا تظني بي السوء والرداءة يا آنستي واعذريني.

أجابتها فريدة بغرور وحشي قاس قائلة: لا يا هانم! كلامك لا يؤلمني لكنني استغرب من انحطاط كامران بهذه الدرجة ولا اتصور ذلك منه... تابعي حديثك من فضلك...

في تلك الآونة أخرجت السيدة ورقة من حقيبتها وأخذت تضغط عليها بشدة بين أناملها قائلة:

- ربما داخلك الشك من كلامي فلذا جئتك بكتاب كامران أرسله إليها وأخشى ان تزيد من قراءته آلامك.

- لا يا هانم أعطنيه بربك.

انتصبت فريدة واقفة وأدنت الورقة من عينيها تسعى لقراءتها رغم الظلام الذي أخذ الكون يتشح بردائه.

كانت الرسالة تبتدئ بكلمة (أي وردتي الصفراء!) وكأنه كان يكتب مقدمة رواية غرامية كان يقول:

هناك حس قبل الوقوع يشعر به المرء بالعشق الجارف. كنت اشعر بلذة خفية بينما كنت عائداً في احدى الأمسيات من نزهة حلوة في البحيرة... لأن الحب يلهب قلوب العشاق قبل ملامستها كما ينشر الفجر اضواءه قبل طلوع الشمس فأخذت احدث نفسي قائلاً: (ما هذا يا قلبي اشعر بفرح مبهم أراهن انه بشائر فرح لذيذ..) وهكذا بينما كنت ادخل الفندق رايت على احدى المناضد رأساً اشقر حلواً يتلامع تحت أضواء الكهرباء... سألت من تكون وانا اشعر بشعور غريب... فعلمت بأنها سيدة من استانبول أتت للاستشفاء وايقنت بأن ذلك الفرح الذي يطير بقلبي منذ ساعات كان بشائر هذا اللقاء الحبيب...)

وبعدما بالغ بذكر خيالاته ومشاعره بأسلوب شعري ثرثار لا يتعدى عن كونه (طعماً) لكل امرأة يراد إيقاعها في الشباك. كتب السطور التالية: "كان قلبي فارغا محروماً يتعطش للغرام السامي وإذا بوجودك قد أهاج بي الشوق فصرت كفاقد الحياة في صحراء وجد في طريقه وردة صفراء حلوة فدبت به الحياة.. أحببتك بعين احلامي قبل أن أراك وألمس شعرك الذهبي وأسكر من عبير أنفاسك...".

اشترك الألم مع الظلام فأصبحا عثرة ثقيلة تمنع فريدة من قراءة الكتاب.. فلذا اخذت تزيد من تقريبه نحو عينيها كأنها تريد التهامه بعينيها! أصرت على القراءة بأي ثمن واستطاعت قراءة الجمل التالية:

"كان قلبي فارغاً متعطشاً.. فأملأت فراغه بقوامك اللدن الفتان... وشعرك الذهبي ولحاظك الفتاكة".

ـ أرى الظلام يتبعك ويحول دون متابعتك للقراءة؟ وكانت فريدة مضطربة متألمة بشكل لم ترَ معه لزوماً لإتمام الرسالة.. فقالت:

نعم! لم أعد استطيع القراءة فالظلام حالك... على كل لم يعد هناك لزوماً للقراءة... وكانت ترتعش بعصبية ظاهرة لكن الظلام كان يستر ما بها.

قالت السيدة بخجل: فريدة هانم حبيبتي! اعذريني ان انا أزعجتك... فلم تدعها العصفورة تتم قولها بل قاطعتها معترضة وقامت من محلها وكأنها تلقي حملاً كانت

تنوء تحت عبئه وقالت: أمنعك يا سيدتي من التأسف لأجلي... غدر بي خطيبي... هذا امر عادي لا تأسفي... هناك آلاف من المآسي تقع كل يوم.. هذه حوادث مألوفة لا تستوجب الألم والحزن... وأخذت طوراً قاسياً لم يكن مأمولاً وهي تسأل:

ـ ماذا تريد مني منور هانم؟

ـ آه! لا ادري ماذا اقول!... بديهي بأنه لا يحق لها ان تطلب منك إعطاءها كامران... لا ولكن مسكينة هي أيضا لا تعرف ماذا تقول... وان ألمها الشديد يخرجها عن طورها وسكونها رغم ما يلزم هذه الاوضاع من تعقل.

ـ هل العلاقات ما زالت مستمرة بين الاثنين منذ ايام سويسرا؟

ـ اجتمعا مرتين بعد عودة كامران في العام الماضي.. كان ذلك باصرار من منور لأن غرام كامران لها فقد تماماً حرارته الماضية... إلا ان منور تحبه بشكل لا يريها الحياة بعده... أما كامران فأنه يجيب دوما على كتبها ودموعها وعواطفها بمعذرة واحدة لا تزيد عن قوله... ما حيلتي يا منور وخطيبتي ابنة خالة يتيمة الأبوين وحيدة لا معيل لها... لا يجوز لي تركها بشكل وحرام عليّ ذلك!.

عندما عاد نهائياً هذا العام من أوربا سمعت منور بذلك وكتبت إليه تصر بالحاح على مقابلته.. لكن كامران بك جعل السكوت جواباً لكتابتها.. فأصرت عليّ ان أسعى لمواجهته ففعلت حباً بها وعندما قابلته قال لي: (ان حبي لمنور هانم او عدمه ليس بموضوع بحث او نقاش.. والحق أنني آسف جداً لإيلامها. ولكن هناك عمل وجداني لا استطيع الهرب منه بأي شكل... إذ كيف تريدينني ان اقول لطفلة أحبتني "انا لا أريدك".. أقول ذلك وقد مضى على خطوبتنا اربع سنوات قضتها في بيتنا كخطيبة... كيف تستطيع ان تبقى معنا (لو فرضنا بأنني قلت ذلك) بعد فسخ الخطوبة؟ وأين تذهب؟ وهي وحيدة لا أهل لها ولا أقارب سوانا.

جن جنون فريدة وقطعت الكلام على السيدة بحركة خشنة تقول:

كفاك إيضاحاً يا سيدتي رافقتك السلامة.

ـ اسمحي لي يا فريدة هانم بدقيقة أرجوك باسم رفيقتي.

أسكتتها فريدة بعناد وهزت رأسها تقول:

لا لزوم لذلك.. سأعطي صديقتك ما تريده وتشتهيه سأعطيها خطيبي... سأنصرف لانني لست بحاجة للبقاء بينهما لأن بوسعي كسب قوتي... لا أحب البقاء في هذه الدار لتكون لي ملجأ... والحقيقة انني ما وددت الاقتران بهذا الشاب بل كان ذلك صدفة... خبريها بأن ما حدث كان أحسن ما يمكن حدوثه فليباركها الله وانني أطلب مقابل ما صنعت ان تتركي لي هذه الورقة... إذ من يدري ربما ساورني الندم في المستقبل على فعلتي هذه عندها أقرأ الورقة فأطرد الندم وأعطي نفسي الحق لما فعلت... مع السلامة يا هانم اذهبي بالأمان واحرصي على ان لا يراك أحد.

ابتعدت السيدة دون ان تجسر على قول أي كلمة. أخفت فريدة الكتاب في جبب صدريتها وتسللت الى القصر كلص يتحاشى رؤية الناس.

انتظر كامران عصفورة السياج تحت الصنوبر اكثر من نصف ساعة، فلم تأت واخيراً قطع الأمل وتراءى له سرب من الفتيات يتضاحكن قرب الحوض فظنها غارقة معهم باللعب والحديث ناسية الموعد.. ولذا اقترب منهن ليراها فلم تكن بينهن. فتش عليها ولم يترك اتجاهاً في الحديقة إلا وسلكه بغية العثور عليها. وسأل كل شخص مر به عنها فأجيب بعدم رؤيتها وأخيراً فكر باحتمال وجودها في غرفتها. في الواقع كان بصيص نور يتراءى له من غرفتها. صعد السلالم المظلمة واقترب من باب الغرفة يطرقه قائلاً: (أيتها الكذوبة الصغيرة! عبثاً تختفين، كفاك ضحكاً عليّ..) وأخذ يمازحها هكذا دون ان تجيب على كلماته.

فكر بأنها ربما أقفلت الباب عليها لتقوم بنكتة جديدة... لكنه ما كاد يمسك الباب حتى فتح على مصراعيه... كانت الغرفة خالية والحوائج مبعثرة... والخزانة مفتوحة والملابس مدلاة والارض ملآى بالكلسات والقمصان. وفوق منضدة الزينة كانت شمعة مضيئة.

تطلع كامران حواليه بدهشة واستغراب واقترب نحو المنضدة فلم يفهم شيئاً مما رأى وفجأة وصل الى سمعه حفيف ورقة يتلاعب بها النسيم. فالجريان الذي حدث من

فتح الباب كاد يلقي بورقة على الارض كانت موضوعة تحت الشمعدان رأى اسمه مكتوباً على الورقة بحروف كبيرة قرأها على ضوء الشمعة الباهت: (خصوصي لكامران بك).

فتح الغلاف بيديه المرتعشتين رأى ورقة مسطرة اقتلعت على عجل من احدى الكراسات المدرسية مكتوبة على الشكل التالي: كامران بك... أطلعت على كل شيء ولذا أصبح لقاؤنا مستحيلاً الى الأبد.. اكرهك، عبثاً تحاول العثور عليّ. (فريدة)

ساد القصر الهرج والمرج فأين تراها تستطيع الذهاب في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل؟. لم يدعوا دار أصحاب قريبة إلا وطرقوها مستفسرين... فلم تجدِ تحرياتهم نفعاً في تلك الليلة او الايام التالية للعثور على عصفورة السياج.



القسم الثاني

5 تشرين الاول (ب ...)

كان عجوز ممتلئ قصير يشعل اللوكس المعلق فوق الباب عندما وقفت العربة أمامه ونادى سائق العربة يا حاج قلفه.. تعال... اتتك زائرة.

كان العجوز منهمكا بتثبيت اللوكس في المسمار فأجاب دون أن يدير رأسه: لتنتظرني انا آت.

وفي تلك الاثناء كان يسمع صوت المؤذن وهو يؤذن آذان المغرب ورذاذ المطر يهطل بهدوء يتناسب مع ظلام المساء.

أتى الحاج قلفه إلينا يميل على رجله قليلاً لعرج بها ودون ان ينظر إليّ اخذ الحقيبة من السائق.. وبينما كنا نصعد سلم الفندق اخذ يحدثني دون ان يحاول النظر إليّ: أقادمة من استانبول يا هانم؟

- نعم.

- عرفت من هيئتك انك استانبولية وانني اعرف بنات استانبول ولو كن بين جيش جرار... أليس لك رجل؟

- لا! انا وحدي.

- عجبا... هل انت معلمة مدرسة.

فأجبته بحيرة: من أين انت عرفت ذلك؟

بعد أن قطعنا بهواً كبيراً فارغاً وصلنا الى رأس سلم. لم ير الحاج قلفه لزوماً لرؤيتي بل تابع كلامه.

- لأن السيدة لا تخرج للسفر وحدها بدون رجل... سوى المعلمات. هل جئت بدلاً من معلمة مدرسة الرشدية نصيبه هانم؟ مسكينة كم لحقها من حيف... لقد أحالوها

على التقاعد وهي ما زالت قوية.. ما اغرب تقاعد المرأة! كانت سيرة المسكينة قويمة حسنة. أصحيح ما فكرت عندما خمنت انك جئت محلها؟

ـ نعم انا آتية لمدرسة الرشدية ولكنني لا أعلم بدل من ساكون.

ـ هو كذلك! فليس هناك شاغر سوى محل نصيبه هانم آمل تستريحي بين يدي العجوز الماكرة.

ـ من هي العجوز الماكرة؟

ـ هي المديرة فائقة هانم يا ستي. آه ليتهم أحالوا تلك المرأة للتقاعد... لارتاحت المعلمات والناس كلهم... وانني انذر وليمة عند خروجها.

ازداد استغرابي ودهشتي إذ من أين لخادم الفندق العلم بحوادث المعلمات بكل هذه التفاصيل.

وصلنا للطابق الثاني فترك الخادم الحقيبة هنيهة يستريح وبعدها قال دون ان ينظر إليّ أيضاً:

سآخذك للطابق العلوي... هناك غرفتان من حسن حظك ان الواحدة منها شاغرة... و الاخرى تسكنها عائلة من (مناستر) هي زوجة بائسة و... بوسعك أن تأخذي راحتك كأنك في دارك إذ لا احد هناك يصعد إليك سواي... ونحن لم نعد من عداد الرجال... لأن توالي الايام أنستنا رجولتنا... ها ها ها.

لو كانت ثرثرة الخادم في زمن ومكان غير هذا لربما أغاظتني... لكنها بالعكس في ديار الغربة ولأول مرة أغترب فيها... وفي ليلة ممطرة كئيبة كانت تبعث السلوى لقلبي اليائس... إذاً بالإمكان ان يجد المرء في كل وقت ومكان أناساً طيبين!... لا شك بأن كل مسافر قضى ليلة عاصفة مثلجة يشعر بنفس الراحة عندما يحط رحاله في غرفة دافئة مصطلياً بالنار ومتلذذاً ببريقها.

استعدت مرحي قليلاً بعد فراق دام أياماً طويلة وبدأت أضحك من تحت النقاب وقلت:

ـ يا حاج! من أين لك حوادث المدرسة بهذه التفصيلات؟

ـ نحن نعرف كل شيء... فالبلدة صغيرة بحجم الكف... أما لو كان في استانبول مثلا فلا احد يشعر بذلك والرديء هنا كثرة القيل والقال... بربك يا ابنتي... يخيل إليّ بانك فتاة عاقلة رغم انني لم أرَ وجهك حتى الآن... فلذا انتبهي لنفسك ولا تظهري طيشا وخفة... بل تعقلي لأن الحياة هنا لا تشبه بحال حياة استنبول... وأرجوا من الله ان يعطيك نصيبا حسناً... كانت هنا معلمة اسمها عفيفة هانم تزوجها رئيس محكمة الجزاء تقديراً لرجاحة عقلها ورزانتها لا حبا بجمالها... آمل لك نصيباً مثل نصيبها.

وصلنا الغرفة فكانت صغيرة لكنها جميلة... سترت جدرانها بورق ابيض موشى بطيور زرقاء فيها سرير حديدي صغير ومنضدة من الرخام ومرآة كسر طرفها واصفر لونها لقدمها، وكرسي من الخيزران. كان الحاج مسروراً جداً لإعطائي هذه الغرفة وكأن به يتفاخر بالستائر الحريرية المسدولة على النوافذ وورق الجدران فقال:

ـ انها حقاً غرفة جميلة تليق بآنسة صغيرة... أرتب بيدي كل يوم السرير... وان دقتي بالنظافة مشهورة اسألي الجميع عنها.. ان وجدت نقصاً او احتجت لشيء شدي الحبل المعلق بأول السلم يطن الجرس الذي علقته بالحبل فأحضر للحال... وبعدما مسح بلورة المصباح بطرف صدريته زيادة في النظافة قال:

ـ لا بد انك جائعة... سأحضر لك كباباً من عند الحاج علي... لأن كبابه لذيذ.

فقلت: لا أريد... وان جعت بعد قليل.. لدي ما يكفيني في الحقيبة.

اتى صوت من تحت يقصف كالرعد مناديا: يا حاج! في اي جهنم غبت؟

لا بد ان يكون الصوت صوت صاحب الفندق ورئيس الحاج... رد عليه الحاج بنغم كأنه يغني:

ـ جاءك البلاء... جاءك البلاء.

ضحكنا معاً لما قال... ورفعت نقابي فنظر الحاج الى وجهي باستغراب مضحك وقال:

ـ ما زلت طفلة يا آنستي... آه! يا معلمة هانم آه! رباه اطفال بطول الأصبع... ماذا يستطيعون ما اسمك؟

ـ فريدة.

ـ أسعدك الله في نصيبك وحياتك.. ثم نادى على الغرفة المقابلة: تورية هانم... هاك جارة أتت معلمة من استانبول... تعالي وتحدثي إليها.

ازداد الصوت منادياً من تحت بحدة: حاج قلفه... اي حاج! انتبه ستضطرني لفتح فمي.

فأجاب الحاج بنغمه الغنائي المعتاد: وجع بطن... وجع بطن... لنحملك الحمالون.

ثم اتجه نحو السلم وهو يعرج وقال: ها هو حبل الجرس... ما ان شددته حتى أحضر قائلاً: لبيك عبدك بين يديك يا سيدتي.

اخذت بخلع ملابسي على مهل... ورتبت أغراضي لم يكن بوسعي ان ابعد الوحشة عن نفسي في غرفتي هذه وأمام هذه المرآة المكسورة والسرير الحديدي... لكنني تعزيت بأنه اصبح بإمكاني ان اقول بعد الآن كلمة (لي) عن كل شيء تمسه يدي بفضل كدي وعرق جبيني. وان كان ما تركته أفخم واضخم مما لدي الآن إلا انه كان صدقة تسدى إليَ وكنت لا أملك منها شيئاً بل كنت ضيفة ودخيلة على القصر مدى الحياة.. ولم يستطيعوا ضبط ألسنتهم عن مجابهتي بان ما صنعوه لأجلي لم يكن أكثر من صدقة تصدقوا بها عليَ... لم يكتفوا ان يقولوا ذلك أمامي بل أسمعوني إياه من سيدة غريبة رأيتها لأول مرة في حياتي.

إن تلك المعاملة تضرم النيران في آلامي فتزيدها سعيراً وتكون خير سلوى لوحدتي هذه.

بينما كنت سارحة في التفكير سمعت صوت فتح الباب فأدرت رأسي ورأيت امرأة ترتدي ثوبا أصفر ورأسها مغطى بمنديل أخضر تقول لي:

أهلا بك يا ابنتي الهانم... عساك بخير؟

كانت السيدة تقارب الاربعين من عمرها وقد صبغت وجهها وبالغت في طلائه بشكل أفقده الرونق والحيوية. وكانت تزيد قباحته بصباغ حاجبها بشكل يثير الضحك. فأجبتها بتردد واستغراب: (أهلاً بك)

ـ أين الوالدة؟

ـ أي والدة؟

ـ المعلمة هانم... ألست ابنة المعلمة؟

فأجبت ضاحكة: انا هي المعلمة يا سيدتي.

فضربت المرأة بيدها على ركبتيها وقالت بدهشة: واه! انت المعلمة هانم؟ انت ما تزالين يافعة صغيرة. ظننتك سيدة وقور... أنا جارتك في الغرفة المقابلة. انست الاطفال وجئت لأرحب بك.. مضى اسبوع على مجيئي الى هنا.. اشتغل بالاطفال _حفظهم الله_ في النهار. ينامون بهذا الوقت وعندما اشعر بالوحدة ويضيق قلبي فالوحدة لا تليق إلا بالله سبحانه وتعالى. الوحدة تصعب على الانسان يستسلم فيها لأفكاره وآلامه،، اقضي ليالي قلقة أفكر وأدخن حتى الصباح،، أرسلك الله إليّ لتكوني لي معينة على قتل الوقت بالحديث يا ابنتي.

أريتها الكرسي الوحيد الموجود في غرفتي قائلة: تفضلي... اجلسي... وجلست على حافة السرير. ولشد ما استغربت عندما رأيتها تجلس القرفصاء بالقرب من قدمي ثم تفتح علبة من التنك أخرجتها من جيبها وبدأت تلف سيجارة غليظة وهي تسألني: هل تدخنين يا ابنتي؟

ـ لا يا سيدتي.

ـ وانا ما كنت أدخن كثيراً.. لكن الهموم والمصائب. لم تر لزوماً للتعرف بي بل استرسلت في التحدث إليّ عن مصائبها وآلامها:

هي ابنة احد كبار (مناستر) من ذوي المزارع والمواشي يعيش في كنف أبيها أناس كثيرون. خطبها الكثيرون من أغنياء مناستر فلم تقبل وكانت تصر قائلة: لن أتزوج إلا ضابطاً.

آه لو ضربتها أمها مئات السياط وأعطتها لأحدهم. لكنها بالعكس نزلت عند رغبتها وزوجتها للازم طلب يدها، فعاشا حتى الانقلاب العثماني الاول حياة لا بأس بها، ثم سافر في 31 آذار مع جيش الإنقاذ الى استانبول وكانت آخر رحلاته عنها، لم يكتب لها ولم يعد إليها،، وأخيراً علمت بوجوده في (ب) وقد تزوج وفتح بيتاً فحملت أطفالها الثلاث وجاءت الى هنا لتراه، لم يطمئن زوجها أبداً لمجيئها لأنه لا يريد بأي حال رؤية وجهها ووجه أطفالها.. ويصر على عودتهم في الحال. ولا تفيد معه الضراعة والرجاء حتى ولا تقبيل اليد والرجل. وهكذا ذهبت معه توسلاتها أدراج الرياح.

لم استطع صبراً بعد سماع قصتها المحزنة فقلت: ما دام زوجك لا يطيقك.. فلمَ تريقين ماء وجهك لمن لا يستحقه؟

ـ آه يا ابنتي! إنه اول من رأيت عندما تعرفت على الحياة.. ليس بإمكاني سلوانه... احبه ولا أطيق بعاده.

ـ ليكن ما أراده الله... ولكن كيف يحب المرء من يبغضه ويريد تعذيبه؟

ـ ما زلت طفلة لا تدركين هذه الامور... لا أراك الله مكروها.

ـ انا اعرف فتاة اكتشفت ليلة عرسها خيانة عريسها فألقت بخاتم الخطوبة في وجهه للحال وهربت منه مبتعدة نافرة لمكان لا يستطيع اكتشافه أبداً.

ـ لا بد إنها ندمت أخيراً يا ابنتي... أنا أشفق عليها... لا بد ان تكون جراح الحب قد أدمت قلبها.. ألم تسمعي بالجرحى يا ابنتي؟ فالجرح سخن في أوله ولا يشعر بألمه ولكن ما ان يبرد حتى يكون الوجع الأليم.

ثم تنهدت السيدة وتابعت قولها: آه من الظالمة! استولت على زوجي بسحرها ودلالها وانسته أطفاله وزوجته. لو كنت في بلدي لأريتها كيف يكون الانتقام ولكن ما العمل وانا غريبة الديار... بعيدة عن أهلي.

أخذت تحدثني عن السحر والتعاويذ وفائدتها لإرجاع الازواج والمحبين وتمنت لو تكون في بلدها لتعمل شيئاً لزوجها فتره لأطفاله.

ما ابسطها من امرأة! يا لسذاجتها! تفكر وتترنم بالجراح.. ما اسخفه من كلام! هل فكرت انا بظالمي؟ لا! ولا أتخيله قط في خاطري.

استقبحت لأول وهلة زينة المرأة وبهرجتها المبالغ فيها. لكنني ما ان عرفت قصتها حتى رثيت لحالها وبالأخص عندما قالت (كثيراً ما اقتطعت من مصاريف غذاء أطفالي واشتريت الاصباغ لأتزين كأنني عروس في ليلة زفافها... علني أروق في عينه ويراني جميلة ولكن... عبثاً حاولت وأحاول).

عندما خلوت الى نفسي كان الليل قد انتصف. وكان جسمي متعباً منهوكاً من السفرة التي طالت أياماً. وبينما كنت انزل من العربة كانت عيناي شبه مغمضتين من النعاس وحسبت نفسي بأنني سأستغرق في نوم عميق متى استلقيت على السرير. لكن الحالة كانت على نقيض ما فكرت. ها هي الساعة بلغت الثانية عشرة ولا اثر للنوم في عيني. فتحت النافذة ورأيت ظلاماً وسكوناً يعم الأزقة والاطراف وما زال رذاذ المطر يتساقط ويتلاشى بسكون.

أردت ترتيب الأغراض والكتب القليلة التي أتيت بها معي في الحقيبة فسقط من كتاب اللغة دفتر أزرق الغلاف من دفاتر المدرسة. ها هي الملاحظة الاخيرة التي وضعتها (سور آله كسي) بقلمها الاحمر: فالعلامة 5,5 من عشرة وبجانبها نصائحها التي تعبت من سماعها وقراءتها على الدوام. كانت ملاحظتها هذه مكتوبة على الشكل التالي: (إنها لا تخرج عن معنى نصائحها المستمرة) ما أتفه ما كتبت! كلمات تخلو من الارتباط. يهيأ لمن يقرأها ان يقول بأن في راسك عصفوراً. لا أرى فائدة من القول بان تكوني أكثر رزانة لأنني أثق واعتقد بأن كلماتي لا تقع من نفسك موقع القبول.

لا يا معلمتي العجوز العزيزة... لم تذهب كلماتك سدى، وان كانت عصفورة السياج في الماضي مخلوقة لا تعرف سوى الضحك والمزاح لأنها كانت سعيدة لا ترهقها الآلام والمصائب. أما الآن انقلب طالعها.. وفي احدى الايام صارحوها بان ما ذاقته من سعادة لم يكن أكثر من صدقة وإحسان. والعصفورة تستطيع احتمال كل مصيبة وبلاء إلا ان تكون محبوبة لشفقة، وسعيدة بهبة فهذا ما لا ترتضيه. هربت العصفورة من وكرها في احدى الليالي المظلمة دون ان تشعر أحداً بما أصاب قلبها من كلوم، ربما عطفوا عملها للطيش، وربما انتظروا عودتها بعد حين كسيرة ذليلة.. ولكن عبثاً تنتظرون... كلكم حتى اكثركم حباً وارتباطاً بفريدة كان ينظر إليها نظرتهم

لعصفورة لا تصلح لشيء.. انها طفلة وكفى بها تعريفاً.. ولكن سترون بأن عصفورة السياج ستكون مجدة ونافعة في الطريق الذي ارتضته لنفسها وسلكت سبيله... ستضحي وتجاهد وتعيش من كدها وعملها دون ان تكون عالة في عنق الغير.

أتخيلك يا معلمتي العزيزة تضحكين بمرارة وريبة لعدم ثقتك بفريدة.. أتريدين إثباتاً؟ حاضر.. هاك حياتي سأدون حوادثها كل يوم بيومه، على شريطة ان أبدأها في دفتر المدرسة هذا وبعد سطور ملاحظتك الاخيرة مباشرة.

وهكذا خطر لي تدوين مذكراتي فجأة بعد قراءة ملاحظة (سور آله كسي) ما أحلاها من تسلية اشغل فيها ساعات فراغي ووحدتي.

جلست وراء المنضدة وبدأت بكتابة سطوري هذه وكلما رفعت رأسي كانت عيني تقع على المرآة فأرى وجهي وقد علته صفرة أكسبته رونقاً يزيده رزانة. فلا أتمالك عن الضحك وانا احدث نفسي قائلة:

ـ مسكينة يا عصفورة السياج.. ان ايام المرح والسرور قد ولت. حان وقت الجد والعمل.. على كل لا تخافي مهما تلبدت سماؤنا بغيوم المصائب والآلام فلا بد من سويعات نخلو بها ونضحك بلذة وسرور فنسعد بخيالاتنا وأحلامنا.

❋

هذه هي الليلة التاسعة والعشرين على فراقي لقصر (قوزياتاق) لكنني اشعر بأن أعواماً طويلة قد انقضت.

بعدما اخذت ذلك الخبر المشؤوم كنت عائدة الى غرفتي فقابلت في طريقي خالتي فأردت الاختفاء والتسلل دون ان تراني. لكنها راتني وقالت: من هذا؟ أأنت يا فريدة؟ لمَ تتجولين هكذا في الظلام؟

وقفت قبالتها ساكنة فلم تستطع ملاحظة شيء بي لشدة الظلام فسألتني:

لمَ لا تذهبين الى الحديقة؟

- ...

- لا بد من لعبة تعدينها.

كأن يداً خفية كانت تعصر قلبي وتقطع أنفاسي قلت بجهد: (خالتي). فلو داعبت خالتي في تلك اللحظة خدي او قالت لي كلمة رقيقة مشبعة بالحنان لما تمالكت نفسي وارتميت في أحضانها باكية منتحبة أحدثها بكل شيء...لكنها ما فعلت ذلك لأنها لم تشعر بما بي من التأثر فقالت:

نعم ما هي شكواك يا فريدة؟

قالت تلك الجملة باللهجة التي كانت تسألني بها كلما جئتها أطلب شيئاً. لكنني شعرت الليلة بأنها تعني بلهجتها: (أما كفاك ما أعطيت؟ ماذا تريدين مني أكثر مما أعطيت؟) فأجبت:

لا شيء لا أريده يا خالتي.. اسمحي لي فقط ان أقبلك.

ان خالتي بمثابة أم ثانية لي رغم كل ما جرى فلذا لم أشأ مغادرة القصر قبل تقبيلها ووداعها. كان الظلام حالكاً لم تتبين خلاله ما بي فلذا قالت: انت لغز لا يحل يا فريدة.

مسكت يديها ثم قبلت خديها وعينيها وقلت:

هذه قبلات شكر واعتراف بالجميل... قبلات صادرة عن قلب يعترف على الدوام بما لك عليه من أياد بيضاء...لم تفهم طبعاً ما أقصده من كلماتي بل ظنت أنني اشكرها لأجل كامران وسعادتي بالزواج منه فقالت:

انا اعرف واجبي يا ابنتي... فهناك كثيرون أرادوا الثرثرة والاعتراض وقالوا: كان من المستحسن ان تكون زوجة كامران غنية من بنات الذوات لكنني أسكتهم قائلة: فريدة أفضل البنات... هي ابنتي ولا يهمني فقرها... وانت يا فريدة عليك ان تقدري عملي... كوني ربة منزل رزينة نفاخر بك جميعاً.

تركت خالتي دون أن أنطق بكلمة... .

لمَ قلتِ ذلك في ساعة رحيلي يا خالتي؟ كنت خارجة من الدار بشيء ثمين... هو حبك، وخيالك، أما الآن فانني سأدفن ذلك مع السعادة التي احترقت قبل ان تولد واستحالت رماداً.

❁

عندما دخلت غرفتي فتحت الخزانة ووضعت شهادتي المدرسية وقليلاً من الملابس ضمن حقيبة سفر ثم أخذت ما تركته لي أمي من الحلي والهدايا الصغيرة، أخذتها لأنها ذكرى أمي المسكينة.. وبعدما قفلت الحقيبة كتبت بضعة سطور لكامران تركتها تحت الشمعدان.

خرجت من القصر أحمل الحقيبة وما ان وجدت نفسي وحيدة في الطريق يكتنفني الظلام حتى سرت في جسمي رعدة خوف ووجل. أين كنت استطيع الذهاب في مثل هذه الساعة؟ كان لي بعض الصديقات في القصور المجاورة القريبة ولكن ان ذهبت إليهن لا بد من اكتشاف أمري. وربما تهيأ لهم بان ما عملته ليس اكثر من طيش فتاة أعمالها الدلال. ربما تألموا كثيراً من فعلتي وآلموني... ان من حقي بعد الآن ان أعيش كما اريد ولا احد يستطيع إرغامي على العودة ولكن عليّ ان انتظر انقضاء فترة تخف خلال وطأة الألم من نفوسهم ونفسي فلا يبقى مجال للأخذ والرد. عندها اكتب رسالة مطولة لخالتي أفهمها بأنني لا اريد بعد الآن ان اكون عبئاً على كاهل احد. سأسعى لكسب عيشي بنفسي ولنفسي.. وبينما كنت سائرة في الظلام نحو المحطة خطر لي خاطر أعجبني.

هناك امرأة مهاجرة فقيرة عملت مرضعاً في بيت أحد الاقارب. تقطن في الصحراء الجديدة، مررنا بدارها في العام الماضي بعد نزهة طويلة في احدى الامسيات وقضينا ساعة في الحديقة عندها. تأتي غالباً للقصر وتظهر لي كثيراً من المحبة والولاء. بإمكاني قضاء ليلة عندها دون أي خطر... فلذا صممت الذهاب إليها. مررت بعربة تسير وبعد ان فكرت بركوبها عدلت لأنه من المحتمل ان يخرجوا الى الشارع للسؤال

عني ويخطروا الشرطة فتستطيع الاهتداء علي بواسطة العربة التي ركبتها. ولذا فضلت قطع المسافة حتى الصحراء الجديدة مشياً وكم خفق قلبي كلما سمعت وقع أقدام في الشارع... لأنني كنت احسب ألف حساب لما عساهم يقولون عن فتاة تسير وحدها في الظلام، أعانني الله. كانت الشوارع مقفرة من المارة فلم أرَ بطريقي سوى بعض السكارى آتين يترنحون وكانت مصيبة، إلا انني تداركت الامر وكنت بجانب حديقة منخفضة الاسوار فقفزت إليها. واختبأت خلف السور الى ان مروا دون ان يروني... والله سلم بأن الحديقة كانت خلوة من الكلاب وإلا كانت الطامة الكبرى بعدها سمعت صوت عصا الحارس يجرها وهو يسير متعباً على الرصيف لكن الله سترني أيضاً وعرج الحارس لأحدى الأزقة قبل ان يصل نحوي ويراني.

عندما رآتني المرضع وزوجها فغرا فاهما دهشة واستغراباً لكنني كنت رتبت الحيلة في الطريق فقلت:

كنت عائدة مع عمي الكبير وكامران بك من نزهة في (اسكدار) وإذ بعجلة العربة تنكسر هناك في آخر الشارع ولم يكن بالإمكان إيجاد عربة غيرها في مثل هذا الوقت المتأخر ولا مناص من العودة سيراً فلذا قال لي عمي عندما مررنا بالدار ورأينا النور ساطعاً هلمي يا فريدة الى دار فاطمة هانم. اقضي ليلتك عندها لأنني اخشى عليك التعب والطريق طويلة... وغداً في الصباح الباكر نرسل لك عربة تأتي بك الى القصر.

لم يفطنا للحيلة أبداً وسرا كثيراً من زيارتي المفاجئة ونومي عندهما... وضعت لي المرضع فراشاً وثيراً في غرفة الضيوف ثم علقت لي كلة (ناموسية) بيضاء تفوح منها رائحة الزهور البرية العطرة لتقيني شر البعوض.

مسكينة كم ستكون دهشتها عظيمة غداً عندما تأتي في الصباح تسير على أطراف أصابعها خشية إيقاظي فتجد الغرفة خالية ولا أثر لي فيها. وما ان تقرب الكلة حتى تعرف بأنني لم أعن بفتحها واستعمال الفراش تحتها.

فكرت في تلك الليلة كثيراً واعددت برنامجا مفصلاً وطويلاً. لم يكن بإمكاني البقاء في استانبول. وكثيراً ما سمعت بأن الشهادة التي نلتها من راهبات (نوتردام دوسيون)

مقبولة ومرغوب فيها... فلذا سأسعى لأخذ وظيفة في احدى المحافظات واذهب للتدريس في احدى مدارسها وأقضي حياتي هناك بين الاطفال بسعادة وهناء... وجدت محلاً اميناً لاختفائي فيه خلال بقائي في استانبول الى ان أنهي معاملات تعييني وأسافر ساكون في حرز أمين حتى أغادر استانبول.

يوجد في (أيوب سلطان) دار امرأة شركسية الاصل اسمها (كل مثال) قضت شبابها في دارنا وكانت المربية للمرحومة أمي... ولدت أمي وتربت وكبرت بين أحضانها. وبعد زواج أمي زوجوا المربية (كل مثال) لخفير عجوز من (أيوب). كانت الدادة تحب أمي كثيراً وكان فرط حبها لأمي مجلبة لتحريك الغيرة والحسد في قلوب بقية الأخوات.. أصبحن يكرهن الدادة بشكل غريب... و الدادة بدورها لم تكن تحب خالاتي. كانت تحضر للقصر في أيام جدتي فتحضر لي كثيراً من الالعاب وتعلن ببراءة ان ما تكنه من حب لأمي المسكينة انتقل إليَ. وما توفت جدتي حتى انقطعت الدادة عن زيارتنا ولم يفكر احد من اهل القصر في السؤال عنها. وهكذا اصبح دار الدادة ملجأ أميناً بالنسبة إليَ استطيع الاختفاء به عن أعين الجميع دون ان يخطر ببالهم اكتشاف ذلك.

عندما وصلت لدار الدادة وجدت الباب مفتوحاً و الدادة منهمكة في تنظيف الدار. وقد غطت رأسها بمنديل ابيض نظيف ولبست القبقاب اتقاء البلل. فتحت الباب لتلقي بالماء بين الحين والآخر الى الشارع. وقفت أمام الباب دون ان اقول شيئاً وقد أسدلت نقاباً كثيفاً على وجهي فلم تعرفني... مسكينة! مضت مدة لم أرها خلالها فكم تبدلت ونحلت وشاخت.. نظرت إليَ بعينيها الزرقاوتين الهادئتين تسأل: هل من خدمة يا هانم؟ فأجبت:

ـ ألم تعرفيني يا دادة (كل مثال)؟

عندما سمعت صوتي تراجعت الى الوراء مذعورة تقول:

ـ سبحان الله... سبحان الله... أكشفي النقاب لأراك يا سيدتي.

كشفت النقاب وانا ادخل من الباب فصرخت الدادة بصوت مشبع بالحزن والأسى:

ـ كزيدة... كزيدتي أتت... آه! يا طفلتي الغالية.

ألقت بنفسها عليّ وتدلى جسمها وهي معلقة في رقبتي في شبه غيبوبة فأدركت للحال سبب اضطرابها. انها شبهتني لأمي المسكينة... حتى ان صديقة لها كانت واقفة بجانبها نظرت إليّ بحيرة تقول:

ـ انها تماماً بشكل كزيدة في سن العشرين.

ان قدومي أثار أشجان الدادة المسكينة فتذكرت أمي واضطربت لذكراها.

لم أرَ في حياتي إنساناً بكى بحرقة وألم مثل هذه الشركسية المسكينة... أتذكر أمي كالخيال... ولم يوقظ ذلك الخيال أي حزن او محبة في قلبي حتى اليوم... ما ان عانقتني الدادة وصرخت: كزيدة...كزيدة... حتى أيقظت خيال أمي في قلبي هدب الحياة فيه وأشعل ذكراها النار في ضلوعي وكأني بها فارقت الحياة في تلك اللحظة بين ذراعي أخذت انتحب صارخة مولولة: (أماه! أي أماه!..) آه! من قلب الانسان إنه للغز عسير.

نسيت الدادة المسكينة حزنها وآلامها وأخذت تواسيني فسألتها ودموعي تسيل:

ـ يا دادة! أكانت أمي تشبهني كثيراً؟

أجابت: جداً يا ابنتي. عندما رأيتك حسبتها آتية. جعلك الله خير خلف... وأمد الله بعمرك، ووفقك.

استمر بكائي طويلاً بين أحضان الدادة وعبثا حاولت ضبط دموعي، سأذكر ما حييت تلك السويعات اللذيذة التي قضيتها في دار الدادة الصغيرة، ولن أنساها أبداً، بعدما خلعت ملاءتي استلقيت بالقرب منها وقد وضعت رأسي على ركبتها، وأخذت تحدثني عن أمي وهي تداعب رأسي برقة وحنان، قصت عليّ تاريخ حياة أمي منذ ولادتها حتى نهايتها.

جاء دوري وبدأت اسرد لها ما حدث وكانت تصغي إليّ بانتباه مبتسمة أحياناً، لا تستطيع كبت آلامها اخرى فتقول متنهدة آه! يا طفلتي المسكينة! ما ان علمت بهربي من الدار وتصميمي على عدم العودة حتى اضطربت وبان الامتعاض عليها وقالت:

فريدة! أتيت عملاً صبيانياً لا شك ان عمل كامران بك مشين ولا بد له الاستغفار عن ذلك.

يستحيل على الدادة المسكينة ان تدرك مشاعري لان المسكينة قضت السبعين سنة من حياتها بالأسر لا تمتلك سوى الصبر والمنة فليس بوسعها إدراك معنى للأنفة وعزة النفس ولذا قلت لها في نهاية حديثي:

سأكون ضيفتك بضعة ايام أسافر بعدها معلمة الى بلدة اخرى، اقسمي ان لا تبوحي بوجودي عندك وإلا ذهبت للحال.

أرهقتني المسكينة قليلاً في بادئ الأمر لأنها كانت تفضل عودتي الى القصر وتخشى عذابي لكنها رضخت أخيراً للواقع بعد ما شعرت بإصراري وعنادي وأحضرت المصحف الشريف وأقسمت به على كتمان سري.. عندها اطمأنيت وشعرت بالراحة وبدأت بمساعدتها في اعمال الدار.

لم أقم حتى اليوم بأعمال منزلية آه! ما ألذ اعمال المنزل إنها اعمال مسلية تبعث الطمأنينة والارتياح الى القلب سحبت الماء من البئر بالدلو... وأصررت بعناد على مسح خشب الدار وانا أطأ بأقدامي عارية على الارض... وبعدها جلست قرب البئر أنظف الخضار... عليّ ان أتمرن.. إذ من أين لي بعد الآن الطباخة والخادم؟.. لا مفر من القيام بأعمال المنزل كلها وحدي.

ان هذا الخاطر يسبب لي السرور. سألت الدادة عن طريقة طبخ الاطعمة واخذت أدون ما تقوله في دفتر صغير. سأستفيد منه فيما بعد.

بعد ترتيب الطعام في الطنجرة وضعناها على النار واستلقينا بالقرب من بعضنا فوق حصير نظيف في المطبخ وبدأت اقول لها آه يا دادتي! كم ستكون البلاد التي سأجوبها جميلة... انا اذكر البلاد العربية كالخيال... يقولون بأن أهلها ليسوا كأهل استانبول... انهم لا يعرفون معنى للأثرة رغم فقرهم.. انهم غيريون... يخدم واحدهم الآخر بإخلاص ويعد ذلك واجباً... ولا يفكر أبداً بصفعة في أي يوم بجميله كأن يقول: لي عليك منة... او انت صنيعة يدي... ستكون لي هناك مدرسة صغيرة... أزينها

بالورود والرياحين سيكون لي جيشاً من الاطفال سأعلمهم ان ينادوني (آبلا). سأخيط المراييل للفقراء منهم بيدي.. وأحيك الجوارب في أوقات فراغي لأقي أرجلهم البرد... هل تعلمينني حياكة الجوارب يا دادة؟

لم تنل كلماتي قبولاً في نفس الدادة ولذا كانت تردد بإصرار: فريدة.. حبيبتي.. انت تسلكين طريقاً خطرة شائكة. لا أرى إتباعه من التعقل بشيء.

لم تكن الدادة رديئة النفس ولكن ما ذنبها وعقلها لا يستطيع إدراك وتفهم ما أقول؟ كتبت في تلك الليلة كتاباً قاسي اللهجة لخالتي وانني اعتقد بأنني لو أجلت كتابته حتى اليوم لما تجرأت على كتابته بتلك اللهجة. إذ مهما حدث فالمسكينة تعبت بي كثيراً وأظهرت لي العطف والحنان كأم رؤوم.. كم قاست واحتملت من طيشي. الذنب ذنب الظالم ذنب ابنها عديم القلب والشعور اختتمت كتابي لها بما يلي:

ان الخاتم الذي أراد كامران وضعه في إصبعي لم يكن أكثر من صدقة تعطى لمتسول فقير فها هي احدى رسالاته المرسلة لصديقته أمامي فلو قراتها لأعطيتني حقاً يقول: 'ن الهانم وردة صفراء لا أدري أي الزهور تشبه شفتاها وخداها أما كانت مصيبة لا تدبر لو سمعت بذلك بعد العرس لا سمح الله؟ كيف استطيع مشاركته الحياة بينما يفكر في وردته الصفراء؟ الخلاصة لا تفكري بأن شدة حبي له تجعلني اكتب لك ما كتبت لا! ان كامران ألذ أعدائي أكرهه جداً لا تنقمي عليّ لهربي دون علمك إذ لم يعد بالإمكان بقائي في قصركم لحظة واحدة وقد صرح بهذا كامران نفسه للسيدة وقال: (هي ابنة خالة فقيرة لو تركتها لما استطاعت البقاء في الدار وهي يتيمة لا عائل لها فإلى أين تذهب؟ هذا حرام) أي خالتي! لم تفهموني أبداً ربما لم أكن سوى عصفورة سياج عديمة الأهمية... ولكنني لا أحتمل قط العيش من الاحسان والصدقة... ربما تشفقون عليّ وتسعون لإرجاعي إليكم ثانية ولكن بمَ تريدينني اقسم لك بأن رؤيتكم لي اصبحت مستحيلة الى الأبد وتعلمون بأنه ليس هناك قوة في الوجود تجبرني للعودة إليكم. فالسعادة التي لم أجدها في داركم هي من حقي وعليّ ان أفتش عليها في أي مكان.. ان كل تشبث تقدمون عليه لعودتي إليكم ليس اكثر من

وسيلة تبعد الشقة بيننا... وتؤلم أحدنا من الآخر... دعوا البحث عني. وافرضوا ان عصفورة السياج ماتت بإحدى بقاع الارض الكبيرة فالتحقت بأمها... وانني أطمنك بأنني سوف لا أغلب في الحياة. لا بد لن أكون ظافرة منتصرة وسعيدة أستودعك الله يا خالتي العزيزة سامحيني بإتعابك.

ذهبت في اليوم التالي لوزارة المعارف بعد ما وضعت الرسالة بيدي في البريد مرتدية ملاءة الدادة الفضفاضة أستر وجهي بنقابها الكثيف لأنني سمعت بأن الوزارة لا ترحب بالطلبات التي تأتي إليها من السيدات المستهترات بالحجاب.

كنت جريئة فرحة حتى دخولي من الباب أتصور ان مهمتي سهلة تنقضي بسرعة فكرت بأن الحجاب سيأخذني لغرفة الوزير ليطلع على الشهادة التي احملها فيقرر للحال تعييني بإحدى نواحي الأناضول الواسعة الجميلة ولكن ما ان دخلت ورأيت ان المحل غير ما تصورت أخذني اضطراب شديد من سعة المكان وردهاته العديدة ذات المنعطفات والناس يدخلون ويخرجون منهمكين فوقفت حائرة أتطلع حولي ولا أدري ماذا أصنع. واجهتني لوحة على باب كتب عليها (مقام الوزارة) فقلت لنفسي لا بد ان تكون هذه هي غرفة الوزير فاقتربت من حاجب كان يقف على الباب بملابسه المزركشة البراقة وقلت له بوجل واستحياء:

أريد مقابلة الوزير.

تأملني الحاجب بغرور مفتلاً شاربيه وقال: ماذا تريدين من الوزير؟

- سأطلب تعييني معلمة لإحدى الجهات.

فأجابني بلهجة قاسية ملؤها عدم الاكتراث: لا يتعاطى الوزير بالاعمال البسيطة. اذهبي للمراجع المسؤولة عن طريق التسلسل.

وعندما اردت الاستعلام عن تلك المراجع وأصولها أشاح بوجهه عني وسار بعظمة وغرور لا يرى لزوماً للرد عليَ. فقلت لنفسي: أواه يا ربي! إذا كانت هذه هي حال الحاجب فكيف يكون السيد؟

رأيت في الطريق الآخر مقعداً يجلس عليه المراجعون من رجال ونساء. رأيت بينهم سيدة متوسطة العمر زرقاء العينين توسمت الخير في ملامحها فاقتربت منها. وكأنها شعرت بما بي قالت لي برقة وحنان: يهيأ لي انك حديثة عهد في اعمال "الحكومة ألا تعرفين أحداً من موظفي الوزارة.

كنت اسمع ببعض الاهل والأصحاب انهم يعملون في وزارة المعارف فلو راجعتهم لما ضنوا علي بخدماتهم ولكنني لا أحب ان أعرف أحداً بنفسي. فلذا أجبت: لا يا سيدتي... لا أعرف أحداً من الموظفين... ولا أدري ما الحاجة لذلك؟

أجابت السيدة مشفقة: ستدركين ذلك فيما بعد يا ابنتي.. تعالي معي الى مديرية التعليم لأعرفك بالمدير.

كان المدير رجلاً ضخم الجثة كبير البطن شوه الجدري وجهه فازداد من سمرة بشرته. كان يتكلم مع سيدتين وقفتا أمامه. وكانت إحداهما تخرج من حقيبتها أوراقاً وبيد مرتعشة كانت تضع الورقة بعد الاخرى على المكتب. والمدير يمسكها الواحدة تلو الاخرى ليتثبت من صحتها. ثم قال لها: قيدنا اسمك في الشعبة المختصة.

تراجعت السيدتان بخضوع. استدار نحوي سائلاً: وانت ماذا تريدين يا هانم؟

بعد تردد وارتباك بدأت بسرد قصتي. لكنه قطع الحديث فجأة وبشدة قال: تريدين وظيفة... هل قدمت عريضة بذلك؟

اشتد ارتباكي وقلت: أتعنون شهادتي المدرسية؟

قلب شفته باستهزاء واستدار نحو ضيف نحيل كان يجلس بالقرب منه وقال: أترون الوضع؟ أكاد أجن.. لا يفرقون بين الشهادة والعريضة.. ويطلبون ان يكونوا معلمين. ثم يتدللون قائلين: الراتب قليل، والبلدة بعيدة.

مادت الارض تحت قدمي وكدت أسقط خجلاً وحزناً ولم أدر ماذا اقول فقال المدير بخشونة تزيد عن الاول:

ماذا تنتظرين هلمي واستعلمي ممن يعرف الاصول وقدمي الطلب. بينما كنت اهم بالخروج وانا أتعثر بخطواتي تدخل سيد كان يجلس في أحد الأركان قائلاً: أتسمح لي

يا سيدي ان أقدم للسيدة بعض الإرشاد؟ وأخذ يسدي إليَ النصح قائلاً: علي ان ألجأ لعمل غير التعليم لأن توفيقي بالتعليم يبدو أمراً مشكوكا فيه ولكن ان سعيت فبالإمكان ان اكون حائكة او مزينة جيدة اكسب بذلك عيشي... كانت عيناي تريان الدنيا سوداء مظلمة وانا انزل السلالم فشعرت بيد تلمس كتفي وصوت يسألني:

ماذا جد في شغلك يا ابنتي؟ كان السؤال صادراً من السيدة ذات العينين الزرقاوتين. كظمت غيظي وألمي وبذلت جهداً لأمنع دموعي وانا اسرد لها ما حدث. قالت لي برقة وحلم وهي تبتسم:

سألتك عما إذا كان لك أصدقاء في الوزارة خشية وقوعك بما جرى.. على كل لا تيأسي... تعالي لآخذك الى احد مديري الاقسام وانا اعرفه... أكثر الله من أمثاله انه رجل طيب وشريف.

عدنا نصعد السلالم ثانية. وأخذتني السيدة الى قسيمة غرفة يفصلها الزجاج عن ديوان الوزارة. يظهر ان النحس كان يلازمني وكدت افقد شجاعتي لحادث حدث هناك.. رأيت موظفاً كبير السن يوبخ خادماً كان أمامه بصوت خشن يلقي الرعب في النفوس. ألقى الموظف فنجان القهوة من النافذة ثم ركل الخادم برجله يأمره بسرعة الخروج والإغراب عن وجهه. سحبت رفيقتي من يدها وانا اقول وجلة: أرجوك هيا بنا نسرع بالخروج. لم يبق وقت لإجابتها لأن الموظف رآنا وقال: خيراً يا معلمة نعيمة هانم! ولأول مرة في حياتي رأيت شخصاً كان يتفجر غضباً قبل لحظة ثم استعاد هدوءه بطرفة عين... رباه! أهذه أيضاً من مستلزمات الوظيفة؟

قدمتني المعلمة إليه ببضع كلمات تشرح له بها قصتي. هز المدير رأسه وقال برقة وابتسام:

حسناً يا ابنتي تفضلي واجلسي.

رباه! أكاد أجن ولا أصدق عيني. ان هذا الرجل الوديع كالحمل هو نفس الرجل الذي كان يصرخ على الخادم موبخا قبل هنيهة والشرر يتطاير من عينيه... وقد ألقى بالقهوة الى الخارج.. قال لي:

ـ ارفعي نقابك يا ابنتي... آه ما زلت طفلة... كم عمرك؟

ـ في العشرين تماماً يا سيدي.

ـ غريب... على كل... يستحيل سفرك الى الضواحي. هناك أخطار تعترضك ان ذهبت لا سمح الله.

ـ لماذا يا سيدي؟

ـ لماذا تسألينني يا ابنتي... فالأسباب ظاهرة.

وأخذ المدير يضحك دون ان يوضح لي الاسباب التي ادعى ظهورها وأخيراً غمز نعيمة هانم بطرف عينه وقال:

ـ انا لا استطيع التصريح.. بوسعك السؤال والاستيضاح من غيري.. وتابع بصوت منخفض كأنه يخاطب نفسه:

ـ آه ما اكثر الحوادث في المحافظات والاقضية، وما اكثر اولاد الحرام.

سألته بسذاجة: من هم اولاد الحرام وكيف يكونون يا سيدي؟ دبروا من فضلكم عملاً لي بجهة لا يوجدون فيها.

ضحك المدير مقهقهاً حتى استلقى على قفاه وقال: طيب.. ما ألذ هذا الصفاء... وهذه البراءة.

ان من طبعي ان استلطف الشخص او استقبحه من اول مرة تقع عيني عليه. ولا اذكر تبدل فكرتي أبداً.. ولا ادري لمَ استلطفت هذا الرجل ورأيته حسن المعشر طيب القلب رغم ما رأيت من غضبه وعصبيته.

ـ هل تخرجت هذا العام من دار المعلمات؟

ـ لا يا سيدي.. انا خريجة معهد (دام دوسيون)

ـ ما نوع هذا المعهد يا ابنتي؟

أعطيت المدير إيضاحاً مفصلاً عن المدرسة وبعدها قدمت له شهادتي. وأظنه لا يعرف اللغة الفرنسية إلا انه لم يشأ إظهار جهله فلذا اخذ يقلب الشهادة بين يديه قائلاً: حسناً... عال جداً.

فقالت له نعيمة هانم بدون كلفة: أرجوك يا سيدي... لا ترجع الطفلة يائسة حزينة... بل أعمل لتوظيفها بما عهد فيك من طيبة القلب وحب الخير.

قطب المدير حاجبيه واخذ يفكر ثم قال: طيب.. ولكن لا أظن بأن جماعتنا يعرفون شيئاً عن هذا المعهد. وكأن خاطراً خطر له فضرب المنضدة بقبضته وقال: يا ابنتي.. اسمعي سأرشدك على الطريق التي يجب عليك سلوكها.. وذلك بطلب تدريس اللغة الفرنسية في احدى مدارس العاصمة. اذهبي الى مديرية التعليم...

قطعت عليه الكلام معترضة وقلت: لا يا سيدي. لا يمكنني البقاء في استانبول.. انا مضطرة لأسباب عائلية للذهاب الى احدى الجهات البعيدة.

تطلع إليّ باستغراب قائلاً: ما هذا؟ انها أول مرة ألقى فيها معلمة تقبل السفر الى الخارج عن طيب خاطر. آه كم نجهد نفوسنا لنفوز بقبول معلمة السفر الى الاقضية والضواحي.. ماذا تقولين نعيمة هانم؟

ولا أدري نوع الشبهة التي خامرت المدير من طلبي فبدأ يسألني بدقة عن عائلتي وهو يستدرجني للكلام بمكر... واخيراً وفقت لإقناعه ولكن بصعوبة. فنادى: شهاب أفندي! شهاب أفندي.

ظهر من خلف الزجاج شاباً نحيلاً دنا منه فقال المدير له:

يا شهاب أفندي! خذ الآنسة لعندك واكتب لها صورة طلب وظيفة.. لأنها تريد ان تعمل معلمة خارج استانبول. ثم عاد بها إلي فقال لي الشاب دون ان يجرأ للنظر الى وجهي:

تفضلي يا أختي.

أخذني الى منضدة مبعثرة الاوراق وانا أكاد أطير فرحاً لأنني حسبت الوظيفة قد وصلت.. سألني شهاب أفندي بعض الاسئلة واخذ يدونها على ورقة ليهيء بها مآل العريضة. كانت ملابس ذلك الشاب النحيل وهيأته تدلان على ضيق ذات يده. وكلما تطلع إليّ ليستمع جواب أسئلته كانت عيناه تضطربان ويأخذه الخوف والوجل.

كان بالقرب منا كاتبان يتكلمان همساً وتسمع ضحكاتهما بين الحين والآخر. وأحياناً كانا يحدجانه بنظرة خاطفة وأخيراً قال احدهما شهاب حبيبي... تعبت اليوم كثيراً... فلذا أعطني لأكتب عنك العريضة.

ان لساني الثرثار لا يترك مناسبة إلا ويتحرك فيها خاصة ان كنت فرحة لأنني لا أقدر على إسكاته بأي ثمن... انفلت مني زمامه وقال بدون مناسبة: ما أحسن الرفاق في هذه الدائرة. أراهم شديدي الحرص على راحة بعضهم البعض.

احمر شهاب افندي خجلاً فاطرق الى الارض. أخذتني الحيرة، هل أخطأت بقولي يا ترى؟ لا شك في ذلك.. لأن الاخيران يضحكان بدون خجل ويقولان اشياء لم اسمع منها سوى كلمة (انها ناضجة شهية) طرقت أذني ولم أفقه لها معنى.. ما عساها أراداه بتلك الجملة؟ ومن يعنيان؟

نسخت العريضة بانتظام بعدما زينت بملاحظات وخطوط حمراء خلال ذهابها وإيابها بين غرفتي الكاتب والمدير وبعدها قال لي المدير:

سأساعدك يا ابنتي بقدر استطاعتي، فتح الله بوجهك ابواب الخير. هلمي واذهبي الآن فان عملك قد قدم. لم أتجاسر لقول أي شيء حجلاً من أناس كانوا عنده. خرجت ادير الطرف باحثة عن نعيمة هانم، وإذ بشهاب أفندي واقف قرب السلم ينظر إليَ. وما ان التقت عينه بعيني حتى احمر خجلاً وحول نظره. شعرت بأنه يريد الكلام لكن الجرأة تخونه. توقفت قربه وقلت:

ـ تعبت كثيراً اليوم فهلا أعلمتني أين يجبُ عليَ ان أقدم العريضة من فضلك؟

لم يرفع نظره وبصوت منخفض متوسل قال:

ـ ان تعقب العرائض أمر عسير جداً يا سيدتي. فإن سمحت أقوم انا بالمعاملة ولا تكلفي نفسك عناء ملاحقتها. مري علي بين الحين والآخر وانا أعلمك النتيجة.

ـ ألف شكر، متى تريدني ان أعود؟

ـ بعد يومين او ثلاثة.

تضايقت كثيراً لطول المدة لأنها دامت شهراً كاملاً ولولا شهاب أفندي لطالت اكثر من ذلك. مسكين، كم هو طيب، وكم في الدنيا من رجال طيبين رغم رداءة الاكثرية. ان ما رأيته من جميل هذا الشاب لن أنساه مدى العمر. يستقبلني من الباب ويودعني حتى السلالم وكلما رايته يتراكض من غرفة الى اخرى أكاد أموت خجلاً ولا أدري كيف اشكره.

في احد الايام كان شهاب افندي يسعل سعالاً حاداً متواصلاً وقد لف رقبته بشال من الصوف يتكلم بصوت مبحوح أرهقه المرض والسعال فقلت:

ـ يستحسن بقاؤك في الدار ولا يجوز دوامك على العمل وانت مريض.

ـ ان هذا اليوم هو ميعاد حضورك لأخذ الجواب.

أخذني ضحك شديد لهذا العذر.. أهذا مبرر للحضور مريضاً؟

تابع شهاب أفندي كلامه قائلاً:

ـ ليس هذا فقط الداعي لحضوري، بل ان هناك أعمالاً اخرى ولا يخفاك قرب افتتاح المدارس وما يتطلب ذلك من اعمال.

ـ هل من بشرى في جوابك اليوم؟

ـ لا أدري، لأن أوراقك وصلت الى المدير... وقد طلب مني ان أعلمك ضرورة مقابلته عند تشريفك.

كان المدير العام مشغولاً بتوقيع رزمة من العاملات يبعثرها بحدة فتقع على الارض وبجانبه موظف لا ينفك عن التقاط ما يقع منها فقلت:

ـ سيدي، هل طلبتم حضور جاريتكم؟

ـ انتظري يا هانم، ألا ترين انهماكي؟

وأشار إليّ الكاتب المسكين برأسه يطلب مني التمهل والانتظار. تراجعت بضع خطوات واخذت انتظر قرب الحاجز، بعدما أنهى المدير توقيع الاوراق رفع نظارته عن عينيه وأخذ يمسح زجاجها قائلاً:

ـ لم تقبل عريضتك لأن خدمات زوجك لم تبلغ الثلاثين عاماً.

ـ أي زوج يا سيدي؟ انا لست متزوجة.

ـ ها ها! نعم! هناك سيدة اخرى طلبت رؤيتها، فهمت انت فريدة هانم أليس كذلك؟

ـ نعم يا سيدي.

ـ آسف، لأن عريضتك أيضاً لم تقبل، إذ ان مدرستك ليست معروفة لدى مفتشية المدارس الاجنبية في الوزارة. ولذا لا تعترف الوزارة على شهادتك.

ـ إذاً ماذا اصنع؟

قلت ذلك دون اختيار وكانت كلمتي غير لائقة. أعاد المدير نظارته الى عينيه وبلهجة ساخرة قال:

ـ هذا من شأنك يا هانم، ولا دخل لنا بالموضوع.

كانت تلك اللحظات أقسى لحظة في حياتي لن أنساها مدى العمر. ما عساني فاعلة وما العمل يا ربي؟... ماذا اصنع والحكومة تبخل علي بوظيفة لا تهمني أين تكون؟ انا راضية في الذهاب الى اي بقعة من بقاع المملكة، رغم انني أحمل شهادة تدل على ثقافتي العالية ودراستي القوية... ما العمل والحاجة تجبر المرء لطلب الرزق في اي مكان كان... الموت أهون علي بكثير من العودة ثانياً الى قصر خالتي فلذا عليَ ان أكافح على ان أجد سبيلاً للعيش.

تشجعت لمراجعة مدير القسم الابتدائي الذي عرفتني المعلمة نعيمة هانم به. وقلت له بجهد المستميت وانا أصر على أسناني خشية البكاء:

ـ يقولون يا سيدي بأن شهادتي لا تنفع شيئاً، فما العمل يا ترى؟

لا ادري أبان عليَ التأثر أم ماذا حدث لأنني شعرت بأن كلامي آلم المدير وقال لي متأثراً:

ـ ماذا اعمل يا ابنتي؟ يعلم الله كم بذلت من الجهد في سبيلك، ولكن من يفهم؟ ومن يدري.

أدهشني حنانه فقلت:

ـ سيدي! ان قبولي بالسفر لأي بلدة أثار دهشتكم، وهذا دليل كاف على ما أظن لما انا فيه من ضيق وعوز. انا وحيدة لا ملجأ لي ولا عائل. حرام ان تسد ابواب الرزق في وجهي. انا مضطرة لكسب عيشي وإلا مت جوعاً.

قاطعني المدير فجأة وكأن خاطراً خطر له فقال:

ـ انتظري يا ابنتي، هناك تجربة أخيرة وسهم أخير.

كان بالقرب من النافذة شاب يقرأ جريدة، لم استطع رؤية اكثر من ذقنه لأنه كان ملتفتاً للجهة الاخرى. قال له المدير بصوت مسموع:

ـ هل يسمح سيدي قليلاً، ويشرفنا بالاقتراب منا؟

استدار الشاب دون ان يتكلم واتى إلينا، أشار المدير بيده نحوي وقال:

ان هذه الطفلة خريجة معهد أجنبي. ويفهم من وضعها وحركاتها انها ابنة عائلة عريقة... وهناك حاجة ماسة تضطرها للعمل ولذا تقول: (اذهب أينما تريدون). ولكن، أنتم أدرى الناس برئيسنا ولا لزوم للتعريف... فإذا أصر على قول (لا) فانه لا يتراجع ولو رأى الضرورة تدعو للتراجع... وانني لما أعهد فيكم من حب الخير دفعني ان أحدثكم راجياً ان تتداخلوا بالأمر... وان كلمة طيبة منكم للوزير تكفي لحل المسألة... أرجوكم سيدي.

كان المدير يكلم الشاب بحرارة وهو يلمس كتفيه بيديه متوسلاً يظهر من هيبة الشاب انه ابن عائلة عريقة النسب... كان يضع يده على أذنه خلال استماعه حديث المدير كأن بسمعه ثقلاً.

أدار وجهه نحوي وقد برقت عيناه المؤنستان. وأخذ يكلمني بالفرنسية. كان حديثه يدور بأسئلة عن دراستي ومدرستي وماذا أريد... ظهر الارتياح على وجهه من أجوبتي، وعجب من لهجتي وطلاقة لساني بالفرنسية.

كان المدير يبتسم بسرور أثناء حديثنا ويقول:

ـ انها تتكلم الفرنسية كالبلبل ما شاء الله.

ما اجمل الفلسفة التي تقول: (ان كانت الظلمة تسود الكون خمسة عشر يوماً فهناك خمسة عشر يوماً يكون الضياء والنور من نصيبه)

ان كلمات السيد أعادت الى قلبي الراحة والسرور وقد علمت فيما بعد بأنه شاعر. جزاه الله عني خيراً. أخذني الى الوزير وبعد نصف ساعة كنت قد عينت معلمة رسم وجغرافيا في مدرسة الرشدية في محافظة (ب) بالمحل الشاغر لذينك الدرسين... استعدت نشاطي وسروري وعدت فرحة الى "أيوب" ولا استطيع وصف ذلك الشعور الذي انتابني ولن أنساه مدى الحياة... أخيراً تحققت الاحلام ووفقت للعمل ولم يعد بوسع احد ان ينظر إليّ نظرة عصفورة سياج عديمة النفع.

كامران! ها ان ابنة خالتك الفقيرة التي أضطرت للخروج من دارك الى غير رجعة لم تمت في زاوية احدى الأزقة جوعاً. ستعرف هذه الحوادث مؤخراً ولا أدري ان كنت تشعر بالخجل والندم من الاقوال التي قلتها لعشيقتك الوردة الصفراء ذات العينين البنفسجيتين أظن بأنه لم يعد بوسعك القول: (ماذا أعمل؟ لا استطيع إلقاءها في الطريق لأنني أخاف عقاب الله وجزاءه).



انتهت المعاملة في أيام ثلاث. قبضت نفقات السفر وفي الصباح أتت الدادة (كل مثال) معي حتى الباخرة. سبقنا شهاب أفندي الى الميناء للوداع... آه يا له من شاب طيب القلب!... لن أنساه مدى العمر. انشغل في ترتيب سفري وأخذ لي بطاقة السفر وأعطاني عنوان الفندق الذي سأنزل فيه في البلدة التي أسافر إليها. وأخيراً حضر في الصباح الباكر يتحامل على نفسه مريضاً وقد ربط رقبته بالصوف غير مبال برطوبة الصباح ليودعني.. أتى بحقيبتي مع هدية السفر ووضعهما بيده في الغرفة واستمر بالذهاب والإياب مراراً يتفقد كل شيء ويوصي المستخدمين بالاعتناء بي وتأمين راحتي.

جلسنا في زاوية غرفة الباخرة حتى قيامها. وبديهي بأن المرء يزيد الثرثرة في مثل هذه الأوقات. فهناك الكثير مما يريد قوله... لكنه كان بالعكس. ولا أكون مبالغة إذا قلت بأنه لم يتكلم عشر كلمات خلال تلك الساعات الطويلة.

مسكينة الدادة كانت تنظر إلي بعينين مشبعتين بالمرارة والألم، بينما تداعب يدي. وعندما قارب إبحار الباخرة أخذت تبكي بحرارة وألم وهي تضمني إليها مقبلة وقائلة:

هنا ودعت أمك أيضاً يا فريدة.. لكنها لم تكن وحيدة في غربتها وسفرها. آه! يا ابنتي ان سفرك أدمى قلبي... آمل ان أراك ثانياً وأضمك الى صدري.

لولا وجود شهاب أفندي لبكيت منتحبة كالاطفال ولكن... صرخوا من الباخرة قائلين:

- هلمي استعجلي يا سيدة.

واخذوا دادتي المسكينة ينزلوها من الباخرة... لم يزل شهاب أفندي بجانبي مصفر الوجه مغرورق العينين. ولأول مرة نظر الى وجهي بدقة واهتمام وتجرأ لذكر اسمي فقال:

- أي فريدة هانم! اريد ان اقول لك شيئاً. انت مصرة على السفر أليس كذلك؟

رغم الألم المخيم علي كغمامة كثيفة من جراء هذا الفراق لم أتمالك عن الابتسام وقلت:

- هل من شك يخامرك في ذلك؟

لم يستطع الاجابة ولم ينتظر ان اشكره وأودعه بل ارتمى على السلم مسرعاً بالهبوط.

احب السياحات البحرية كثيراً. ولم أزل أذكر السفرة التي قمت بها برفقة حسين عندما عدت من بيروت قبل ثلاثة عشر عاماً. ولكن لم أدر لم لم استطع الجلوس قبل إلقاء آخر نظرة أودع بها مباني استانبول الحلوة. لم يبق أي أمل لعودتي إليها لأنني واستانبول متخاصمان غاضبان على بعضنا البعض.

عندما ابتعدت الباخرة عن الميناء نزلت الى غرفتي فرأيت العلبة التي أتى بها شهاب أفندي. وضعها فوق حقيبتي، فدفعني حب الاطلاع لفتحها... انها علبة سكاكر وحلوى. انها خير هدية محببة الى نفسي... أخذت قطعة من الحلوى التي أتى بها صديقي الوفي وقربتها من فمي ولكن، تساقطت فجأة الدموع من عيني ولم أدرِ لبكائي سبباً... وكلما اردت مناقشة نفسي عن السبب ازدادت دموعي كأن تلك الحلوى كانت أداة لتكديري واحزاني. قبضت على العلبة بعصبية لا شعورية وألقيتها من النافذة الصغيرة الى البحر.

انا واثقة بأنه ليس هناك اي شيء أسخف من تلك الدموع، ولكن رغم ذلك يتساقط الآن الدمع من عيني فيبلل دفتري ويترك أثراً... وهذا لمجرد افتكاري بتلك اللحظة. ربما حصل هذا بتأثير التعب المضني... او ان دوام المطر في الخارج أثر على أعصابي. ترى كيف استانبول الآن؟ هل هناك مطر؟ أم القصر يتلامع تحت أشعة القمر فيصبح كالشعلة؟... اي كامران!.

اصبحت انفر من الاماكن التي توجد انت فيها كنفوري منك تماماً... انا أكرهك.



تم الجزء الاول

الجزء الثاني

6 تشرين الاول (ب)

عندما استيقظت صباح اليوم، رأيت السماء صافية والشمس تنير الوجود. انقطعت الامطار وتفرقت الغيوم إلا بعض الضباب الذي يتراءى فوق الجبال الشاهقة من خلال نافذة غرفتي... نسيت إغلاق النافذة قبل النوم ليلاً فتسلل نسيم الصباح المنعش من خلالها واخذ يداعب شعري المتهدل فوق أغطية السرير.

لم اتأمل استيقاظي اليوم بهذه الخفة والنشاط. بدأت الغناء بصوت خفيف بينما كنت أرتدي ملابسي. لم أعد خائفة من الحياة لأننا تصالحنا، وانا سعيدة.

نزلت السلم وانا أقسر النفس لضبطها وإخفاء ما بها من سرور، فأظهرت هدوءاً واتزاناً ولم انزل السلم قفزاً كسابق عادتي عند الفرح. كم كنت بالأمس مريضة حزينة بينما كنت أصعد هذا السلم!.

عندما نزلت الى الطابق الاسفل وجدت الفندق خالياً من زبائنه والحاج (قلفة) منهمك بتنظيف الاواني قرب الحوض.. ما ان رآني حتى اقترب مني، وكأننا أحباب منذ سنين طويلة قال:

ـ صباح الخير يا فريدة هانم... لم استيقظت هكذا مبكرة؟.. حسبتك تنامين لوقت متأخر طلباً بالراحة وعناء السفر.

فأجبت ضاحكة:

ـ أممكن هذا؟ أني لمعلمة ان تنام حتى الظهيرة؟

انا اصبحت معلمة... والحقيبة التي تحت إبطي تفرحني كالاطفال.

أسند الحاج يديه على خصره وقال:

ـ ما زلت طفلة بعد!.

ثم أخذ يضحك، أما انا رغم انني عاهدت نفسي ان أكون رزينة لا أتظاهر بالطفولة والطيش اعتباراً من يوم تعييني قذفت بالحقيبة الى الهواء العب بها كالكرة.. ولو كان هناك احد غير الحاج لذبت خجلاً... ذهب عهدي ادراج الرياح... أيفهم الشيطان الخائن قيمة للعهد والقسم؟

ترك المسكين عمله واقترب مني يقول:

ـ لا يمكن خروجك بدون فطور، هلمي اصعدي الى غرفتك لأحضر لك الطعام لا لزوم للعجلة لأن اليوم هو الاول لدوامك.

ـ لا، لا! ارغب العمل بالسرعة الممكنة.

تضايق الحاج مني وقال:

لا تخافي، ولا تتعجلي... سيأتي يوم تضجرين به من العمل... هلمي وتمتعي بالحياة... لا لزوم لصعودك الى الغرفة... تعالي اجلسي أمام البركة فلا أحد الآن في الفندق.

ثم اخذ الحقيبة من تحت إبطي قسراً واقعدني على الكرسي، وذهب الى الباب منادياً على احدى الحوانيت المقابلة:

ـ يا شيخ احضر لمعلمتنا كأساً من الحليب وكعك استانبولي... عجل من فضلك.

ثم التفت نحوي يقول:

ـ ان الحليب فاخر ولذيذ وليس كحليب استانبول. يغذى الشيخ بقراته بالكمثرى صيفاً وشتاء فتفوح رائحة الكمثرى من الحليب على الدوام.

بينما كنت اشرب الحليب أمام البركة كان الحاج يعطيني الإيضاح عن الحياة في (ب). رباه! ما أوسع اطلاعه بما يتعلق بالمعلمات وحياتهن!. كان يعرف كل واحدة منهن وما تملكه من ملابس وأغراض يعرف كيف تعيش وبمن ترتبط. فأشار إليَ عند انتهائي من الطعام قائلاً:

ـ انتظري سأذهب بك الى المدرسة وان تكن قريبة من هنا لكن الطرقات ملتوية متعرجة أخشى عليك الضياع.

سار المسكين أمامي في أزقة ضيقة ملتوية حتى وصلنا الى باب المدرسة ذي اللون الاخضر.

لم يكن هناك احد في غرفة البواب الخارجية. دخلت الحديقة فصادفت سيدة مرتدية الملاءة وقد غطت وجهها بنقاب كثيف كانت تسير نحو الباب تتأبط حقيبة جلدية، وما ان رأتني حتى توقفت وأخذت تنظر إلي باهتمام ثم قالت:

ـ أتأمر السيدة شيئا؟

ـ عينت معلمة لهذه المدرسة، أريد مقابلة المديرة.

رفعت السيدة نقابها وتأملتني من رأسي حتى أخمص قدمي وبعدها قالت بتردد:

ـ معلمة؟ كيف يكون ذلك ولا حاجة لنا بالمعلمات يا ابنتي انا المديرة. كان هناك شاغر لمادتي الرسم والجغرافيا ولكن أتتنا معلمة قبل يومين من (كليبولي) فشغلت ذلك الفراغ.

عرتني الدهشة من الخبر وقلت:

ـ كيف يكون ذلك يا سيدتي؟ وقد عينت من قبل وزارة المعارف.

قطبت المديرة وتطلعت إلي باستغراب تقول:

ـ سبحان الله! كيف ذلك؟ أريني أمر تعيينك.

أخرجت الأمر من الحقيبة وناولته لها فقالت بعد قراءته بتمهل:

ـ كثيراً ما تحدث أغلاط مماثلة... مسكينة حورية هانم ما أسوأ بختها!.

ـ من هي حورية هانم يا سيدتي؟

ـ هي المعلمة التي أتت من (كليبولي)... انها سيدة طيبة... لم يوافقها المناخ هناك ولذا عندما علمت بالشاغر عندنا طلبت النقل... ولبوا طلبها.. فكان ذلك لسوء طالعها.

ـ لم يكن ذلك من سوء طالعها فقط بل انا أيضاً وقعت في نفس الورطة يا سيدتي.

ـ نعم حقاً ما تقولين. سأتفادى بحث الحادث أمامها حتى ظهور النتيجة حرصاً على ألمها. كنت ذاهبة الى المديرية بطبيعة الحال. هلمي نذهب معاً علنا نجد حلاً هناك.

كنت في حال جمد الدم في عروقي فلو نبحت لما سال دمي. بينما كنت انتظر المديرة في بهو المديرية بانقباض طلب إلي ان أواجه المدير وعندها انكشف الامر. اسند الشاغر لكلتينا بآن واحد وذلك نتيجة الإهمال وعدم التوفيق.

أخذ المدير يتكلم بتراخ كأنه يتكلم في نومه وقال:

ـ ما العمل؟ الغلطة غلطتكم.. علينا ان نكتب للوزارة الى استانبول نعلمها الأمر وننتظر الجواب لنرى ماذا يقولون.

فأجابه احد الكتاب قائلاً:

ـ ان أمر تعيين هذه الآنسة جاء بعد تعيين حورية هانم وأظنه يلغي تعيين الذي قبله بحكم القانون.

سكت المدير مفكراً كأنه يبيت امراً ثم قال:

ـ في الواقع هذا هو الأصح ولكن... ليس هناك أي إبلاغ لكف يد الاخرى عن العمل...

ثم قال للمديرة:

ـ استعملي الحكمة يا مديرة هانم وتدبري الأمر بدرايتك الى ان يأتينا من الوزارة الأمر الفصل.

عدت الى المدرسة مع المديرة فائقة هانم ويا ليتني ذهبت الى غرفتي... ولكن ما العمل وكنت أجهل أوضاع البلدة وأخلاق أهلها.

كانت حورية هانم امرأة سمراء اللون تجاوزت الاربعين من عمرها ضعيفة البنية تلوح على وجهها دلائل العصبية. لم تكد تسمع بالحادث حتى اصفر وجهها وحملقت بعينيها وبصوت كصفارة الانذار صرخت:

ـ أواه يا ربي! أهذا أيضاً من مقدوري؟

ثم ارتمت على الارض فاقدة الوعي والحركة.

أشتد الهرج والمرج ووقفت معلمة طاعنة بالسن أمام الباب تسعى بشدة لمنع دخول التلميذات الى غرفة المعلمات، بعد ما سمعن ذلك الصوت المخيف.

أرقدت المعلمات حورية هانم على الارض وأخذن ينشقنها الخل ويسكبن الماء على وجهها، يحاولن بارتباك حل الأزرار والملابس عن صدرها.. علها تستفيق. لم اتجرأ للاقتراب لأنني اتهمت نفسي بأنني المسببة لما حدث ولما كانت الزميلات يحدجنني بنظرات قاسية شديدة.

قالت لي المعلمة العجوز التي كانت قبل هنيهة تطرد التلميذات من الباب بلهجة مرة قاسية:

ـ ما هذه الانسانية يا ابنتي؟ أراك تضحكين رغم عملك القاسي الشديد؟

كانت محقة بملاحظتها لأنني مع الأسف لم أتمالك نفسي من الابتسام وأنى للمعلمة ان تدرك بأنني ما كنت اضحك منها بل كنت اضحك على وحدتي وسوء طالعي... لكنني لم اضحك وحدي بل كانت هناك معلمة طويلة القامة سوداء العينين قوية النظرات شاركتني الضحك وانحنت بخفة تهمس في أذني:

ـ من لا يعرف سبب إغمائها يحسب بأن المسكينة فجعت بزوجها او تزوج عليها.. آه! كم هي عصبية شريرة، مبالغة في شعورها.

فتحت المعلمة حورية عينيها تصرخ منتحبة مولولة:

ـ آه يا ناس! وقعت الواقعة وأصبت بالمصيبة جزاء خدماتي الطويلة... أكاد أجن آه يا ربي! يقولون مصيبة البلبل من تغريده وهكذا تأتي مصائب عصفورة السياج من لسانها وثرثرتها.

قلت بدون مناسبة ودون ان أقدر النتائج:

ـ كيف حالك؟ آمل ان تكوني أحسن حالاً من قبل.

فيا للكلمة التي كانت وبالاً عليَ ما إن سمعتها حورية هانم حتى انفجرت تقول:

ـ انت سبب كل ما جرى الا تخجلين من سؤالك عن حالي؟ لم أرَ في حياتي أقل من حيائك وانعدام إنسانيتك.

انكمشت على نفسي وأخذت أتطلع حولي بوجل واستغراب. لم تتمكن المعلمات من إسكات حورية هانم. أخذت تزيد شتائمها حتى تجاوزت الحدود فأسمعتني كلاماً لم

أسمعه مدى حياتي ومن جملة ما قالته: (الله وحده يعلم كم من الابواب طرقت وكم من الرجال أغوت حتى توصلت لقطع عيشي...) وكثيراً مما يشابه هذه الجمل والنعوت .

كنت ارتجف وأسناني تصطك ولا اعرف ماذا اعمل. ومما زاد في اضطرابي ان بقية المعلمات كن يقمن بحركات تدل على موافقتهن لها فيما تقول.

وفجأة ضربت المعلمة التي شاركتني الابتسام المنضدة بقوة وصاحت بصوت شديد اللهجة:

ـ أي مديرة هانم! إن تركتها تسترسل في شتائمها سأمزقها إرباً وأسحبكن الى المحكمة... يا لها من دنيئة منحطة... أين تظن نفسها؟

واستدارت نحو المعلمات تقول:

ـ تنقصكن الأخلاق المسلكية... ولا تفقهن معنى لحرمة الزمالة اما من غيرة وحماس في نفوسكن.

سكنت الضوضاء واستعادت حورية هدوءها وجلة مكفهرة، وقد حان وقت الدرس فتفرقت المعلمات الى صفوفهن دون ان يحرن أي جواب.. خرجت المديرة وهي تقول لي:

ـ تعالي إليّ في غرفتي انا بانتظارك يا ابنتي.

بقيت مع الزميلة التي تطوعت للدفاع عني فقلت لها:

ـ آسفة جداً لما حصل وأشكرك لاهتمامك بأمري.

هزت كتفيها استخفافاً كأنها تقول: لا بأس إنه أمر بسيط. ثم قالت:

ـ القوة وحدها كانت كفيلة بإسكاتها... كوني قوية فان شعرت بضعفك استرسلت في غيها. ما العمل؟ لله في خلقه شؤون. لا تقلقي ولا تزعجي نفسك سنرى بعضنا بعد الدرس.

لم أشأ الذهاب لغرفة الإدارة خشية ان تعاد الكرة ببحث ما جرى. واحتمال ذلك عسير عليّ. فلذا تأبطت حقيبتي وهربت من المدرسة دون ان أرى احداً.

كان الحاج (قلفه) المسكين يصعد بين حين وآخر الى غرفتي قائلاً:

يقول المدعي العام بأن الحق بجانبك. ضيقي على مدير المعارف الخناق. سيسافر مهندس البلدية غداً الى استانبول وقد وعدني ان يمر على الوزارة ويعلمهم بما حدث.

وهكذا كان يأتيني في كل مرة بنصيحة او توصية او قصة عما يجري. ما اغرب هذه البلدة! لم يبق أحد من سكانها لم يعلم بالحادث بسرعة وفي ساعات قلائل.

كانت الحادثة مدار القيل والقال في المقاهي والفنادق وفي كل مكان. وبينما أكتب هذه السطور سمعت صوت فتح الباب وتسلل جارتي المناسترية وهي تسأل:

ـ هل انت مشغولة يا ابنتي، أتسمحين لي بالدخول؟

ـ تعالي يا سيدتي، ولتطب نفسك سأحمل حوادث حبك لزوجك ولكن على شريطة ان لا تحدثيني عن الجراح وآلامها بعدما تبرد.

6 تشرين الثاني (ب)

هاهو اليوم الثلاثون لحضوري الى (ب). لم تظهر النتيجة بعد. من منا سينتصر ويكون الغالي في المعركة التي ما زالت حامية الوطيس بيني وبين حورية هانم. لم أتجرأ لزيارة المدرسة بعد الحادث لأنني خشيت ان أتعرض ثانيا لشتائم زميلتي العصبية، وأكون مضغة للأفواه.

لم يبق داع لمراجعتي للمديرية لأن الحاج (قلفه) يأخذ المعلومات كل ليلة من موظفيها عندما يأتون للمقهى ليلعبوا النرد.. لم يأت بعد جواب الكتاب من استانبول.

أردت التعرف بالمدينة في اليوم التالي لوصولي.. وخرجت الى الطريق بعدما تحجبت وتسترت جيداً. عندما عدت في المساء قابلني الحاج ضاحكاً:

ـ هل أعجبك السوق الفلاني؟ أيشبه الشارع الفلاني شوارع استانبول؟ لا تعودي ثانياً من الطريق الفلانية لأن سكانها أناس غير طيبين.

آه يا ربي! كأني بالخادم العجوز لف ورائي كل الجهات وتعقب أثري فلم تخف عنه خافية!. لم أتجاسر على الخروج مرة ثانية لأنني أخشى ان أكون حديث الألسنة. ويكفيني برهاناً لذلك ما اسمعه من الحاج.

ان هذا الحرمان يضيق أنفاسي.. آه! أين تلك الايام التي كنت اخرج بها وأقضي الساعات الطويلة أتنقل من حديقة الى اخرى ألاحق الطيور... رغبت بالسفر الى الأناضول رغبة في استعادة تلك الايام ولكن أراني حرمت من كل شيء هنا... ما العمل؟ عليّ بالصبر إذ لا مفر من الأقدار.

كنت أتسلى بمنظر الجبال الشاهقة التي تتراءى من نافذة غرفتي لكنني فقدت تلك السلوى المتكررة والمرء لا يستطيع الركون الى الراحة والهدوء ما لم يتحرك ويسير في الكروم والمزارع يستنشق الهواء النقي، تلفح الشمس وجهه بحرارتها ويداعب النسيم شعره... عندها يشعر بتجدد قواه وحيويته والامل في نفسه بدل النضارة والنشاط.

احببت الرسم والتصوير منذ الصغر وكانت أكبر علامة أنالها في المدرسة هي علامة الرسم. وكم لحقني من عقاب وتكدير للصور التي كنت ارسمها أعلى قواعد التماثيل في المدرسة والجدران البيضاء النظيفة في القصر.

أحضرت معي من استانبول أدوات الرسم وكل ما احتاج إليه فكانت خير سلوى لساعات الوحدة التي قضيتها في الفندق. حتى انني صورت الحاج صورتين إحداهما بالفحم والاخرى بالدهان المائي. كاد المسكين يطير فرحاً وافتخاراً. وكم مرة ذهب الى السوق ليشتري الاوراق التي تلزم لصنع الإطار وهو يشدد على زوجته وابنته بالاعتناء في صنع الإطار.

بدئ العمل بعد شراء القماش والحرير والخرز... وأخذ الحاج يدعوني باصرار مستمر الى زيارة منزله. كانت داره جميلة منسقة فيها الكثير من حسن الذوق والترتيب. تقع

الدار على حافة وادٍ عميق لا يتمالك المرء من الارتجاف إذا اقترب من سور الحديقة المشرف على الوادي لشدة عمقه وانحداره.

قضيت في تلك الحديقة الجميلة ساعات لذيذة مع عائلة الحاج. إن أصل زوجته ينحدر من (صاماتيه) تشبهه كثيراً في حركاتها، وهي طيبة القلب مثله، لا تذكر استانبول حتى تغرورق عيناها بالدموع فتتنهد بحسرة والتياع.

للعائلة ابن في الحادية عشرة من عمره يدعى (ميراث) وابنة تبلغ الرابعة عشرة تماماً واسمها (هايغانوش) ممتلئة الجسم حمراء الخدين بسيطة ساذجة تذهب لمدرسة الأرمن لتدرس فيها. أما (ميراث) فانه بعكسها تماماً نحيل الجسم أسمر اللون كثير الحركة والنشاط.

كان الحاج أمياً لا يعرف القراءة والكتابة إلا انه كان عاقلاً يقدر العلم حق قدره ولا يبخل عن بذل كل ما يملك في سبيل تعليم ابنه (ميراث) لأنه يريد ان يصبح في المستقبل شخصية لها قيمتها الاجتماعية بفضل العلم والثقافة.

يقول بأن من واجب الاهل ان يعلموا أبناءهم كل شيء ليكونوا قادرين على العيش براحة ورفاه أرسل الحاج ابنه سنتين الى مدرسة الأرمن وبعدها أرسله الى مدرسة الحكومة وهذا عامه الثاني في مدرسة الحكومة أوشك على الانقضاء. وانه على حسب منطق الحاج سيبدل الولد المدرسة ليذهب الى مدرسة فرنسية ويقضي بها عامين يذهب بعدها الى مدرسة انكليزية.... ليتعلم بالترتيب اللغات الأرمنية فالتركية، فالفرنسية، فالانكليزية، فالايطالية... ويصبح شاباً كاملاً... طبعاً إن لم يمت المسكين قبل بلوغه سن العشرين متأثراً من ذلك العبء الثقيل!.

بينما كان الحاج يبحث يوماً عن ابنه قال لي:

- لا ادري ان كان اسم (ميراث) أثار اهتمامك انه اسم منتخب أوجعت رأسي اسبوعاً في انتقائه... يوافق اللغتين فبالأرمني يكون (ميرا) بالتركي (مراد) وعندما اغضب منه اقول له: انت لست مراداً بل مرضاً.

رأيته مرة يكدر ابنه لأنه لم يشأ الاكل من طعام لم يستذوق طعمه... شكم كان منظر الأب جميلاً وهو يضرب لأبنه الامثال، فتارة يستشهد بالإشعار واخرى ناصحاً يثبت للولد قبح ما عمل... ومرة أراد فحص ابنته فقال لها:

ـ هاتي كتبك للمعلمة هانم وانتبهي كي لا تسودي وجهي وتخجليني. اخذت البنت تفتح الكتاب بوجل واضطراب وكان التاريخ المقدس. وقعت عيني على قطعة كانت تبحث عن المسيح والمعمودية طلبت منها القراءة والتفسير. لكنها بدأت تخلط كثيراً بالتفسير فلم استطع السكوت واخذت أصحح لها ما تبقى في ذاكرتي من ايام المدرسة عندما كنت اسمع لرفيقاتي دروسهن في الدين... لأنني لم ادرس ذلك بشكل جدي لكوني مسلمة.

فغر الحاج فاه وحملق بي دهشة واستغراباً وكأنني أتيت بخارقة قال:

ـ آه ما اغرب هذا! أيوجد امرأة تعرف ديننا اكثر من قس! حسبتك معلمة بسيطة، وإذا بك تفوقين رجال الدين علماً.

قبض بشدة ذراع زوجته وسحبها قائلاً:

ـ قبلي الطفلة من جبينها بدلاً عني.

ثم ألقاها عليَّ بعد ذلك اخذ الحاج يحدث كل من يراه عن ثقافتي الواسعة ومعلوماتي القوية حتى أصبح شغل زوار المقهى الشاغل ان يلصقوا وجوههم على زجاج النوافذ ليروني وانا داخلة او خارجة من الفندق... وكثيراً ما قلت له بحدة: أرجوك يا حاج كفاك بحثاً للناس عني دعني بهمي. وكلما قلت ذلك ازداد عصياناً وقال: انا اقصد من كلامي ان يصل مديحي الى آذانهم. فيخجلون من المعاملة التي عاملوك واستقبلوك بها. والحاصل مضت الايام العشر الأولى تارة بالرسم في غرفتي وطوراً بالثرثرة في حديقة الحاج. استفدت كثيراً من زيارتي لمنزلهم لأن اطلاع زوجته الواسع في صنع الحلويات والسكاكر وغيرها كان أوسع وأجدى من اطلاعي ومعرفتي للتاريخ المقدس.

تعلمت منها كثيراً من انواع الشراب والمربى. عندما تنتظم أحوالي ويصير لي بيت سأجعل فيه خزانة خاصة للحلوى والمربى إن شاء الله. سأزين الرفوف بالاوراق الملونة وأنظم الأواني بشكل يفتح الشهية ويغري النفس بالأكل.

سأستعمل الالوان كلها: من احمر وابيض وازرق إلا اللون الاخضر لأن عيني (كامران) خضراوان. أنا أكرههم ولشدة نفوري منها كرهت اللون الأخضر.

أي (كامران)! كنت أخشى عينيك حتى في الساعات التي لم أكن اكرهك فيها. لما تولد هذا الحس في داخلي لم أكن تجاوزت الثانية عشرة من عمري... انت تذكر أيضاً كم مرة ملأت يدي بالتراب وقذفتها بوجهك.. أتظن ان ذلك كان عبث اطفال؟ لا! كان حباً في التشفي وإيلام تينك العينين اللتين تشعان مكراً ودهاء وتشبهان البحر الآسن وقد اخترقت أعماقه أشعة الشمس فبثت فيهما البريق.

18 تشرين الثاني (ب)

تبدل الطريق وها انا مسافرة بعربة تجرها الثيران من (ب). طلبني هذا الصباح مدير المعارف فذهبت إليه قرب الظهر كان كالعادة يجلس على أريكة وقد أسدل جفنيه وأرخى ذراعيه بتكاسل ليستريح. فتح عينيه وتطلع بي ثم قال ببطء وحشرجة كلمة بعد كلمة كأنه يحتضر.

ـ لم يأتنا الجواب بعد من الوزارة الجليلة... لا ادري ماذا يكون رأيهم... لكنني أظن بأنهم يرجحون المعلمة حورية لقدمها. وعندها يسيء وضعك... خطر لي خاطر لصالحك يمكننا به التسوية.

على مقربة ساعتين منا تقع ناحية (الزينيات) هواؤها عليل وماؤها طيب... مناظرها طبيعية فتانة... أهلها ذوو استقامة وأخلاق طيبة. فيها مدرسة بناؤها ملك الأوقاف تكبدنا المصاريف الباهظة في العام الماضي لتجديدها فوقفنا لإدخال الكثير من اللوازم إليها... فيها دائرة خاصة لسكن المعلمات. فالمدرسة حسنة والناحية أحسن إلا انه ينقصها همة ومسعى وتضحيات معلمة شابة نشيطة... أرسلك الى هناك

إذا وافقت ورأيت بنفسك ميلاً... إنها في الواقع ناحية ممتازة... وإن يكن الراتب المخصص للمعلمة هناك ينقص راتبك المخصص بتعيينك بضعة قروش... انها خدمة وطنية تستوجب التضحية وانا أعدك بالزيادة في أول فرصة.

كان عرضه مفاجأة ألجمت لساني ولم أدرِ ماذا اقول ولذا بقيت ساكتة... ثم تابع كلامه:

هناك امرأة عجوز تساعدك بالتدريس وتقوم بخدمة المدرسة... انها امرأة طيبة... تنفعك كثيراً... وان تكن تجهل الطرق الحديثة في التعليم.. على كل جربي نفسك فإن لم تطب لك الإقامة اكتبي لي أحولك لجهة اخرى.

بينما كان المدير يتغنى بجودة هوائها ومائها ويحدثني عن مناظرها الخلابة تراءت لعيني مناظر قرى سويسرا التي كثيراً ما رأيتها في الكتب والمجلات... شمس ساطعة، حدائق غناء، مياه جارية... والحاصل حياة الفلاة التي أتخيلها وأحن إليها. لكنني رغم هذا التصور والحنين لم أجرأ على الإيجاب بكلمة (نعم) دفعة واحدة. فلاستشر الحاج (قلفة) على الاقل فلذا قلت:

ـ اسمحوا لي ببضع ساعات أعطيكم بعدها الجواب الحاسم.

فقال المدير:

ـ آه يا ابنتي! هناك طلبات عديدة والمسألة مستعجلة جداً.

ـ إذاً أجيبكم بعد ساعة يا سيدي.

وعندما مررت من البهو رأيت ضرتي المعلمة حورية.. أقول هذا لأن سكان (ب) كانوا يطلقون علينا اسم (ضرائر). خفت من المرأة بشكل أردت الهرب لكنها قطعت علي الطريق ولامست طرف ملاءتي بضراعة وهي تقول برقة وحنان:

ـ آنستي العزيزة! استميحك عذراً عما صدر مني من قلة أدب تجاهك... آه لو تعلمين مصابي وحالتي!... أعصابي ضعيفة من جراء ما لاقيت من التعب في هذه الحياة. اتوسل إليك ان لا تؤاخذيني.

اجبت بوجل:

ـ لا بأس يا هانم. وأردت المضي في طريقي لكنها كانت مصممة على ان لا تدعني أذهب، قبل ان تصل الى ما تريد وقد اعتزمت على تنفيذه.

بدأت حديثها بالشكوى من حياتها فقالت بأنها ربة عائلة تتكون من خمسة أشخاص مكلفة بإعالتهم. وإن أخذت محلها اكون قد قطعت عليها سبل العيش وسببت للعائلة الموت في الطرقات جوعاً. وبدأ الحماس في كلام حورية هانم وأخذ صوتها يتعالى... وهي تتوسل بذل ومسكنة. فارتبكت ولم أدرِ ماذا اقول... واجتمع حولنا كل من سمع صوتها من كتاب الديوان حتى البواب وأحاطوني بحلقة حوصرنا فيها.. شعرت بحمى محرقة أضرمت وجهي ويدي وازداد خجلي وقلت بصوت خفيف:

ـ أرجوك يا معلمة هانم... تكلمي على مهلك، واخفضي صوتك لأننا صرنا عرضة للأنظار والأسماع.

ازداد صراخها واخذت تبكي وتنتحب وهي تقبل يدي وركبتي. ازداد الجمع حولنا وبدأ الهمس، وطرقت أذني كلمات مثل: (حرام عليك، لا تعذبي المسكينة، أشفقي لدموعها). اقترب مني شيخ بعمامة خضراء ذو لحية بيضاء وبدأ الحديث كأنه يعرف القصة وتفاصيلها فقال:

ـ يا ابنتي! ان احترام الكبير ومد يد المعونة إليه واجب انساني حرام عليك ان تحولي بين المسكينة ورزقها، والله تعالى يرزق العباد وهو قادر على ارزاقك من طريق اخرى.

كنت ارتعد والعرق يتصبب مني خجلاً وحزناً فأجابه القهوجي ضاحكا ومؤكداً:

ـ نعم! نعم! ان بوسعها كسب عيشها أينما كانت.

تضاحك الجميع حولي... وثار كاتب الديوان ثورة عنيفة وجذب القهوجي من ياقته وألقاه بعيداً وهو يقول:

ـ يا قليل الأدب سأحطم رأسك.

ما الداعي لضحك الجماعة! وما الذي أثار غضب الكاتب؟... لم يكن كلام القهوجي خارجاً عن الموضوع الذي طرقه الشيخ... انني لا أفهم.

ازداد عويل حورية وتضايقت كثيراً من الوضع الزري الذي ألم بي حتى انني في تلك اللحظة كنت لا ابخل بروحي ثمناً لو طلبت مني لإسكات حورية هانم وفض الحكاية... ولذا قلت:

ـ حسناً... سأقوم بما تريدون ولكن دعوني وشأني بربكم... وبصعوبة تخلصت من حورية هانم وهي تقبلني شاكرة، حيث وقعت ورقة أعترف بها بأنني تركت التعليم في رشدية المركز عن طيب خاطر وفضلت السفر الى ناحية الزينيات للتدريس في مدرستها بمحض اختياري.

انتهت المعاملة بوقت لم يتجاوز الساعة وقام المدير بنفسه ليوقع الاوراق من المحافظ بعد ان كان لا يستطيع الحراك... رباه! ما أسرع سير المعاملات متى أراد الرؤساء... فالمعاملة رهينة الرئيس... إذا راقت له أنهاها... وان لم ترق عرقلها وأفناها.

عندما عدت الى الفندق استقبلني الحاج من بعيد قائلاً:

ـ يا للبشرى جاء الامر من استانبول لإبقائك هنا... وأخيراً ربحت المعركة.

ـ لا بد من خطأ في حوادثك يا حاج... ها انا آتية من المديرية ولم أسمع شيئاً بهذا الخصوص، فلو كان الامر كما تقول... لكانوا أعلموني به.

نظر العجوز إليَ باستغراب وقال:

ـ لا! وصل الامر مساء الأمس... أخشى ان يكون في الامر تلاعباً دعا المدير لإخفائه عنك.

هززت كتفي غير مبالية وقلت:

ـ ما هي الخدعة؟ هناك ناحية الزينيات بالقرب من هنا، جميلة المنظر، طيبة المناخ. كلفت للذهاب إليها وطبيعي انني قبلت.

اخذت شدة الحاج تشتد وهو يستمع إلي وأخيراً قال:

ـ آه من جهلك وصفاء قلبك يا طفلة!... أخيراً توصلوا لما أرادوا. جازت عليك اللعبة وانطلت... اذهبي حالاً للمدير وأعلميه بأن اللعبة مكشوفة لم تنطل عليك.. واظهري قليلاً من القوة والشدة لتنالي حقك.

فأجبت: لا أريد لأن المسألة لا تستحق كل هذا الاهتمام.

انكشفت الحقيقة في المساء لأن الوزارة أصرت على إبقائي في مدرسة الرشدية رغم توسط المدير ومحاولاته لإبقاء المعلمة حورية. وجاء بأمر الوزارة ان تبقى المعلمة حورية بدون عمل ريثما يحدث شاغر يأخذونها إليه.

تشاور مدير المعارف مع مديرة المدرسة لإيجاد طريقة يلقونني بها الى الطريق، فلم يجدا حلاً افضل من المهزلة التي قام بها المدير وحورية هانم، واستفادوا جميعاً من طيبة قلبي وسذاجتي، ودبروا تلك الحلقة التي لعبت دوراً كبيراً في إرهاق أعصابي واستعجالي لإمضاء الورقة التي تنازلت فيها عن حقي باختياري.

عندما استعرضت كلما حدث وفهمت الخداع وجدت بأنه كان يحق للحاج ان يغضب وتأخذه الحدة.

ان ناحية الزينيات التي رسمت لها الاشكال والصور الحلوة الخلابة في خيالي عبارة عن قرية لا يطير إليها طير ولا تصل إليها قافلة... لم تقبل أي معلمة مهما بلغت بها الفاقة ان تذهب إليها، ولذا بقيت المدرسة شاغرة منذ أشهر ثلاث.

كلما ازدادت معرفتي للتفاصيل اشتد استغرابي من كذب وخداع مدير المعارف (ب) التي انطلت عليّ ببساطة، أكاد أجن... كان الحاج يهز رأسه بعصبية وحدة وهو يقول:

ـ انت لا تعرفين ذلك الثعبان المتناوم، يرقد ويغط وبضربة واحدة يضرب خصمه ضربة قاضية يلقى بها حتفه.

لست أبداً آسفة لمغادرتي (ب) وذهابي الى قرية بعيدة مقفرة. إذا أصيب المرء بطعنات من أقرب الناس وأحبهم الى نفسه لا يبالي أبداً حتى ولا يشعر بطعنات الأغراب والبعيدين عنه. لا أعبأ بما يفعل الجميع ما دام ضميري مرتاحاً.

18 تشرين الثاني - الزينيات

وصلت مساء اليوم الى الزينيات بعربة قروية تجرها الثيران.. عندما تحدث المدير عن الطريق وقربها وعدم دوامها أكثر من ساعتين أظنه قاسها بنسبة سير القطارات..

كانت الطريق طويلة صعبة دامت ست ساعات... أظن ان الذنب لم يكن ذنب المسكين... بل اللوم كل اللوم على طريق الزينيات الملتوية التي تسير بتسلق الجبال تارة والانحدار الى الأودية اخرى.

رافقتني عائلة الحاج حتى نبع كان على مسيرة نصف ساعة من (ب) وكان الكبير والصغير منهم يرتدون ثيابهم الجديدة النظيفة، وكأني بهم يذهبون لحفلة عرس او لحضور مأتم شخص عزيز.

كدت ان لا اعرف الحاج عندما صعد إلي ليعلمني إعداد العربة إذ كان يرتدي أحسن ثيابه وقد خلع مريوله واستبدل القبقاب بحذاء نظيف، وستر رأسه الأصلع بطربوش فاقع اللون ينزل حتى أذنيه. وهكذا كانت السيدة زوجته وولديه (هايغانوش) و (ميراث) كانا في كامل زينة وأحسن هندام.

لا أنكر بأنني تألمت وشعرت بحسرة لفراق غرفتي الصغيرة وخطرت لي أبيات شعر كنت استظهرتها في المدرسة:

تربط المرء بالأماكن التي يعيش فيها وبالناس الذين يعاشرونه أسلاك دقيقة ناعمة... تتوتر تلك الأسلاك عند الفراق،... فيسمع لها أنين يشبه أزيز الكمان عندما تتقطع أوتاره. يحدث في القلب جراحاً تنزف عند تقطع كل وتر من الأوتار.

جميلة هذه الأبيات وكم أشعر مع الشاعر بعمقها وصحتها. سافرت جارتي المناسترية وكم تحز قصة المسكينة قلبي. كنت ليلة الأمس على وشك النوم عندما وصل سمعي صوت مشادة لم استطع التغلب على النعاس واستسلمت لنوم عميق لا ادري كم من الوقت دام، عندما قمت مذعورة على صياح وعويل. تركت سريري وسرت نحو الباب بسرعة لمعرفة ما يجري. سمعت في البهو صوت أشياء تتساقط تختلط بأنين وبكاء اطفال. تبادر للحال الى ذهني بأن هناك حريق، فألقيت بنفسي الى الخارج بشعري المبعثر ورجلي العاريتين لأستطلع الخبر. رأيت ضابطاً ضخم الجثة يجر جارتي ويشبعها ركلاً برجليه الكبيرتين والأولاد يتصارخون فزعين. أما المسكينة كانت تقع على الارض بعد كل ركلة فتئن وتتوجع ثم تقف بتحمل لا يصدق وهي تقول

بتوسل وضراعة: (اقتلني يا سيدي ولكن بربك لا تتركني وتطلقني) ثم تعود للبكاء وهي تتجلد لتستطيع الصمود. تراجعت الى غرفتي لأنني كنت شبه عارية ولم يكن بوسعي حيلة لتخليص المسكينة. سمع من الطابق الاسفل حركة ولا شك بأن الزبائن صحوا من نومهم بسبب الضجة التي حدثت عندنا.

ظهر الحاج (قلفة) ولا بد انه صحا من نومه على أثر ذلك الصياح فركض مسرعاً وبيده الفانوس، أراد التدخل فصاح: (يا للعار! ما هذه السخافة؟ أيليق ضرب امرأة؟ أهذا عمل رجل يعتز برجولته؟) لم يترك الضابط مجالاً للحاج لإتمام كلامه بل منعه بركلة أصاب بطنه فتدحرج على الارض كالكرة، ومنع وجودي بالقرب منه تدحرجه على السلم وإصابته بجروح. ان الضجة التي حدثت أرهقت اعصابي وحطمتها وبينما كان الحاج يقوم شاتماً كنت عائدة الى غرفتي هاربة. ولم أعرف شيئاً عن الحادثة بعد ذلك. إلا ان الحاج نقل إليَ الحادث على الشكل التالي:

قرر الضابط ان يعيد زوجته الى بلدها لأنه ضجر من تعلقها الشديد به. أعد لها تذاكر الرحيل وجاء الليلة ليعلمها بوجوب إعداد نفسها للسفر في اليوم التالي. ولكن، أتترك السيدة زوجها بسهولة وترضخ للواقع دون جدال؟.. طبعاً لا! أخذت تلتمس البقاء تارة بالتودد واخرى بالضراعة والتوسل. الى ان وصلت الامور الى الحد الذي أحدث تلك الضجة في سكون الليل.

بينما كنت أسعى للنوم ثانية سمعت طرقاً خفيفاً على باب غرفتي وصوت الحاج ينادي:

- اسمعي! ليس بالفندق امرأة سواك والمسكينة أضاعت رشدها تعالي لنعتني بها، لأنني لا استطيع الدخول عليها وهي شبه عارية. اسرعي بربك.

ما ان رأيت وجه الحاج حتى أخذني ضحك أسكتني عن الكلام هز الحاج رأسه غاضباً من ضحكي ولم يقل شيئاً. ذهبت الى جارتي وشغلت ما يقارب الساعتان في مواساتها والاعتناء بها. كان جسمها مشبعاً بجراح أليمة عدا الآلام النفسية التي تعانيها من جراء الحادث ووضعها.

لم أعتد في حياتي معالجة ومواساة أحد ولم يخطر في بالي بأنني سأصادف حوادث مثل هذه في يوم من الايام لكنني رغم ذلك أراني قمت ببعض ما يفيد وعندها تأكدت بصحة المثل القائل: (الحاجة تفتق الحيلة) والمصيبة تجعل الجاهل عالماً، والجبان شجاعاً يعمل بغيرة وحماس. كنت أدلك أطرافها وأسكب الماء على وجهها. اختلط الدم النازف من جراحها بالماء الذي سكبته فغسل ما تبقى من (الماكياج) وظهرت خلقتها على حقيقتها وكانت أحب الى نفسي بكثير من الوجه المشبع بالطلاء والمساحيق.

استعادت المسكينة هدوءها فتركتها وعدت الى غرفتي واخذت أفكر بحالها وأرثي لها الى ان أبعدني النوم عنها وعن تفكيري. وما ان صحوت في اليوم التالي حتى علمت بأن زوجها أحضر لها عربة في الصباح الباكر وأخذها مع أطفالها ليعيدها الى ذويها. لم تشأ المسكينة ايقاظي رغم رغبتها الشديدة برؤيتي لتودعني وتشكرني فرجت الحاج ان ينوب عنها بذلك.

كنت أضحك في العربة كلما نظرت الى وجه الحاج وهو بدوره كان يدرك سبب ضحكي فيهز رأسه عاتباً ويقول بنفس اللهجة التي سمعته يتكلم بها في الليل: (تضحكين؟ ها!... تضحكين يا شيطانة؟) وبعدها يلتفت الى ابنه ناصحاً: (ميراث ابني! إن رأيت في المستقبل زوجين يتخاصمان مهما حدث لا تتدخل بينهما... خذها نصيحة مني..).

سادنا سكون عظيم عندما افترقنا عن بعضنا قرب النبع. وأخذ الحاج يوصي السائق بي خيراً والسيدة تفرغ في سلة طعامي ما أعدته من الكعك والحلوى لسفري... آلمتني هيكانوش ببكائها فأخرجت من أذني القرط وألبستها في أذنيها. فقال الحاج معترضاً: (لا يا معلمة هانم... لا يجوز للهدية ان تكون ذات قيمة مادية كبيرة) آه ما أثمن هاتين اللؤلؤتين مهما عظمت تتلاشى إذا قيست باللآلئ التي تسكبها ابنتك من عينيها الحلوتين.

لا ادري إذا كان العجوز أدرك قصدي مما قلت.. إلا انه تأوه بألم وقال: (اقسم بأن وقع هذا الفراق أشد على نفسي من ضربة الأمس...) ان مجرد ذكر حادث الأمس يثير بي الضحك... ما زالت أصابع الحاج تشير وهو يقول: أتضحكين يا شيطانة؟ أتضحكين؟

العربة تسير مبتعدة عنهم. آه يا حاج... لو كنت الآن قريباً مني ورأيت عيني المغرورقتين بالدموع لما قلت ذلك.

دخلت العربة في ملتويات الجبل الضيقة وكانت تمر تارة من انخفاضات السيول واخرى من المزارع القاحلة، تتعقب أطراف الكروم اليابسة. كم من الفلاحين مررنا بهم يستريحون هنا وهناك يستجمون بعد التعب من الأحمال الثقيلة التي يحملونها. لاح لنا من بعيد شبح دركيين مدججين بالسلاح يلقيان الرعب بالنفوس قرآ السائق السلام وحدجاني بنظرة فضول قاسية عندما اقتربا من العربة.

كان الحاج قد أنصحني قبل فراقه قائلاً: (أرجوا ان تزيدي حيطة وحذراً فلا تكشفي نقابك في الطريق وان تكن الطرق مأمونة.) ولذا كنت أسدل حجابي الكثيف قابعة في احدى زوايا العربة فزعة حزينة. يتزايد الحزن الجاثم على صدري مع السكينة الموحشة المستولية على الطرقات. لله در من أوجد جرس العربات. ان طنينها المستمر مدار سلوى وارتياح لنفوس المسافرين في تلك الطرقات المقفرة التي تبعث الوحشة والألم.

اقتربت العربة من التواء موحش وقد استولى الظلام على الوجود فخيل لي ان هناك امرأة تركض خلف العربة مولولة صارخة. وأخذني قلق وفزع... بدأ الليل هجومه والطريق طويلة لا تعرف الانتهاء ولا أمل لوجود قرية قريبة إذ لا أثر لشجر او بيوت.

شعرت بالانقباض يتزايد في داخلي وأخذت أفكر بحالتنا لو اشتد الظلام وعم الاطراف قبل وصولنا ماذا اعمل لو بقيت وحيدة هنا فوق الجبال والمنعطفات؟... كان السائق يتوقف احياناً طلباً لراحة ثيرانه فاستفدت من احدى وقفاته وسألته:

(هل الطريق ما زالت طويلة؟) نزل السائق من مكانه وأجابني برفق: لا يا سيدتي ها قد وصلنا.

لو لم يكن السائق رجلاً كبير السن ووقوراً لحسبته يسخر مني إذ كيف يكون ذلك وليس هناك أي دليل او أثر لقرية. إلا ان السائق قبض على حقيبتي وتابع القول:

ـ سنهبط من هذا الممر. إذ انه ليس هناك طريق عربة يوصلنا الى القرية... ولم يبق بيننا وبين الزينيات سوى مسيرة خمسة دقائق على الأقدام.

أخذنا نهبط من طريق وعرة صعبة وتراءت لنا بعض أشجار السرو والحدائق تحيط بمنازل خشبية صغيرة. ان مرأى الزينيات يشبه أطلال حريق ما زال يتصاعد دخانه. كنت في الماضي أتخيل القرية خضرة واسعة، وأشجار باسقة تزين أغصانها أعشاش عصافير تزقزق وتطير. لكنني الآن أراها خربة سوداء أوشكت أكواخها ان تنهار. ينعق البوم على أشجار السرو القليلة التي تحيط بها.

مررنا برجل عجوز متدثر بعباءته يعمل باصرار لسحب بقرة هزيلة ظهرت عظامها. ما ان رآنا حتى توقف قرب طاحونة مهدمة وتطلع إلينا باهتمام. كان العجوز عمدة القرية يعرفه سائق العربة. عرفه علي بكلمات قليلة وأفهمه سبب حضوري الى قريته.

لم يكن بإمكان العمدة ان يعرف بأنني شابة صغيرة وانا ملتفة بالملاءة السوداء الواسعة. ولكن لا ادري ما الذي أثار اهتمام العمدة فحدجني بنظرات تأمل عميقة... عساه شعر بشيء من الاعتناء في الهندام بالنسبة لقريته... سار أمامنا بعد ان سلم البقرة لولد حافي القدمين كان يسير بقربه.

دخلنا أزقة القرية الضيقة واستطعت رؤية دورها عن كثب. كانت كلها بشكل واحد مبنية على أربع عواميد يستعمل الفراغ الكائن بين تلك الاعمدة إسطبلاً للمواشي. وفوقها الدار مكونة من غرفة او اثنتين يصلها بالأرض سلم خشبي معلق... على أي حال لم تكن الزينيات تشبه القرى التي أعرفها او التي سمعت عنها.

توقفنا أمام مزرعة ذات سياج خشبي مهدم وباب خشبي ذي طلاء احمر باهت. رأيت لأول مرة اللون الاحمر في تلك القرية التي لم أرَ فيها منذ دخولها سوى السواد حتى بأوراق الأشجار. ضرب العمدة الباب بقبضته وكان الباب يهتز بعد كل ضربة كأنه يتساقط. لكنه لم يفتح رغم ذلك الاهتزاز. وأخيراً تجرأت على الكلام بعد فترة انتظار سمعت خلالها الدقات المتتالية على الباب فقلت: ربما كانت الدار خالية.

فأجاب العمدة وهو يهز رأسه: لننتظر قليلاً... لأن خديجة هانم مشغولة بصلاة المغرب.

لم يكن بوسع السائق الانتظار اكثر من ذلك. فلذا ترك الحقيبة من يده وحيانا ثم انصرف. فرفع العمدة طرف عباءته وجلس القرفصاء واسترحت على حقيبتي وأخذنا بالكلام... فقال العمدة:

ـ ان خديجة هانم امرأة متعصبة لدينها منسوبة لطريقة من الطرق تسير حسب الاصول والأحكام. تمد يد المساعدة لأحياء وأموات القرية على السواء... تقرأ الموالد... تكتب على جبين العرائس لتجلب لهم الطالع. تعطي قطرات ماء الزمزم للمرضى المحتضرين عندما يعالجون سكرات الموت تغسل الموتى وتكفنهم.

ثقافة العمدة لا بأس بها. يلم بكل نواحي الحياة بصورة كافية بالنسبة لحياته وقريته. أراد ان يغتنم فترة هذا الانتظار ويسدي إلي بعض النصائح التي يراها قيمة بالنسبة لمفهومه. لم يعترض مثلاً الطرق الحديثة في التعليم، إلا انه شكا من إهمال المدارس النظامية دروس الدين بشكل مزعج يستفز الألم في النفوس. جاءت القرية معلمات كثيرات وسرن حسب الاصول الحديث بتعليم الاطفال إلا أنهن ويا للأسف كن يجهلن تماماً درسي القرآن الكريم والديانة... وهذا عمل مخز يشين الأمة الإسلامية.

أظهر العمدة ارتياحاً كبيراً من خديجة هانم وشعرت بأنه يرجح ان أدع دروس الدين لتلك المرأة الصالحة التقية مؤكداً بأنها تقوم بتدريسها خير قيام... أما انا فلأشغل نفسي بباقي الدروس.

استمعت بإصغاء لنصائحه وتظاهرت بقبولها. وعندها وقفنا لأننا سمعنا صرير الباب وهو ينفتح وصوت يقول من الطارق؟

فأجاب العمدة: ليس من غريب يا خديجة هانم، هاك المعلمة الجديدة وصلت الآن من (ب).

كانت خديجة هانم امرأة كبيرة الجثة، تقوس ظهرها قليلاً وقد تجاوز عمرها السبعين سنة. تغطي رأسها المصبوغ بالحناء بمنديل اخضر اللون، ترتدي معطفاً واسعاً فضفاضاً. قالت مرحبة:

ـ أهلاً وسهلاً يا معلمة هانم تفضلي.

ثم مدت يدها الى الخارج لتحمل الحقيبة وهي تسعى جهدها لرؤية وجهي المغطى بالنقاب الكثيف.

سرنا وقد سبقتني بخطوات قليلة لترشدني الى الطريق. قطعنا الحديقة ووصلنا الى البناء الذي تغنى مديرية معارف (ب) بالتضحيات والمصاريف التي تكبدتها وزارة المعارف لإحيائه وتجديده. ولم يكن يختلف عن بقية بيوت القرية بشيء سوى الاعمدة التي ترفع البيت وقد أحيطت بخشب جعلت منه غرفة للدرس، ولم تمر عليه الايام فتحيل لونه للأسود الذي يتراءى للعين في باقي البيوت.

هممت الدخول فجذبتني خديجة هانم قائلة:

ـ انتظري يا ابنتي.

سببت لي حركتها كثيراً من الخوف والفزع... تمتمت بعض الأدعية القصيرة ثم قالت:

ـ سمي بالله ثم تخطي العتبة بالرجل اليمين أولاً.

كان الطابق الأرضي حالكاً الظلام فمسكت العجوز بيدي حتى استطعت المرور من الردهة المفروشة بالحجر. صعدنا بعد ذلك السلم وكان يتلاعب تحت أقدامنا. وصلنا الى الطابق العلوي المؤلف من بهو خرب وغرفة واسعة مغلقة النوافذ بأحكام.

تركت خديجة هانم الحقيبة من يدها وأخذت مصباحاً من الصفيح كان فوق رف الزاوية، أضاءته ثم قالت:

ـ مضى أربعة شهور على خلو الغرفة من السكان، فلذا ترينها ملآى بالغبار. سأنظفها ان شاء الله في الصباح الباكر.

أما السكينة فكانت تقوم بالمدرسة بوظيفتي المعلمة والخادم بآن واحد. لم تشأ مديرية المعارف الاستغناء عنها عندما أرادت تجديد المدرسة فأبقتها براتب ضئيل.

أدرت نظري في انحاء الغرفة،لم أجد سوى البلى والتقادم يفوحان من كل شيء فيها من السقف حتى الارض والأثاث. تنير الغرفة أضواء خافتة من خلال زجاج مصباح القذر فقلت في نفسي:

ـ هذا هو المكان الذي سأعيش فيه بعد الآن.

كأنني وقعت في مخزن رطب محصور. شعرت بضيق في صدري وبرودة في أطرافي، فقلت:

ـ أرجوك يا خديجة هانم ان تفتحي احدى النوافذ.

فتحت النافذة بصعوبة فاقشعر بدني على حين غرة، لأن المقبرة كانت أمام النافذة وأشجار السرو تتمايل فيها. تتراءى أحجار القبور بصف واحد منظماً ووراءها برك الماء تتلامع بانعكاس ضوء النجوم عليها.

تنهدت العجوز قائلة: على المرء ان يعتاد رؤية كل شيء في الحياة إذ مهما طال طوافنا في هذه الدنيا فهناك مقرنا الأخير.

لا ادري ان كلمتها محض صدفة او انني أظهرت باللاشعور خوفاً وامتعاضاً من منظر القبور. على كل رأيت من الواجب ان أعود لنفسي وأتجلد... فقلت بفتور وعدم مبالاة:

ـ إذا هناك مقبرة؟ لم أكن عالمة بذلك.

ـ نعم يا ابنتي... تلك مقبرة الزينيات، باقية منذ القديم، أما الآن فإنهم يدفنون الموتى بمقبرة غير هذه. انا ذاهبة لإضاءة قنديل الولي (زيني بابا) سرعان ما أعود إليك.

ـ من هو زيني بابا يا خديجة هانم؟

ـ لتكن بركاته حاضرة، ولي مبارك، يرقد تحت تلك السروة الكبيرة.

سارت خديجة هانم نحو السلم وهي تتمتم بالأدعية. أما انا فشعرت بجزع لم اشعر به قط من قبل. بقائي في الغرفة وحيدة اللحظة لأمر اقشعر له بدني. ركضت أتبع العجوز سائلة:

ـ أتسمحي لي بالذهاب معك؟

ـ تعالي يا ابنتي... نعم ما تفعلين! فان دعوت وتقربت من الأولياء حال وصولك تكون أدعيتك اكثر حظوة وتقبلاً.

دخلنا المقبرة من باب المدرسة الخلفي وسرنا بين الأحجار. كثيراً ما أخذتني خالاتي الى المقبرة في الأعياد لزيارة ضريح جدتي، ولكن هذه هي المرة الاولى وفي مقبرة الزينيات اشعر برهبة الموت وأفكر بأنه أمر مخيف.

كانت أحجار القبور تختلف تماماً عنها في مقبرة استانبول. إنها مرصوفة كالجنود بحذاء بعضها البعض عالية سوداء لا يكاد يقرأ ما كتب عليها سوى كلمة مكتوبة بخط عريض في أعلى الحجر هي كلمة (يا رب)

كنت سمعت في طفولتي أسطورة مفادها ان جيشاً كبيراً أتى من وراء الجبال لخطف ابنة احدى السلاطين. كانوا يختبئون في المغاور في النهار ويسيرون في الليل كيلا يراهم أحد، ويفطن لأمرهم. ولذا كانوا يتدثرون بأردية سوداء تخفيهم بين طيات الظلام. ففي ليلة وصولهم الى المدينة قلب الله الجيش السائر تحت الظلام الى احجار سوداء رفقاً بالملك لأنه كان رجلاً تقياً... خطرت لي الأسطورة عندما رأيت الأحجار السوداء وقلت لعل هذه القرية هي بلدة الأسطورة التي قيلت.. وسألت:

ـ من هم الزينيون يا خديجة هانم؟

ـ انا لا اعرف شيئاً عنهم يا ابنتي، لكنهم يقولون بأن هذه القرية كانت للزينيين ولم يبق الآن من أثرهم سوى قبورهم، قدس الله سرهم، ان أعمالهم مشهورة معلومة... زيني بابا أكبرهم وأجلهم قدراً. كم من المرضى وقد يئس دووهم من شفائهم أتوا

بهم الى هذه المقبرة وعادوا متعافين، انا اعرف امرأة مقعدة أتت محمولة وعادت تمشي على رجليها.

ثم أشارت بيدها الى مزار كان بالقرب من سروة كبيرة تقول بأنها مدفن زيني بابا...

اعتادت خديجة هانم ان تضيء ثلاثة قناديل لزيني بابا كل ليلة، تضع الاول على غصن شجرة السرو والثاني على طرف الباب الداخلي والثالث فوق الضريح تماماً.

أما الضريح فكان مخزناً مطموراً بالتراب، يقال ان زيني بابا قضى في هذا المخزن سبع سنين لم يرَ خلالها نور الشمس ليستوفي مقدوره. وعندما مات لم يستطع أحد ان يلمس جسمه المبارك، فبنوا فوقه الضريح.

أشعلت خديجة هانم القنديلين وأشارت نحو المخزن وهي تقول:

ـ هلمي يا ابنتي لندخل المخزن.

لم أجرأ لنزول الدرجات القليلة فاستدارت رفيقتي العجوز نحوي تقول:

ـ هلمي يا ابنتي وحرام عدم زيارتك للولي بعد وصولك الى هنا هلمي وانزلي واطلبي من زيني بابا كل ما يحلو لك من أمان تدور بخلدك.

كان جسمي يرتعش كورقة في مهب الريح وانا أهبط السلم، فان كان الموتى يشعرون فلا بد من شعورهم بخوفي في هذه اللحظة. امتلأت رئتي برائحة تراب ندي بارد. وكان ضريح زيني بابا مغطى بصفيح مصبوغ باللون الاخضر بدل الغطاء.

علمت من خديجة هانم بعد ذلك بان زيني بابا الذي قضى حياته كلها في القلة والحرمان لم يقبل بالأغطية المزخرفة لضريحه بعد الموت وكم من الأغطية التي وردت نذوراً وهدايا لضريحه أصبحت في أقل من اسبوع هباء منثوراً.

أخذت العجوز تتمتم بالدعاء أولاً ثم وضعت الزيت في القنديل والتفتت نحوي تقول:

كلما قارب أجل مريض من القرية يزور عزرائيل عليه السلام زيني بابا فيطفئ قنديله الذي يكون نذير دنو أجل ذلك المريض... حيث يزوره بعدها ليقبض بعدها روحه، والآن اطلبي ما تريدينه من زيني بابا يا ابنتي.

اصطكت ركبتاي ولم يبق في وسعي الوقوف على قدمي فأسندت جبيني المشتعل بحمى الخوف على ضريح زيني بابا وتمتمت كأنني أتكلم من قلبي الجريح دون شفتي فقلت:

ـ أي زيني بابا! لست سوى عصفورة سياج جاهلة صغيرة، لا اعرف كيف وبأي شكل أرجوك واتضرع إليك، لا تؤاخذني لم يعلموني شيئاً مما يرضيك، سمعت بأنك قضيت مكتوبك المسطر على جبينك بسبع سنين لم تر خلالها النور والشمس. أخشى ان تكون قد هربت من ظلم وجحود بني الانسان... يا ابي سأطلب طلباً كبيراً... لا بد من دقائق شعرت خلالها بحسرة واشتياق للشموس والنسائم خلال تلك السنين السبع... امنحني من ذلك الصبر الملائكي الذي جعلك تطيق عذاب تلك الدقائق لأتم مقدوري دون شكوى او أنين.



انا وحيدة في غرفتي لأن خديجة هانم تركتني منذ الصباح الباكر الى الطابق الارضي تتعبد فيه حتى انتصاف الليل تارة بالصلاة واخرى بقراءة الأوردة والأدعية. اكتب هذه السطور منذ ساعتين على ضوء المصباح الضئيل وخرير الماء يتهامس في الإبعاد مع خشخشة السقف المتهالك فيبعث الخوف في نفسي وأحس بقشعريرة تستولي عليّ وتشتد كأن صدى الخرير المزعج وهذه الخشخشة المريرة يترددان في أعماقي كأن السلم يتكسر وكأن أناس في البهو يتهامسون.

أي عصفورة السياج! حان وقت الراحة هيا للنوم... لا تخافي الهمسات التي تصل الى أذنيك في سكون هذا الليل... مهما كانت الهمسات قاسية مرعبة فإنها لا تسيء إليك كتلك الشفاه التي حدثت معشوقتها ذات الشعر الذهبي عن فقر ابنة الخالة اليتيمة وحاجتها... فأنزلت من منزلتها وكرامتها.

12 كانون الاول - الزينيات

ها قد مضى خمسة وعشرون يوماً لوصولي الى الزينيات، وان هذه الخمسة والعشرين يوماً تثقل نفسي كأنها خمس وعشرون سنة طويلة. لم أشأ تدوين مذكراتي حتى اليوم... وبصراحة خشيت ان افعل ذلك لأنني لا ادري ما الذي سأدونه على ما انا فيه من اليأس القاتل الذي مر بي في أيامي الاولى... لكن الآن اعتدت هذا اليأس أيضاً.

هناك كلمة مأثورة عن (سور آله كسي) كانت لا تنفك عن ترديدها وهي:

يا بناتي! الصبر والمقاومة هما أنجع دواء لليأس والمصائب لأن بهما ما يشبه الحنان الخفي لمن يستقبلهما ببشاشة وصمود. يكون أقل ظلماً وتعسفاً بمن يتحملها دون شكوى أو ضجر.

كم ضحكت عصفورة السياج من أقوال معلمتها العجوز حينذاك وهي تخفي رأسها بين أدراج المقاعد لكن الحياة أرت المسكينة تلك الحقائق المحزنة بتجارب شديدة وقاسية.

مضت عليّ ساعات خلال هذه الخمسة والعشرين يوماً كدت أجن خلالها فأقول: لم أعد أطيق الصبر والاحتمال، ولكن كلمات (السور آلة كسي) تطن في أذني وتنشلني من بين براثن يأسي القاتل وبينما يكون قلبي يقطر دماً أبدأ الضحك والغناء بشكل يستسيغ معه قلبي المسكين هذا الفرح الكاذب وتعود الحياة إليه وهو يرتعد كالزهرة الذابلة عندما تتلقى الماء فترتجف وهي تستعيد الحيوية والنشاط.

وأخيراً اعتدت هذه الحياة الجديدة واخذت أقرب الى خدي كل وردة ألقاها. اشبع كل قطة صغيرة ضماً وتقبيلاً، كلما تصادفني في الحديقة وأدفنها بأحضاني. وان لم أجد هذا ولا ذاك خاطبت نفسي: فريدة يا طفلتي الصغيرة! تشجعي ولا داعي للجنون. انت تعلمين بأن خير علاج لقتل الهموم والآلام هو الضحك والمرح. فارمي آلامك وكافحيها بعدم المبالاة والضحك باستمرار.

انا واثقة بأن مصير هذا المرح الزائف الى الزوال ولكن لا بأس ليكن ذلك ولأستفد من دقائق معدودة أقضيها بها... ما دمت استطع ذلك.

انا اعلم تسرب ضوء باهت الى مخزن مظلم محكم إغلاق النوافذ لا ينقص من ظلامه... ولا تبعث زهرة برية ضئيلة القوة والجمال لجدار متهدم متداعي... هذا بديهي ولا شك فيه، ولكن ألا يكفي ذلك لبعث السلوى ولو الى حين؟

في يوم جمعة... كانت المدرسة معطلة عندما توقف هطول المطر المتساقط بغزارة منذ ايام... واخذ الخريف يودع القرية بصحو أخير فضحكت الجبال الشاهقة والمروج للشمس... حتى أشجار السرو وأحجار القبور السوداء أخذت تتلامع بفرح لأشعة الشمس. تحسست قلبي ورايت بأنه بدأ يعتاد العيش في هذه القرية الموحشة وأخذ يحبها ويجد فيها شيئاً يستحق اهتمامه.



بدأت التدريس صبيحة يوم وصولي... ستبقى ذكريات اليوم الاول خالدة في ذاكرتي.. نزلت في الصباح الباكر الى المدرسة واستطعت رؤية الصفوف التي تغنى بها مدير المعارف بتجديدها وما بذله من تضحيات في سبيل ذلك، شاهدتها من قريب ووجدت بأنها كانت إسطبلاً قديماً ثم فرشت أرضه بالخشب ووسعت نوافذه ووضع بها الزجاج فاصبحت بالشكل الذي هي عليه.

كان مصور جغرافي وهيكل عظمي علقا بالمقلوب على الجدار. بجانبهما صورة لمزرعة واخرى لثعبان... وبالجدار الفاصل عن الزقاق كانت أدراج العلف موجودة، لم يروا لزوماً لرفعها فجعلوا منها خزانة ستروها بلوح من الخشب أصبح غطاء لتلك الخزانة... وبينما كنت أتأمل تلك الخزانة أخبرتني خديجة هانم بان هناك وظيفة اخرى لتلك الخزائن... تحبس فيها الاطفال الذين لا يؤثر الضرب في تأديبهم... وهناك طفل اسمه وهبي ابن العمدة يقضي كل أيامه تقريباً محبوساً بالخزانة. وانه يعلم بان مصيره الحبس فيها بعد كل شيطنة يعملها. فلذا لم يعد بحاجة لمن يأمره بالدخول. وعندما يقوم بعمل يعرفه غير جائز يدخل الخزانة للحال وبدون سؤال فينام على ظهره ويغلق الغطاء على نفسه يصبح كالميت داخل التابوت.

سألتها باستغراب: ألا يغضب العمدة ويعترض على ذلك؟

هزت خديجة هانم رأسها وقالت: بالعكس سرّ العمدة كثيراً وقدّر عملي وقال: (مرحى يا خديجة هانم! من أين خطر لك هذا العقاب؟... سأحبس الخنزير في الخزانة التي عندنا كلما أزعجنا ان شاء الله...)

- ان وجود وهبي في المدرسة يدل على وجود صبية... إذاً فالمدرسة مختلطة؟

- نعم، انهم قليلون وعددهم ثلاثة او أربعة. سنرسلهم بعد الآن الى مدرسة الذكور.

- لماذا؟

- ان وجودهم هنا يضايقنا كثيراً يا ابنتي.. لأننا نضطر لستر رؤوسنا عند دخول الصف.

توقفت خديجة هانم عن الكلام قليلاً وكأني بها تريد ان تقول شيئاً تخشى قوله... واخيراً تجرأت للكلام وقالت:

- والآن اصبح لا يجوز أبداً.

- لماذا؟

- لا شك انك شابة صغيرة، وهذا شيء حرام.

- هل الطلاب كبيرو السن يا خديجة هانم؟

- نعم! أصبحوا رجالاً. فمنهم من بلغ العاشرة والبعض في الحادية عشر.

هناك مثل في استانبول يقال طعناً بالتعصب الأعمى: (المرأة التي تهرب من الديك) يظهر ان خديجة هانم من تلك الفئة التي تهرب من الديك لانه ذكر... لم أر لزوماً للجواب وأدرت وجهي.

ان من الأدوات التي تداركها مدير المعارف بعناء خمسة مقاعد بالية وقديمة والغريب انها كانت ملقاة فوق بعضها البعض في احدى زوايا الصف... فسألت:

- لمَ وضعت المقاعد هكذا بشكل لا يمكن الاستفادة منها يا خديجة هانم؟

- وضعتها المعلمة القديمة هكذا يا ابنتي لأن الاولاد لا يستطيعون الجلوس عليها براحة. كما انه لا يستطيعون تفهم الدرس ان كانوا جالسين فيها.. لم تجرأ المعلمة

على إبقاء المقاعد بعيداً عن الغرفة لأنها خشيت مفاجأة المفتش واعتراضه فوجدت حلاً وسطاً وهو ان تجلس الاولاد على المقاعد عند حضورهم في الصباح للمدرسة أما عند ابتداء الدرس فإننا نستبدل المقعد بالحصير حيث يجلسون عليه ويقرؤون دروسهم بانتظام.

طلبت من العجوز مساعدتي لتنظيف المقاعد وبدأت في الحال بتنظيمها على شكل يروق للعين ويسهل الاعمال... لم تجرأ خديجة هانم على الاعتراض رغم دلائل عدم الارتياح البادية على وجهها. إذ يظهر ان المعلمات قبلي بالغن في إيقاف المسكينة عند حدها وإعلانها من تكون بالنسبة للمدرسة، وبينما كنت منهمكة بالتنظيف والترتيب ويدي ملوثة بالغبار والتراب كنت أرى تلميذاتي يأتين الى الصف الواحدة بعد الاخرى.. مسكينات! ان حالهن تدل على فقرهن فثيابهن رثة، ولا اكون مبالغة بأنهن كن عاريات الأقدام جميعاً. يسترون رؤوسهن بخرق بالية يسمع رنين قباقيب البعض وهن يسرن فوق أحجار الحديقة والبهو. كنت أضطر لمناداة كل طفلة تأتي من الخارج لأنها ما ان تراني حتى تحمر خجلاً وتختبئ خلف الباب بوحشية وسذاجة.. ولقد اضطررت لجر البعض من سواعدهن وأجبرتهن على الدخول. وما ان يقتربن مني حتى يغمضن عيونهن بشدة ويقبلن يدي بضغط لا أتمالك نفسي من الضحك بعد كل قبلة تنتهي برنين وتترك البلل في موضعها من يدي... كم أردت تطييب خاطرهن ببضع كلمات معسولة أقولها لهن لكنهن أخجلنني بإصرارهن على السكوت عن كل سؤال وجهته إليهن برفق وحنان. ولم يجبن إلا على السؤال المتعلق بأسمائهن: زهراء، عائشة، زهراء، زهراء، عائشة.

آه يا ربي! ما اكثر اسم زهراء وعائشة في هذه القرية... كم من الخواطر المضحكة الغريبة التي وردت الى خاطري حينذاك فأضحكتني رغم ما بي من وحشة وحزن مثلاً: لو حضر مفتش للمدرسة وأراد الاستعلام عن اسماء تلميذاتي فكم تكون الاجابة سهلة فأقول فرضاً: 7 عائشات و 10 زهرات وينتهي الامر. وزيادة في التسهيل يمكنني وضع العائشات في طرف والزهرات في طرف آخر. وبالإمكان أيضاً عندما

ألاعبهن بالكرة خلال الفرص المدرسية _لأنني سأنسيهن تعب الدرس باللعب ولا شك_ سأقول: العائشات هنا والزهرات هناك فأفرقهن عن بعضهن البعض.

كانت أجرأهن على الكلام طفلة صغيرة مستديرة الوجه رفعت رأسها وتطلعت إليَ بعينيها السوداوتين تسألني بدهشة: أتعرفين اسمي؟

أجلست تلميذاتي الواحدة بعد الاخرى في المقاعد وطلبت إليهن الانتباه والتقيد بملامحهن... كم كان منظرهن يستدر الشفقة عندما كنت أرى علائم الوجل وعدم الراحة تبدو عليهن. كان من الصعب عليهن الجلوس على المقعد وكأني بهن يجلسن على غصن شجرة ويخشين السقوط... وما ان ابتعدت عنهن حتى أخذن بالتطلع إليَ بأطراف عيونهن وسحبن سيقانهن العارية الوسخة الى أعلى كالسلحفاة عندما تضم أطرافها داخل غلافها.

استرعى انتباهي قراءتهن الدرس بصوت جهوري عندما طلبت منهن القراءة... إذ لم أتوقع ذلك الصوت من تلك اللواتي أتين إلي بخجل ووجل يتهادين في مشيتهن كالعرائس. وكلما كثر عددهن علا صياحهن وأصبح بشكل أوجع رأسي وأثار الضيق في نفسي.

قلت لخديجة هانم سائلة: أتقرأ التلميذات دروسهن دوماً بنفس هذه الضجة؟ هذا شيء لا يطاق. فأجابت دهشة: طبعاً يا ابنتي! هذا أصول المدرسة ولا تكسر الشجرة بدون فأس، ان ارتفاع صياحهن يدل على رسوخ الدرس في أذهانهن.

امتلأ الصف تقريباً... ضربت يدي على الشيء الوحيد الجديد والجميل في المدرسة وهو كرسي المعلمة وأردت ان أقول لهن ان يدرسن دون ضجة وضوضاء، ولكن لم تثر ضربتي اهتمام أحد ولم ترفع إحداهن رأسها بل بالعكس زاد صياحهن حتى أصبح كدوي النحل وهن يقرأن: أعوذ بالله... الحمد لله... أبجد.... هوز... حطي. لا شك انني سأتعب كثيراً حتى أتوصل الى ضبطهن وتنظيمهن لكنني واثقة بأنني سأوفق.

قلت لخديجة هانم: تابعي اليوم أيضاً تدريسهن بمعرفتك لأنني لا استطيع ابتداء التدريس قبل تنظيم المدرسة حسب الاصول.

فنظرت إلي العجوز بعين ملؤها الشك والريبة وقالت:

ـ ماذا نعمل؟ إذا كنا لا نعرف الذي تعرفونه على كل ندرس حسبما تعلمنا ورأينا.

عرفت فيما بعد ما قصدته بكلامها لأن المسكينة ظننت بأنني أجرها للفحص وخشيت ان تفقد راتبها الضئيل لا يتجاوز (150) المائة والخمسين قرشا. كانت البعض من التلميذات يسترن رؤوسهن بمناديل غريبة الشكل رغم جودة الطقس وعدم هطول الأمطار ولذا سألت زميلتي مستفسرة عن السبب فأجابتني باستغراب يشبه استغرابها الذي تبديه على كل سؤال أوجهه إليها:

ـ هداك الله يا ابنتي! إنهن شابات فكيف يجوز لهن الخروج من الدار دون ستر شعرهن.

آه يا ربي! كيف يحسبون تلك البنات اللواتي لا تزيد أعمارهن عن العاشرة او الحادية عشر سنة شابات رغم صغر سنهن وتحول أجسامهن واصفرار وجوههن. الحق أنني وقعت في قرية غريبة العادات لكنني من جهة اخرى سررت لأن من ينظر للاطفال كشابات لا بد ان يعتبرني سيدة كاملة النضوج. ولا احد يستطيع بعد الآن ان يسخر مني ويقول لي بأنني ما زلت طفلة.

جاء الصبيان متأخرين لأنهم يعملون في بيوتهم كالرجال تماماً. يملئون الماء ويحلبون البقر ويأتون بالحطب من الاحراج وبعد الانتهاء من الاعمال المطلوبة منهم يأتون الى المدرسة.

قالت لهم خديجة هانم ان ينتظروا بالخارج قليلاً ثم قالت لي بخجل وارتباك:

ـ أظن يا ابنتي أنك نسيت غطاء رأسك؟

ـ هل هناك من لزوم لذلك؟

ـ ! فإن سألت عن الحق فهذا واجب... وان كان هذا لا يعنيني... إلا انني أرى اعطاء الدرس دون ستر الرأس حراماً.

خجلت ان اقول (لا ادري او لا يهمني ذلك) فقلت وانا احمر خجلاً: نسيت ان أتدارك منديلاً قبل مجيئي. وطبيعي انني كذبت بما قلت.

قالت لي خديجة هانم: لا بأس يا ابنتي انا أعطيك منديلاً نظيفاً. وذهبت الى غرفتها حيث سمعت صوت صندوقها وهي تفتحه وتأتيني منه بمنديل اخضر اللون. ما العمل؟ عليّ ان أحتمل ما يصيبني وان كنت لا أطيق ذلك لأنني لم أعتده منذ الطفولة ولكن انا مضطرة للمسايرة... ألقيت المنديل على شعري وربطت طرفيه من تحت ذقني على شكل مناديل بنات الغجر اللواتي طالما رأيتهن في استانبول يدرن أنحاءها ويكسبن عيشهن برؤية الطالع والبخت. كان زجاج احد النوافذ يشبه المرآة وقد أغلق الخشب خلفه فوقفت أمامه دون ان يفطن احد الى ذلك واخذت أتفرج على شكلي وهندامي عندما أصبحت معلمة افتكرت بهندام وزي خاص لنفسي أرتديه في ساعات العمل لأنني أفكر بان المعلمة لا تستطيع ارتداء الملابس العادية في وقت العمل. والشكل الذي اخترعته كان بسيطاً للغاية... قميص بسيط من الساتان الاسود اللامع يصل حتى تحت الركبتين وزنار من الجلد الاسود... وتحت الزنار بقليل جيبين صغيرين لوضع المنديل والمذكرة... وعلى الرقبة سأضع ياقة بيضاء واسعة تخفف من وحشة سواد القميص.

انا لا احب الشعر الطويل، لكنني لا استطيع ترك رأسي بشكله بعدما اصبحت معلمة ولذا مضى عليّ شهر لم اقص شعري خلاله بل اعمل كل واسطة لتطويله لكنه حتى الآن رغم كل اعتناء لم يصل حتى كتفي.

ارتديت هذا الزي في اول درس واستعملت الفرجون بشدة لشعري حيث صففته بشكل يخلصني من فزع تهدله على جبيني فيخجلني كمعلمة... وكان منظري بالقميص الاسود والشعر المقصوص على طريقة الراهبات وفوقه المنديل الاخضر يثير الضحك وكم لاقيت صعوبة في ضبط نفسي عن القهقهة والضحك.



سأسجل اسماء طلابي الشباب، أولاً: وهبي الذي يقضي أوقاته محبوساً بالصندوق كالفئران، حقاً انه جرذ بندق مسلي للغاية، بعده تلميذ ذو الوجه الاسود والأسنان

البراقة البيضاء التي تلمع من بين شفتين حمراوتين. انه أذكى الاولاد وأرجحهم عقلاً وأخفهم روحاً اسمه جعفر آغا. انه عبد سوداني، في الصف يكتفي بعدم الاجابة على كل من يناديه جعفراً بدون آغا لكنه يرجمهم بالحجار في الطريق. ثم ولد في العاشرة من عمره نحيل الجسم مكسر الأسنان شوه الجدري وجهه فزاد من سمرته الوسخة اسمه (عاشور) وأخيراً الأكثر لباقة ولطفاً بين طلاب الصف واسمه (حافظ نوري) طفل في الحادية عشرة من عمره لكنه ذو وجه ملئ بالتجاعيد حيث يعطيه سيماء ابن السبعين رقبته عوجاء من أثر خراج تحت ذقنه شد الجلد بعد شفائه... جفناه دون أهداب ورأسه يشبه البيضة تحت العمامة البيضاء... والحاصل انه مخلوق يمكن عرضه للتفرج عليه مقابل اجر في أحد المعارض.



اخذت خديجة هانم في ذلك اليوم بسحب الاولاد إليها واحداً تلو الآخر لتستمع الى دروسهم بعدما أعدت حزمة من العصي أحضرتها من أشجار المقبرة. وبينما كانت تنشغل بواحدهم تقوم القيامة بين الآخرين.

تذكرت (سور آله كسي) عندما كانت تتعب من ضوضاء الصف أحياناً فتشبك أصابعها الصفراء والنحيلة التي تحاكي الشمع العسلي بلونها الى بعضها وترفع عينيها الزرقاوتين الصافيتين كعيني العذراء الى السماء وتقول: انا أقاسي الأمرين بينكم كأني في سجن التعذيب.

آه لو ترين ما تقاسيه عصفورة السياج الآن تكفيراً عما أصابك في الصف وكانت هي الزعيمة المترأسة له.

عانيت كثيراً خلال الاسبوعين الأولين حتى استطعت تدريبهم على الاجتهاد والمذاكرة دون جلبة او ضوضاء، والاستماع للدرس بدون حركة او ضجيج أصبح ميسوراً بينهم على كل حال لم تذهب أتعابي سدى وتوصلت الى نتيجة.

بينما كنت في الايام الاولى لا استطيع ضبطهم رغم كل ما أبذله من جهد لأن صوتي كان يأتيهم كطنين البعوض بعدما تعودوا ضربات عصي خديجة هانم التي تشبه فحيح الأفعى وكثيراً ما كنت أنادي: تعالي يا خديجة هانم، بعدما تزهق روحي ضجتهم، ولا أنكر أبداً بان دخولها الى الصف كان خير عون للخلاص مما انا فيه. كانت تهجم كالتنين وبيدها عصا تهزها صاخبة متوعدة، وأخيراً استطعت ان أخمد هذه الضوضاء بالتدريج... حتى ان خديجة هانم التي كانت تعتقد بأن الدرس يرسخ بأذهانهم بنسبة صياحهم أخذت تردد بامتنان وسرور: (وفقك الله يا ابنتي، استراح راسي وهدأت اعصابي...)

لم تكن بغيتي مقتصرة على هذا وحده... كنت اريد ان أوقظ في نفوسهم الصغيرة الحيوية والنشاط وهذا لم يتح لي بشكل من الاشكال وذهبت جهودي عبثاً وبدون جدوى.

ان نفوس الاطفال سحابة حزن كئيبة تشبه السواد المستولي على بيوت وأزقة وقبور القرية... ان شفاههم الشاحبة لا تعرف معنى للابتسام وكأني بعيونهم الحزينة تفكر بالموت دون ان تفهم الحياة طعماً... أأصبح مع الايام مثلهم يا ترى؟

كنت في الماضي أفكر بالموت بشكل آخر... مثلاً بعدما يقضي المرء خمسين او مائة عام يحياها يسرح ويمرح ويأخذ من ملذات الحياة ما يحلو له يسقط إعياء وقد تهدلت جفناه كأن به حاجة الى النوم. وعندما يمدد على فراش ابيض وثير ويستغرق في النوم الأبدي الذي يأتيه على مهل وهو يستعرض ذكريات الماضي فيبتسم لها فينطفئ مع تلك الابتسامة نور حياته... وبعدها يودع مقره الاخير حيث الرخام المتلامع تحت أشعة الشمس تحيطه الازهار البرية اللطيفة وقد اجتمعت العصافير الصغيرة تزقزق حوله وهي تفتش عن ماء تشربه وكثيراً ما وجدت الماء بين شقوق الرخام اللامع.

كنت أتصور الموت على هذا النحو الحبيب أفكر به بمرح وسرور دون ان يترك أي أثر للفزع والرهبة في نفسي. أما الآن فانني أشم رائحة الموت بين هذا التراب الاسود فأستنشقه برئتي وأتذوقه بلساني وأجده علقماً مراً.

كانت خديجة هانم من العوامل ذات الأثر الكبير بجعل الاطفال عديمي الحركة والنشاط قليلي المرح والسرور لأن هذه السيدة تقوم بوظيفة التعليم على شكل يخمد في نفوسهم كل حيوية وأمل إذ لا تمضي فرصة او مناسبة دون ان تدع الاطفال خلالها يجابهون الموت بشكله البشع المخيف... انها تعتقد بأن اللوحات المعلقة في الصف لم ترسل إلا لهذا القصد وان ذكرى الموت في كل لحظة واجب يقرب الانسان الى الجنة والنعيم.. ولذا لا بد من افتتاح المدرسة والدروس كل يوم ببعض القصائد ذات المطلع الذي يقول: (الدنيا فانية لا تبقي أحداً) ثم تلقي أمام أنظارهم بلوحة الهيكل العظمي تشرح لهم القصد منها وهي تقول: (هكذا يتفسخ اللحم وتتفكك العظام عند الموت) وهي تحدثهم عن الموت وعذابه والقبر ودهشته... انها لا تكتفي بلوحة الهيكل العظمي بل تتحداها الى بقية اللوحات فتريهم لوحة المزرعة والمواشي قائلة: خلق الله هذه المواشي لعباده يتغذون ويسبحون بحمده وشكره ولكن، أنأكل المواشي والخيرات ونقوم بما يجب علينا من الشكر لله تعالى؟ لا! نحن مقصرون في الواجب ولكن غداً في الآخرة كيف يتسنى لنا الخلاص من عذاب الله؟... ان مفهوم خديجة هانم للحياة لا يتعدى الموت والآخرة والعذاب، إنها تطلق على الحية في اللوحة اسم (عزرائيل) ملك الموت وكثيراً ما عالجت مرض القرية بكتابة أسمائهم على بطن تلك الحية.

في الحقيقية، لم يبق سبيل لم أسلكه لأبث النشاط والحيوية في نفوس هؤلاء الاطفال وابعد عنهم شبح الكآبة والموت ولكن لم أنجح بكل الوسائل التي عملت بها.. أخرج بهم الى الحديقة باستمرار وأعلمهم الالعاب المسلية جداً بتحريك أذهانهم لكنهم لا يتذوقونها بأي ثمن فيتسرب اليأس الى قلبي وأتركهم وشأنهم وسرعان ما تجتمع البنات في ركن الحديقة فيلعبن لعبة الموت والتابوت والزبانية والقبر وينشدن الأناشيد... عندما أسمعهن ينشدن بصوت واحد:

بعدما يخلعون الملابس عنك فتصبح عارياً

لضيوفك في التابوت الخشن اليابس

يقشعر بدني وأرتجف وانا أرى جنازات وجنازات تمر أمامي. ان لعبتهن المفضلة هي تمثيل الجنازة وغالباً ما يلعبنها في فرصة الغذاء كأنها مسرحية وان بطلا المسرحية هما نوري وجعفر آغا... يمرض جعفر آغا فتجتمع البنات حوله يقرأن له القرآن الكريم ويضعن في فمه قطرات ماء الزمزم... وما ان يسلم الروح حتى يتباكين مولولات صارخات يربطن ذقنه ثم يضعنه على المغتسل ويغسلنه ولا يختلف الباب المخلوع عن التابوت عندما يسترنه بأغطية خضراء ويزينه بالورود... وبعد ذلك يأتي دور حافظ نوري حيث يصلي بصوته الخشن الجهوري صلاة الجنازة ويلقنه قائلاً: (يا جعفر بن زهرا..) لا أنكر ان هذه الالعاب المزعجة والتمثيل الكئيب يدخل كل ليلة في أحلامي... وهكذا كما قلت أولاً استنشق الموت في كل لحظة من هواء هذه القرية وخاصة في الليل، تلك الليالي الطويلة الموحشة التي تسير ببطء ولا تنقضي ساعاتها إلا بصعوبة. عسير جداً احتمال أوهام وأشباح تلك الليالي الكئيبة.

في احدى تلك الليالي اخذ البوم ينعق، فاضطربت لسماعه واقشعر بدني ولم أر بدأ من النزول الى خديجة هانم طلباً للهدوء والسلوى، لكن المنظر الرهيب الذي رأيته في غرفتها الشبيهة بالزنزانة كان أسوأ الى نفسي من صوت البوم، رأيتها متشحة بالبياض.. كميت فر من قبره، تتمتم بصوت مبحوح أدعيتها وكأنها غائبة عن الوعي تماماً.



هناك اشياء ثلاث اخذت اشعر بها: الاولى الماء الجارية باستمرار تحت نافذة غرفتي. ان خريرها المتمادي سلوى ليالي وحدتي، والشيئان الآخران هما طفلان من تلاميذي.. أحدهما وهبي الصغير... ذلك الشيطان الصغير الذي قضى أيامه في زمن خديجة هانم مستلقياً على ظهره في الصندوق... لا شك انني احب هذا الخبيث واشعر

له بميل خاص، لا يشبه ميلي لأحد من الاطفال الآخرين. ما أحلى حديثه وما أعذب صوته وهو يتكلم بطلاقة مبدلاً (الكاف) (جيما).

رايته مرة يتطلع إلي بعينيه البراقتين باهتمام ونحن في الحديقة فقلت له: لماذا تتأملني هكذا يا وهبي؟ فلم يتردد او يخجل عندما أجاب: إنك فتاة جميلة... ألا تتزوجين أخي؟

ان أطوار وهبي تعجبني وانني أحبه كثيراً لكنني عبثاً أحاول فرض احترامي عليه.. حتى انه لا يهتم ولا يبالي بما أقول حتى في ساعات العقاب وشد الأذن، وربما اشعر بتزايد حبي له من جرأته وأطواره هذه التي لا تشبه أطوار الآخرين.

قطبت حاجبي وقلت بشدة: لا أسمح لتلميذ ان يقول كلاماً كهذا لمعلمته فلو سمعوك لمزقوا فمك.

فقال وكأنه يسخر من طيبة قلبي وسذاجتي: ها! ها... هل تفكرين بأنني مخبول لأقول هذا لغيرك؟

آه! لله ما أوسع ما يدرك هذا الطفل... استمر على كلامه بعد مبالاة: عندما أناديك يا امرأة أخي الاستانبولية.. وأجلب لك الكستناء من الاحراج بيدي... ويطوق أخي جيدك بالذهب والحلي.

ـ أليس عندك امرأة أخ يا وهبي؟

ـ عندي ولكنها فتاة بشعة سوداء، إن قبلت انت وتزوجت أخي نعطيها للراعي حسن ليتزوجها.

ـ ماذا يشتغل أخوك؟

ـ انه دركي.

ـ ماذا يعمل الدركي؟

حك وهبي رأسه مفكراً ثم قال: يؤدب قليلي الأدب ويعدم الكفار.

يعجبني من وهبي كبرياؤه وإصراره. إنه ولد عنيد متكبر بأنفه وشهم يشبه الرجال بطباعه... عندما أصحح له الخطأ في الدرس يخجل ويحمر لكنه لا يصلح الخطأ بأي حال، وان أصررت بالتصليح قاوم وأعلن التمرد والعصيان.

تطلع إلي باستخفاف وقال: إنك امرأة يا... وعقلك قاصر محدود لا يدرك الأمور على الوجه المطلوب.

هذا هو وهبي الذي أحبه، أما الثاني فهي طفلة صغيرة يتيمة. أظنه كان اليوم الخامس لوصولي عندما شعرت بقلبي يخفق بنشوة وذلك عندما رأيت بين التلميذات وبالمقعد الخلفي الأخير تلميذة شقراء ذات شعر ذهبي جميل، ناصعة البياض تشبه الملائكة ببراءتها وصفائها، تنظر إلي بابتسام انفرجت شفتاها عنه فبانت أسنانها الصغيرة البيضاء تلمع كاللؤلؤ، من عساها تكون تلك الطفلة؟ ومن أين أتت؟

أشرت لها بيدي قائلة: تعالي إلي يا طفلتي.

فقفزت بخفة العصفور الصغير وأتت مسرعة وهي تثب بمرح يشبه وثبي عندما كنت في المدرسة تماماً. يلوح لي بأن هذه الطفلة فقيرة جداً، ثيابها ممزقة بان لحمها من خلال فتحات ثوبها الممزق المهلهل، مسكت بيديها الصغيرتين وقلت لها:

ارفعي رأسك لأراك يا طفلتي الصغيرة.

وعندما رفعت رأسها بانت عيناها الزرقاوتان من أهدابها الطويلة الحلوة.

بذلت كثيراً من الجهد لأضبط نفسي عن البكاء وانا أرى تلك الطفلة الصغيرة تبتسم ببراءة وصفاء وهي نصف عارية تتطلع إلي... اشعر بحاجة للبكاء الآن وانا التي لم تستطع المحن التي داهمتني في الزينيات من إبكائي ولا ادري لشعوري تفسيراً... داعبت ذقن الطفلة بلطف وسألتها كما سبق وسألت رفيقاتها عن اسمها فقلت:

ما اسمك يا صغيرة أزهراء أم عائشة؟

أجابتني بصوت حلو رقيق وبلهجة استانبولية صحيحة:

- اسمي (مؤنسة) يا معلمة هانم.

- هل تدرسين في هذه المدرسة يا ابنتي؟

ـ نعم يا معلمة هانم.

ـ لم لم تحضري منذ أيام؟

ـ لم ترسلني خالتي يا معلمة هانم... لبعض أعمال بسيطة كانت لدينا تتطلب السرعة بالعمل... وانني سأحضر بانتظام بعد الآن ان شاء الله.

ـ أليس لك أم يا ابنتي؟

ـ لي خالة يا معلمة هانم.

ـ ماذا جرى لأمك؟

أسدلت الطفلة جفنيها الى الأمام صامتة لا تجيب فشعرت بأنني أيقظت بقلبها الصغير جرحاً دون ان أتعمد ذلك. فسكت لحظة ثم غيرت الموضوع بأسئلة اخرى...

ـ هل انت التي سمعت صوت غناءها مساء الأمس يا مؤنسة؟

قلت ذلك لأنني سمعت مساء الأمس صوت غناء طفل من حديقة مجاورة وكان الصوت رقيقاً وجميلاً يختلف تماماً عن الاصوات التي سمعتها هنا بشكل جعلني أسند رأسي على حافة النافذة وأغمض عيني لحظة أنسى وجودي هنا وأتصورها بأمكنة اخرى... ودام شعوري هذا بضع دقائق، خيل إلي بأنني في تلك البلدة التي لا احب ذكر اسمها لأنها مهد الغدر والجحود... لا بد ان تكون المنشدة لتلك الأغنية هي هذه الطفلة للتشابه الذي لاحظته في نبرات الصوتين.

هزت مؤنسة رأسها بخجل وقالت: نعم يا معلمة هانم... أنا هي التي كانت تغني مساء الأمس في الحديقة.

عادت الطفلة الى مكانها وشعرت بشعور جديد لم يكن مألوفاً لدي عندما بدأت بالدرس والتدريس.

كان تأثير الطفلة بنفسي كتأثير شمس الربيع بالأزهار انها ومضة من شعاع لمعت في عش عصفور مطمور بالثلج. ففي ظلمات ذلك العش الاسود الحزين أخذت عصفورة السياج المسكينة المريضة ان تستعيد حيويتها وعاد إليها مرحها ونشاطها بعد ما ظلت مدة ترتعش ألما ويأسا وقد أخفت رأسها بين جناحيها المهيضتين لا تستطيع حراكا.

دبت الخفة في حركاتي وتبدل صوتي فأصبح عذباً رخيماً. كنت ألتفت إليها بين الفينة والفينة فألقاها تبتسم لي بحب أشعره في أعماقي، ولأول مرة شعرت اليوم بحنان الأمومة. آه! ما دامت الظروف اضطرتني للعيش وحيدة، فليت لي ابنة صغيرة تشبه مؤنسة، كنت لا اشعر بوحدتي ووحشتي أبداً ولكن هيهات! سوف لا تكون هذه السعادة من نصيبي مدى الحياة.

اخذت بعض المعلومات البسيطة من خديجة هانم عن الطفلة مؤنسة ان المرأة التي تدعوها بالخالة هي زوجة أبيها. وان أباها موظف أحراج كهل بقي في القرية بعد ما أحالته الحكومة للتقاعد لأن زوجته الحالية من أهالي القرية وإنهم يعيشون براتب تقاعده البسيط ووارد حديقة تملكها زوجته ويسكنون بدار تملكها أيضاً. فقلت لخديجة هانم:

ـ يظن مما تقولين بأن وضع العائلة لا بأس به. فلم لا يعتنون بهذه الطفلة ويتركونها هكذا نصف عارية؟

فأجابتني بشدة وقد قطبت حاجبيها: إنهم يسرفون بالاعتناء بها فلو كان غيرهم لما قبلها في داره وألقاها في الطريق.

ـ لماذا؟

ـ إن والدة الطفلة هذه امرأة سيئة السلوك يا ابنتي هربت مع ضابط قبل خمس سنوات او اكثر وكانت الطفلة صغيرة جداً حينذاك... يقولون بأن الضابط تركها بعد مدة وذهب الى جهة اخرى وعندها أخذها الشبان الى الجبل وتردت بالرذيلة فساءت سمعتها وأخلاقها.

ـ ما ذنب الطفلة بما حدث للأم يا خديجة هانم؟

هزت العجوز رأسها بخشونة وإصرار وقالت:

ـ لا تلبس ابنة أم كتلك المنحطة اكثر مما تلبس... أتطلبين إلباسها الحرير والديباج؟ لا تستطيع مؤنسة الدوام يومياً وبانتظام الى المدرسة وكلما اسألها تقول: غسلت لخالتي، ومسحت لها الخشب... أتيت لها بالحطب من الاحراج.

ما كان الاطفال لينظرون الى مؤنسة نظرة عطف ومحبة بل كانوا يبتعدون عنها دائماً في الدرس والفرصة.وكلما سنحت لهم الفرصة آلموها وكثيراً ما أبكوها بحزن ومرارة. كان لي أصبع في هذه المعاملة لأنني لا استطيع اخفاء شعور الحب العميق الذي اكنه للطفلة عن بقية التلاميذ وكلما رأوني أعاملها برفق وحنان وأناديها إلي بالفرص وأحدثها أمعنوا في الحقد عليها وإيلامها.

سمعت في احد الايام مؤنسة تقول باكية: (ماذا عملت لكم؟ دعوني... دعوني..) كان صوتها آتياً من الحديقة تختلط كلماتها بالبكاء والنحيب فركضت الى النافذة أتطلع دون ان أدعهم يروني... يا لغرابة ما رأيت!.. رأيت البنات يملأن فمهن ماء من الحنفية ويطاردن مؤنسة حتى حبسنها في زاوية لم تعد تستطيع الإفلات وأخذن بإفراغ الماء من فمهن عليها، والطفلة تسعى للإفلات منهن باكية مستجيرة تستر بيديها الصغيرتين تارة وجهها واخرى عنقها لتمنع وصول الماء لجسمها.

كأن البنات وقد خرجن فجأة من طور الهدوء الى الوحشية، كن ككلاب الصيد عندما تطارد الغزلان الجريحة في البرية. التففن حولها بقسوة صارخات وقد غرق جسمها العاري الصغير بالماء.

جن جنوني وخرجت كالمجنونة من غرفتي وهبطت السلالم بسرعة كادت تكسر قدمي عندما علقت بين دفتي السلم. كنت لا ألوي على شيء الى ان وصلت الى الحديقة وعندها تبدل الوضع تماماً ووجدت مؤنسة بين يدي حام صغير مثلها لكنه قوي وعنيد... وهو وهبي الصغير. لا أنسى أبداً الرجولة التي أظهرها ذلك الطفل ابن التاسعة. رأيته وقد غطس بالوحل المتراكم في المياه الفائضة من الحنفية ينتقض كالبط فيرشق كل من يعترض لمؤنسة بمطر من الوحل. وكان وجهه ويديه وشعره اسود ملوثاً بالوحل وصوته ينطلق كصفارة الانذار بين ضوضاء البنات صارخاً: يا لعينات! دعن البنت، سأذبحكن، لم يبق مفر للبنات عن التراجع ووابل الوحل يمطرهن.

اخذت مؤنسة لأحضاني وهي في شبه غيبوبة وأتيت بها الى غرفتي وليس باستطاعتي وصف الشعور الذي اعتراني عندما احتويت الطفلة بين ذراعي شعرت بينبوع يغلي في أعماق روحي فيدفئ بحرارته صدري. سرت رعشة لذيذة في جسمي فأوقفت الدموع في مآقي بعد ان رطبتها الشعلة المنبعثة منهما.

يخيل إلي ان هذا الشعور انتابني قبل الآن، ولكن أين يا ترى؟ ومتى؟ بينما أدون شعوري توقف قلبي عن خفقانه وسرح في الماضي البعيد. نعم أين؟ ومتى؟. لا بد ان يكون ذلك في حلم قديم لأن هناك اشياء كالأحلام تسكن في الخيال الراكد ولا يدركها العقل. اشعر كأنني أطير بين طبقات الهواء وفي الاجواء واسمع حولي حفيفاً لأوراق الاشجار وهي تنهمر على وجهي وعنقي كالسيل ترى أين؟ لا! لا! اقسم بأن الخيال يخدعني ولم أشعر بشعوري هذا سوى اليوم ولأول مرة في حياتي.



شغلت اليوم بمؤنسة كثيراً فأهملت تلميذاتي حيث نظفت جسمها البض الصغير ومشطت شعرها الاشقر الناعم وقد دام بكاءها ما يزيد على العشر دقائق وهي بين أحضاني.. آه من تلك الدموع! كأن تلك الدموع المنهمرة من عينيها البريئتين انقلبت سهاماً مشتعلة أصابت قلبي بجراح دامية. بدأت أكسب قلب الطفلة بعض الشيء فأخذت تقترب مني وتتشبث بأذيالي كهرة اليفة وانا أخيط لها ثوباً من بعض ثيابي القديمة.. كنت اشعر بأنها اتخذت طور الكبار شأن الاطفال جميعاً... فهي تعرف الحياة التي بدأت منذ شهرين للتعرف إليها قبلي وأحسن مني... تقوم بأعمال الدار عن زوجة أبيها وتعتني بإخوتها الثلاث ورغم كل ذلك فان زوجة الأب تضربها باستمرار... مثلاً: قبل اسبوع دخلت بقرة الجيران حديقتهم وبينما كانت مؤنسة تلاحقها لتطردها وقعت أختها من الارجوحة... عدتها زوجة أبيها مسؤولة عن ذلك وضربتها بشدة ثم حبستها في الإسطبل حيث قضت هناك يومين لم تأكل سوى فتات

الخبز خلالها... وأرتني مؤنسة بعض الآثار في جسمها الصغير وقد مالت زرقتها الى الاصفرار وقالت ان هذه الندوب هي بقايا الضرب والعصي في ذلك الحادث.

لم أطق صبراً فقلت: حسناً يا مؤنسة ألا يشفق أبوك لحالك؟

ابتسمت مؤنسة بألم امرأة كبيرة رافقها سوء الطالع فلاقت المصائب الجسيمة في حياتها وقالت: هو يرثي لحالي... وانا أرثي لحاله... ولكن ما باليد حيلة. وبينما كانت تقول ذلك تنهدت بحسرة وأتت بحركات عصبية أليمة بيديها الصغيرتين فأذابت كبدي حزنا وغما.

ألبست مؤنسة برغبة ونشاط كأني العب بدمية، فأحيك لها الثياب ثم أريتها شكلها بالمرآة فاحمرت سروراً واخذت تتأمل شكلها كأنه غريب عليها بجديلتيها المضفورتين بالشريط الاحمر وفستانها الكحلي وجوربها الأبيض... وشاركتها شعورها بالفرح والسرور.

علمت مؤخراً بان لباس وهندام مؤنسة صار مدار القيل والقال أياماً في الزينيات... فسره البعض من عملي الطيب... لكن أغلبهم لم يكونوا ممنونين لأنهم رأوا هذا الاحسان كثيراً على فرخ حية تدور بالجبال بنذالة واستهتار... وكم منهم اعتبر هذا الترتيب بهرجة محرمة وعدوه تشويقاً للطريق الذي سلكته الأم المسكينة.

على كل لم تهنأ المسكينة بلباسها لأن زوجة الأب أخفت الثياب في الصندوق ولم تد:مها تعود إليها ثانياً ولا ادري السبب لما فعلت... وهكذا أتت الطفلة الى المدرسة باليوم الثاني بنفس الثياب الرثة البالية... وكان ذلك اليوم هو العيد الوحيد في حياة المسكينة.

تنقطع مؤنسة كثيراً عن المدرسة ولا تداوم عليها باستمرار. وقد مضى ثلاثة ايام لم تحضر. سأطلب بواسطة وهبي الصغير إيضاح أسباب تغيبها من والدها.

20 كانون الاول - الزينيات

أشعر بان الفتي للمدرسة تزداد يوماً عن الآخر... عمت النظافة انحاء الصف رغم تهدمه وخرابه، وتوصلت الى تزيينه قليلاً واصبحت اشعر برقة الاطفال الذين شعرت لأول وهلة بوحشيتهم في الايام الاولى. ولا ادري بالضبط إذا كانوا قد تبدلوا او انني ألفت شكلهم وطباعهم. الواقع انني أسعى وسعيت لبث روح النشاط فيهم بهمة لا يعتريها الملل. انني اعمل باستمرار دون ان يتسرب اليأس الى نفسي لعدم نجاحي بتربيتهم وتهذيبهم على الشكل المطلوب تماماً ما دام هناك بصيص من نور فلا بد من الوصول الى شاطئ السلامة ولا أنكر بأنني أفرح وأهلل كالاطفال كلما لاحت بارقة حيوية او نشاط من احدهم وأكاد أطير فرحاً وسروراً.

تزورني جاراتي القرويات أحياناً وهن أيضاً من النوع الجامد الذي لا يعرف التحدث والضحك وعلاوة على ذلك فإنهن يخجلن كثيراً مني.

ففي الايام الاولى وجدن إسرافاً مبالغاً في زينتي وتبهرجي رغم ما بهندامي من بساطة وكمال... وشعرت بانني لم أنل إرضاء وإعجاب جاراتي وأشارت إلي بذلك زوجة العمدة... بذلت جهداً كبيراً لأكون لطيفة معهم وأنال حبهم ورضاهم فكم قمت بأعمال صغيرة للبعض منهن فكتبت الرسائل وخطت الملابس حتى بدأن يشعرن الآن ببعض الميل نحوي ولم يعدن ينظرن إلي تلك النظرة، نظرة الوحشة والاستغراب.

زارتني اول أمس زوجة العمدة وأبلغتني سلام زوجها وكلامه حيث قال لها: لم أرتح لشكلها يوم وصولها... لكن نظرتي تبدلت واشعر بأنها فتاة طيبة القلب لطيفة أراها تقضي أوقاتها بأعمال الغير بكمال وتعقل.. فلذا أخبريها ان تكلفني بأي خدمة لأقوم بها بسرور.

شكرتها لاهتمامها بي. هناك سيدة اخرى أعجبت بي وتزورني باستمرار وهي شيخة نظيفة تعمل قابلة في القرية ويظهر انها غريبة عنها والدليل ثرثرتها الزائدة وعدم كون اسمها زهراء او عائشة... لم أتجاسر السؤال عن شيء خشية ان يؤخذ كلامي

مأخذ القيل والقال... تعطيني حوادث مثيرة عن القرية وأهلها، ذكية وظريفة في حديثها وحركاتها... مثلاً في احد الايام اقتربت من أذني هامسة تخشى إسماع حديثها للغير رغم وجودنا في الغرفة وحدنا حدثتني عن أم مؤنسة بشكل يستثير المسامحة والشفقة... وأردفت بالنهاية تقول: الذنب ذنب زوجها الشرير... فليتحمل النتائج... واه يا ابنتي لا تحدثي الناس بما أقوله لك فإنهم يرجمونني بالحجارة.

للقابلة ابن فقيه ذهب الى (ب..) في شهر رمضان ولم يعد حتى الآن لا بد انه وجد عملاً مناسباً ستزوجه هذا العام ان شاء الله... كم تمدح المسكينة ابنها أمامي وهي تشير بعينيها إشارات لها مغزاها ومعناها في كل مناسبة. وتريد ان توحي إلي بأنه بالإمكان ان أنال السعادة في الزواج منه بعد التقيد والقبول ببعض الشروط. والحاصل ان هذه السيدة مبعث سلوى وأنس في ساعات الوحدة.

أتتني صباح اليوم سائلة إذا كنت أحسن قراءة المولد لأن هناك عرس عما قريب ويظهر انهم يقرؤون المولد في الأعراس بدل الغناء والموسيقى... ضبطت نفسي وتمالكت غصباً عن الضحك وانا أقول: .انا اعرف القراءة ولكن صوتي قبيح ليس بوسع احد احتماله. أسفت القابلة لذلك وأخبرتني بأنها كانت قبلي معلمة تجيد قراءة المولد وكان ذلك مورداً للكسب.

على كل لم يكن هذا السؤال القصد من زيارتها بل أتت لتقول بان هناك ابنة فقيرة تتزوج وقد مد الجيران لها يد المساعدة بشراء فراش وطنجرتين ويريدون مني فستاناً يلبسونها إياه ليلة العرس وزيادة على ذلك فالبنت من تلميذاتي.

دهشت كثيراً عندما سمعت بأنها تلميذتي وقلت: لا يوجد عندي تلميذات في سن الزواج فالكبرى بينهن بالكاد تبلغ الثانية عشر من عمرها. فأجابت هل ابنة الاثنى عشر عاماً تعد صغيرة يا ابنتي؟ عندما صرت عروساً لم يكن عمري يزيد عن ذلك. وان يكن التبدل قد طرأ على العادات ولكن.. فإنها يتيمة وليس لها احد يعولها ولا يجوز بقاؤها وحيدة. زوجناها للراعي محمد تخلصاً من ذلك. على كل بوسعه أن يعولها ولا يتركها جائعة بأي حال.

- من هي العروس سيدتي؟

- هي زهراء.

أظن ان في صفي (7) زهرات فلذا لم أفهم في بادئ الامر أيهن تكون... لكن القابلة أفهمتني ببعض الإيضاحات حيث تعرفت عليها... انها مخلوقة عجيبة المنظر مجنونة تقريباً ولدمامتها يكفي ان تدخل في ليلة حلم امرئ أثناء نومه فيهب فزعاً ولا يستطيع الكرى ان يعود الى جفنيه مرة اخرى في تلك الليلة.

ظننتها في بادئ الامر مريضة لأنها لا تتكلم في الصف أبداً ما ان طلبت منها قراءة الدرس حتى بدأت تقوله بصوت خشن جهوري مخيف. والغريب ان هذه الطفلة أقوى تلميذة عندي في مادتي الحساب والقراءة. لا تشترك في الفرص باللعب مع زميلاتها حتى ولو كن يقمن بتمثيل الجنازة والموت إلا ان هناك لعبة تلعبها على انفراد وكثيراً ما سببت لي الفزع والهياج.

تدور زهرا في الحديقة حول نفسها وهي تصيح صياحاً مخيفاً... تدور بسرعة وخفة تفوق دورات دراويش المولوية... بحالة يتزايد فيها الجذب باستمرار ويظهر الزبد على فمها وعيناها مغمضتين وشعرها منبوش. تدور وتدور الى ان تقع تعبة منهوكة. وبينما كانت القابلة تحدثني عن عرسها كانت هذه اللعبة تتراءى لعيني فأقول لنفسي: لو عن لزهراء ان تلعب لعبتها ليلة العرس ووقعت على الارض ماذا يكون حال المسكين محمد الراعي.

بعدما ذهبت جارتي القابلة أخرجت فستاناً من ملابسي وبدأت بترتيبه وخياطته للعروس زهرا لا بد لي من ترتيب زهرا كي لا يهرب الراعي محمد منها ليلة العرس فزعاً.

23 كانون الاول - الزينيات

كان عرس زهرا ليلة الأمس في دار العمدة وقد أتى بعض أهل القرية بألعاب بهلوانية في ميدان القرية حفاوة بالراعي محمد. وقرأت السيدات المولد في الدار ونال فستان العروس استحسان الجميع وان لاقى بعض النقد من العجائز... وكم وقع في سمعي كلمات (غداً في الآخرة... منكر ونكير... والدبسة الحامية..) لكن الشابات كن مرتاحات ينظرن الى الفستان مرة والي اخرى والبعض منهن يحسدن العروس علناً وبصراحة.

تسليت كثيراً بالعرس واضطريت للبقاء على العشاء وفهمت من كلامهن بان العمدة طلب الاعتناء بصورة خاصة بالمعلمة الاستانبولية. أخيراً جاء الراعي محمد ليقبل يد السيدات شاكراً... كم كان وضعه مضحكاً عندما اقترب ليقبل أيديهن وهو يموت خجلاً وكانت يدي من جملة الأيدي الواجب تقبيلها وطبعاً لكوني معلمة العروس أعد أماً لها... وعلى هذا الاصول أكون حماة الراعي.

لا أنسى قط المهزلة التي حدثت خلال مراسم تقبيل الأيادي. اصطفت السيدات العجائز وكن أربع او خمس سيدات على مقعد واحد وكانت زوجة العمدة والقابلة في الطليعة طبعاً... وبما انني لم أتعود بعد الجلوس مثنية الركبتين علقت جنبي على حافة صندوق خشبي كان بالزاوية فلم يرني الراعي لفرط خجله وارتباكه فقالت له القابلة: محمد ابني قبل يد معلمة هانم... وهي تشير نحوي... فأتى الشاب خجلاً مرتبكاً وقال: أعطني يدك لأقبلها يا والدة... مددت يدي فلم يكد يلمسها حتى تركها... وقد صعق كأنه لم يصدق بأنها يد آدمية ثم أخذ يتطلع حائراً. فقلت له وانا أخفي ضحكي: قبلها يا ابني هاك يدي.. ورفعت يدي نحو شفتيه.

لم يتمالك الشاب نفسه فرفع رأسه فجأة وتطلع الى وجهي فتلاقت عيوننا فرأى على ضوء الحطب المشتعل ضحكي ولم أر في حياتي موقفاً مضحكاً مثل حيرة الراعي في تلك الأونة. وبعد انتهاء المراسيم أخذوا العريس لغرفة العروس وكم تمنيت ان أرى

مدى الأثر الذي أحدثه الفستان في نفس الراعي لكن العوائد في القرية ان يدخلوا العروس في كيس من الأطلس الاخضر بدل الغطا الرقيق المعروف عندنا.

27 كانون الاول - الزينيات

عندما استيقظت صباح اليوم شعرت بنقص حولي أخذت أفكر وأفتش حتى اكتشفت بان مبعث ذلك الشعور هو توقف الماء عن الجريان. انقطع خريره الذي كان مدار سلوى ليالي الطويلة المحزنة.

نهضت من فراشي لأفتح النافذة لكنني وجدت صعوبة بفتح الخشب وبينما كنت ادفع الخشب بقوة تناثر الثلج... يظهر ان السماء أثلجت في الليل... كأن الزينيات تبدلت فلم أعد أعرفها... تبدلت بشكل جميل فالبياض أكسبها رونقاً وجاذبية.

كنت سمعت من خديجة هانم بأن الثلج إذا بدأ بالتساقط فانه لا يذوب حتى شهر أيار... ما ألذ ذلك... إذاً فالربيع يأتي هذه البلدة الباعثة للألم والحزن بلونها الاسود الكئيب في فصل الشتاء لها وقع أجمل في نفسي من منظر ياسمين الصيف وانتظر ايام الثلج كل عام بفارغ الصبر كأيام العيد... فاللعب بالثلج في الحديقة والتدحرج فوق نعومته وبياضه مع الغناء والأهازيج هو أجمل وألذ سلوى عندي... لا يستطيع المرء ان يثأر من الأشخاص الذين ينفر منهم ببراءة وبساطة بواسطة الثلج... كان شخص لا أحبه أبداً يخاف من الثلج كثيراً... وكنت أطير فرحاً عندما ألقي في رقبته الناعمة المدللة حفنة من الثلج رغم ما يغطيها من الصوف والجوخ وما ان يرتعش حتى يشتد فرحي وسروري ولكنني أرى ان ثلج هذا العام لا يبعث السرور الى نفسي كالسنين الماضية.

1 كانون الثاني - الزينيات

تزايدت الثلوج فقطعت الطرق حتى ان كثيراً من الطلاب لا يستطيعون الحضور الى المدرسة.

كان اليوم من أحزن وأفجع أيام حياتي.. لأن تلاميذي جاءوني بخبر فظيع مؤلم... اقترفت مؤنسة ذنباً ليلة الأمس... فلحقتها زوجة أبيها بحطبة مشتعلة لتضربها وألقت الطفلة نفسها من نافذة الغرفة الى الحديقة هرباً وخوفاً... وظنوا بأنها لا بد عائدة بعد قليل من الباب لأنها لا تستطيع الصمود طويلاً بالظلام والبرد والثلج... لكن الساعات انقضت دون ان تعود الطفلة وعندها هب الجيران فتراكض الشبان منهم بالمشاعل الى الطرقات يفتشون عليها دون ان يفهموا أي طريق سلكت.

حزنت زميلاتها جميعاً لما حدث، حتى ان التلميذات اللواتي كن لا يحببنها أظهرن عطفاً وتألماً... فتشوا عنها حتى المساء باستمرار وبما ان العمدة يعرف مدى عطفي وحبي لها كان يعلمني باستمرار عما توصلوا إليه بتفتيشهم بواسطة وهبي الصغير... وكان وهبي نفسه مضطرباً محزوناً يحسب لضياعها ألف حساب كرجل كبير يدرك العواقب... وكان كلما حدثني عنها أراني يديه الصغيرتين المثلجتين من شدة البرد قائلاً: ضاعت المسكينة أكلتها الذئاب... ثم يسكت لاوياً رقبته حزيناً.

أخيراً... اعتقدوا الكبار بصحة نظرية وهبي لأنهم عجزوا عن إيجادها وقد انقضى الليل مع النهار بالتفتيش... لأنها لا تستطيع الذهاب الى قرية اخرى بهذا الطقس العاصف. وهناك احتمالات: الأول ان تكون ماتت من شدة البرد وهي منكمشة في احدى النواحي. والثاني ان تكون الذئاب الجائعة قد افترستها. وهكذا قطعوا كل أمل بوجودها.

خيم الظلام واشتد الصقيع فعم اليأس قلبي وشعرت بالعصيان والتمرد لظلم الحياة وقسوتها فآويت مبكرة الى فراشي لأنني كنت تعبة اشعر بضيق أنفاسي وحمى تحرق

رأسي وتكاد تفجره. وكان الضياء يزعج عيني في هذه الليلة فلذا أطفأت المصباح وبقيت في ظلام دامس بينما كانت العاصفة آخذة بازدياد في الخارج والرياح تضرب النوافذ والأبواب بقوة وشدة.

مسكينة هذه الطفلة التعيسة بأي مكان تراها دفنت... من يدري أي ظلام كفن شعرها الاصفر كبقايا شعاع قمر أدركه الخسوف.



لا ادري كم من الوقت انقضى وانا استعرض حوادث اليوم... إذ المرء يفقد شعوره بالوقت والزمن في مثل هذه الحالات.

سمعت طرقاً على الباب الذي من ناحية المقبرة... وسمعت صوتاً فكرت لأول وهلة بأنه صوت الرياح العاصفة ولكن لا! كان ذلك صوتاً لا يشبه صوت الرياح... فجلست في فراشي أنصت واصغي... وتهيأ لي كأنه أنين... تركت فراشي واخذت معطفا وضعته على كتفي وركضت نحو الباب أفكر ان أمر على غرفة خديجة هانم فأوقظها لآخذها معي... ولكني ما ان وصلت الى البهو حتى رأيتها مثلي خارجة وبيدها شمعة وكانت قد سمعت الصوت أيضاً وقامت تسير نحوه وما ان وصلنا الى الباب حتى خانتنا الشجاعة لفتح الباب، وكان الصوت قد سكن.. فصرخت خديجة هانم بصوتها الخشن الجهوري: من هذا؟ ولا من مجيب... كررت العجوز السؤال فسمعنا صوتاً ناعماً ما ان يبدأ يتلاشى مع الرياح فقالت خديجة هانم: من انت؟

لم أرَ لزوماً لسماع الصوت مرة ثانية لأنني تعرفت الى الصوت فسحبت المزلاج وفتحت الباب وانا أنادي مؤنسة، مؤنسة... .

سرى الهواء الى الداخل عندما فتح الباب فأطفأ الشمعة بيد العجوز وشعرت بجسم بارد كالجليد سقط على صدري في الظلام.

وبينما كانت العجوز تسعى لإضاءة الشمعة بعد ما أغلقت الباب، كنت أضم الجسم البارد الى صدري وأنا أبكي... ألقت الصغيرة رأسها الى صدري ولم تبد حراكاً وكأني بها قد بذلت آخر جهد حتى وصلت الى صدري... فألقت إليه برأسها وقد أغمضت عينيها وكان وجهها أزرق من تجمد الدم في عروقه من شدة البرد وشعرها مبعثراً وثيابها محشوة ومبللة بالثلج.

أرقدت الطفلة في فراشي بعدما أبدلت ملابسها واخذت أفرك جسمها بقطعة صوف أسخنها على منقل خديجة هانم.

ان أول كلمة لفظتها مؤنسة بعدما استعادت وعيها ودبت الحرارة في جسمها هي: أعطني كسرة خبز... قالتها بضراعة وتوسل من أضر به الجوع. فسخنا لها الحليب بسرعة وبدأت تشربه ملعقة بعد اخرى وما ان أتمت شرب الفنجان حتى دبت الحياة في جسمها وتوردت وجنتاها وبرقت عيناها وبامتنان قلبي عميق أخذت تتأمل وجهي وهي في أحضاني ثم أجهشت ببكاء مرير يقطع نياط القلوب.

آه يا لها من طفلة تعيسة تجلى الاعتراف والامتنان ببراءة في عينيها. ما ألذ شعور المرء بأنه صالح يعمل خيراً. حقاً انها سعادة لا تقدر بثمن.

فالغرفة التي كانت قبل هنيهة تسبح بالحزن والكآبة كالسفينة المترنحة بين الأمواج والعاصفة انقلبت في لحظة الى عش سعيد مؤنس يفيض بهجة وسروراً.. واصبحت اشعر بالخجل من نفسي لعدم ثقتي ويأسي من الحياة.

بدأت الطفلة الكلام وذراعيها حول عنقي وقد لامس شعرها الاشقر المتهدل وجهي وصدري تجيب على الاسئلة التي أوجهها إليها بمهل. خافت المسكينة كثيراً من زوجة أبيها البارحة فهربت بعيداً عن الدار جيث أحفت نفسها ني عنبر للتين في نهاية القرية. حفظ التين جسمها دافئاً مثل الفراش الوثير.. ونامت هادئة مرتاحة لكنها شعرت اليوم بجوع شديد ولم تستطع الخروج بالنهار خشية ان يروها ويعيدوها الى الدار ولذا انتظرت الليل مضطرة... ولم يكن للمسكينة اي أمل او رجاء سواي قضت

نهارها تمني النفس وتصبر جوعها وهي تقول: لا شك ان معلمة هانم ستعطيني الخبز لأسد رمقي.

أخذ السرور يضمحل رويداً رويداً وهجم الحزن عليها واغرورقت عيناها بالدموع ثانياً ولم أر لزوما لسؤالها عن السبب لأن هناك فكرة طرأت على ذهني فجأة، لا بد ان تكون السبب لحزنها المفاجئ.... لا بد من عودة مؤنسة في الغد لشقائها وعذابها.

هناك أمل ضئيل يساور قلبي ولكنه حلم لا أظن بأنني سأوفق لرؤيته على مسرح حياتي البائسة... ان عذوبة الأماني تتلاشى عند الصحو من الاحلام ويا له من فشل مرير يقتل النفس ويحطمها.

كنت أرتعش للخواطر التي مرت بذهني فسألت خديجة هانم بصوت منخفض كسير: ما داموا لا يريدون إيواء مؤنسة في دارهم لم لا يعطونيها ان أردت تبنيها؟ انني أتكفل احتضانها كابنتي تماماً. ماذا تقولين ألا يقبلون عرضي يا ترى؟

كنت أرتقب شفتي خديجة هانم كأن تحقيق أملي ومبتغاي معلق على إجابتها. كنت وجلة أرتعش اضطراباً عندما هزت العجوز رأسها وأجابت: إنها فكرة طيبة... سأنقلها للعمدة غداً فإذا وافق لا يبقى مجال لممانعة الوالد.

ان وقع كلماتها كان جميلاً الى نفسي، حلقت بسماء الأماني ودون ان أجيب جذبت مؤنسة الى صدري أقبلها، فأجهشت بالبكاء وهي تقول: أختاه! أختاه! ... تقبل يداي بحب وحنان.



أكتب سطوري هذه ومؤنسة ترقد في سريري وانعكاسات نار الموقد تتراقص على وجهها الابيض الظريف، وبين حين وآخر تتنهد بألم وهي تسعل سعالاً شديداً.

سأكون سعيدة جداً إذا تركوا لي الطفلة. سأنام ملء عيني ولا يداخلني الوجل من الليالي المظلمة العاصفة. عندها سوف لا اخشى شيئاً، سأعتني بتربيتها وأسعى لإسعادها فأسعد بسعادتها... مرت هذه الخواطر مدة في خاطري لأولاد غير مؤنسة،

ولكن في مساء نحس مات الاطفال في خيالي وكان قلبي لهم قبراً وقد كفن بعضهم البعض في أحشائي، إن صارت مؤنسة ملكي سوف لا أتوجع لأجلهم كثيراً وستذبل جراح فقدانهم نفسي.

تصالحت مع الحياة، ولم أعد ناقمة على أحد، عدت لمحبة الكل، أي كامران! وان كنت السبب بفجيعتي بقتل أولئك الاطفال الذين كانوا أملي وسعادتي في حياتي، فانني لم أعد أكرهك كالأول... سأنسى تلك الليلة ولا أذكر الخريف كي لا يذكرني بما فعلت.

2 كانون الثاني - الزينيات

لم يزر النوم أجفاني هذه الليلة وأرى ان ليل السعداء يكون طويلاً جداً يشبه ليل المرضى والتعساء. ذهبت صباح اليوم برفقة خديجة هانم لدار العمدة، فظن العمدة انني آتية للاستعلام عن مؤنسة فقال مسلياً: لم نعثر عليها بعد، لكن ما زال بعض الأمل في محل او اثنين فلنجرب علنا ننجح.

اخذت بإعلامه عن حادث المساء وما ان وصلت لنهاية القصة حتى اكفهرت الدنيا أمام ناظري واشتد خفقان قلبي فرفعت يدي متوسلة ضارعة وقلت: اعطوني الطفلة فأتبناها، وأربيها في أحضاني. لا شك إنكم توافقون لأنها ستكون ضحية وتضيع حياتها وحياتهم تماماً إذا بقيت بينهم.

أغمض العمدة جفنيه وأخذ يداعب لحيته مفكراً ثم قال: حسناً يا ابنتي، في الحقيقة تكونين قد قمت بحسنة تنالين الثواب العظيم عند الله.

فلم أصدق ما سمعت وبصوت مرتعش سألت: إذاً ستسعون لإعطائي مؤنسة وإنكم توافقون وترتأون ذلك. فأجاب: انه عمل طيب خاصة ان الأب عاجز عن إعالة أولاده لفقره فان تخلص من أحدهم خف حمله... استغرب عدم جنوني في تلك اللحظة للسرور المفاجئ... ما كنت آمل ان أنال هذه السعادة بهذه السهولة. كم من الكلمات المنمقة التي هيأتها لأستدر عطفهم وأخفف من حدة اعتراضهم لم أجنح لاستعمالها.

لا انكر بأنني وضعت نصب عيني التنازل عن ما تبقى لي من مصوغات أمي رشوة تهون علي
أخذ الطفلة إذا اقتضى الامر وأصروا على عدم إعطائها... هل هناك أمر احل من إسعاد تلك المسكينة؟ أصرف المصوغات في سبيله... لم أحتج شيئاً من الوسائل التي أعددتها والحمد لله.

انا لست كغيري أبداً. إذا فرحت وتعاظمت سعادتي لا أصف ما اشعر به بالكلام. ولي عادة احتضان من يكون امامي اشبعه ضماً وتقبيلاً كلما طفح السرور بقلبي وما ان سمعت ذلك من العمدة حتى تحركت العادة في نفسي وبصعوبة زائدة استطعت ضبط نفسي عن ضمه وتقبيله... على اني لم استطع مقاومة حب التقبيل تماماً في نفسي فقبضت على كلتا يديه واخذت بتقبيلهما بشدة وانا أبثهما كل ما بنفسي من سرور وسعادة.

أتى العمدة بعد ساعتين الى المدرسة يرافقه أبو مؤنسة... كنت أتخيله رجلاً قاسي الملامح خشن الطباع... فلقيته عكس ما تصورت عجوزاً مريضاً صغير الجسم نحيل... قال لي بأن أصله من استانبول، إلا انه لم يرَ موطنه منذ أربعين عاماً واخذ يسألني بتردد واستحياء عن أحياء استانبول الجميلة وما ان طرأ موضوع ابنته حتى وافق على إعطائها لي. ولكنني شعرت بأنه يتألم وقد جرح قلبه بالصميم، ولذا واسيته وانا أؤكد له بأنها ستكون ابنتي تماماً لا أبخل في شيء لإسعادها وأنني سأريها له على الدوام.



لم ترَ مدرسة الزينيات الضيقة الفقيرة عيداً أفرحا يماثل فرحنا في هذا اليوم. كنت ومؤنسة لا نطيق صبراً للمكوث في غرفة او بهو كدنا نطير فرحاً... كانت ضحكاتنا المتعالية توقظ الطيور في أعشاشها وهي ترن داوية في انحاء المدرسة.

ما زال الثلج يتساقط بسكون... إلا انه فقد شدة الأمس... مسكت بيد الطفلة وخرجنا الى الحديقة قبل الغروب نلعب بالثلج ونتراشق ضاحكات فرحات الى ان حان وقت إضاءة قنديل زيني بابا فعدنا الى الداخل. وقد اضحك مرحنا وجه العجوز المتجعد الذي لا يعرف الضحك إليه سبيلاً فقالت:

ـ هلما ادخلا أخشى عليكما أن تمرضا من البرد.

أنبرد؟ وقد تراءت لنا السماء من المشرق الى المغرب كشجرة باسقة متدلية الاغصان ترمي علينا زهراتها البيضاء كالياسمين كلما داعبها النسيم العليل... لم يخيل إلينا في لحظة من لحظات ذلك السرور أننا في فصل الشتاء والسماء تمطر ثلجاً، والبرد شديد قارص. ما أغرب أطوار الانسان السعيد! انه يعيش ضمن سعادته ولا يرى شيئاً مما حوله.

10 كانون الاول - الزينيات

أصبحت ومؤنسة صديقتين لا نستطيع الافتراق لحظة. إنها تملأ فراغ أوقاتي كلها فانشغل بها بكليتي بعد ما أنتهي من عملي المدرسي. أريد تعليمها كل شيء... ألقنها الفرنسية، وأعلمها الرسم، حتى انني بدأت بتعليمها بعض قواعد الرقص كلما سمحت لي الفرصة. لو سمعت القرية بذلك لرجمني أهلها بالحجارة. كثيراً ما ضحكت وانا أخاطبها قائلة:

ـ اي عصفورة السياج! أرى ان بحرصك على تعليم مؤنسة ستجعلينها (ميراث الحاج قلفة).

انقلبت تلك القروية الفقيرة بين عشية وضحاها الى ابنة كريمة المحتد عريقة النسب. تظهر الرقة والوداعة في كل حركة تقوم بها. انها محببة الى النفس في كل طور من أطوارها. عجبت لذلك في بادئ الامر لكن عجبي زال عندما علمت بأن أمها لم تكن منحطة عادية بالشكل الذي يتقولون به.

تظهر مؤنسة امتناناً شديداً من معاملتي لها وكثيراً ما اقتربت مني تأخذ يدي بين يديها وتشبعها مداعبة وتقبيلاً فلا أتمالك نفسي عندئذ من مقابلتها بالمثل. لا تدري المسكينة بأن بقاءها معي سعادة كبيرة لي، لأنها أخرجتني من وحدتي وأضفت على حياتي نوعاً من المرح والسلوى. أما هي فإنها تعد معاملتي تضحية كبيرة ولا يخطر قط ببالها بان وجودها أصبح من مستلزمات هنائي.



ان للصغيرة أحاديث لا تخطر في بال. قلت لها في صبيحة يوم وصولها:

ـ مؤنسة! الا ترين بأن من الأنسب ان تناديني يا أمي؟

ابتسمت بوداعة ورمقتني بنظرة لطيفة وقالت:

ـ أيمكن ذلك يا أختاه؟

ـ لم لا؟

ـ انت شابة، فكيف أناديك أمي؟

وكأنها أصابت بكلماتها كبريائي هددتها بيدي وقلت:

ـ آه يا لك من شيطانة صغيرة... كيف أكون صغيرة وقد تجاوزت العشرين من عمري؟

كانت مؤنسة تضحك وهي تعض على لسانها بأسنانها الجميلة دون ان تجيب. فقلت:

ـ ألا تصدقين؟ انا سيدة كبيرة.

تحركت بهدوء وقالت:

ـ انت لا تكبرينني بكثير فلو... في الرابعة او الخامسة عشر. لم أتمالك نفسي عن الضحك فتجرأت مؤنسة على الكلام وتابعت تقول:

ستصبحين في يوم قريب عروسة ان شاء الله يا أختي، سأتزين بعرسك، والبس القصب والحرير، وسيكون لك زوجاً جميلاً مثلك.

أغلقت فم الصغيرة بيدي أمنعها عن الكلام وقلت:

ـ إن عدت لمثل هذا القول ثانيا غضبت وتأثرت منك كثيراً.

كانت صغيرتي (غندورة) تميل الى الزينة والتبهرج، وان كنت لا أحب البنت المسرفة في الزينة كنت أتسلى من وقوف مؤنسة كل يوم أمام المرآة تصلح هندامها. انها مدار سلواي وأنسي. ضبطت أول الأمس عود

ثقاب محروق في يدها تسعى لتكحيل عينيها بسواده. لا ادري ممن تعلمت الخبيثة ذلك... لا أرى بأساً من انصرافها الآن قليلاً الى الزينة. ولكن عندما تصبح شابة بعد سنوات قليلة... ويصبح لها عشاق يلتفون حولها وتريد الزواج بأحدهم. أرتعش وجلاً كأم حقيقية كلما تواردت هذه الخواطر الى ذهني ثم أضحك من نفسي لهذا الشعور.

رجتني مؤنسة بالأمس وهي تذوب خجلاً ان أصفف لها شعرها مثل شعري، لأنها تريد ان يكون شعرها صورة طبق الأصل من شعري... وانا أيضاً اريد من كل قلبي ان أشغل فراغي بها كالطفلة التي تداعب دميتها. فلذا أخذت رأسها الصغير بين يدي وحللت ضفائرها ومشطتها كما تريد... أخذت المرآة ليدها وقالت:

ـ ارجوك يا أختي! تعالي لنتطلع الى المرآة.

قربنا رأسينا من بعضنا كأننا نستعد لأخذ صورة وأخذنا نتضاحك أمام المرآة بينما تمد الواحدة منا لسانها استهزاء للأخرى.

كانت مؤنسة جميلة تشبه الملائكة بصفاء عينيها وبياض بشرتها ووجهها المستدير الصغير. لكنها لم تكن راضية من شكلها ولذا قالت:

ـ أف! عبثاً أحاول يا أختاه... انني لا أشبهك أبداً.

ـ ألا تفضلين ذلك يا طفلتي؟

ـ ما العمل يا أختاه؟ انا لست جميلة مثلك.

ثم قربت رأسها مني أكثر من الاول وأخذت تداعب شعري وذقني بيدها التي تعانقني بها وقالت:

ـ أختاه! انت ناعمة كالقطيفة، ومصقولة كالزجاج... بوسع الانسان ان يرى نفسه في وجهك كالمرآة تماماً.

كنت اضحك من طفولتها وبراءتها وانا ألعب بشعرها الذي مشطته قبل هنيهة فانبشه بيدي الآن... ولكن لم أطمس الحقيقة؟ ومذكراتي لا يقرأها احد سواي...

كنت أرى نفسي جميلة وأجمل مما كنت أتصور، فأعطي الحق لمن سمعتهم يقولون:

ـ فريدة انت تجهلين نفسك... جمالك لا يشبه جمال الآخرين.

ماذا أقول؟ آه من هذه الطفلة الصغيرة! بينما كنت أسعى لجعلها آنسة ناضجة متعقلة أراها بالعكس تجعلني طفلة طائشة تميل للزينة والمديح أيضاً.

9 كانون الثاني - الزينيات

لم ألمس دفتري منذ شهر تماماً... لانني شغلت خلال هذه الفترة بأعمال أجل فائدة من الكتابة. كما ان الايام السعيدة تمضي بلذة وانشراح. ماذا يقال عنها اكثر من انها سعيدة؟

أعيش منذ شهر بسكون نفسي عميق... لكنه ويا للأسف لم يدم طويلاً... تركت لي عربة البريد قبل يومين أربعة رسائل ما رأيتها حتى عصفت النار بداخلي، ودون ان اعرف ممن جاءت وماذا فيها قلت:

ـ يا ليتك ألقيتها بالنار دون ان تشعريني بها يا ابنتي.

لم أكن غلطانة بتخميني لأنني ما ان رأيت الغلاف حتى عرفت من الخط من الكاتب... كانت الكتب الأربع منه... هو... .

كم من الأيدي لمست تلك الكتب حتى وصلت إليّ. هناك تأشيرات زرقاء وسوداء ملأت الغلاف كله علاوة على الأختام البريدية المتنوعة... ودون ان ألمس الكتب بيدي استطعت قراءة العنوان المكتوب على أحدها: للسيدة فريدة كامران معلمة رشدية المركز في (ب).

لم أصدق عيني في اول الامر ولذا قرأته مثنى وثلاث... نعم كان العنوان: (فريدة كامران).

كامران! انا لا أفكر بك اكثر من عدو يعلن العداء المستمر. ولكن لم يخطر لي في بال بأنك ستبالغ وتتمادى في احتقار وإهانة هذه اليتيمة ابنة الخالة بهذا المقدار. أ الى هذا الحد وصل بك الغدر والظلم؟

لم أرَ من حقي قراءة هذه الرسائل فلذا جمعتها بقبضتي وألقيتها بعصبية على الرف فوق المدفأة. جرحت بكبريائي... ونكس الجرح في قلبي بعد ان كاد يندمل... أسندت رأسي على حافة النافذة وسرحت بصري بالأفق اللامتناهي. استغربت مؤنسة حالتي فقالت بحنان:

ـ ماذا دهاك يا أختاه؟ ما أشد شحوبك!

فأجبتها بابتسامة مصطنعة لا معنى لها:

ـ لا شيء يا ابنتي... ان بي صداع خفيف، هلمي بنا الى الحديقة علني أستريح.

قضيت في السرير ساعات طويلة من الليل تحملق عيناي بالظلام. كنت أتخبط في دنيا الأوهام والآلام دون استقرار. من يعلم شكل الإهانات التي تضمنتها تلك الكتب.. وكم من الأكاذيب الدنيئة المنحطة تزين سطورها. وددت مراراً أن أضيء المصباح لأقراها... لكنني ضبطت نفسي لأن قراءتها تكون ضعفاً وتنازلاً.

مضى على الحادث يومان وما زالت الكتب في محلها من الرف. تبعث الاضطراب لقلبي والشحوب لوجهي كأنها تنشر السم في هواء الغرفة فاستنشقه وتبدو علائم الانحدار والذبول عليَ شيئا فشيئا.

أخذ ألمي المزمن الدفين يسري الى مؤنسة، وهي تعرف مصدر حزني فلذا تنظر بفتور واشمئزاز الى الكتب، بينما كنت قرب النافذة أفكر هذا المساء، اقتربت مني على مهل وبوجل ظاهر قالت:

ـ أختاه! أتيت أمراً لا ادري مدى غضبك منه.

التفتت للحال وباللاشعور نحو الرف فلم أرَ الكتب. انكمش صدري وقلت بحزن ظاهر:

- أين الكتب؟

ألقت الطفلة ببصرها نحو الارض وقالت:

- أحرقتها يا أختاه! لم أطق حزنك، وانا اشعر بأنها مصدره فلم استطع مقاومة حب إبادتها من نفسي، سامحيني.

بألم لم يخف عن عينيها قلت:

- بئس ما صنعت يا مؤنسة.

كانت الطفلة تنتظر العقاب الصارم كالصفع مثلاً، ولذا تنتفض وجلة كالعصفور، أما انا فلم استطع كبح تأثري فأسندت رأسي بيدي وأجهشت بالبكاء على مهل.

- لا تبك يا أختاه... انا لم أحرق الرسائل... قصدت اختبارك ولو لم تظهري تأثراً واستياء لأبدتها للحال.

ثم أخذت رأسي تداعبه بيدها الصغيرة، وتحاول بالأخرى وضع الكتب بيدي.

- هاك الكتب يا أختي... أظنها أتتك من شخص عزيز له مكانة في قلبك.

انتفضت قائلة:

- اسكتي يا كاذبة! ما هذا الكلام الذي تقولينه؟

- ماذا اقول يا أختاه؟ لو لم تكن من حبيب غال أكنت تبكين هكذا بتأثر؟

خجلت من كلام الطفلة الصغيرة وتضايقت بدموعي، عليَ ان أضع حداً لهذا الوضع بقرار حاسم.

آه يا صغيرتي! ليتك سكت ولم تقولي شيئاً، ولكن ما دام الشك خامر قلبك الصغير عليَ ان أثبت لك. انظري كيف أبرهن لك بأنها آتية من عدو لدود... تعالي نمزق هذه الاوراق الظالمة معاً.

كانت الغرفة مظلمة إلا من نور بعض الحطب الذي أوشك ان يخمد في الموقد. يتلامع لهيبها بين الحين والآخر وهي تحتضر وتتلاشى. القيت بإحدى الكتب الى النار... أخذ يحترق ويتلوي فيصعد لهيباً. وقبل ان يصبح رماداً ألقيت بالثاني، وبعده بالثالث.

التصقت مؤنسة بصدري بشعور لم أدركه وبينما كانت الكتب تحترق كنا صامتين كمن يقف أمام مريض يلفظ أنفاسه الأخيرة.

جاء دور الكتاب الرابع، فشعرت بندم يحز قلبي ولا استطيع التخلص منه، ولكن بعدما أحرقت الكتب الثلاثة لا بد من حرق الرابع وليس بالإمكان الإبقاء عليه.

ألقيته بالنار وانا أرتجف لكنه لم يشتعل بسرعة بل تصاعد الدخان من أحد أطرافه وأخذ يشتعل ببطء أذاب شمع الغلاف فظهرت منه ورقة كتبت بخط رقيق ناعم.. اخذت تحترق على مهل، لم أعد أطيق صبراً لمرآها. وكانت مؤنسة أدركت ما يدور بخلدي ارتمت على الموقد ومدت يدها الصغيرة الى النار تلتقط آخر قطعة من آخر كتاب لتنجو به من الحريق.



بعد ما قامت الصغيرة قرأت القطعة التي تبقت من الكتاب المحروق لأنني أخجل من نفسي كأنني أتيت ذنبا كبيراً... ولكن ماذا أعمل ولم يكن بوسعي ان ألقي القطعة ثانيا الى النار. كانت السطور التالية هي كل ما تبقى من الكتاب:

بينما كانت أمي تنظر إليّ قبل يومين أجهشت بالبكاء فجأة فسألتها (ماذا بك يا أماه، لمَ تبكين؟). لم تشأ في بادئ الامر ان تقول السبب فلذا اكتفت بان تقول: (لا شيء... انه حلم رأيته...) أصريت بعناد ورجوت بتوسل فاضطرت ان تقول وهي تبكي بحزن وسكون: رأيت تلك الغادرة الليلة في منامي، وكنت أجوب الأمكنة المظلمة اسأل عنها كل من ألقاه في طريقي راجية متوسلة أقول: (هل رأيتم فريدة؟ دلوني عليها بربكم لأنني سمعت بأنها هنا...) أخيراً مرت بي سيدة محجبة ومسكت بيدي ثم أدخلتني الى مكان قليل النور يشبه التكية وقالت: (هاك فريدة... انها ترقد هنا... ماتت بعد مرض داهمها في حنجرتها..) رأيتها يا ابني ممددة وهي مغمضة العينين لم تفقد بعد حمرة وجنتيها، يغطي شعرها الاسود الجذاب أطراف وجهها كأنها نائمة، فأخذت

أصيح: (فريدة! ماذا جرى لك؟)... ثم قمت مذعورة باكية... سأرى فريدة قريباً أليس كذلك يا كامران.

ها انا أكتب لك كلمات أمي بحذافيرها، دعيني جانباً ولكن أيجوز لك ان تزيدي بتعذيب هذه السيدة العجوز التي لا تقل عن أمك مقاماً في نفسك؟. أما انا فان حلم خالتك لم يذهب من مخيلتي حتى اليوم وكلما أغمضت عيني أراك في غرفة مظلمة في بلدة بعيدة نائية مغمضة العينين وقد تناثر شعرك الأسود حول...

تنتهي قطعة الكتاب عند هذا الحد... إن هذه السطور التي نجت من النار تحدثني عن دموع خالتي. كامران! ها انت ترى كل شيء يفصلنا عن بعضنا... لم أعد شيئاً بالنسبة لك، حتى ولسنا عدوين. نحن غريبان لا يعرف احدنا الآخر ولا يلتقيان أبداً ولا في اي حال.

15 كانون الثاني - الزينيات

في ساعة متأخرة من ليلة أمس سمعت صوت طلقات أتت من طرف الوادي. استغربت ذلك لكن مؤنسة لم تظهر اضطراباً وقالت:

ـ كثيراً ما يحدث هذا، لا بد ان الدرك يتعقبون بعض الأشقياء.

أخذ يخفت صوت البارود شيئاً فشيئاً حتى تلاشى بعد ما دام نصف ساعة او اكثر بقليل. أصبحت القرية اليوم تعمها حركة غير اعتيادية. علمنا بالحادث، وهو ان اصطداماً جرى بين فرقة من الدرك وبعض الأشقياء. استشهد اثنان من الدرك وكانا ضابطاً وجندياً... وجرح اثنان، كان جرح احدهما بسيطاً فأركبوه صهوة جواد وأخذوه الى قريته التي تبعد مسيرة ساعتين عن هنا، لكن جراح الثاني كبيرة وخطيرة فلذا وضعوه على نقالة إسعاف وأتوا به الى مضافة الزينيات.

كان الوقت ظهراً عندما جاء وهبي الصغير الى المدرسة يلهث من شدة الركض وقبض على يدي قائلاً:

ـ يا بنت، معلمة هانم عجلي بارتداء إزارك وتعالي معي لأنهم ينادونك من المضافة.

ـ من الذي يناديني؟

ـ الطبيب يناديك، هذا ما قاله أبي.

لبست ملاءتي بسرعة وسرت وراء وهبي الى المضافة. وهي عبارة عن غرفتين واسعتين يفصلهما بهو مهدم، يؤم المسافرون المضافة إن تأخروا بالطريق بسبب الثلج او المرض او غيره فيقدمون لهم الأكل على حساب القرية.

دخلت المضافة بعدما داعبت حصاناً جميلاً كان يربض أمام الباب وهو يصعد الأبخرة من منخريه فتظهر كالدخان من شدة البرد... كان المصباح مضيئاً في البهو لعدم وجود منافذ تدخل الضوء إليه. رأيت طبيباً عسكرياً يرتدي المعطف الثقيل والجزمة الطويلة، ضخم الجثة يجلس على إحدى درجات السلم يكتب ورقة بينما يكلم بعض الأشخاص الذين لم أر وجوههم... رأيت جانب وجهه فقط، وكان له وجها محبباً الى النفس بشاربه الكث وقد خطه الشيب. يشع نشاطاً وحيوية ولكن، رباه! ما أفظعه من رجل يصرف كلمات معيبة يحمر الوجه خجلاً لسماعها، بينما كان يضحك بخشونة لكلمات لم أسمعها ولا بد انها كانت ثقيلة العيار، أدار رأسه فرآني وتوقف للحال عن الكلام وقال لرجل يلبس الملابس العسكرية لم أرَ منه أكثر من لحيته الكثة السوداء:

ـ أي مقدمي العزيز! ان من سماك بـ (المقدم الدب) كان محقاً من السماء حتى الارض... كيف تتركني أتكلم هكذا بلهجة اولاد الذوات... وهناك سيدة تسمعني؟. ثم استدار نحوي خجلاً يقول:

ـ أستميحك عذراً يا هانم، لم أرَ تشريفك، تفضلي، اصعدي، ولكن انتظري لأنزل لأنني أخشى ان لا يحملنا السلم معاً لأنه متهدم بال، هلمي اصعدي الآن وها انا آت.

قفزت بسرعة وانا أصعد السلم، ما زال الطبيب العجوز يمازح الرجل الذي سمعته يناديه بـ (يا مقدمي) فقال: يا مقدمي ان هذه المعلمة استانبولية الأصل، لا بد انك تستغرب وتتساءل كيف علمت ذلك؟ آه يا حضرة المقدم بأي حادث لم تستغرب في عمرك وانت تلوي رقبتك بدهشة. فهمت ذلك من طرز صعودها السلم، أرأيت كيف

تقفز كالحجل. والآن إذا اردت حدثتك عن عمرها... ان هذه السيدة مهما كانت لا تزيد عن الاربعين عاماً.

عجبت لهذه الثرثرة التي لا وزن لها ولا معنى لأنني أحب هذا النوع المزاح منذ طفولتي، فلذا ضحكت على مهل وقلت لنفسي ولكن، هنا أخطأت يا حضرة الطبيب.

صعد الطبيب بعد خمس دقائق وكاد خشب السلم يتكسر تحت قدميه لأنه قديم مكسور وهو ثقيل الوزن، واخذ يتكلم دون ان ينظر الى وجهي:

ـ يا سيدتي الحادث معلوم، لدينا جريح، في الواقع جراحه بسيطة لكنها بحاجة للاعتناء، وانا مضطر للرحيل، والمطلوب غيار بسيط ولا أظن بأنهم يستطيعون القيام بذلك، ربما وضعوا أنواع (المزخرفات) بحجة انها تبرئ الجرح وعندها العذاب والألم وربما الخطر والموت، فلذا أرجوك ان تعتني بالجريح بضعة أيام إذ مهما يكن فأنت سيدة مثقفة عاشت بالمدارس، ولكن لا ادري ان كان قلبك يتحمل رؤية الجروح.

ـ إن قلبي يتحمل يا دكتور، وأعصابي قوية ولا أخاف من شيء أبداً.

رفع الطبيب رأسه وقال:

ـ اكشفي نقابك لأرى وجهك.

ان طوره وعدم كلفته كانا ينطويان على طيبة وبراءة فلذا رفعت نقابي دون تردد وأظنني كنت أيضا أضحك.

رفع العجوز يديه وارتسمت ابتسامة بريئة على محياه ثم أخذ يقهقه قائلاً:

ـ ما الذي أتى بك الى هنا، وماذا تعملين في هذه الأراضي القاحلة الجرداء.

استغربت عندئذ وتساءلت من أين يعرفني هذا الرجل ومع هذا لم أتورع من خلط كلامي ببعض المزاح لأن وجهه الساذج كان يبعث الاطمئنان الى قلبي.. وقلت:

ـ لا أظنك ستدعي معرفتي يا حضرة الطبيب.

ـ لا أعرف شخصك ولكنني اعرف نوعك يا ابنتي... نوعك الذي اصبح نادراً في هذه الدنيا ويا للأسف.

ـ مثل حيوانات قبل التاريخ. أليس كذلك يا سيدي الطبيب؟

استيقظت (الشيطنة) التي كبتها بصعوبة منذ خمسة شهور وأخذت تطفح من قلبي... وكما كانت (سور آله كسي) تقول دوما: "ليس بالإمكان ان أتمالك نفسي ولا أنغمس بجنوني وطيشي لمجرد بصيص من الحرية تعطى لي ولو عن غير قصد..." .

على كل حال كان الطبيب رجلاً طيباً للغاية فقال ضاحكاً:

ـ بالعكس يا ابنتي... انت فتاة طيبة مرحة مكتملة الصحة والأنوثة... (طبعاً بوسعي ان اقول هذا وقد اصبحت كهلاً...) يظهر عليك انك طفلة ظريفة وابنة عائلة عريقة، حدثيني، وقولي الحقيقة. ما الذي جاء بك الى هذه الديار النائية المهجورة؟

شعرت بالحنان والرقة يفيضان من حديثه رغم كلماته السمجة وضحكه الصاخب المتوالي... انتفضت أسعى للتظاهر بالسكون وقلت:

ـ انا معلمة يا سيدي الطبيب، أردت الخدمة، فأرسلوني الى هنا.. في الواقع انها قرية نائية مهجورة كما تقول ولكن ما العمل وهكذا كان نصيبي... على كل أعتدت حياة القرية واشعر بسرور وارتياح في العيش بين أهلها!.

كان يتطلع الى وجهي باهتمام وقال:

ـ إذاً جئت الى هنا بدافع الوظيفة وحباً بالخدمة؟ أوقفت نفسك لخدمة البلاد وتربية أبنائه وليس هناك شيء آخر أليس كذلك؟

ـ نعم! هذا قصدي، وليس شيء آخر سوى حب العمل والوطن.

ـ غريب! بهذا السن؟ وبهذا المحيا وهذه الطباع؟ انظري إليَ قليلاً يا ابنتي، انظري الى عيني... أتظنين بأنني صدقت واقتنعت بما تقولين؟

استمر على كلامه وهو يحدجني بنظرات من عينيه اللتين تشعان نوراً وكأني به قد توصل الى قراءة نفسي حين قال:

ـ لا، يا ابنتي.. ان السبب الحقيقي غير ما تدعين، حتى ولا الفاقة ولا العوز.. وان كان ذلك شيء طبيعي يمكن ان يحدث لكل شخص وحيد ليس له من يعوله، ولكن وضعك غير ذلك، وليس هذا أيضاً السبب... احذري اخفاء الحقيقة لأنك كلما ازددت

حرصا وتكتما كشف الأمر واتسع اطلاعي، من تكونين؟ ومن أي عائلة؟ إذا سألتك عن مقر عائلتك سوف تكتمين ذلك عني أليس كذلك؟ تأملي كيف بإمكاني اكتشاف كل شيء، هناك سر في حياتك، ولا لزوم للاسترسال في اكتشاف ذلك السر يا فتاتي... ألا توافقين على قولي؟

سكتنا معا، فكر الطبيب قليلا ثم قال:

- اتسمحين ان أقدم لك خدمة صغيرة كالسعي لنقلك الى محل أحسن من هنا مثلا؟

- لا! أشكرك انا مرتاحة لمحلي وعملي.

- حسنا، ولكن سأترك لك عنواني، فان اقتضى الامر واحتجت يوما لخدمة او حدث ما أزعجك، اكتبي لي.

- شكرا.

- والآن، فلننتقل لبحث العمل الذي ستقومين به.

ثم فتح احد الابواب فظهر بالغرفة رجل طاعن السن يرقد على مقعد طويل، وقد غطى جسمه بمعطف عسكري ثقيل، فقال له الطبيب:

- كيف حالك يا بطل؟ هل استرحت قليلا؟

فتح الجريح عينيه بتراخ وضعف ثم أجاب:

- آه ان عظم ترقوتي يؤلمني يا سيدي.

قال الطبيب ضاحكا: آه منكم يا دببتي الاعزاء.. يخلط واحدكم عظم الركبة بعظم الترقوة، ويظن معدته في كعب رجله... لكنكم رغم ذلك تثيرون الرعب في النفوس، بشجاعتكم وبسالتكم... لا تخف ستشفى وعما قليل يزول الألم ولا يبقى شيء. على كل اشكر الله الذي حماك من إصابة أكبر وأعظم، هل تريد الشفاء بأسبوع؟ اذن اسمع! ستكون هذه السيدة طبيبتك بعد اليوم. تعتني بجراحك فامتثل لأمرها ولا تعص لها طلبا. والويل لك ان سمعت بعصيانك او خلطك هذا وذاك بالدواء حبا بالشفاء العاجل. عندها أكسر ساقك إربا إربا.

بدأ بفك الأربطة وهو يتكلم دون ان يفكر بالتمهل حرصاً على ألم الجريح. فاضطر المريض للتأوه والأنين بين الحين والآخر قائلاً:

ـ أرجوك يا سيدي، تمهل، أكاد أموت ألماً.

ـ اقطع صوتك، اخجل من رجولتك، ألا تستحي من الصراخ أمام سيدة؟ ليس هذا بجرح يستحق كل هذا الأنين، يكفيك نعمة انك وقعت بين يدي ممرضة مثل هذه، فلو كسرت للمرء عشرون ترقوة وكان بين يديها لما شعر بالألم.



ترك الطبيب القرية بعد ساعتين برفقة المقدم ذي اللحية الكثة السوداء. لا ادري ما السر للاضطراب العميق الذي أشعره حتى اليوم بعد ذلك الحادث، رغم انني لا أظن بأن في الدنيا حادثة ابسط واقل كلفة من تلك التي وقعت بيني وبين والطبيب، أشعوري بانكشاف سري أمام الطبيب سبب لي كل هذا الاضطراب وانا الحريصة لعدم الاعتراف بحبي وسري حتى لنفسي، لا ادري.

20 شباط - الزينيات

تحسن الطقس منذ اسبوع واصبحت السماء صافية والشمس ساطعة ولذا يقولون بأن الصيف سيأتي مبكراً في هذا العام. في الحقيقة لولا الثلوج المترائية من أعالي الجبال لظن المرء نفسه في شهر أيار.

كنت اشتغل في غرفتي واليوم جمعة. اكبر صورة مؤنسة بالفحم فلأستفد من يوم العطلة وأسعى لإنهائها بعد الغذاء.

بينما كنت منهمكة بالتصوير فتح الباب بشدة ودخلت خديجة هانم ترتجف وقد وقع منديلها عن رأسها وبقي متدلياً على كتفيها تقول بفزع لم أرها بمثله قبل اليوم:

ـ آه! يا معلمة هانم حضر سيدان الى المدرسة أحدهما مدير المعارف وقد جاء للتفتيش انزلي بسرعة لأنني اخجل من التحدث إليهما.

بينما كنت ارتدي الملاءة مسرعة كنت أسخر قائلة لنفسي:

ـ أكاد لا اصدق بان الرجل الذي يكسل عن تحريك ذراعه في غرفته ان يحمل نفسه مشقة السفر الى هنا، حقاً انه لأمر غريب.

التقيت أمام باب غرفة التدريس بسيدين أحدهما طويل للغاية والآخر بعكسه قصير جداً، ترى أين هو مدير المعارف؟ بينما كنت أفتش عنه بطرف عيني سار السيد القصير نحوي.. لم استطع رؤية ملامحه وسط الظلام فلذا لم أر اكثر من بريق نظارته. سألني قائلا:

ـ أنت المعلمة؟ انا مدير معارف المحافظة رشيد ناظم... ما هذا المكان المظلم، هذه ليست مدرسة ولا يمكن ان تكون اكثر من اسطبل حيوانات.

فقلت له وانا افتح باب الغرفة:

ـ أظن بان الغرفة أقل ظلاماً من البهو يا سيدي.

يسير بعظمة وخيلاء رغم صغرته وما ان خطا خطوة الى الداخل حتى هز يده وكأنه يلقي خطاباً على رفيقه قال: مونشير! انظر بربك كم هذا (رديكول) وكم هو (ميزه ر). كان يريد ن يقول: يا عزيزي! انظر بربك ما أغرب هذه المدرسة بوضعها. يشع البؤس في أنحائها... صدقني بعد الآن عندما اقول بان الحياة هنا تسير على قاعدة (كل شيء أو لا شيء) وليس هناك حالة وسطى.

بدأت أراهما أحسن من قبل، وان مدير المعارف الذي حسبته لأول وهلة شاباً يافعاً كان رجلاً تجاوز الخمسين من عمره يبالغ في الأناقة بهندامه متصابياً، يأتي بحركات مستمرة بعينه وحاجبه ويعطي وجهه أشكالاً مختلفة عن كل كلمة يتفوه بها. والآخر كان طويل القامة نحيل الجسم اسمر اللون ذا شارب رقيق... طويلاً لدرجة احدودب لها ظهره.

استدار المدير نحوي وقال:

- ان صديقي مهندس الأشغال العامة بالمحافظة واسمه (ممتاز بك) تنازل بقبول مرافقتي في سياحتي التفتيشية.

فقلت حباً في الثرثرة: حسناً نعم ما فعل.

وكأني بمدير المعارف يفحص مقاومة غرفة الدرس ومتانتها يطرق الارض برجليه ويلمس بطرف عصاه السبورة والمقاعد واللوحات.

- عزيزي، هناك خطط واسعة اريد تحقيقها فإن لم توافق الوزارة على المخصصات التي طلبتها فالويل لهم. أتعرف بانني جئت الى هنا محتاطاً للعواقب فهيأت الجرائد لتكتب عنهم بعناوين ضخمة تشعلهم بنار الانتقاد. وإشارة مني تكفي الصحف لتقذف قنابلها... بام... بوم... فتخرب الكائنات على رؤوسهم. تأكد بانني مصر على تطبيق الاحلام التي تدور برأسي لأقلبها الى حقائق ملموسة وإلا فلأنسحب من الحياة بانتظام.

ادركت ان كل هذه الكلمات المعسولة تردد أمامي لترمي الرهبة والإجلال بقلب معلمة القرية المسكينة ثم تابع يقول وهو يحرك نظارته:

- كم عدد التلميذات؟

- 13 بنت و 4 صبي يا سيدي.

- أتريد تفتيش البناء يا ممتاز؟

- لا حاجة لذلك.

كان المهندس يحدجني بنظرات خفية من طرف عينه ثم قال بفرنسية ركيكة حباً بإخفاء الحديث عني:

- يتراءى لي لون وجهها كالحريق من تحت النقاب... ما الذي أوقعها هنا؟

فأجاب المدير بفرنسية أردأ من لغة صاحبه وهو يحمر خجلاً عكس ما كان يشتم من وضعه:

- أرجوك يا عزيزي ان تكون جدياً في حركاتك.

ثم اخذ يحك ذقنه مفكراً كأنه توصل الى قرار حاسم فالتفت نحوي فجأة وقال:

ـ سأغلق هذه المدرسة يا هانم!

فسألته بحيرة واضطراب: لماذا يا سيدي، وما الداعي لذلك يا ترى؟

لأن المخصصات غير كافية بالوقت الحاضر... كما ان الطلاب قليلون وبالوقت نفسه عدم وجود الاشياء الرديئة الناقصة أفضل وأحسن من وجودها... سأبذل خلال وجودي بالمحافظة كل جهد لبناء المدارس الصحية الحديثة في اكبر عدد ممكن من القرى التابعة لنا ولذا أرجو إعطائي الايضاحات اللازمة.

اخرج من جيب سترته دفتراً صغيراً دون عليه بعض المعلومات العائدة للمدرسة وبعدها قال:

ـ أما انت فإنني سأعينك لجهة اخرى مناسبة وبديهي حضورك الى (ب) بعد اغلاق المدرسة.. ما اسمك يا هانم؟

ـ فريدة.

ـ ما اجمل العادة المصطلح عليها في أوربا للتعارف... إذا سئل أحد عن اسمه لا بد له ان يذكر للحال اسمه واسم أبيه ولقبه دون تردد. أما عندنا فالمفهوم من الاسم هو الاسم فقط. في الواقع على المعلمات ان يعتدن ذلك ويكتبن باختصار في دفاتر التفقد اسماء تلميذاتهم رأساً الاسم واسم الأب مثلاً عندما يراد كتابة اسم ملاحة ابنة علي يكون أسهل لو كتبت... ملاحة علي... هل فهمت يا هانم؟ ما اسم أبيك؟

ـ نظام الدين.

ـ إذاً انت فريدة نظام الدين. قد يتراءى لك هذا الشكل غريباً في اول الامر ولكنك بعد التمرين تعتادينه وتجدينه اكثر سهولة. من اي مدرسة تخرجت؟

ترددت قليلاً في ذكر اسم مدرستي لانه ان قلت ذلك سيخجل المهندس من كلماته التي صرفها قبل هنيهة.. ولذا أجبت:

ـ إن دراستي خاصة لا تمت لأي مدرسة بصلة يا سيدي.

ـ كما قلت لك عند حضورك الى (ب)، تأتين لزيارتي وانا أجد لك محلاً مناسبا أرسلك إليه. هلم يا ممتاز هناك زيارة قريتين علينا ان نقوم بها أيضا اليوم.

عاد المهندس الذي كان يجلس على أحد المقاعد يهز رجليه الى التكلم بالفرنسية الركيكة وقال:

- قضي علي.. انها تحفة نادرة.. ان لم ترني وجهها فانك عبثا تحاول نقلي خطوة عن هذا المكان... أكاد أجن لهفة لرؤية وجهها بدون نقاب.

اضطرب مدير المعارف وقال بالتركية توخياً ملاحظتي:

- دع كتابة تقريرك الى وقت آخر وهلم بنا لنذهب الآن... إذ لم يبق مجال للتمهل وعلينا أشغال والوقت ضيق.

تلكأ المهندس أمام الباب ينتظر خروجي الى الضوء والنور وانا بالعكس أدرت له ظهري عناداً... أدار رأسه الى الداخل مرات عديدة وهو يخرج من الحديقة ولم يتورع من السير بين الحين والآخر على أطراف أصابعه في الطريق قرب الحاجز أملاً برؤيتي.

انتشرت الحوادث كالبرق في القرية وتراكض الاولاد الى المدرسة رغم ان اليوم يوم الجمعة يقبلون يدي بحسرة وألم. كنت أظن ان أولئك الاطفال كالمدرسة غرباء عني لا تربطهم بي أي صلة او شعور كم كنت مخطئة في ظني. انسحبت خديجة هانم لغرفتها بعدما عصبت رأسها بمنديل كبير تعالجه من الصداع الذي ألم بها. والحقيقة ان هذا الحادث يعرضها لخسارة كبيرة أليمة.

مرت زوجة العمدة علي في المساء مع القابلة وقد بدا التأثر والألم عليهما... وبالأخص القابلة كانت تشير إلي ببعض الإشارات الرمزية وهي تقول: (كان لي نية لم يجعلها الله تعالى من نصيبي) جاريتها بتأثر مصطنع فتنهدت وانا ألقي براسي الى الأمام وقلت:

- ما العمل يا حضرة القابلة؟ كل شيء في الدنيا قسمة ونصيب. ان جميع أهل القرية متأثرون حتى انا التي لا اتصور احتمال وقوعي بقرية يمكن وجودها أردأ من قرية الزينيات بدأت اشعر بألم هذا الفراق. غير ان مؤنسة تلك الشيطانة لم تبد أي تأثر

بل كانت بالعكس فرحة مسرورة. تكاد لا تطأ الارض بأقدامها بل تطير كالعصفور الصغير من فرط السرور... لا تنفك عن الاستفهام بإلحاح عن يوم السفر وتقول: متى سنذهب يا أختي؟ أيمكننا الرحيل خلال هذين اليومين؟

27 شباط - الزينيات

سنسافر غداً. في بادئ الامر كانت مؤنسة مسرورة جداً ولكن أرى شعوراً غريبا وحزنا عميقاً استوليا على نفسها منذ يومين... انها متأثرة ساكنة لا تتحرك... وكثيراً ما تسرح ببصرها الى البعيد تفكر وتجيب على أسئلتي بدون انتباه... فقلت لها:

ـ مؤنسة... إذا كنت لا تودين الذهاب معي صارحيني لأتركك هنا.

ـ معاذ الله يا أختي، القي بنفسي في البئر إذا حدث ذلك لا سمح الله.

ـ أأنت حزينة لفراقك إخوتك؟

ـ لست حزينة يا أختي.

ـ إذاً ستشتاقين لأبيك؟

ـ لا أحب والدي بالشكل المفروض والمنتظر إلا انني أرثو لحاله.

ـ إذاً ما الداعي لحزنك وما هو مصابك؟

ـ ....

أسدلت جفنيها صامتة لا تحير جواباً وعندما اصريت في السؤال ضحكت وعانقتني بسرور زائف تحاول تمثيله... لكن هذا المرح الزائف لم يدخل الطمأنينة الى قلبي بعد ما تعلمت على مرحها الحقيقي.

على كل لا أنكر بأن نظرات هذه الطفلة البريئة الساذجة تنطق بشيء من الحزن العميق في جميع أطوارها... لم أفلح بما عملت لاكتشاف سر حزنها الحالي وذهبت مساعي ادراج الرياح.

اكتشفت اليوم صدفة سر قلبها الصغير. اختفت مؤنسة في المساء كنت خلالها في أشد الحاجة إليها لتساعدني بأعمال السفر. ناديتها مراراً فلم تجب... لا بد ان تكون في

الحديقة، فتحت النافذة واخذت أنادي: (مؤنسة، مؤنسة) فأجابت بصوتها الرقيق من بعيد وكان صوتها آتياً من ناحية مقبرة زيني بابا: نعم يا أختي، ها انا آتية.

سألتها عن سبب تجولها في تلك الاماكن البعيدة في هذه الساعة المتأخرة فارتبكت ساعية لإيجاد حجج مبررة لوجودها هناك. حدجتها بنظرة قوية ولاحظت أن عيناها محمرتين وعلى خدها آثار دموع لم تجف بعد. انشغل بالي واخذت أضيق عليها الخناق لأفهم سبب وجودها هناك وسر بكائها... كنت أقبض على يديها وهي ترتعش وتتلوى وتدير رأسها ساكتة لا تنطق.

قررت الاطلاع على الحقيقة بأي ثمن كان وهددتها بتركها هنا ان أصرت على طمس الحقيقة فلم تستطع صبراً أمام تهديدي ووعيدي، وقالت وهي تحمر خجلاً كأنها أتت ذنبا كبيراً:

ـ لا تغضبي يا أختاه! سمعت أمي بسفري فأتت لتراني.

قالت ذلك وهي ترتجف وقد اغرورقت عيناها بالدموع، وهكذا اكتشفت سبب حزنها فقلت لها وانا أداعب شعرها المتهدل على جبينها:

ـ ما الداعي لخوفك وبكائك؟ اليست أمك طبيعي جداً ان تريها وتراك.

لم تصدق المسكينة ما تسمع وبقيت مدة ترتجف تفتش عن كلمات تبرهن عن عدم حبها لأمها التي لم تسمع من أحد سواي غير اللعنة والنقمة عليها. ولكن رغم كل ذلك كنت اشعر بأنها تحبها بشكل يفوق الحصر والوصف.. فقلت لها:

ـ يا طفلتي الصغيرة! أعيب عليك ادعاءك كرهك لأمك إذا فرضنا سماعي ذلك منك... أيمكن للأم ان تكون مكروهة لا تحب من ابنتها؟ هلمي واركضي وأرجعيها وقولي لها:

ـ أختي تصر على رؤيتك، وها انا آتية نحو المقبرة.

ركضت مؤنسة نحو الحديقة بعد ان ركعت تبلل أقدامي بدموعها... ان طلبي رؤية أم مؤنسة عمل فظيع. لو علم أهل القرية لأساءوا بي الظن ورجموني ولكن، ليكن ما أراد الله ولا يهمني شيء ما دام ضميري آمناً مستريحاً.

انتظرتهما مدة تحت الاشجار القريبة من المقبرة لأن المسكينة ابتعدت كثيراً عن المدرسة فاضطرت مؤنسة لعبور النهر لتلحق بها وتعيدها إلي... بعد مدة ظهرتا وكان منظرهما مؤلما حزينا. تسيران بعيدتين عن بعضهما كأنهما تخجلان من بعضهما او تنفران... والوحل يعيقهما عن الإسراع بالوصول إلي.

أعددت نفسي لأقول لها اشياء كثيرة تفيض حباً وحناناً ولكن ما ان صارت أمامي حتى عقل الألم لساني ولم أستطع الكلام.

كانت امرأة طويلة القامة نحيلة الجسم ترتدي ملاءة صوفية بالية وتستر وجهها بمنديل أزرق، برجلها حذاء طار نعله وبقيت رجلاها على الارض. شعرت باضطرابها وكنت اشعر باضطراب أبذل جهدي لإخفائه عنها، فتجلدت وقلت:

ـ ألا تكشفين نقابك؟

رفعت النقاب عن وجهها بعد تردد قصير... فظهر شبابها للعيان، جميلة الوجه شقراء وان كانت ملامحها تدل على التعب وقد أضناها الشقاء ولم تتجاوز الثلاثين من عمرها بأي حال.

كان وجهها خالياً من أي زينة او طلاء رغم انني كنت اتخيل هذا النوع من النساء مسرفات في الزينة والبهرجة. رثوت لحالها ومما زاد في إشفاقي هو شبهها الزائد لمؤنسة. ولأول وهلة خيل إلي ان مؤنسة كبرت ووصلت الى الثلاثين من عمرها وبعدها... وبعدها... مسكت الطفلة بدون اختيار من كتفيها اسحبها نحو ركبتي. وكان صدري يمتلئ بشتى المشاعر فتغرورق لها عيناي... المهمة التي أخذتها على عاتقي صعبة شديدة لكنني سأقوم بها حق قيام فأهيئ مؤنسة لتكون سيدة طيبة وسعيدة فتكون أكبر وأعظم سلوى لحياتي المقفرة قلت لها وكأنني شعرت بأنها تفكر مثلي بنفس المشاعر والأفكار:

يا سيدتي أرى ان الحظ خانك ولم تجعل الظروف تربية الطفلة وتنشئتها بين يديك من نصيبك... هذه مشيئة الله ولا راد لمشيئته فلذا أريد ان اقول لك بأنني احتضنتها لانها وقعت في أحسن منزلة من قلبي. سأربيها كابنتي تماماً فلا احرمها من شيء

كوني مطمئنة وقري عيناً بأنك سترينها بعد سنين شابة لا ينقصها شيء من العلم والأدب.

ولأول مرة تجرأت المسكينة على الكلام فقالت:

ـ إذا كنت على اتصال بمؤنسة ترينها بين حين وآخر؟

شعرت بانقباض مؤنسة وارتجافها وهي تعانقني بيديها الصغيرتين ذلك انني اطلعت على ذنب جديد من ذنوبها... إذا كانت ترى أمها بالخفاء؟ ودون علم مني؟ المؤلم انها لم تتجرأ على تنبيه أمها المسكينة لتكتم عني.

ـ لو بقينا هنا لأريتك ابنتك على الدوام يا سيدتي، ولكن سنذهب غداً الى (ب) ولا ادري بعدها الى أين

يكون مسيرنا. اطمئني يا هانم! لا استطيع القول بأنني سأكون لها أماً لأنني ادركت الآن تماماً بأن لا شيء في الوجود يحل محل الأم أبداً... فلذا سأكون لها أختاً كبيرة تحنو عليها وتحبها دائماً.

رأينا شبحاً يسير في الوادي.. وكان أبو تلميذي ـجعفر آغا... كثيراً ما يحضر للمستنقع حباً بصيد البط البري... اضطربت أم مؤنسة وقالت:

ـ اسمحي لي يا سيدتي فلأذهب لأنني أخشى ان يروني معك... كانت كلماتها تظهر مدى النبل الذي تتحلى به روحها الرفيعة... في الواقع ان كل حركة من حركاتها تشعر بسمو أخلاق وعلو محتد عجيبين. لقد صح تخميني الأول مؤنسة ورثت الرقة والصفاء من تلك الأم التعيسة المنكودة... أثار الحرص الذي أظهرته تلك المسكينة كبريائي.. ولم أشأ الابتعاد عنها قبل ان اترك أحسن الشعور في قلبها ونفسها وأردت ان أبرهن لها بأنني لا أعطي بالاً للقيل والقال، فلذا قلت:

ـ لم العجلة يا هانم، ألا تستطيعين المكوث طويلاً؟

نظرت المسكينة إلي بامتنان وكانت شفتاها ترتعشان ترمق يدي بنظراتها متلهفة لتقبيلها دون ان تجرأ على لمسها.

جلسنا على جذع شجرة اقتلعتها العاصفة الأخيرة. وأجلسنا مؤنسة بيننا وقد أتى دورها بالكلام... شعرت بأن المسكينة تخفف من عبء فجيعتها بالتحدث إلي. تسرد تاريخ حياتها بحرارة وألم. تتكلم بلهجة رقيقة ناعمة. لها ماضي بسيط لكنه حزين. ولدت في استانبول في حي (روم ايلي) وكان أبوها غنياً إلا انه أفلس واضطر لإعطائها لثري من اولاد الذوات في (مقرى كوى)، تبناها وعاشت مع بناته كواحدة منهن تقريباً. أتاها في سن مبكرة أزواج طيبون لكنها لم تقبل أحداً منهم. تكشف عيوب كل منهم لأنها كانت تريد شخصاً معيناً. وهو سيد البيت الصغير.. طالب الكلية العسكرية، شاب يكبرها بقليل... لم يكن لها أي أمل بالشاب إلا انها تحبه بشكل لا يمكنها من عصيان أوامره. في ظرف كان سيد البيت مسافراً بوظيفة الى (ب) فهجمت عليها العائلة بأسرها وقرروا طردها من الدار. أرسلوها الى كوخ امرأة عجوز يعرفونها... بقيت هناك بضع شهور... ولدت خلالها أخت مؤنسة التي ماتت من الخناق في السنة الرابعة من عمرها.

زوجوها بعد الوضع بمدة من مأمور احراج كهل إذ من كان يقبل الزواج بامرأة فقيرة ترعى ولداً لا يعرف أبوه؟ ليس هناك أحد سوى ذلك الكهل والموظف البسيط. لم تقل شيئاً في اول الامر وخضعت لمشيئتهم دون أي اعتراض... إلا انها زهقت عندما جاء زوجها الى قرية الزينيات وكادت تختنق في غرفتها الضيقة المظلمة وأخذت تذبل وتضمحل.

بدأت أنفاس المسكينة تضيق عندما وصلت الى هذا القسم من تاريخ حياتها كأنها ما زالت تعيش تحت ذلك الكابوس الثقيل الذي يزهق الروح.

صادف مجيء مفرزة من الدرك الى القرية لتعقيب الأشقياء في تلك الأيام العصيبة على نفسها وروحها. وبدأ ضابط المفرزة يلاحقها ويتعقبها في كل خطوة تخطوها خلال الأسابيع التي قضاها بحكم العمل مرابطاً في تلك القرية وأخيراً تغلبت العاطفة على العقل فلم تستطع المقاومة وهربت مع الضابط من القرية.

لا ادري لم أثرت هذه القصة البسيطة على نفسي كثيراً... قمت وانا انتفض كالعصفور تأثراً وشفقة، وقد قارب المساء... وتركت مؤنسة مع أمها وسرت نحو المدرسة. اريد ان اتركهما وحيدتين ولا بد ان لهن اشياء تقولانه لبعضهما قبل هذا الفراق الأبدي. ولا يمكن استرسالهما بإظهار مشاعرهما بحضوري وكل شعور تكبتانه يبقى حسرة في قلبيهما الى الأبد... كنت أسير بين الاحجار والقبور شاردة مشتتة.

مؤنسة! كنت وحيدة فأحببتك لأملئ بك فراغ وحشتي وكآبتي لكنني اليوم اصبحت أغار منك، لأن هناك امرأة تحنو عليك وتحبك دون مقابل او أمل، هي أم رؤوم رغم ما هي عليه من الفقر والضعة سوف تبتعدين عن موضع مولدك وعن الاماكن التي نشأت فيها وأحببتها وبخاطرك ذكريات حلوة لذيذة، وبعينيك خيال عيني أمك وبشفتيك حرقة دموعها الحزينة اللذيذة... تحملين بقلبك الصغير دفء من تلك الأحضان... أحضان أمك الحنون.

5 آذار - (ب)

ذهبت صباح اليوم الى مديرية المعارف حاملة أوراق مدرسة الزينيات. تركت مؤنسة نائمة وكان الوقت باكراً ولم يمض وقت طويل على ابتداء دوام الموظفين. أخذ الموظفون يتواردون الواحد بعد الآخر والموجود منهم مشغول بشرب القهوة والتدخين يتمطون متثائبين لم يصحوا من نومهم تماماً. وجدت رئيس الكتاب تبدل بشخص آخر، اقتربت منه أحييه قائلة بأنني معلمة مدرسة الزينيات التي أغلقت بأمر مدير المعارف قبل مدة قصيرة جئت لتسليم أوراق المدرسة. فكر الموظف قليلاً ثم قال:- حسناً انتظري قليلاً في الخارج ريثما يحضر حضرة المدير.

انتظرت المدير ثلاث ساعات كاملة في البهو المظلم الخانق كنت خلالها عرضة لأنظار المارين وكثيراً ما سمعت كلاماً بذيئاً مزعجاً. كان بالقرب من النافذة سلماً مكسوراً جلست على حافته انتظر وكانت النافذة تطل على مدرسة خربة بها شيخ شمر على ساعديه ينظف الخضار بالقرب من بركة ماء، تزقزق العصافير على أغصان سنديانة

كبيرة تصل أغصانها حتى النافذة. كنت اسند ذقني بقبضتي شاردة مفكرة، جاء بالأمس طلابي ومعارفي حتى العربة يودعونني قبل سفري وانا ما أسخف قلبي وشعوره!. ما أسرعه بحب من حولي! تذكرت كلمة صهري عزيز بك التي كان يرددها عني في كل مناسبة (ما أغرب أطوارك تتهربين من الناس لأول وهلة وتبدو الوحشة عليك، لكنك بعد قليل تلصقين مثل صمغ الصنوبر ولا تستطيعين الانفلات) ما أصدق قوله! اشعر بحنان لأولئك الاطفال، فالجميل لجماله، والدميم لدمامته، والفقير لفقره.. أراني اترك جزءاً من قلبي في كل ناحية ابتعد عنها، سأبقى بدون قلب عما قليل... من يدري ربما أستريح لو بقيت بدون قلب.

قبل المساكين يدي واحداً بعد الآخر وأرسل لي محمد الراعي مع زوجته زهراء جدياً صغيراً، كم كان وقع الهدية جميلاً في نفسي. وضعت الحيوان الصغير الذي لم يفتح عينيه بعد في حضن مؤنسة. سارت العربة وتجاوبت أصداء رنين أجراسها في تلك القفار الخالية. أخذنا نبتعد عن الزينيات نهز المناديل للأطفال مودعين الى ان غابوا عن أنظارنا بين سواد أحجار القرية.

صادف وقوف العربة أمام الفندق في ساعة ثورة الحاج (قلفة) إذ كان يلاحق هرة سرقت قطعة كبد كبيرة. كان يركض وراءها وبيده عصا غليظة يلوح بها صارخاً متوعداً. وما ان رآني حتى توقف فجأة ورفع ساعديه وصرخ بأعلى صوته: (أهلا بك يا معلمة هانم).

ليس بالإمكان وصف سرور المسكين. ترك الهرة وملاحقتها وهو يقول لها: (لا تخافي تمتعي بسرقتك فهي حلال عليك). ثم اقترب مني بادي السرور ولم يعط بالاً لمؤنسة وجديها وبقي كذلك حتى صعدنا السلم فقال: (واه يا معلمة هانم! من أين أتت هذه ومن هي؟)

- هي ابنتي يا حاج، تزوجت في الزينيات وجئتك بابنتي. داعب الحاج ذقن مؤنسة قائلاً: لا تهتم بالقائل بل انتبه للذي ألهمه ان يقول سيكون هذا يوماً ان شاء الله. تليق البنت ان تكون ابنتك، انها كالملاك ما شاء الله.

كانت غرفتي ذات الطيور الزرقاء خالية منذ يومين، يا لها من صدفة جميلة سررت لها. أخذني الحاج في المساء لداره بالقوة وتعشينا هناك. كم أردت التملص من دعوته بحجة التعب لكنني لم أفلح لأنه أصر بلهجة أمر لم تدع مجالاً للتملص.

ان الحوادث التي مرت جميلة تبعث السرور في النفس ولكن هناك ما يرجف أوصالي ويحطم أعصابي... قمت ليلة الأمس بأعمال حسابية كانت نتيجتها غريبة لم استطع قبولها. اخذت اجمع على أصابعي كالصغار علني اكتشف خطأ بالجمع ولكن كان الحساب مضبوطاً ويا للأسف، لم أتمالك عن الضحك رغم النتيجة المؤلمة. ظننت بأنني أعيش من كدي وما قبضته من أجرة عملي والحقيقة بأنني صرفت المبلغ الذي كان معي. لأن المسكينة الدادة (كل مثال) ارتأت عند سفري ضرورة وجود مبلغ احتياطي من المال لدي فلذا باعت قطعة من حلي أمي ووضعت لي ثمناً داخل كيس صغير أوصتني بإلحاح عدم مسه إلا عند الضرورة القصوى.

تكبدت حتى الآن مصاريف كثيرة وهذا طبيعي. ألم أبق مدة طويلة بلا عمل؟ ناهيك عن أجور الطريق فإنها تجمع بكوناً كبيراً فضلاً عن انني لم افكر بأنني لست اكثر من معلمة قرية فقيرة بل شعرت بوجوب مد يد المساعدة لكل من صادفني من فقير او محتاج ولم أمسك يدي عن القيام بمصاريف صغيرة في هذا السبيل.

ان الانسان طماع بالفطرة والغريزة... استغلوا عطفي وطيبتي فتكاثرت الأيدي الممتدة نحوي تطلب العون. كثرت بدرجة لم يعد راتبي الضئيل يغطي المصاريف. كذلك لم أقبض شهرين من راتبي وهذا ما اضطرني لفتح الكيس كلما صدمت بضيق لم أجد بيدي ما يسده الى ان شعرت بخفة وزنه بشكل لم أتجرأ معه عد النقود وإحصاءها. إذاً ما زلت أعيش بمعونة أهلي رغم ما عانيت من ضنك وضيق خلال هذه الشهور الخمس.

بينما كنت ألعب بأوراق شجرة السنديان كنت أفكر بكل هذا فأشعر بميل للضحك والبكاء معاً. على كل شجعت نفسي قائلة: لا تتألمي يا عصفورة السياج، ان لم تكسبي

شيئاً ألم تتعلمي الصبر والجلد للعيش والحياة؟ هل تستهينين بهذا الكسب؟ بعد الان ستتركين الطفولة وعبثها وتكونين سيدة عاقلة رزينة يا ابنتي.

بينما كنت سارحة بأفكاري شعرت بحركة حدثت في البهو ورأيت الخادم العجوز يركض نحو غرفة المدير وبيده معطف وعصا جميلة. ثم بعد دقائق رأيت المدير يصعد السلم بقامته القصيرة وهو يمد رقبته بخيلاء ماسحاً زجاج نظارته بعظمة.

أردت السير وراءه نحو الغرفة فاعترضني الخادم قائلاً:

انتظري يا... ليستريح المدير على الأقل. لم العجلة؟ كيف مكثت في بطن أمك تسعة شهور؟

اعتدت نوعاً ما على هذه المعاملات ولذا لم أتأثر من كلامه بل بالعكس قلت له بصوت هادئ حليم: أرجوك يا عم بعد ما يشرب حضرة المدير قهوته أخبرني. وقل له بأن المعلمة التي طلبتها جاءت لتتشرف بالمثول بين يديك.

لم يكن المدير ينتظرني لكن الخادم يهملني إذا قلت غير ذلك. وهكذا أراني صرت ضليعة نوعاً ما بهذه الحيل. خرج الخادم العجوز بعد دقائق من الغرفة ولم يستطع معرفتي بملاءتي السوداء فأخذ يكلم نفسه قائلاً: أين هي تلك المرأة؟ بينما تعجل وتضع قدمينا في حذاء واحد أراها تختفي وتهرب.

ـ لا تغضب يا عم، ها أنذا هل أدخل؟

ـ هلمي ادخلي.

كان المدير جالساً عاري الرأس وبين شفتيه سيجار غليظ يكلم شخصاً طاعن السن بصوت جهوري لا يتناسب مع جسمه الصغير. كان يقول: آه يا سيدي.. بئس البلاد هذه، بلاد يصرفون على رفاههم مال الدنيا ولا يفكرون بتنظيم معاشهم بطبع بطاقات بأسمائهم مثلاً. مثلاً يرسل ثمانون شخصاً في اليوم الخبر إليك مع الخدم لطلب مواجهة ولا يستطيع الخادم إعلان أسمائهم صحيحة لتعرف القصد من طلبهم. انا ميال لتطبيق أصول بطرس المجنون بالإدارة.. لا أكتفي بتعقيب حياة الموظفين الرسمية يجب الاطلاع على حياتهم الخاصة أيضاً. يجب التدخل بأكلهم وشربهم

ونزهاتهم حتى وملابسهم. أرسلت حال وصولي تعميماً للمدارس قلت فيه ان الحلاقة يومية والبنطلون مكوي والمعلم الذي يلبس القميص بدون ياقة ورباط رقبة أحيله الى المعاش حالاً... كنت بالأمس بزيارة احدى المدارس فصادفت معلماً أمام الباب. ظننته آذنا بشكله الزري فطلبت منه ان يعلن قدومي للإدارة. وفي الإدارة أعطيت درساً كافياً بما يتطلب من المعلم. سأذهب غداً الى المدرسة نفسها لأرى بالذات مدى تأثير إرشاداتي.

كنت انتظر سكوت المدير لأبدأ الكلام. لكنه كان متدفعاً بحماس يقول: أين من يسمع؟ وأين من يفهم التعميم او النصح والإرشاد ثم استدار نحوي بعصبية وقال بصوت خشن جاف: انا أراهن بأن حضرة المعلمة تبلغت التعميم لكنها رغم ذلك تراجع بدون بطاقة فالنغمة القديمة ما زالت تردد وتردد... جاءت معلمة... وطلبت معلمة... ولكن أي معلمة؟ فاطمة بسوق الغزل.

كدت أصعق من الحيرة. إذا كل هذا الكلام وهذه المحاضرة بسبب حضوري بدون بطاقة. أخيراً استطعت القول: انا لم أتلق أي تعميم يا حضرة المدير.

ـ أين مركزك يا هانم؟

ـ شرفتم مدرستي في الأسبوع الفائت. انا معلمة قرية الزينيات معلمة المدرسة التي أمرتم بإغلاقها.

رفع أحد حاجبيه مفكراً ثم قال: ها! نعم، نعم. هل انتهت المعاملة؟

ـ عملت حسب أوامركم يا سيدي وجئت بالأوراق التي طلبتموها.

ـ عال جداً. سلمي الأوراق لرئيس الديوان ليدققها.

أشغلني رئيس الديوان ساعتين بتدقيق الأوراق وسألني عن اشياء كثيرة لم أفهمها، كأوراق مثبتة وسندات متفرقة. اعترض على المضبطات التي أتيت بها من هيئة القرية الاختيارية، وكلما بدت الحيرة على وجهي قلب شفتيه وقال باحتقار: أهكذا تكون المعلمة؟

ذبت خجلاً واضطراباً وكدت أبكي عندما طال جدله عن طابع سند أبطل خطأ.
أخيراً جاءني بمشكلة جديدة وهي أنهم صرفوا قبل سنين (250) قرشاً لتعمير السطوح وليس بين الأوراق سند استلام المبلغ. سألني بحدة وغضب:
أين سند الاستلام؟ ان لم تجديه انت المسؤولة. كدت أبكي وانا أتوسل قائلة: أرجوك يا سيد. ذهبت الى القرية قبل أربع شهور فقط وتاريخ السند يرجع الى ما قبل سنين.
أخيراً احتدم غيظه وقام من محله ليذهب الى غرفة المدير قائلاً: حسبي الله ونعم الوكيل. لا استطيع احتمال عيوب ونقائص كهذه. ثم خرج وبيده الاوراق.
كان بالغرفة كاتبين أحدهما شيخ بعمامة والآخر شاب صغير السن كانا يشغلان نفسهما بالكتابة وما ان خرج الرئيس حتى تراكضا نحو الجدار الفاصل بين غرفتهما والمدير وأخذا ينصتان الى الحوار. كان أحدهما يقول: يا حضرة المدير لا تقصر بحقه جعلت فداؤك، اعطه درساً يستحقه... ثم يتضاحكان. لم يكن هناك حاجة للإنصات إذ بعد لحظات علا صوت المدير وهو يقول صارخاً: عجزتني... أزهقت روحي. ما هذا البرود وقلة التدبير؟ ما هذا الدماغ المتحجر الجامد؟ لها الحق تلك المسكينة... لها الحق كيف تستطيع ان تخلق لك سنداً مضى عليه سنين؟ ان كنت لا تدرك الامور اذهب حالاً وقدم استقالتك... اخرج.
رباه! كاد قلبي يتفجر وقلت للكاتبين: آسفة لأنني سببت له إزعاجاً بدون قصد. فلأذهب كيلا يراني أثناء تأثره فأزيد من غضبه وحدته.
أجابني الكاتب الشيخ وهو يرقص طرباً: لا يا أختي دعك منه هو يستحق ما نال. انه يغلي دوماً ولا يهدأ إلا إذا جاءته (الزفة) بين الحين والآخر. وفقك الله كنت السبب لإراحة دماغنا فترة من الزمن.
انقطع الصوت وتراكض الكاتبان لمحليهما وقال أحدهما لنفسه: هناك مثل يقول: (يأخذ الكافر ثأر الدين من قليل الإيمان).

دخل الرئيس غاضباً وأدار بصره بالغرفة متحفزاً للشر إلا ان سكوت الكاتبين وانكبابهما على العمل رد السكينة والهدوء الى نفسه الثائرة. جلس متمتماً: بئس المدير سيذهب غداً الى جهنم ويلحق بمن سبقوه.

رفع الشيخ رأسه وقال: لا ادري، سمعنا أصواتاً وجلبة هل كانت لكم؟

ـ بعضه لي أيها الأبله.

فقال الشيخ مستعطفاً: يجهل المدير المعاملات. لولاكم لما سارت الأعمال.

نعم كان الشيخ يقول ذلك. الشيخ الذي كاد يطير من الفرح قبل لحظة لما أصاب رئيس الديوان من التحقير. لله! ما أغرب البشر وما أشد تلونه وأسرع تقلبه!... كدت أهلك تعباً وجوعاً وأخذت ارتجف، اصطكت ركبتاي واسودت الدنيا أمام ناظري وانا أعود الى غرفة المدير لألاحق عملي الأساسي. كان المدير ثائراً لحادثة مستجدة، يراقب تنظيف الغبار في غرفته بشراسة لا ينفك عن تعذيب من حوله يمسك بين الحين والآخر مرآة يدوية يصلح عليها هندامه ويراقب فيها وجهه وحركاته. فهمت السبب لكل هذا الاستعداد من حديثه مع الرجل العجوز الذي ما زال جالساً في مكانه. وصل صحافي من أوربا اسمه (بيه ر كوز) ترافقه زوجته الى (ب) واجتمع بالمدير في دار المحافظة في الحفلة التي أقيمت على شرف الصحافي. سيكتب المقالات المهمة عن (ب) وانه شخصية لها مكانتها في عالم الصحافة وكان يقول بهياج وهو يفرك يديه:

وعدني بزيارة في الساعة الثالثة اليوم لأريهما بعض المدارس. سأجعله يكتب اشياء طيبة عنا. لو لم أكن هنا لكان قدوم الصحفي الى هنا عسيراً.

كنت أنتظر قرب الباب عندما قال لي: ما الخبر يا هانم هل هناك شيء جديد؟

ـ انتهت المعاملة.

ـ حسن جداً.

ـ هناك وعد تلطفتم به علي يا سيدي بخصوص وظيفة أخرى تسندوها إلي.

ـ نعم ولكن ليس هناك شاغر في الوقت الحاضر. سأفكر بذلك عند حدوث شاغر. قيدي اسمك في الديوان. كان يقول ذلك بصوت حاد ونبرة قطعية. شعرت بأن الكلام

بدون جدوى فاستدرت دون ان انبت بكلمة ولكن في تلك اللحظة تراءت لي مؤنسة التي تنتظرني بغرفة الفندق وهي تلعب بجديها الصغير. في الواقع لست الآن كالماضي هناك واجبات ملقاة على عاتقي. علي أن أكافح لأكسب قوت ابنتي. انها واجبات الأمومة تقريباً تلك التي تربطني بالطفلة. لا بد من النضال في سبيلها. مر هذا في خاطري فاستدرت نحو المدير قائلة بصوت مشبع بالتوسل يشبه ضراعة المتوسل عندما يخفض رأسه فاتحاً كفه للمارة يطلب الاحسان: سيدي لا استطيع الانتظار يؤسفني ذلك ولكن ما العمل؟ موقفي حرج جداً ان لم تنقذوني بوظيفة التحق إليها حالأ... لم استطع متابعة الكلام لأنني اختنقت بعبراتي من شدة اليأس والخجل.

أجابني بنفس السرعة التي اعتادها: قلت لك يا هانم ليس هناك أي شاغر إلا في مدرسة (جاديرلي) ولكن لا ادري انها قرية رديئة كما يقال عنها. إذا أعجبتك عينتك إليها للحال، وإلا انتظري حدوث شاغر أحسن.

- ....

ـ هيا انا بانتظار جوابك يا هانم.

كنت اعلم بأن قرية (جاديرلي) أسوأ بكثير من الزينيات لكن ذهابي إليها أنسب من بقائي هنا أشهر طويلة أتسكع وأكون عرضة لشتى المهانات. خفضت رأسي وبصوت يشبه الأنين قلت: نعم. لكنه لم يسمع جوابي وقد حضر أحد الكتاب يعلن بارتباك شديد قدوم الضيف.

ألقى المدير بنفسه الى الخارج مسرعاً وهو يصلح هندامه. لم يبق أمامي سوى الانسحاب ولكن بينما كنت على أهبة الخروج سمعته يقول بالفرنسية: تفضلوا، أرجوكم الدخول.

تراجعت لأفسح المجال للزائرين. دخلت سيدة أجنبية ترتدي معطفا أنيقا لم أتمالك نفسي عن صرخة دهشة خفيفة ندت من بين شفتي عندما رأيت وجهها.... انها (كريستيان واره ز) زميلتي في الصف. تركتنا قبل سنتين لتتزوج من صحفي فرنسي أحبته. بدلتها السنون وأصبحت سيدة جميلة. سمعت صرخة الدهشة التي انطلقت

من فمي فالتفتت نحوي وما ان رأت وجهي من تحت النقاب حتى عرفتني ومسكت يدي تقول: آه يا عصفورة السياج! عصفورتي الصغيرة... أأنت هنا؟ يا لها من صدفة جميلة.

كانت كريستيان من أكثر الصديقات تقرباً وتحبباً إلي. لم تتبدل عانقتني بسرور واضطراب أجبرتني على رفع النقاب وأخذت تقبلني بشوق. كم كانت دهشة زوجها عظيمة حينما رآنا على تلك الحال، ولم تقل دهشة مدير المعارف عن الزوج. كنت أدير لهما ظهري لأخفي وجهي ولا أريهم دموعي واضطرابي.

ـ آه يا عصفورة السياج. كل شيء متوقع إلا رؤيتك هنا والدموع تملأ عينيك.

استعدت هدوئي قليلاً وحاولت سدل نقابي إلا انها حالت دون ذلك وأدارتني نحو زوجها قائلة: بيه ر! أقدم لك عصفورة السياج التي طالما حدثتك عنها.

كان الزوج طويل القامة اشقر اللون جميل الطلعة. لكنه كان فرنسياً بادي الطيش والرعونة. قبل يدي دون ان يكون أي داع لذلك وقال: انا سعيد يا آنسة. لا تنقطع كريستيان عن ذكرك. تحدثني عنك في كل فرصة. هناك صورة لطالبات الصف وانت بينهن وقد وضعت ذقنك على كتف كريستيان أليس كذلك؟ أترين كم أتذكر شكلك؟

أهمل الزوجان المدير تماماً وأخذا يتحدثان إلي. حانت مني التفاتة. فرأيت منظراً لو رأيته في الماضي لمت ضحكاً. دخل مع الضيوف أشخاص عديدون وشكلوا حولنا مع المدير حلقة. يتطلع الكل إلينا بدهشة واستغراب فاغرين أفواههم عجباً. ينصتون لحديثي بالفرنسية كالقرويين عندما يحضرون الى المدينة فتبهرهم الأضواء وخاصة إذا صادفتهم ألعاب السحر والشعوذة. والأغرب بان المهندس كان بينهم. ذلك الشاب الذي أتى مع المدير الى قرية الزينيات. وقد علمت مؤخراً بأن السيد يقوم بوظيفة دليل للضيوف.

وصل الرجل الى مبتغاه ورآني سافرة. طال حديثي ولم يكن بإمكاني التحجب او السكوت. ارتبك المدير من غرابة الصدفة وأخيراً انحنى بقامته القصيرة المضحكة وقال بفرنسيته الركيكة:

ـ أرجوكما الجلوس، لا ترهقا نفسيكما بالوقوف. ثم أراهما الأرائك فأصبح من المحتم علي الانصراف حالاً فقلت لصديقتي بصوت خافت: دعيني فلأذهب الآن.

لكنها جذبتني باصرار وشعر مدير المعارف بذلك فبدل معاملته لي وأراني أريكة وقال لي بالتركية: أرجو يا سيدتي ان تتنازلي بالجلوس قليلاً.

لم يسعني الرفض. أما كريستيان كانت تنظر إلي باستغراب ولا تفهم لوجودي هكذا بالملاءة مبالغة بالتحجب سبباً. أخيراً قالت لزوجها:

ـ بيه ر! لو تعلم من اي عائلة عريقة أصل فريدة. هذا ما يدهشني بينما كانت تمتدحني كنت اشعر بسرور يشوبه بالخجل. وكانت عيناي تقعان على المدير فأراه لا يستطيع التخلص من دهشته والمهندس القليل الذوق انكمش على نفسه في احدى الزوايا فاغراً فاه لا يبدي حراكاً، وبديهي بانني لم استطع التفت نحوه لكنني اشعر برعشة من نظراته الحادة المصوبة نحوي وهي تنصب كالسهام على وجهي وعنقي.

اردت وضع حد لهواجس كريستيان فقلت:

ـ لا مجال للاستغراب والدهشة. انا معلمة جئت بمحض اختياري لهذه المحافظة لأشبع في نفسي رغبة خدمة اطفال الأمة والبلاد.

قال الزوج بصوت قوي: ما أجمل وأنبل هذا الشعور. سأدون بإكبار في جريدتي مشاعرك القدسية. أرى ان الآنسات اللواتي تربين تربية عالية وأخذن قسطاً وافراً من الثقافة الاجنبية يجعلن أنفسهن وقفاً لخدمة بلادهن. ويتركن بمحض اختيارهن السعادة والرفاه في استانبول سعياً لأيقاظ الأناضول من كبوتها وسباتها. ما أسمى هذا الشعور وما أقدس هذه التضحية. اسمحي لي يا فريدة هانم ان أذكرك بصورة خاصة في مقالي مثالاً للآمال الواسعة والتضحيات الجلي التي تقوم بها سيدات البلاد.

قلت باضطراب: كريستيان إذا ذكر زوجك اسمي سأتألم منك الى الأبد.

لم تدرك سر طلبي وقال الزوج: تواضعك هذا أجمل وأكبر بكثير من الأعمال التي تقومين بها. جميل جداً يا آنسة هل استطيع ان أسألك عن اسم المدرسة السعيدة التي تعملين بها في المحافظة؟

قلت انفاً بأنني ما عدت أبالي بما يحدث وقد وقعت الواقعة فلذا استدرت نحو المدير أسأله بالتركية:

ـ أين كانت المدرسة التي كلفتموني العمل بها يا سيدي؟ أظنكم أمرتم الى قرية (جاديرلي)؟ احمر المدير خجلاً وقال للحال: أيمكن هذا يا سيدتي؟ أيمكن؟ ثم استدار نحوهما قائلاً بالفرنسية: ان الآنسة فريدة تدرس اللغة الفرنسية في دار المعلمات. تلطفت وقبلت الوظيفة كرماً منها.

تطلعت نحوه حيرى لا أفهم قصده فقال لي بالتركية: عينتك معلمة للغة في دار المعلمات براتب قدره (1500) قرشا. سأعطي امرأ بذلك للديوان للإسراع بإجراء المقتضى. تطلعت إليه بحيرة ودهشة فهز رأسه قائلاً: في الواقع انها وظيفة بسيطة أخجل من حضرتك بسببها ولكن ما العمل وليس باليد أحسن منها.

صدق المثل الذي يقول (لو كان نصف الشهر مظلما فان نصفه الآخر مقمر مضيء وجميل...). وهكذا الحياة فإنها تمنح السعادة والراحة بعد كل عناء وشقاء... ولكن ما كنت أحلم قط ان يظهر من هذا الظلام الحالك هذا النور المثير البراق... تراءى لي خيال مؤنسة ولكن ليس كفتاة فقيرة تلعب بجديها في غرفة الفندق، بل كفتاة حلوة تدير طارتها في حديقة دار جميلة تملأها الأزهار.



جذبتني كريستيان الى ناحية بعيدة قبل ان نفترق تسأل:

ـ كنت مخطوبة يا فريدة فلم لم تتزوجي؟

ـ ـ ....

ـ لم لا تجيبين؟ أين هو خطيبك الآن؟

خفضت رأسي وقلت بصوت كسير: توفى الخريف الماضي. أثرت كلماتي كثيراً بنفس كريستيان واغرورقت عيناها بالدموع وقالت: كيف ذلك؟ أحقاً ما تقولين؟ آه!

مسكينة انت يا عصفورة السياج... الآن علمت سبب فقدك مرحك القديم... وهذا هو سر العاصفة التي ألقت بك الى هذه الديار النائية الغريبة.

كانت يداها ترتجفان وهي تقبض على رسغي قائلة: كنت تحبينه كثيراً يا فريدة أليس كذلك؟ لا تخفي عني يا صغيرتي... وان لم تعترفي بذلك عندما كنا بالمدرسة إلا انه كان يبدو حبك جلياً في عينيك... وكنت اشعر بذلك تماماً... واستمرت على الكلام بعينين شاردتين وصوت ملتهب كأنها تستعرض حلماً بعيداً. على كل كان لك الحق بذلك... إذ ليس بالإمكان أبداً رؤية شاب مثله دون التورط بعشقه... كان يأتي أحياناً الى المدرسة ليراك... وكنت ألمحه في البهو من بعيد.. ما أجمل وجهه وكأني به أمام ناظري الآن أراه أمامي بقامته الجميلة ووجهه الصبوح... مسكين! طواه التراب وتلاشى ذلك الجمال واضمحلت تلك الوداعة والرقة.. أف! ليس هناك مصيبة أعظم من فجيعة شابة بحبيبها يموت بين أحضانها.



انا أرثو لحالك يا فريدة.. إذ ليس هناك مصيبة أعظم وأفجع من موت حبيب بين أحضان حبيبته.. أهناك صدمة أفظع من هذه؟ عندما سألتني ذلك خفضت رأسي وقلت بصوت مشبع بالألم: لك الحق فليس هناك مصيبة أعظم.. لأنني كنت اريد طوي البحث ولكنني كنت أكذب عليك يا كريستيان.. انا اعرف مصائب أدهى وأمر من الموت... لم تتألمين لشابة تفجع بموت حبيبها؟ ان لها سلوى تتعزى بها.. إذ انها عندما تصبح بعد أشهر او سنين وحيدة في بلدة تغلق عليها باب غرفة باردة كالثلج ولا تجد أحداً حولها يواسيها... بوسعها ان تتسلى باستعراض خيال حبيبها فيكون لها نعم القوة والسلوى.. تتعزى عندما تقول لنفسها: انطفأ نور ذينك العينين وذبل ذلك الوجه ولكن كانت آخر نظرة من عينيه لي... وانطبقت شفتاه على اسمي لأنه آخر كلمة نطق بها... ان ترابه ينطق بالأشياء التي حدثت لنا معاً ويتكلم بلسان قلبينا..

أما انا... فانني أسوأ طالعاً من أولئك الذين اغمض الموت عيون عشاقهم على آخر قبلة من فمهم يا كريستيان.

6 آذار - (ب)

بدأت العمل اليوم في دار المعلمات. أظن بأنني سأتعود بسرعة على حياة هذه المدرسة. على كل حال ان شكوت من الوظيفة الآن او ادعيت عدم إعجابي للمدرسة بعد الزينيات أكون قد أتيت شيئاً فرياً.. يظهر على الزميلات من أول نظرة بأنهن لسن رديئات... أما تلميذاتي فإنهن بسن تتقارب مع سني وبعضهن اكبر مني سناً لكنهن آنسات مهذبات عاقلات... وهناك مدير ذو عمامة اسمه رجب افندي.

عندما وصلت المدرسة أخذتني معاونة المدير رأساً الى غرفته وتركتني بالغرفة وحدي بعد ان قالت لي ان المدير ذهب منذ الصباح الى المديرية وانه آت بعد قليل. انتظرته نصف ساعة قضيتها بالتفرج من النافذة على الحديقة تارة، وبقراءة الايضاحات والتعليمات المكتوبة بخط رديء على لوحات معلقة فوق الجدران اخرى... وأخيراً جاء المدير داهمه المطر في الطريق فابتلت جبته الزرقاء. عندما رآني بالغرفة قال: أهلاً وسهلاً يا ابنتي... تلقيت خبر تعيينك الآن في المديرية... هنأنا الله جميعنا بك.

إن المدير ذو وجه مستدير ولحية خطها المشيب أما عيناه بها حور غريب كأني به يتطلع الى أطرافه على الدوام... تطلع الى جبته المبللة وقال: أف! نسينا أخذ المظلة سامحنا الله.. وهكذا عدنا مبللين.. يقولون بأن الأقدام تتحمل جريرة الرأس الفارغ ولكن هنا تحملت الجبة.. لا تؤاخذيني يا ابنتي.. سأجففها قليلاً.

واخذ يخلع الجبة عندما قمت أقول: لا اريد إزعاجكم يا سيدي فلذا سأعود فيما بعد.. وأردت الخروج ولكن أمرني بإشارة من يده بالبقاء وقال: لا! لا! أهناك كلفة ورسميات يا ابنتي؟ احسب انني والدك.. وكان يرتدي قميصاً من الأطلس الاصفر المقلم. سحب كرسياً نحو المدفأ وجلس يصطلي وقرب قدميه من النار وأخذ يكلمني

وكان صوته قوياً غريباً يرن كرنين الحديد تحت المطرقة. يتكلم بطريقة غريبة يقلب خلالها حرف (القاف) الى (غاء).

ـ انت طفلة تماماً... (ان هذه العبارة أصبحت تضايقني كثيراً لسماعي لها في كل مكان) سارت بالأمس أعمالك على أحسن ما يرام ولكن المحافظة على المنصب اصعب بكثير من اكتسابه. فلذا عليك السعي للاحتفاظ بمركزك.. أما انا فان معلماتي كأنهن أولادي تماماً.. والمهم عندي ان يكن جديات للغاية.. ارادت إحداهن الشذوذ فأعطيتها جوازها للحال وأخرجتها قبل ان تعلم المديرية بذلك نعم ألقيها الى الخارج لأنني أكره الأعمال الشاذة وأحب الجد والنشاط... أليس كذلك يا شهناز هانم؟ قولي.

ان شهناز هانم معاونة المدير هي امرأة في منتصف العمر لها ملامح المرضى لا تستطيع التكلم بدون سعال لاحظت بأنها تريد ان تقول شيئاً منذ برهة لكنها لا تجد مجالاً لذلك وها قد لاقت رغبة من المدير في الكلام فأخذت تقول بعصبية ظاهرة:

ـ نعم! نعم.. هذا ما حدث وكأنها لا تريد إفلات فرصة الكلام تابعت حديثها تقول لم أستطع إرضاء العمال بأقل من ريالين ماذا تأمر ان أصنع؟

قام المدير من محله وكأنه اشتعل من أسفل قدميه التي كان البخار يتصاعد من نعلي الحذاء المبلل وقال:

ـ استغفر الله!.. انا رجل عصبي مجنون.. ان جن جنوني لا أتورع من حمل الأغراض على ظهري وإيصالها بنفسي... قولي لهم بانني لا أدفع اكثر من 25 قرشا.

وبعدها استدار نحوي يقول: هل ترين عيني؟ يعلم الله بانني لا أبادل نظراتهما الجانبية بألف ليرة.. إذ لو تطلعت هكذا لأطرت العقول.. اعني أريدك ان تكوني على حذر أريدك أديبة.. لا تقصري بواجبك.. يا حضرة المعاونة هل حان وقت الدرس؟ الدرس؟

ـ نعم يا سيدي... دخلت التلميذات صفوفهن.

ـ هلمي يا ابنتي لأقدمك للتلميذات.. ولكن لا! اذهبي واغسلي وجهك هذا جيداً.

قال المدير كلماته الأخيرة بخجل وقد خفض صوته.. دهشت جداً لذلك، ترى هل هناك شيء على وجهي؟ ونظرنا انا والمعاونة الى بعضنا وكانت دهشتها لا تقل عن دهشتي وأخيراً قلت: أهناك شيء على وجهي يا سيدي؟ فأجاب: ان رغبة النساء بالأصباغ والزينة ميل فطري.. ولكن دخول المعلمة الى الصف بوجهها المصبوغ لا يجوز بأي حال.. واليوم أمر علي الملاحظة هذه بشكل أبوي.. أما فيما بعد... قلت له بحيرة وخجل، أما هذا فليس بي يا سيدي المدير إذ انني لم أدهن وجهي بشيء طيلة حياتي. وكان يحدجني بنظرات قاسية وهو يقول: أصحيح ما تقولين؟ أصحيح ما تقولين؟ أخيراً اتضح لي الامر ولم استطع ضبط ضحكاتي العالية وانا أقول: انا مثلك أشكو من هذه الأصباغ يا حضرة المدير ولكن ما العمل وقد صبغها الله تعالى ولا استطيع بشكل محوها وإبادتها ضحكت المعاونة علي وقالت: ان هذا لون الهانم الطبيعي يا سيدي.

والآن عرفت سر عدوى قهقهاتنا للمدير.. لكنه يختلف بضحكه عن جميع الناس إذ بينما كان يتعالى ضحكه تخرج الضحكات رنانة قوية من حلقه (ها. ها. ها) وهو يقول:

حقاً غريب.. طبيعي إذاً؟ إذا أعطى الله أعطى بسخاء.. هل رأيت بريقاً كهذا البريق يا حضرة المعاونة؟ أرى يا ابنتي ان أمك أرضعتك الورد والسكر بدل الحليب.. ها.. ها.. لله! ما أجمل هذا.

لا بد ان رجب أفندي هذا شخص ظريف الفته بسرعة. لبس المدير جبته الزرقاء التي ما زالت الأبخرة تتصاعد منها كالدخان واستعد لأخذي الى الصف وما ان رأيت تلميذاتي من نافذة الممر حتى خفق قلبي.. رباه! ان بهذا الصف الكبير ما يقارب الخمسون تلميذة وإنهن جميعا شابات يقاربنني سناً.. وكأنني كنت أذوب تحت نظراتهن التي سددت إلي.. فلو تركني المدير بتلك اللحظة تماماً لأغمي علي للحال.. لكن الله ستر لأنه بقي حباً بتكريمي وقال: هلمي يا ابنتي واصعدي لمقامك.. وبعد ان أجبرني على ارتقاء المنبر بدأ الخطابة المطولة.. ومن جملة أقواله: لا ادري لماذا نتوانى

باقتباس العلوم الحاضرة في الغرب بعد ما اخذ الغرب الطب والكيمياء والفلك والرياضيات من العرب.. ان الدخول لخزائن الغرب والاستفادة من علومهم أمر ضروري مقدس لا يكون بالمدفع والنار بل يكون باللغة واللسان.. نعم ان مفتاحه اللسان وحده. أخذ الحماس المدير وبدأ يصرخ بصوت قوي النبرات يرن في انحاء الصف وهو يشير إلي. ان مفتاح تلك الخزائن خزائن ممالك العلم والعرفان هنا عند هذه الآنسة التي لا تزيد عن حجم الأصبع.. لا تنظرن الى هيئتها ان بداخلها الجوهر كله.. مليئة ما شاء الله.. التصقن بها واقبضن على خناقها وخذن منها كل شيء أعصرنها كالليمونة.

كنت اشعر بنوبة من نوبات ضحكي الملعونة وأكاد أموت خوفاً ان يفلت زمام الأمر من يدي فتنفلت ضحكاتي... آه يا ربي. سأذوب خجلاً.. انني لأول مرة ضبطت نفسي وتجرأت على التطلع على من حولي.. كن أيضاً يتضاحكن. وهكذا كانت اول نظرة تبادلتها مع تلميذاتي ابتسامة حلوة رقيقة واعتقد بان تلك النظرة او بالأحرى تلك الابتسامة الهادئة هي التي ربطت قلوبنا برباط الألفة والمحبة. وأخيراً استرعى ازدياد الضحك انتباه المدير.. فضرب بقبضته الكرسي حانقاً.. وحدج التلميذات بنظرة قاسية في عينيه التي يدعي بعدم قبوله استبدالهما بمال الدنيا وقال: ما هذا؟ ما هذا؟ ان أعطيتن قليلاً من المسامحة طلبتن المزيد وخرجتن عن طور الجد والسكوت، أغلقن أفواهكن بسرعة.. لمَ تفتحن أفواهكن كرؤوس الخراف المسلوقة؟

لم تبال التلميذات كثيراً بكلامه.. والحق انني فزعت أكثر منهن. دامت الخطابة ربع ساعة تقريباً وكلما ازداد الضحك ضرب رجب أفندي الكرسي بقبضته وقال: لماذا تفتحن أفواهكن سأحضر (الفلك) هاا انتبهن.. يقول ذلك بلهجة تحمل بين طياتها المزاح والجد والتهديد. وأخيراً قال: اقبضن عليها جيداً ولا تعتقنها وان لم تأخذن علمها كله وتعصرنها كالليمونة فليكن والديكن ووطنكن وما تأكلن حراماً وسماً عليكن. ثم انصرف خارجاً من الصف. لم أفكر قط لصعوبة الدقيقة الاولى التي سأقضيها وتلميذاتي. ان عصفورة السياج التي لا تكل عن الثرثرة من الصباح حتى

المساء، سكتت كالبلبل الذي أكل التوت.. وأصبح دماغي خاويا فارغا لا أجد كلمة أقولها ولم استطع ضبط نفسي.. فضحكت بدون اختيار وظنت التلميذات لحسن الحظ بأنني ما زلت اضحك لخطاب المدير فتطلعن إلي وأخذن بالابتسام.. عندها عاودتني الجرأة ولمت شعث نفسي وبدأت الكلام:

أيتها الآنسات! لدي القليل من اللغة الفرنسية.. سأكون سعيدة جداً لو استطعت إفادتكن بها. فك السحر وانحلت عقدة لساني بدأت أتكلم دون عناء وانا اشعر بألفة تدريجية تتزايد بيني وبين تلميذاتي. "يا لها من سعادة ان اقول لتلميذات شابات يا بناتي" كن يبالغن أحياناً بالضحك.. لا يهمني ذلك ولكن لو سمع رجب أفندي ذلك والعياذ بالله فهناك الطامة الكبرى..فلذا وجدت من الضروري إبداء ملاحظة بهذا الخصوص فقلت: أرجوا ان لا تتعدى ضحكاتكن الابتسام.. وان كان لا يوجد بيدي الشيء الذي سماه المدير بـ (المفك) إلا انني أتأثر منكن. والحاصل قضيت درسي الاول بسرور.. واقتربت مني احدى التلميذات وانا خارجة تقول بأن المفك الذي يحكي عنه المدير ليس سوى مفك المسامير الذي طالما توعد المدير به التلميذات عندما يبالغن بالضحك وقال: سأخلع أسنانكن بالمفك.

12 آذار - (...)

انا ممنونة من تلميذاتي جداً جداً.. أحببنني بشكل لا يتركنني حتى بالفرص. أما زميلاتي فالحقيقة بانني لا استطيع الشكوى منهن أبداً.. وإن كان لا يخلو الامر من وجود من تحدجني بنظرات قاسية وتجمع زميلاتها فتتكلم هامسة وتلقاني ببرود ولكن ليس هذا بذي بال.. إذ هل يستطيع المرء ان يتحابب مع أفراد أسرته كلهم على السواء؟. هناك زميلتان خريجتان من دار المعلمات في استانبول أعجبت بهما أكثر من الكل تدعى إحداهما (نزيهة) والاخرى (وصفية) وإنهما من بنات استانبول المرحات.. لا تفترقان عن بعضهما أبداً لكن المعاونة شهناز هانم أوصتني بان لا أكون على اتصال دائم معهما. لا ادري السبب لذلك.. وهناك اثنتان اعرفهما من قديم احداهما تلك التي دافعت عني بمدرسة رشدية المركز تلك النحيلة ذات العينين السوداوين اللتي

مرة في الاسبوع. انها الزميلة الوحيدة التي لا تخشى نظرات المدير بل بالعكس فالمدير يتجنبها وكثيراً ما ينفض ياقة جبته الزرقاء قائلاً: كفانا الله شرها... يعلم الله بانني لا أستريح إلا إذا صرفتها من هنا. والثانية أعرفها أيضاً وهي معلمة كبيرة السن تضع النظارات على عينيها.. كنت أراها كثيراً في القطار عندما كنت في استانبول وأظنها كانت معلمة في الضواحي القريبة مثل (كوزتبة). وهي تذكرني أيضاً وتحدجني بنظراتها وتقول: لله ما أغرب هذا الشبه.. كنت أرى في القطار باستانبول تلميذة شيطانة تشبهك بشكل غريب.. لكنها على الأغلب كانت أجنبية. كانت لا تترك شيئاً لا تعمله ولا تدع انساناً يرتاح من شرها. تضحك الركاب كثيراً. كنت أجيبها وانا أتطلع الى الارض: يحتمل فالشبه كثير بين الناس.

هناك بعض المعلمين أيضاً.. زاهد أفندي معلم الدين رجل عجوز وعمر بك معلم الجغرافيا أمير آلاي متقاعد.. وهناك معلم للخط لا اعرف اسمه، وأخيراً معلم الموسيقى الشيخ يوسف أفندي.. وهو الشخصية المهمة الوحيدة ليس بالمدرسة فحسب بل بكل محافظة (ب). كان يوسف أفندي شيخاً يعتنق طريق المولوية، مرض قبل بضع سنين.. وأظن المسكين مصدوراً.. حكم الأطباء بموته إن بقي في بلده فلذا أتى مع أخته الأرملة الى (ب) قبل سنتين يعيشان سوياً بسكون في دار صغيرة.. ويتحدث عن تلك الدار الصغيرة عارفوها فيقولون بأنها تشبه متحف موسيقى إذ تحوي كل نوع من الآلات، لأن الشيخ ملحن قديم.. له قطع موسيقية لا يستطيع المرء سماعها دون الاسترسال بالبكاء والتحسس بما سمع.

رأيته أول مرة في يوم بارد ممطر.. كنت خرجت فيه مع التلميذات الى الحديقة لألعب معهن بحجة تعليمهن الكرة الطائرة وتسليت كثيراً. وعندما عدت من الحديقة كان قميصي الاسود مبتلاً (ويجب ان لا يسهى عن البال بأن القيافة التي اخترعتها سرت على مهلها في المدرسة ليس بين المعلمات فحسب بل بين التلميذات أيضاً). يعترض المدير على لون القميص قائلاً: لا يجوز للإسلام ارتداء الاسود فالأنسب ان تكون القمصان خضراء. وإننا نتخلص عن قبول تكليفه بداعي انها سريعة الاتساخ.

كان في غرفة المعلمين مدفأة صيني كبيرة تتقد.. فدخلت بين الجدار والمدفأة وقد أدخلت يدي في جيبي قميصي أجففه.. فتح الباب ودخل رجل طويل القامة نحيل الجسم يتراوح عمره بين الخامسة والثلاثين والأربعين عاماً يرتدي الملابس العادية المألوفة. لكنني رغم ذلك أدركت بأنه لا بد ان يكون الشيخ يوسف أفندي الذي يتحدثون عنه دائماً ويحبونه كثيراً هنا في المدرسة. التفت المعلمات حوله واخلعنه معطفه فاتخذت من اسطوانة المدفأة هدفاً أتأمله من خلفها. كان رجلاً وديعاً وظريفاً.. يظهر على وجهه الشحوب الذي يتراءى غالباً على وجوه المرضى المحكومين بالموت، يشوبه بياض شفاف لطيف.. ان ذقنه الدقيقة الشقراء، وعينيه الزرقاوين الساكنتين كانت تذكراني بتماثيل المسيح المنصوب في ممرات مدرستي النصف مظلمة.. أما حديثه فكان والحق يقال ممتعاً بشكل لا يجد السامع مجالاً للضجر من سماعه. كان ظريفاً ولبقاً لا يمل المرء من الانصال به. إن في صوته الهادئ الساكن نغمة شكوى خفقة، تشبه الشكوى الحزينة التي تشوب صوت طفل مريض حكم عليه بالموت. كان يشكو لزميلاتي اللواتي تجمعن حوله من المطر والطقس البارد طويلاً ويصرح بتلهفه واشتياقه لأيام الصحو والشمس. التقت عيناه لحظة بعيني فشرد ببصره يريد التأكد من ملامحي.. ثم سأل قائلاً:

من هي هذه الآنسة؟ أهي تلميذة في المدرسة؟

تطلعت الزميلات جميعاً نحوي ثم قالت وصفية ضاحكة:

- عفوك يا سيدي لقد نسينا تقديمها إليك.. انها معلمة اللغة الفرنسية التي جاءت مؤخراً الى المدرسة واسمها فريدة هانم.

حييته برأسي قائلة: انا مسرورة جداً للتعارف بملحننا الكبير. ان أرباب الفن يكونون مرهفي الحس جداً تؤثر جمل كهذه على شعورهم كثيراً. علت حمرة خفيفة بشرته البيضاء الناحلة وأحنى رأسه وقال وهو يعرك يديه: انا لست قانع بانني أوجدت أثراً يليق بي لأجله ان اسمي ملحناً وان كانت هناك مزية في قطعي القليلة التي وجدتها

هي انها تكن أسى عميقا وألما مكبوتا لقلب عليل... . إنني أحب يوسف أفندي هذا كأخ كبير تماماً.

15 آذار - (ب..)

نلت أملاً كبيراً من آمالي الواسعة. فأصبح لي بيت جميل نظيف منذ الأمس استأجرها لي الحاج قلفة وفقه الله.. تبعد عن داره مسيرة دقيقتين او ثلاثة.. في طرف الوادي ايضاً.. هي دار ظريفة لها حديقة صغيرة وثلاث غرف صغيرة وأحسن ما بالأمر أنهم أجرونيها مفروشة.

سررت ومؤنسة كثيراً بالدار وفكرنا بتنظيفها وترتيبها ولكن أنى لنا ذلك وقد قضينا الوقت بالتراكض خلف بعضنا من الحديقة الى الغرف نلقي بعضنا أرضاً نتضاحك.. والمسكينة مؤنسة تكاد لا تصدق ما تراه عيناها تحسب نفسها في قصر منيف. إلا ان مظلوم_ وهو اسم الجدي_ الذي أتانا به الراعي محمد أخافنا قليلاً، لأن الشيطان خرج من باب المطبخ المفتوح على الحديقة وبعده هرب الى المرج المحاذي للنهر.. والنهر في واد عميق بطول مئذنة والعياذ بالله فلو تزحلقت رجله لوقع في النهر حالاً. ولكن أرى ان هذه الحيوانات تعرف أين تضع أقدامها أحسن مني بكثير و... والحاصل شعرنا بكثير من الفزع والاضطراب الى ان استطعنا إدخاله الى الدار.

نعم انا مسرورة من دارنا وكذا مؤنسة أيضاً.. حتى إنها تلمس بلاط البهو بخدها وتداعب رسوم الجدران وأزهارها بفرح إلا إننا نشعر بحزن في المساء عندما يحل الظلام.. لأن هناك آباء وأزواج وأخوة يأتون حاملين الأغراض والمآكل لدور الجيران.. أما نحن فلا أحد يدق بابنا في ذلك الوقت وسيكون هذا دائماً والى الأبد.

ما أجمل ربيع هذه البلدة! اكتست الأطراف بالخضرة، وتفتحت بحديقتي ألوان متنوعة من الزهور وتسلقت على نافذة غرفتي الحشائش الجميلة. وبالأخص المرج الذي أمام الدار اخضر فأصبح بساط سندسي جميل وبين تلك الأمواج من الخضرة شقائق النعمان كأنها جراح حديثة العهد تسيل دماؤها.. أقضي أوقات فراغي كلها

بالحديقة اركض مع مؤنسة نلعب بالحبل تارة ونلاحق بعضنا اخرى، وعندما نشعر بالتعب أبدأ الرسم وتلقي مؤنسة نفسها مع جديها على حشائش المرج لتستريح. استيقظ ذوق الرسم في نفسي من جديد ومنذ أيام أعمل صورة لمؤنسة بالدهان المائي فالشيطانة لو تقف ساكنة لانتهت الصورة بسرعة لكنها تتضايق من السكون كثيراً ويصعب عليها جداً ان تجلس مدة بدون حركة تعانق جديها بذراعيها العاريتين وقد طوق شعرها بهالة من الأزهار البرية.. وكثيراً ما يبدأ مظلوم الحركة ويعمل برجليه النحيلتين للهرب من بين أحضانها.. وعندها تقول لي مؤنسة والله يا أختاه انا اريد الوقوف بدون حركة لكن مظلوم لا يهدأ.. ماذا اعمل؟.. ثم تهرب فاغتاظ واهددها بيدي قائلة: هل تفكرين بأنني اجهل شيطنتك؟ انت تعاكسين الحيوان عمداً حباً بالهرب.

أظن ان دروسي في المدرسة تسير بانتظام والمدير ممتن كثيراً. إلا انه يتأثر مني احياناً فيقول: سأجلب لك (الفك) انتبهي.. فأقول له: ان شفتي العليا قصيرة قليلاً ولذا يهيأ لك انني أضحك حتى في أيامي الأكثر جداً ورزانة. لا ادري السبب لرغبة المدير وميله لدروس اللغة.. احضر كتاباً لمبادئ قراءة قديم وبدأ يهجي الحروف في بعض الأحيان ويسألني معنى الكلمات ويدونها بالقلم الرصاص على حواشي الكتاب. قطعت شوطاً كبيراً في صداقتي مع الشيخ يوسف أفندي. أشعر بميل كبير في قلبي لهذا المريض اللطيف الرقيق. ما أرق الاشياء التي يحدثني عنها بصوته العذب المشبع بالألم المكبوت. جرت حادثة غريبة قبل عشرة ايام، هناك صالة متروكة بالمدرسة ملأى بالأثاث البالي. دخلتها في ذلك اليوم لآخذ لوحة وكانت مظلمة لأن خشب النوافذ مغلق. وبينما كنت أتلفت حولي رأيت في احدى الزوايا ارغناً جللته الغبار لمرور الزمن على وجوده في ذلك الركن بدون استعمال وفجأة استيقظ في داخلي حنين حلو حزين لانني قضيت ألذ وأحلى ايام طفولتي بين نغمات الأرغن. ذهبت نحوه وانا أرتجف كأنني اقترب من قبر حبيب مهجور وقد نسيت السبب الأصلي لمجيئي الى الصالة، ونسيت أيضاً أين انا في تلك اللحظة. ضغطت بأصابعي على احد احجاره

فتصاعد من الأرغن صوت عميق كأنه أنة صدر مكلوم.. واه لذلك الصوت!. سحبت كرسيا وجلست امام الأرغن دون ان افكر بأي عمل ينتظرني واخذت اعزف قطعة من القطع المحببة الى قلبي بهدوء وسكون. سبحت في عالم آخر وأخذت أنسى نفسي بين أنات الأرغن.. أدفن بين انغامه حلماً ثقيلاً طالما أرهقني بآلامه وأشجانه. وتفتحت أمام ناظري أبهاء المدرسة النصف مظلمة، تمر زميلاتي قوافل متعاقبة بملابسهن المدرسية السوداء وشعرهن القصير المقصوص. لم أشعر بالزمن الذي قضيته ولا ادري القطعة التي أعزفها لانني استرسلت بكليتي وسبحت في أحلام الايام الماضية التي قضيتها بقلبي وقالبي سمعت ورائي أنة تشبه حفيف أوراق الشجر عندما يلامسها النسيم. فارتعشت قليلاً وانا أدير رأسي.. تراءى لي بالظلام وجه الشيخ يوسف أفندي الحزين وقد أسند ظهره على خزانة مكسورة وأحنى رأسه يستمع الى عزفي وبعينيه الزرقاوين حزن عميق صامت. وما ان رآني وقفت حتى قال: تابعي عزفك يا ابنتي.. استمري أرجوك. لم أحر جواباً بل أحنيت رأسي فوق الأرغن وتابعت العزف حتى جف سيل الدموع المنهمر من عيني واستعدت السكينة والهدوء. عندها توقفت تعبة منهوكة وما زال في صدري بقايا أنة مكبوتة.

ـ ان في نفسك استعداداً قوياً وعميقاً للموسيقى يا فريدة هانم. تحملين بين جنبيك قلباً رقيقاً حساساً وانني أعجب كثيراً للحزن العميق الصامت الذي تشعرينه رغم ما يبدو منك بروح طفلة صغيرة.

فأجبته وانا أسعى جهدي للتظاهر بعدم المبالاة:

ـ ان هذه القطع هي النوع الحزين ويدعونها (كانتيك) يا سيدي.. والحزن كامن بالقطع التي أعزفها لا بنفسي.

لم يصدق يوسف أفندي كلامي بل هز رأسه قائلاً:

ـ انا لا أجرؤ على الادعاء بانني أستاذ بالفن لكنني لا أغلط قط بالحكم على المزايا التي تحويها القطعة واشعر بالمشاعر التي تصدر من الملحن والتي تصدر من العازف الفنان ولا أخلط أبداً بينهما.. فهناك اهتزازات تأتي من الأصابع كالأنغام ولا تصدر إلا

من قلب حساس دفن الحزن في داخله.. هلا سمحت لي بنوتة هذه الأنغام الحزينة التي تسميها (كانتيك) يا آنستي؟

ـ هذه أنغام سرقتها بالسمع يا سيدي.. وليس لها نوتة عندي.

ـ لا بأس.. في احدى الفرص تعزفينها ان أمرت على الأرغن وانا اضبطها على دفتري. اشتريت قبل مدة أرغناً كان يباع في تركة راهب متوفي لأنني أميل بغريزتي للآلات الموسيقية يا آنستي. وقد وضعته في احدى زوايا داري.. وكم أرغب بعزف هذه القطع عليه.

خرجنا من الصالة نتكلم وعندما افترقنا وعدني الشيخ قائلاً:

ـ هناك قطع حزينة صادرة من أعماق قلب متألم لم أعزفها لأحد.. لأنني واثق من عدم استساغهم لها. سأعزفها لك في يوم من الأيام ان شاء الله يا آنستي.. ألا تقبلين؟

ان هذا الحادث زاد من الصداقة التي بيني وبين الشيخ. لم أسمع بعد القطع التي وعدني بها لكنني أؤكد بأنها قطع جميلة شاعرية للغاية وانني أظن بأن هذا الشيخ المريض المرهف الحس لو لمس قطعة خشب لأخرج منها انيناً لذيذاً ونفحاً شائقاً حزيناً. اتت بالأمس تلميذة بعود وطلبت إليه معاينته لأنها تود شراءه وقد لبى طلبها وأخذ العود بين ذراعيه وما ان لمس الأوتار بأطراف أنامله حتى شعرت بان تلك الأصابع النحيلة لا تلامس العود وحده بل انها تلامس الأعماق من نفسي.

5 نيسان - (ب..)

أتيت بالأمس ذنباً كبيراً أرتعد خوفاً كلما توقعت اكتشافه. انا عارفة بأن ما عملته ذنباً ولكن ماذا اعمل؟ لم استطع الوقوف مكتوفة اليدين.اعتادت المعلمات البقاء ليلة في الأسبوع بالمدرسة بالتناوب وكانت الليلة الماضية نوبتي.

كنا ندور المدرسة خلال المطالعة المسائية مع شهناز هانم المعاونة فلاحظنا نقص الإضاءة في احد الصفوف فدخلنا نستطلع السبب. والمعاونة سيدة مدبرة عاقلة تستطيع القيام بكل عمل.. أخذت كرسياً واعتلت فوقه لمعاينة المصباح وبهذه الآونة

دخلت الخادم من الباب وبيدها كتاب لتلميذة تجلس في المقاعد الأخيرة وهي تريد إيصاله لها. وبينما كنت على وشك إيصاله لها استدارات المعاونة فجأة تقول:

- انتظري يا عائشة.. ما هذا الذي بيدك؟

- لا شيء سوى كتاب أودع البواب باسم جميلة هانم.

- أعطنيه.. كم مرة نبهتكم على وجوب اطلاعي أولاً على الكتب التي ترد للتلميذات. يا لك من امرأة عديمة العقل.. فارغة الرأس. عندئذ حدثت حركة غريبة إذ ارتمت جميلة على الخادم وخطفت الكتاب من يدها ونادتها المعاونة بسكون دون إظهار أي غضب او امتعاض:

- تعالي الى هنا يا جميلة. لكن جميلة لم تتحرك من مكانها.

- انا أطلب منك الحضور يا جميلة فلم لا تطيعين؟

كان بصوتها رنة أمر قاسية ارتجفت لها. خيم السكون على الصف بدرجة لو طارت ذبابة لسمع طنينها. خفضت جميلة رأسها وأخذت تسير نحونا بتمهل وسكون. وهي فتاة يتراوح سنها بين السادسة والسابعة عشرة جميلة الطلعة كنت أراها دوماً تتهرب من زميلاتها وتنزوي في ركن من الحديقة وحيدة تسرح بالفكر حتى شعرت من ملامح وجهها بأن المسكينة تعاني ألماً دفيناً. فر الدم من وجهها وتقلصت شفتاها وبانت صفراء شاحبة. وقفت أمامنا وهي ترتعد بشكل عصبي غريب يرتجف جفناها لا تكاد تستطيع السكون.

- جميلة! أعطني الكتاب.. وأخذت المعاونة تضرب برجلها الارض بعناد وإصرار وهي تقول : هلمي ماذا تنتظرين؟

- لماذا يا معاونة هانم لماذا؟

فكان يشتم من كلمة (لماذا) رائحة العصيان واليأس بشكل غريب. مدت المعاونة يدها بخشونة وقبضت على يد البنت وأخذت الكتاب منها بشدة وصرامة وبعدها قالت: هلمي واذهبي الى محلك الآن. وبدأت تقطب حاجبيها وهي تدير طرفها على الغلاف. وبحركة آلية لمت شعث غضبها وخاطبت التلميذات المضطربات فقالت:

ـ ان الكتاب من شقيق جميلة المسافر في سوريا.. لكنني سأبقيه معي حتى الغد جزاء عدم طاعتها وترددها في إعطائه لي في الحال.

عادت التلميذات الى المطالعة وبينما كنت أخرج مع المعاونة حانت مني نظرة خفية على الصف فرأيت التلميذات البعيدات عنا يهمسن لبعضهن بأشياء لم اسمعها. أما جميلة فقد اخفت رأسها بين دفات طاولة المقعد وقد بان ارتعاش كتفيها جلياً.

قلت للمعاونة في الممر ونحن نسير: كان جزاؤك ثقيلاً جداً كيف يمكنها الانتظار حتى الغد؟ ما أصعب الانتظار.. يعلم الله ما هي عليه من الاضطراب.

ـ لا تشغلي بالك يا ابنتي.. انها واثقة بأنها لن تقرأ الكتاب أبداً.

ـ كيف ذلك يا معاونة هانم؟ ألا تعطوها الكتاب الذي جاءها من أخيها الكبير؟

ـ لا يا ابنتي.

ـ لماذا؟

ـ لأنه لم يأتها من اخيها.

وخفت صوت المعاونة وهي تستمر على القول:

ان جميلة ابنة عائلة طيبة.. أحبت ملازماً شاباً وقد شعر أهلها بذلك هذا العام.. لكن أباها لا يقبل بزواجها منه على أي حال وإنها لذلك في المدرسة وفي الدار تحت المراقبة الشديدة. سعوا لنقل الملازم الى (باندیرمه) ونحن هنا ساعون لمعالجة الطفلة على مهل. إلا انه لا ينفك من تجديد جراح المسكينة بتدوين الرسائل لها. وهذا هو الكتاب الثالث الذي يقع في يدي.

وصلنا الى غرفة المعاونة ونحن نتكلم وما ان دخلنا الغرفة حتى دعكت المعاونة الكتاب بغضب ظاهر ورفعت غطاء المدفأة وطوحته فيها.



مضى الهزيع الأول من الليل وانا في غرفة المعلمات عبثاً أحاول النوم أتقلب في السرير غارقة بالأفكار واخيراً قرّ قراري فخرجت الى البهو وأرسلت الخادم الى الطابق السفلي

بحجة قضاء حاجة ثم دخلت الى غرفة المعاونة وكان القمر يضيء الغرفة من النافذة التي تركت ستائرها مفتوحة. رفعت غطاء المدفأة وانا أرتعد كلصوص الليل وفتشت بين كومة من الاوراق المزقة على كتاب المسكينة جميلة وأخيراً عثرت عليه فرفعته من بين أكداس الاوراق المهملة الملقاة في المدفأة.

يطيب لي جداً ان أغدو وأعود في ليالي نوبتي بين ممرات المدرسة المظلمة المقفرة. أغطي هنا تلميذة ألقت الغطاء بعيداً عن جسمها الصغير.. وأنظم هناك وسادة تلميذة مريضة تسعل وهي نائمة بينما أداعب رأسها المحموم بيدي. وبالجانب الآخر رأس غارق في كومة من الشعر الذهبي البراق استرسلت صاحبته بنوم عميق وقد بانت على محياها ابتسامة مشرقة مضيئة أسأل نفسي لمن عساها تكون تلك الابتسامة؟

أما الليلة فكنت أسير على أطراف أصابعي كيلا أوقظ البنات من أحلامهن الحلوة وقلبي يرتجف خيفة مما أنا قادمة عليه. كنت أسير وأسير الى ان وصلت الى سرير جميلة فوجدت المسكينة نائمة ولم تجف بعد قطرات الدمع على خديها الشاحبين. فبانت على أهدابها تبرق.

اقتربت منها وانحنيت عليها أقول: أيتها الطفلة الصغيرة السعيدة كم يكون سرورك عظيماً عندما تجدين في الغد كتاب حبيبك في جيبك تتساءلين عن الملاك الرحيم الذي وضعه لك بعد ما ضاع منك. جميلة انه ليس بملاك.. بل هي مسكينة فجعت بحبها وقلبها.. وقد أحرقت بيدها كتب الظالم الذي تنفر منه في ليلة سوداء. أحرقتها بيدها وأحرقت معها قلبها المثخن بجراح الفجيعة فأحالت الكل رماداً.

10 أيار - (ب..)

انقطعت الدروس بالأمس وستبدأ الفحوص بعد ثلاثة أيام. خرجت مدارس بنات محافظة (ب..) جميعا اليوم لرحلة قرب نهر يبعد مسيرة نصف ساعة عن البلدة ابتهاجاً بعيد الزهور والربيع. اصبحت أكره النزهات بهذا الشكل الاجماعي فلذا قررت عدم الذهاب وقضاء النهار بنزهة في حديقتي. لكن مؤنسة متلهفة للذهاب وقد زاد

لهفها عندما سمعت أناشيد البنات. بينما كنت أسعى لإرضائها دق الباب ورأيت خمسة من زميلاتي يدخلن. إحداهن وصفية (الفاتحلية) والباقيات اربعة من تلميذات الصف الأخير بالمدرسة.

كانت وصفية موفدة من قبل المدير وقالت بأن رجب أفندي يصرخ غاضباً "استغفر الله انا أعددت محشو الخروف خصيصاً لها وزدت الحلوى على ذلك.. ما هذه السخافة؟ لا يجوز ذلك.. لا يجوز أبداً". أما التلميذات فقد جئن باسم طالبات الصف الأخير وقلن بإصرار وعناد: ان لم تذهب دودة الحرير فلن نذهب بأي حال (ان دودة الحرير هو اسمي الجديد). لم نكد نخلص من عصفورة السياج حتى شاع اسم دودة الحرير. والفظيع بأن تلميذاتي لا يتورعن من مناداتي بهذا الاسم وعلى مسمع مني.. اقسم بأن هذا يثير كبريائي وأنفتي لأنه ينتقص من وقار معلميتي.. ولو بقي الاسم ضمن المدرسة لهان الأمر وخفت شكواي، ولكن شاع في الخارج بشكل غريب. قبل مدة كنت مارة أمام احدى المقاهي فصرخ شاب تلوح عليه أمارات الثراء _وقد علمت مؤخراً بأنه من أعيان البلدة ومن تجار الحرير فيها_ عندي ثمان حدائق توت أفديها في سبيل دودة حرير كهذه. خجلت جداً وتمنيت لو انشقت الارض وابتلعتني.. ولم أمر ثانيا من ذلك الحي.

فكرت ملياً بأمر النزهة ولم أر بدأ من ارتداء ملاءتي والذهاب معهن إذ لم يعد هناك مجال للرفض والتهرب ولو رفضت بعد حضورهن لسخر الجميع مني وحملوها محمل الغنج والدلال.

كانت التلميذات الصغيرات بالملابس البيضاء.. وقد استحالت شواطئ النهر الى مرج من البابونج. ما أكثر مدارس البنات في هذه البلدة!. ان جيوش البنات الجرارة بأصواتها الناعمة وهي تنشد الأناشيد المدرسية لا تعرف الانتهاء والخلاص.

انسحب الرجال الى الشاطئ الآخر من النهر حيث اجتمعوا تحت الأشجار ولم يبق بيننا سوى رجب أفندي بجبته الزرقاء.. يدور بيننا حاملاً مظلته السوداء الكبيرة

اتقاء حرارة الشمس يعطي الأوامر للطباخين الذين يطبخون الطعام على مواقد بنوها من الحجارة والطين خصيصاً لهذا اليوم.

وقفت المعلمات والتلميذات لإبعاد المدير عنهن ليتسنى لهن خلع ملاءاتهن والتسلي كما يشأن وتشاء ظروف النزهة. أرسلوه الى قسم الرجال ولا ادري لماذا لا استطيع التسلي بهذا النهار ولم اشعر بأي مرح رغم السرور والمرح اللذين يشعان من مئات الاطفال.. بل بالعكس اشعر بأكثر من حزن عميق يقلب هذا الفرح ألما في أعماقي.

هنا مدرسة ابتدائية تنشد الأناشيد بصوت عال وحبور وهناك طابور من البنات الشابات يتدافعن ويتصارخن لاعبات بالكرات والحبال.. وأبعد منهما جماعة من الناس تهتف لطفل يلقي خطاباً أو ينشد.

غابت مؤنسة عن عيني وقد اختلطت بهم حيث الجلبة والضوضاء واللعب وهل بالإمكان ابقاء الشيطانة بقربي في مثل هذا الوقت؟ وكان بعيداً عنا وعلى حافة مرتفع أشجار من الكستناء نصبت بعض المعلمات مع تلميذاتهن الشابات أرجوحة على أغصان تلك الأشجار فكانت ألوان مختلفة من الملابس تتطاير بين الاغصان ويعلو الصراخ والقهقهات. كنت أجلس في ظلال صخرة كبيرة في حفرة سيل كبير، أقطع الازهار البرية من تحت قدمي وأرميها الى النهر وانا شاردة ساهمة في تفكيري. وفجأة سمعت من خلفي صوتاً ناعماً يصرخ: وجدتها.. ها هي دودة الحرير انها هنا.

كن يفتشن عني للعبة الارجوحة.. فجرونني بالقوة إليهن رغم انني كنت أعتذر قائلة: لا اريد اتركوني انني تعبة جداً ولا أعرف التأرجح.

لم استطع التملص ولم تقبل الزميلات حتى ولا التلميذات اعتذاري وكانت مروت هانم تلك الشابة الجميلة التي دافعت عني في مدرسة رشدية المركز _تصر على التأرجح معي فلم أجد بدأ من القبول وقفزنا الى احدى الارجوحات ولكنني عبثا حاولت تهدئة أعصابي ذراعي ترتجفان وركبتي يصطكان كأنما لا تستطيعان احتمال عبء وجودي. وبعدما بذلت مروت المسكينة وسعها لتهدئتي ضجرت مني وتركتني

وهي تقول: عبثاً حاولت يا دودتي.. يظهر انك تخافين كثيراً من الارجوحة وها قد شحب لونك فأصبح رمادياً باهتاً وانني أخشى سقوطك.

كان المدير في الغداء معنا وقد لاحظ سكوتي وانكماشي فأخذ يردد بين الحين والآخر: لماذا لا تضحكين؟ لله ما أعكسك من طفلة! تضحكين عندما اقول لك لا تضحكي.. وهنا وقت المرح والسرور تقطبين ولا تبدين حراكاً.

وهكذا لم يتركني المسكين من اعتنائه حتى بعد الأكل بل أحضر سماور الشاي من المدرسة يريد غلي الشاي لي بيده. نادتني احدى المعلمات بإشارة من يدها وقالت أرسلنا أحد الخدم فأحضر للشيخ يوسف أفندي الطنبور سنجبره على العزف.. خلصي نفسكِ من هذا الثرثار واحضري إلينا.

الحق بأنها فرصة لا تعوض.. أثرت بي موسيقى يوسف افندي بشكل غريب. كان المسكين مريضاً منذ مدة طويلة لم يستطع الحضور الى المدرسة وقد تحسنت صحته منذ يومين قليلاً فأراد الاشتراك اليوم بنزهة المدارس.

سحبت المعلمات يوسف افندي من بين رفاقه بحجة لطيفة وأخذنا نحن القافلة المؤلفة من ثمانية او عشرة أشخاص نخفي أنفسنا عن الانظار فسرنا نحاذي شاطئ النهر. وكان الشيخ اليوم مرحاً نشيطاً يفيض حيوية.. يسخر من اللواتي يخشين عليه التعب كلما طال الطريق.. بقوله: سوف لا أتعب ولو أوصلني هذا الطريق الضيق إلى الأبدية واللانهاية.. لأنني اشعر اليوم بقوة تتغلب وتكتسح كل تعب.

اقتربت مني نزيهة تقول على مهل بان المعلمين يشربون الخمر فيما بينهم وقد شرب يوسف افندي بضعة أقداح. وهذه هي سر حيويته ونشاطه.

وصلنا بعد مسيرة عشر او خمسة عشرة دقيقة الى طاحونة ماء مهدمة وأصبح الوادي عند الطاحونة ضيقاً بشكل يمكن تسميته مضيقاً. اما طرفا المضيق فأخذا يعلوان بشكل لا يصل من خلالهما نور الشمس الى أرض المضيق التي تسيل المياه متلألئة براقة كضياء الفجر.

لم يكن بوسع أحد ان يسمعنا من هنا. أجلست المعلمات الشيخ يوسف تحت شجرة جوز فارعة الأغصان وأعطينه الطنبور. أما انا ابتعدت عنهن قليلاً وجلست على صخرة كانت المياه تتكسر على أطرافها وهي ترغي وتزيد. أصرت التلميذات على بالاقتراب وهن يتصايحن: لا! لا! مستحيل جلوسك هناك لا بد من اقترابك وهكذا قربنني منهن بالقوة وأعطينني مكانا يقابل موضع الفنان تماماً.

بدأ الشيخ العزف.. يا له من لحن سوف لا يذهب صداه من قلبي مدى العمر. استلقت المعلمات على الحشائش ولم تستطع حتى أقلهن شعوراً من ضبط ارتعاشها وقد اغرورقت عيونهن بالدموع.. فقلت لوصفية التي اتكأت برأسها الذهبي على كتفي: انا لم اسمع هذا العزف حتى من الشيخ يوسف نفسه قبل الآن.. فأجابت وصفية بعينين تبتسمان كأنهما تخفيان سراً: الحقيقة هو ان يوسف أفندي لم يكن في حياته كلها سعيداً وشقياً مثل هذا اليوم. فسألتها باستغراب: لماذا؟ نظرت إلي بدقة وبعدها أعادت رأسها الى كتفي تقول: اسكتي ودعينا نسمع.

كان الشيخ يعزف اليوم الأغاني القديمة ولم أكن سمعت شيئا منها قبل اليوم. وكان قلبي يرتجف في نهاية كل أغنية خشية ان تكون الأخيرة.. لكنه كان مغمض العينين وقد أخذ وجهه بالاصفرار وتندى صدغاه بالعرق لا يكاد وينتهي من أغنية حتى يبدأ الاخرى.

لم استطع تحويل نظراتي عن ذينك العينين المغمضتين ورأيت في آونة بعض الدموع وهي تتدحرج على خديه الشاحبين. فاشتعل قلبي ألماً على ارهاق مريض بهذا الشكل ولم استطع الاحتمال فاستفدت من فرصة انتهائه من أغنيته وقلت: ألا تريد الاستراحة قليلاً؟.. أراك مرهقاً.. ماذا بك؟

لم يحر جواباً بل نظر إلي بعينيه اللتين تشعان صفاء وبراءة من خلال أهدابه المبتلة وبعدها أسند رأسه على طنبوره وبدأ أغنية جديدة كان مطلعها هكذا:

دعني أحترق ولا تترك لي فرصة
يا ظالم للكلام فقلبي طافح بالأسى

وما ان انتهى من أغنيته حتى ارتمى رأسه على الطنبور بإغماءة خفيفة. فزعت المعلمات ولم استطع السكوت فقلت:

ـ نحن السبب لإغمائه ما كان يجب ان نرهقه بهذا المقدار. وبسرعة قفزت نحو النهر أبل منديلي.

كانت الإغماءة خفيفة جداً أشبه بدوار بسيط وما ان عدت وبيدي المنديل المبلل حتى فتح عينيه فقلت له:

أرعبتنا يا أستاذ!. فأجابني بابتسامة شاحبة: لا شيء كثيراً ما يحدث لي هذا الدوار.

كنت اشعر بغرابة طور المعلمات وهن يرمقنني بنظرات ذات معنى ويكلمن همساً.

اخذنا طريق العودة وتأخرت مع وصفية قليلاً وكنا آخر القافلة فقلت لها: لاحظت اليوم اشياء في نفس الأستاذ.

رمقتني زميلتي بنظرتها المعتادة ذات المعنى وقالت:

ـ هل انت جادة يا فريدة مما تدعين؟ احقاً لا تعلمين؟ أكاد لا أصدق ما تقولين.

ـ أقسم لك بأنني صادقة فيما أقول.

ـ إن المسكين يحبك حتى الموت.

أخفيت وجهي بيدي وكانت ضوضاء الاطفال العذبة لا تزال آتية من صوب النهر وبسكون ابتعدت عن القافلة دون ان أدع أحداً يشعر بابتعادي. ومررت من طريق ضيقة وعرة بين الحدائق وذهبت الى الدار وحدي.

25 تموز - (ب)

طالت أشهر الصيف والطقس حار لا يطاق. الاشجار والحشائش مصفرة ولم يبق في الاطراف اخضرار أبداً. تتراءى الحشائش الصفراء فوق الهضبات كأكوام رماد فلم يبق لها حياة او معنى.

انا متضايقة أكاد أموت خنقاً.. فالبلدة خاوية. افترق شمل المعلمات والتلميذات وذهبت الكثيرات الى المصايف. تأتيني رسائل نزيهة ووصفية أحياناً من استانبول وهما تكتبان بأن استانبول جميلة جداً هذا العام بمانها وهوائها. تحدثاني عن الجزر بإسهاب وتقولان بأنهما ساعيتان للبقاء هناك. أما انا فانني سأبقى هنا.

تأثرت جداً من حادثة الشيخ يوسف وبدأت اشعر بالخجل من الاختلاط بالناس. سأطلب نقلي الى بلدة اخرى في نهاية العطلة. لتكن بعيدة عن هنا ولا بأس ان تكون أسوأ من هنا. اريد الذهاب لمكان أتعذب فيه واتعب.. لا يهمني ذلك ويكفيني بانني لا أبقى وحيدة وأعمل لنفسي فقط.

5 آب - (ب)

هذه هي المرة الثانية التي أرى فيها عرس احدى تلميذاتي بعدما صرت معلمة. لكنه في هذه المرة عرس لا يشبه عرس زهراء المسكينة. لا تنام جميلة الليلة وحدها في السرير والدموع لم تجف بعد في مآقيها. سيكون صدر الملازم الشاب الذي أحبته جميلة وسادة لرأسها الحلو في هذه الليلة. أصر الشابان وقاوما وبقيا يحافظان على حبهما بصبر وعناد الى ان أجبرا والديهما على رمي سلاح الممانعة من أيديهم.

زينت جميلة بيدي رغم انني كنت أصر على الابتعاد عن الناس منذ أمد بعيد إلا ان جميلة أتت إلي بنفسها ورجتني بإصرار وهي تقبل يدي. هل شعرت بما قدمته لها من خدمة في ظلام احدى الليالي؟ لا ادري.. لكنني اشعر بأنها تكن لي حباً عميقاً وانني كنت أول من أطلعتهن على رضاء والديها وقد زفت إلي تلك البشرى وهي تكاد تطير فرحاً.. لا بد انها شاعرة بما فعلت.

نعم! زينت جميلة بيدي ووضعت لها غطاءها. جرت العادة هنا ان تضع كل شابة مهما كان شأنها خصلة من القصب الذي تضعه العروس على جدائلها بداعي انه مجلبة للحظ. فلذا لم استطع ان أحول بين أم جميلة وبين شعري الذي وضعت ره القصب بيدها ولم يفدني الاعتذار ولا الإصرار بالرفض.

كنت اشعر هنا أيضاً بنظرات السيدات تنصب علي بقسوة شأنهم في كل مكان أطر ته. وكثيراً ما تهامسن وهن ينظرن إلي.. وكانت كلمة (دودة الحرير) تدور على ألسنة الجميع. وكانت هناك سيدة سمينة غارقة في المجوهرات (علمت فيما بعد بأنها زوجة رئيس البلدية) تنظر إلي شزراً وأخيراً قالت لرفيقتها بصوت مسموع: حقاً ان دودة الحرير هذه آفة.. يحق للمسكين ان يحترق بنارها.

لم يعد بالإمكان بقائي ولذا استأذنت أم جميلة بداعي انني متوعكة تعبة لا استطيع البقاء طويلاً فرجتني الأم ان أتقدم ببعض النصائح لجميلة ابنتها كما تفعا . المعلمات الموجودات غيري. فلم أرَ داعياً لإغضاب تلك السيدة البسيطة فلذا تقدمت من تلميذتي وانتحيت بها مكاناً خالياً وقلت لها:

أي جميلة! طلبت مني أمك ان أسديك النصائح بصفتي معلمتك. انا واثقة بأن ما تحتاجينه من نصح يسديه إليك غرامك الطاهر البريء أحسن من اي انسان، ولكن أود ان أنبهك الى شيء مهم يا طفلتي وهو إذا أتتك امرأة من الطريق وقبل وصول زوجك إليك تود ان تقول لك شيئاً اهربي منها يا طفلتي وخبئي رأسك الظريف في صدر عريسك ولا تسمعي ما تقوله أبداً.

يعلم الله مدى دهشة جميلة من كلماتي... لها الحق لأنني أنا أيضاً مستغربة مما قلت كأنني سمعت تلك الكلمات من شخص غريب أتساءل عن معناها وسببها.

27 آب - (ب)

دعوت ومؤنسة الحاج قلفة وعائلته للعشاء معنا وكانت الوليمة اليوم في حديقتنا الصغيرة. اشتريت من السوق بعض الفوانيس الورق الملونة وعلقتها على أغصان شجرة

لوز وضعت المائدة تحتها. سر الحاج من منظرها وقال: هذه ليست وليمة بل احتفال بعيد 10 تموز.

فضحكت قائلة: يا حاج ان هذه الليلة ليلة احتفال 10 تموزي. نعم كانت الليلة ليلة احتفال بعيد حريتي لأنه مضت سنة كاملة على انفلات عصفورة السياج من حبسها في القفص. سنة طويلة ثلاثمائة وخمسة وستون يوما ما أطولها من مدة.

كنت مرحة جداً في اول الأمر أضحك وأتكلم باستمرار. أقوم بحركات كادت تخنق السيدة زوجة الحاج من الضحك. وكان وجه هايغانوش يحمر حتى يشابه الفانوس الاحمر المعلق فوق رأسها من كثرة الضحك أما الحاج فكان يضرب على ركبتيه قائلاً:

آه يا ابنتي جف ريقي من الضحك.

بقينا في الحديقة الى وقت متأخر وبعدها أعطيت فانوساً لميرات وآخر لهايغانوش وشيعتهم حتى الباب. أما مؤنسة فكانت نائمة على كرسيها من عناء النهار.

بعد ذهاب الضيوف أرسلتها الى سريرها وبقيت وحدي في الحديقة. كانت ليلة هادئة تتلألأ نجومها ببريق خلاب بعدما أطفئت الأنوار في الدور المجاورة وساد السكون سكينة شاملة يتراءى الجبل وسط بريق تلك النجوم الخلابة ككومة ظل مخيفة مزعجة.

أسندت رأسي على حديد الفسحة البارد وأخذت أفكر حيث لا صوت ولا حياة إلا صوت انسياب بقايا مياه النهر في الوادي العميق رغم حرارة الصيف التي لم تستطع تجفيفه. وقد انعكست صور النجوم على صفحته فبدا بريقاً لماعاً.

أخذت شموع الفوانيس بالانطفاء لأنها ذابت وبدأت تتلاشى وتضمحل. بدأ الظلام يلف المكان وهكذا انا شعرت بذبول مرحي وانحداره وقد خيم ظلام قاتل على أعماقي عبثاً حاولت التخلص منه.

استعرضت ايام هذه السنة التي انقضت تارة مظلمة واخرى مضيئة ما أطولها من ايام يا رب... وما أثقلها علي يا إلهي... لي جسم يحتمل المحن والآلام بنية قوية تتغلب على الأمراض والأسقام.. ويحتمل كثيراً ان أعيش أربعين او خمسين سنة اخرى. من

يدري ربما رأيت خمسين صيفاً تحتم علي تسعيد أيامه بدموعي وآلامي.. ما أطول الحياة يا إلهي وما أرهقها وأثقلها. يحتمل ان لا تبقى مؤنسة لي لتؤنس وحدتي. هناك الوحشة الأكيدة التي يدب المشيب بسببها الى شعري رويداً رويداً... فأذوب وأتلاشى.

لنأمل .. لنصبر.. ظريف.. انا أرضى بذلك ولكن لماذا؟ ولأجل من؟ وبانتظار من؟

كثيراً ما دب اليأس الى قلبي ونفذ صبري خلال أيام هذا العام الطويل ولكن لم أبك مرة مثل هذه الليلة بدموع حارة تحرق جفوني وخدي.. لم تكن النار في دموعي.. كنت ابكي دوماً بعيني.. لكنني الليلة أبكي بقلبي.

1 تشرين الاول - (ب)

مضى أسبوعان على ابتداء الدروس.. عادت اكثر الزميلات للعمل في (ب) حتى وصفية التي كانت تصر على البقاء في استانبول لم تجد المسكينة شاغراً هناك.

أما نزيهة فان السعد كان حليفها.. صادفت في يوم عطلة ضابطاً شاباً. كانت تتنزه مع صديقتها وصفية فتعقبها الشاب من (بوغاز ايجي) حتى (فاتح).

كان الشاب يفضل وصفية عن صديقتها كباقي الرجال الذين صادفوهما معاً.. فلذا دعاها بإصرار راجياً رؤيتها بعد يومين في (البارك) وهكذا افترقوا. ولكن في اليوم المحدد أتى ضيوف لزيارة وصفية فلم تشأ ان تشغل بال ضابطها فلذا رجت نزيهة قائلة: (أرجوك يا عزيزتي اذهبي عني واعتذري لعدم تمكني موافاته.. وخذي منه موعداً ليوم آخر).

عادت نزيهة تقول لصديقتها بأنها لم تر الضابط ولكن بها أمر غريب. بعد مدة اكتشفت الأمر.. وهو ان نزيهة بذلت المستحيل في ذلك اليوم ولعبت دوراً خطيراً مع الضابط فأحبها الضابط وأعلنت الخائنة خطوبتها إليه بعد اسبوع من الحادث.

وصفية حزينة جداً.. من جهة صعب عليها ان تخدع عن طريق أعز صديقة لها.. ومن جهة اخرى تشكو الوحدة المرة. تتنهد بين الحين والآخر قائلة: آه يا فريدة

هانم!.. كم بالإمكان ان نكون انا وانت صديقتين طريفتين ولكن ماذا اقول؟ رغم انك فتاة مؤنسة لطيفة فانك لا تفهمين معنى الحياة ولا تجربين أبدأ ان تتذوقيها.

دبت في المدرسة حيوية تشبه حيوية الأفراخ عندما تخرج من البيض خاصة عندما ابتدأ المطر يهطل بعد دوي رعد صاخب أذهب الحزن الذي أعطانيه الصيف بحرارته ففرق غيوم متاعب الحياة المبهمة عن نفسي.. فكم اصبحت اشعر بخفة ومرح!.

17 تشرين الاول - (ب..)

منذ عشرة ايام والأمطار تهطل بشدة.. انتعشت الازهار _مثلي في اول الأمر بالحدائق ودبت الحياة فيها بعد ان كادت تموت.. ولكن ما ان طال هطول المطر حتى أثقلت المياه كاهلها وأخذت تخفض رأسها مرتجفة وهي تنكمش على أوراقها كأنها تقول: كفانا لقد زاد عن الاحتمال.

بينما كنت عائدة مساء اليوم من المدرسة لم أكن أحسن حالاً من تلك الازهار.. ابتلت ملابسي وأخذ الماء يسيل من رأسي حتى قدمي والتصقت الملاءة على جسمي والنقاب على وجهي وصرت مثار ضحك كل من يمر بي.

علا الشحوب وجه مؤنسة الليلة فخشيت عليها من المرض فلذا أرسلتها مبكرة الى السرير وأحضرت لها بعض الزهورات حيث أسقيتها منها. أما الشيطانة بدأت تشكو من طعم المغلي وهي مستلقية في سريرها تسخر مني قائلة: كيف يضر البرد يا أختاه؟ أنسيت بقائي بين الثلوج في الشارع ليلة طويلة في العام الماضي؟

لم أنم الليلة. بعدما نامت مؤنسة أخذت كتاباً واستلقيت على المقعد استمع صوت المطر ومياهه تجري في الميازيب. كنت أستمع بدهشة لهذا المأتم الذي استمر عشرة ايام طويلة بنفس كئيبة. لا ادري كم مضى من الوقت وانا على تلك الحال إذ سمعت فجأة طرقاً شديداً على الباب. من يكون الطارق في مثل هذه الساعة؟

لم أجرؤ على فتح الباب بسرعة فلذا مددت رأسي من نافذة غرفة الضيوف ورأيت خيال امرأة طويلة القامة تسعى للتستر من المطر برواق النافذة. بيدها فانوس ينير ضياؤه برك الماء المتجمعة في الطريق.

سألت: من الطارق؟ فأجابني صوت مرتعش: افتحي من فضلك جئت لأرى المعلمة فريدة هانم.

كنت أرتجف عندما فتحت لها الباب.. ومنذ ذلك الحادث _حادث استانبول _ ما زلت أجفل من سؤال امرأة غريبة عني وأخشى ان تكون النذير لخبر سوء.

رفعت الزائرة الفانوس لترى وجهي فرأيت على ضوئه وجها شاحبا وعينين زرقاوين ذابلتين. قالت: أتسمحين لي بالدخول يا معلمة هانم؟

ملامح الوجه وعذوبة الصوت وصفاؤه أوحت إلي الطمأنينة فلم أر داعيا لسؤالها من تكون ولماذا جاءت فلذا قلت لها: تفضلي. وفتحت باب غرفة الضيوف وكأني بها كانت تخشى من ان توسخ الغرفة كانت تدير نظرها فيما حولها دون ان تجرأ على الجلوس فقالت وهي ما تزال واقفة: ما هذا المطر؟ انه غزير يكاد يخنق الانسان.

كنت أتأمل وجهها باهتمام فشعرت بان ما بها من الارتباك شيء غير عادي وليس بسبب المطر. تريد ان تستريح وتستعيد سكونها لتستطيع ان تقول عن السبب الذي أتى بها إلي فلذا لم أسألها شيئاً. بل استمريت على تفرس وجهها الذي كان ينم على امرأة نبيلة الشعور لطيفة.

بعدما تركت لها فرصة استعادت خلالها البعض من رباطة جأشها سألتها: مع من لي شرف الجلوس يا هانم؟

أخفضت بصرها الى الارض كأنها تخشاني.ثم قالت:

يا فريدة هانم! انا لست غريبة عنك وان كنا لم نتقابل حتى الآن إلا انني أعرفك من بعيد. ثم سكتت قليلاً وبعدها تابعت بجرأة تقول: انا شقيقة زميل لك.. يعلم في مدرستك انا أخت الشيخ يوسف أفندي.

كانت مفاجأة اضطربت لها ولكن يجب ان اكون قوية ولا أتظاهر بشيء.

قلت: أحقاً يا سيدتي.. انا مسرورة لمقابلتنا. عسى ان يكون الشيخ أحسن حالاً ان شاء الله.

بديهي بان الكلام لم يكن متناسباً مع قدوم سيدة أتت في مثل هذه الساعة المتأخرة.

كانت ساكنة لا تحير جواباً فألقيت ببصري الى الارض لأن الشجاعة خانتني عن التطلع الى وجهها. سمعت صوت بكاء خفيف فكدت أخفي وجهي بيدي كأنني أحاول التملص من مصيبة وقعت على راسي.

رايتها تضغط بيدها على صدرها خشية وقالت بصوت يفيض ألماً: أخي يموت الليلة.. ساءت حالته قرب المساء وغاب عن وعيه منذ ست ساعات.. ولا أظن بأن الصبح يطلع وهو حي.

لم أحر جواباً... إذ ماذا بإمكاني ان اقول؟

قالت: آنستي الصغيرة.. ان يوسف اصغر مني بثلاث سنوات لكنني ربيته مثل ولدي. لما توفيت أمنا كان يوسف طفلاً وانا لم أكن كبيرة. ولكن رغم ذلك كنت له أماً فوقفت حياتي له ولما توفي زوجي لم أكن بسنك الآن، كان بوسعي الزواج ثانية.. لكنني ما فعلت كيلا يبقى (يوسفي) وحده أما الآن فانه سيتركني وحيدة ويذهب. لا تعيبي عليّ ثرثرتي يا هانم ولا تستغربي لماذا أحدثك بكل هذا ولا تتألمي مما سأطلبه منك.. ولا تخيبي أملي وان أزعجتك في مثل هذا الوقت المتأخر.

ما ان وصلت الى هذا الحد حتى سقط جسمها على الارض ككومة من تراب وخشيت ان تكون قد غابت عن وعيها فأردت ان استطلع أمرها وأطمأن عليها.. كانت تقبل قدمي وهي تبكي بحرارة وألم. تخلصت منها بحركة خفيفة.. وبسكون يتطلبه الموقف قلت:

يا سيدتي! انا أقدر مصيبتك.. قولي انا طوع أمرك ان كان بإمكاني خدمتك.

لاح شبح أمل ضعيف في عينيها المنتفختين من كثرة البكاء وقالت وهي تسعى لضبط ضربات قلبها المتزايدة باعتصاره في يدها:

مضى على مرض يوسف عشر سنين.. عبثاً حاولت تخفيف العلة لأن المرض الظالم أخذ يفتك بجسمه ولم يرحم ضعفي ووحدتي.. ولم يشفق على شبابه بل استمر على نهش جسمه حتى أودى به الى الفناء. وأخيراً حدثت الحادثة.. رآك.. وهو فياض الشعور رقيق الاحساس فأخذ يذوب حسرة ووجداً.

لم استطع كبح صيحة اعتراض خرجت من فمي وقلت: أقسم لك يا سيدتي بأنني لم أعمل لأخيك شيئاً.. وانا أيضاً لست اكثر من جريحة تحتضر.

أعادت الكرة على مداعبة ركبتي وقالت: يا ابنتي.. ربما هناك من تحبينه.. لا تتألمي.. أقسم لك بأنني لم اقل ما قلته بقصد التذمر والشكوى.. انا لست فظة بالشكل الذي يتهيأ لك. مهما كان فأنا أخت يوسف.. عشت عمري في جوه الموسيقي.. ليست لي شكوى منك ولا من الصدف، لكنني كنت اشعر بأنه سعيد.. لم يشك من شيء ولم يتبرم. كان يغيب عن نفسه أحياناً عندها ترتجف أجفانه وتنمرج شفتاه عن ابتسامة حلوة يردد اسمك خلالها. لم يبحث لي عن بلواه هذه سوى أمس عندما قبض على يدي وأخذ يقبل أناملي متوسلاً وهو يقول:

ـ أختاه! اسعي ولتريني إياها مرة اخرى.

كان يتضرع كالاطفال وكنت راضية بكل تضحية وهوان في سبيل يوسف. لكنني لم أر إمكاناً لطلبه تقطع قلبي وانا اقول له: تعاف يا أخي واسع للشفاء بسرعة لا بد ان تراها.. ثم داعبت جبينه وشعره بحنان.

آه يا فريدة لو رأيته كيف غضب مني فأدار لي ظهره وأخفى وجهه كيلا يراني. ليس بالإمكان وصف ما حدث.. أغمض عينيه هذا المساء وانا واثقة بأنهما لا تفتحان بعد الآن. كنت أجن ولم أستطع الوقوف مكتوفة الأيدي حيال أمنية تبقى غصة في قلبه وهو سائر نحو الأبدية. انا التي أوقفت حياتي وسعادتي له ولم أحرمه من هناء كنت استطيع الإتيان به.. انها غصة ستبقى في قلبي الى الأبد.. لا يمكن.. مستحيل.. ان ذهابك إليه الآن ثواب لوجه الله كالماء الذي يوضع في فم المريض عند الاحتضار. صدقيني يا فريدة.. انه ثواب يجزيك الله عليه.

لم تستطع الاستمرار في كلامها واسترسلت بالبكاء الحار تستر وجهها في طيات ثوبي...



سأذكر حوادث الليلة كحلم.. سرت في طرقات ضيقة ملتوية وانا أتبع الفانوس تحت المطر الغزير. ما كنت أشعر بشيء ولا اسمع شيئاً كنت اسير بدون إرادة كورقة في سيل جارف. أخذوني لغرفة واسعة مليئة بالأشباح.. في الجدران أعواد وطنبور وكمنجة معلقة.. وفي الرفوف نوتات ونايات.. وكان الفنان يحتضر فوق سرير من حديد في زاوية من زوايا الغرفة.

اقتربنا منه ونحن نسير على رؤوس الأصابع.. كان وجهه مصطبغا بصفرة الموت المريرة.. وقد امتلأت أغوار عينيه بظلام سحيق.. إلا ان على شفتيه المفتوحتين عن أسنان بيضاء ناصعة بقية باقية من ألوان الحياة الزاهية.

كانت السيدة تظهر سكونا وصبراً لا يتناسب مع ما كانت عليه من اضطراب وبكاء قبل حين. ما أكثر المعجزات فيما يسمونه حباً وحنانا يا ربي.. وضعت يدها على جبينه بحنان كأم توقظ طفلها ليذهب الى المدرسة وقالت:

يوسف! بني! جاءت فريدة هانم لتسأل عن صحتك.. افتح عينيك يا يوسف.

لم يكن المريض يسمع شيئاً.. ولا يرى شيئاً. اخذت تفقد المسكينة سكونها عند احتمال موته دون ان يفتح عينيه. وبدأت تبكي وقد اختنق صوتها وهي تقول: يوسف يا فلذة كبدي! افتح عينيك مرة اخرى.. فان مت قبل ان تراها ستكون حسرتي اكبر وأعظم وسأحترق بآلامي الى الأبد.

عصر الحزن قلبي واصطكت ركبتاي.. فاستندت على شيء يشبه المنضدة كان بالقرب من السرير وفجأة أدركت بأنه أرغن فارتجفت وحدثني قلبي بأن السبيل الوحيد والمعجزة لفتح عينيه للمرة الاخيرة سيكون هذا الأرغن.

ربما تكون الفكرة التي دارت برأسي جناية او خطيئة اكبر من ذلك.. ولكن نفذ صبري ولم أطق رؤية الأرغن فدنوت منه باللاشعور وألعبت أناملي عليه.. فان الأرغن بحسرة كأنه صدر مكلوم.. وارتجفت الآلات المتنوعة المعلقة على الجدران في الظلام لا ادري ان كان ذلك حقيقة او ان الدموع التي بلت مآقي أرتني تلك الخيالات.. كانت أخته أيضا تبكي بحسرة وقد ألقت بجسمها على أريكة قريبة. خيل إلي بأن المريض قد فتح جفنيه وبانت عيناه الزرقاوان للمرة الأخيرة.

وكأنني اقوم بواجب مقدس نحو الموت اقتربت من رأسه وقبلت تينك العينين اللتين ما زالتا ترتجفان من الصراع مع الموت... قبلتهما قبلة غرام.. .

هل قدر لي ان أطبع اول قبلة غرام في عمري على عيني ميت يا ربي؟



2 تشرين الاول - (ب..)

هذه آخر ليلة أبقاها في داري في (ب) لأنني غداً سأسافر مبكرة من هنا. بديهي بأنني لا استطيع البقاء هنا بعد تلك الوقعة.. فالكل يتحدثون عني في البلدة... والكل مندفعون بغريزة حب الاستطلاع وكم مرة تعقبني رجال وانا أغدو وأروح الى المدرسة وكثيراً ما رأيت أناساً يتعرفون عليّ رغم نقابي الكثيف ولم يتورع أحدهم عن القول: (دودة الحرير! ها ها مسكين الشيخ).. أصبحت اشعر بالخجل حتى من كلامي مع زميلاتي واشعر بأنني احمر خجلاً كلما دخلت صفي. ليس بوسعي احتمال هذه الحالة طويلاً.

اضطررت لمراجعة مديرية المعارف فرجوت المدير ان يجد لي مدرسة في بلدة اخرى لأنني لا استطيع احتمال مناخ هذه البلدة.. ويغلب على ظني بان الإشاعات وصلت الى أذنه لأنه وافق على نقلي للحال لكن وجود محل آخر يتناسب ومركزي الحالي كان

عسيراً فقلت له بأنني سأقبل بلدة أصغر وراتباً أقل من راتبي.. ويكفيني ان تكون بلدة بعيدة.

جاءني قبل يومين أمر نقلي لمدرسة رشدية (ج..).. مسكينة عصفورة السياج أضحت كأوراق الخريف عندما تتقاذفها الرياح....



تم الجزء الثاني

الجزء الثالث

1

اليوم عيد الربيع!.. أنا وحدي في الدار. لا أكون مبالغة ان قلت بأنني وحدي ليس في الدار فقط بل بالناحية كلها.. البيوت خالية.. والأسواق مغلقة.. خرج أهل الناحية من الصباح الباكر من بيوتهم حاملين سلل طعامهم فذهبوا الى الاحراج ليأكلوا الخراف.

اعتاد أن يجلس متسول مقعد في أول الطريق.. حتى هو لم يحرم نفسه من النزهة.. ركب على ظهر حمال كأنه يركب عربة بغرور وخيلاء واختلط بالقافلة الذاهبة.. راقني منظر الكلاب كثيراً.. شمت رائحة الوليمة فأخذت تسير ثلاثاً ثلاثاً وراء كل قافلة تمر. أرسلت مؤنسة مع جارتي حرم الشيخ قربان أفندي أمام الآلاي.. تذمرت كثيراً واعترضت لعدم ذهابي معها لكنني ربطت رأسي بمنديل وشكوت الصداع ووعدتها بأنني سألحق بهم ان شعرت بتحسن. خدعتهم بمرضي. والحقيقة أنني بصحة جيدة. وأشعر بنشاط ومرح الا أن سبب عدم ذهابي معهم هو أنني لم أعد استذوق الضجيج والنزهات مع الجماعات..

عندما اصبحت وحدي رفعت الرباط عن رأسي وبصوت خافت أخذت أغني وأصفر وأنا أقوم بأعمال البيت. كم يروق لي أن أقوم بأعمال الدار كلما حانت لي فرصة مؤاتية بعد العمل المتواصل في المدرسة وخارج الدار كالرجال.

عندما انتهت أعمالي في الدار جاء دور طيوري.. نظفت لها القفص وجددت الماء.. وبعدها أخرجتها الى الحديقة تستفيد من حرارة الشمس. صار عندي نصف دستة

من الطيور. اضطررت عند مجيئي الى هنا أن أترك مظلوم المسكين لابن الحاج قلفه وتأثرت مؤنسة كثيراً لفراقه وبكت أكثر.. فاشتريت لها هذه الطيور خشية تأثير الألم على نفس ابنتي.. فراقت لي وصارت شغلي الشاغل..

هناك خطر على طيوري من قطة الجيران الصفراء.. كلما أخذت القفص الى الحديقة جاءت لتجلس أمامه. انها في الظاهر ساكنة.. تفتح عينيها الخضراوين وترقب الطيور كأنها تحنو عليها خاصة عندما تزقزق ويخيل للمرء بأنها تكلمها بين فترة وأخرى عندما ترتجف ذقنها وهي تموء.. واليوم قلت لنفسي: لنرها ماذا صانعة.. وأخرجت أحد الطيور من القفص وقربته من وجهها.. ارتعش شعرها الاصفر كأن نسيما سرى في جسمها ولمعت عيناها.. وأخرجت مخالبها من كفيها الناعمتين تتحفز للهجوم على الطير.

كان المسكين يرتجف في يدي وهو يلوي رقبته خافياً رأسه بين جناحيه.. قبضت على رأس القطة بيدي الأخرى قائلة: ان من ينظر في حلاوة عينيك الخضراوين ظنك تسرحين وملائكة السماء... ولكن أليس شغلك الشاغل هو تمزيق هذا الطير المسكين؟ انظري كيف اثأر له منك...

فتحت قبضتي فارتجف العصفور قليلاً كأنه لا يصدق انعتاقه ثم أخذ يطير وهو يزقزق فرحا مسروراً..

قربت عيني القطة الخضراوين من وجهي وبدأت أضحك عالياً وأنا أقول: كيف؟ هل استطعت تمزيق العصفورة أيتها الظالمة الصفراء؟ سخرت منها وبداخلي سرور عجيب. كنت فرحة لانتقامي للعصفور من هذه الهرة الصفراء فحسب بل كنت أسخر من كل المخلوقات الصفراء الظالمة التي تتسلط على الطيور الضعيفة المسكينة!..

حذ من مرحي شكوى بقية الطيور.. أكانت هذه شكوى؟ لا أدري إلا أنه تهيأ لي بأنها تنظر إلي وكأني بها تقول: لم لا تسعدينا مثل أخينا؟ فلذا سرت نحو القفص بعد الأمر الذي أتى من أعماقي ولا استطيع غير الطاعة له.. وأنا مصممة على إفلات

الجميع ولكن خطرت لي مؤنسة فجأة فتخاذلت وأسندت خدي على شريط القفص وأنا أقول:

جميل أن أعتقكم يا صغاري ولكن ماذا أقول بعد ذلك لمؤنسة؟ لتلك المستبدة الصفراء الظالمة؟ ما العمل يا صغار.. لا يمكننا الانعتاق تماماً مهما بذلنا من جهد من أولئك الظالمين الصفر...



جاء دوري بعد الطيور.. اعتدت أن أغسل شعري بالماء البارد كلما وجدت الطقس صحواً والشمس ساطعة.. لأنه يلذ لي كثيراً أن أترك شعري يجف بحرارة الشمس على مهل..

غسلت شعري وبعدها تسلقت شجرة الخوخ التي علقت القفص عليها وتركت شعري لنسيم الربيع العليل يتلاعب به كيف شاء.. طال شعري واقترب من خصري تقريباً.. خجلت في (ب..) أن أحدث زميلاتي عن سبب قصر شعري.. لأنهن يعبن الشعر القصير.. وصفت لي كل واحدة منهن ألف علاج يطيله حتى الحاج قلفه لم يتركني دون وصفة تطيل الشعر وظنت كل واحدة من الزميلات بأن طول شعري من دوائها لأن طول شعري المحسوس كان شاهداً لكل منهن على فائدة علاجها..

كانت شجرة الخوخ فوق القفص تماماً والطيور تزقزق وعيونها تتلامع في ضوء الشمس. كنت اقلدها بالصفير وأنا أتأرجح على غصن رفيع علق بصري لحظة على نافذة الدار التي أمامنا ماذا أرى؟ جاري الشيخ قربان أفندي ينظر إليّ بعينيه الصغيرتين. لم أدر ما أفعل لو كنت بهيئة مقبولة لا بأس ولكن... رجلي عاريتان.. وعلى جسمي قميص أبيض عاري الكتفين.. أول حركة قمت بها هو أني تسترت بشعري فبعثرته على كتفي وذراعي ثم ألقيت بنفسي عن الشجرة والله ستر بأن الغصن لم يكن عالياً فأتى الى سمعي صوت يقول: واه واه.. كنت أنا التي وقعت وتألمت.. أما الذي صرخ كان جاري الشيخ قربان.

ان الشيخ قربان رجل تجاوز الخمسين من عمره أمام آلاي لا أستطيع تمالك نفسي عن الضحك كلما ذكرت اسمه... يقولون بأنه ثري جداً. زوجته شابة لم تبلغ الثلاثين جميلة الطلعة شركسية الأصل.

إننا متفاهمان واليوم هي التي أخذت مؤنسة للنزهة معها... تحب شيطانتي الصغيرة حب الأم لأنها لم تنجب أطفالاً.. أما حادث اليوم فأنه أذهب مرحي وخجلت جداً من أمام الآلاي.. يعلم الله كم عاب عملي.. انني أكتب هذه السطور وأنا أشعر بالدم يتصاعد الى وجهي فيشعل خدي.. آه! يا ربي!. أصبحت مدرسة ولم أستطع ترك الجنون والطيش.. لم يقلها المدير رجب أفندي عبثاً في (ب..) عندما رددها علي مراراً وتكراراً: بعد عمر طويل.. ان مت يا فريدة وذهبت الى القبر لا بد أن تضحكي الإمام الذي سيلقنك.. لأنك لا تفتئين لحظة عن الضحك والإضحاك في كل وقت ومناسبة..

كان برنامج بعد الظهر تدوين أشهر السنة الأخيرة في مذكراتي... جلست أمام نافذتي التي تطل على المضيق والساحل. - جئت لهذه الدار لأجل هذه النافذة فقط... وإلا ليس هناك ما يطمعني بالدار.. - حباً بالهرب من (ب) رضيت بأول محل كلفت به ولم أفكر ان كان المحل مناسباً حتى ولم أهتم بالراتب ان كان ضئيلاً. ولكن لحسن الحظ كانت الناحية حسنة جداً. بلدة عسكرية ساكنة وظريفة.. سواء كان الأهالي أو المغتربين.. أينما سرت وممن سألت لا بد أن يكون أخاه أو أباه أو زوجه في الجيش أما ضابط أو جندي... حتى المعلمون فان القسم الأعظم منهم أمام طابور أو مفتش آلاي والحاصل أناس لهم علاقة في العسكرية. وقربان أفندي أيضاً بعمامته كثيراً ما ارتدى البزة العسكرية. تعجبني نساء (ج..) جداً. انهن مخلصات، مجتهدات، مسرورات من حياتهن، مؤنسات وبسيطات. يملن للسلوى بقدر ميلهن للعمل.. لا يمضي أسبوع دون عرس... ويدوم العرس أسبوعاً في كل ليلة حفلة بأسماء مختلفة ليلة الحناء، ليلة جلب الملابس، ليلة الاستحمام وغيره... وهكذا يتسلين كل ليلة تقريباً. كنت أعجب في أول الأمر كيف يحتملون مصاريف هذه السهرات والاجتماعات لكنني علمت بالسر أخيراً. مثلاً:

ترتدي السيدة فستان عرسها عشر سنين بل عشرين سنة في كل حفلة وعرس.. وبعدها تعطيها لابنتها نظيفة مرتبة. اجتماعاتهن بسيطة للغاية. والمغنية عبارة عن امرأة أرمنية عجوز تعزف على العود وتقبل أجرتها بضعة قروش أو قطعة قماش بسيطة، نعم انها اجتماعات بسيطة لكنها كافية لجلب الراحة والسرور الى قلوبهن آه! ليتني ولدت بينهم ومنهم.. ليتني انا أيضاً اعتدت أن أرى كفي مخضبة بالحناء الحمراء تزينها.. والحاصل لننتقل لأبحاث أخرى. أحبتني جاراتي بسرعة الا أنهن كن يتأثرن مني لعدم اختلاطي بهن واشتراكي باجتماعهن فلذا بدأت الاتصال بهن خشية أن يسندن الي العجرفة والغرور.. ولم أتفاض عن لطف أظهره أو عمل أقوم به نحو هن كما أنني اعتنيت ببناتهن في المدرسة...

هنا منتزه أعجبني كثيراً أسمه (سوكودلك) أي (حرج الحور) أشجار كثيرة على ضفاف نهر واسع. لا أجرأ الذهاب إليه في الأيام المقصودة إلا أنني في الأيام العادية أمر من هناك مع مؤنسة بعد خروجي من المدرسة. (سوكودلك) غابة كبيرة من أشجار الحور والسنديان.. انها لا شك من مئات السنين.. أشجارها كثيفة متقاربة بشكل يخيم الظل عليها في رابعة النهار سوى خيوط قليلة من أشعة الشمس البراقة تدخل من بين الأغصان فتتلامع على ضفتي النهر. وهناك بساتين البلدة تمتد على ضفاف النهر أيضاً بينها طرق ضيقة محفوفة بالظلال.. يخيل للإنسان عندما يتطلع الى تلك الطرقات من بعيد بأنها طرق تودي بالإنسان الى غير هذه الدنيا التي يعرفها. انها طرق تودي الى الأحلام.. الى الآمال البعيدة.. لم أمر الى الضفة الاخرى لان هناك يتنزه الزوجان على الأغلب أو الشبان من الضباط مع الشابات المعشوقات...



يقطن أثرياء البلدة في محل يطلق عليه اسم (هضبة المرضى) اسمه بشع لكنه محل جميل. انه مواطن اسعد الناس في البلدة. عندما حضرت الى هنا دلوني على دار جميلة هناك لكنني لم أتجاسر على سكناها لأنني لم أعد غنية مثلما كنت في (ب..)

ولذا فأنا مضطرة للعيش باقتصاد وتقتير. على كل حال ان بيتي الحالي واقع بحي لا بأس به. انه حي آهل بالمقاهي والدكاكين وله ميدان واسع كبير.

في الصباح مر أهل (ج) من أمام داري ذاهبين الى (سوكودلك) والآن أراهم عائدين رغم ان الغروب ما زال بعيداً. قبل هنيهة مرت قافلة ضباط.. وقفوا ليكلموا ملازماً كان يأتي نحوهم على عجل سألهم: لم تعودون هكذا مبكرين؟ أنا ذاهب الآن.. حيث انتهت أعمالي في الثكنة أجابه عريف ضخم الجثة أراه دوماً وقد فتح أزرار معطفه: ارجع لا تحمل نفسك مشقة الذهاب، لا طعم لـ (سوكودلك). فتشنا كثيراً فلم نجد أثراً للحلاوة... (حلاوة الورد)..

يظهر ان رجال البلدة يميلون لأكل حلاوة الورد.. لأنني أسمع من كبيرهم وصغيرهم اسم الحلاوة على الدوام. أظن هذه الحلاوة نوعاً من مربيات الورد.. مهما كانت لذيذة الطعم فانني لا أستطيع إدراك السبب لأهمية اكلها في يوم عيد الربيع في النزهة. والشعور بالخيبة واليأس لعدم وجودها...

حقا! ان (حلاوة الورد) كلمة سمعتها مراراً في الطريق من المارة كباراً وصغاراً. مثلاً كنت عائدة من المدرسة في احدى الأمسيات وكان أمامي بعض الشبان بزي رث يسيرون ولا أدري بماذا أرادوا إكرام صديق لهم فرفض قائلاً:

أقسم بأنني لا اريد.. الآن قمت عن الطعام ولا استطيع أكل أي شيء مهما كان.

فأجابه آخر وهو يهز كتف المتكلم! ألا تأكل؟ لو كانت حلاوة الورد اترفضها أيضاً؟

فاستكان الشاب وقال مبتسماً: لا! عندها لا استطيع المقاومة.. كثيراً ما يمازح اهل الحي السقاء المرح رغم فقره المدقع فيقولون له: أي سليمان اسمعنا... متى سنحتفل بعرسك؟..

- عندما تريدون أنا على استعداد دوماً...

- سليمان كيف تستطيع إعالة نفسك بفقرك هذا؟

- ادهن الخبز الجاف بحلاوة الورد واكله... أ أتمنى من ربي شيئاً أحسن من هذا؟

يتكرر هذا المزاح كل يوم تقريباً. والأغرب ان جارنا قربان أفندي قبض على مؤنسة قبل ثلاثة ايام؟؟ واغتصب قبلة من خدها وهو يقول:

أوه! تفوح كالمسك رائحة حلاوة الورد...

أخذت قوافل العائدين من النزهة بالازدياد. قهقهة ناعمة طرقت أذني انه صوت مؤنسة. لم اشتقت للشيطانة؟ مضى أربع ساعات على غيابها كانت بمثابة أربع شهور طويلة.

23 نيسان (بعد ساعتين)

فهمت القصد من حلاوة الورد. قالت مؤنسة لبعض المعلمات عندما التقت بهن انني مريضة.. انشغل بالهن وأردن الاطمئنان عني من الباب عند عودتهن. أصريت على إدخالهن وأردت ممازحة إحداهن فقلت: هل وجدتن حلاوة الورد؟ سمعت الضباط يشكون وهم عائدون من عدم وجودها.. أجابتني إحداهن ضاحكة: تعلمين جيداً بأننا نحن أيضاً حرمنا منها.

ـ لماذا؟ لأنك لم تحضري...

تطلعت إليها بحيرة ودهشة وسعيت للضحك قائلة: ما هي المناسبة؟

ضحكت المعلمات ونظرت زميلتي الى وجهي بارتباك تقول: أحقاً لا تعلمين؟

ـ أقسم بأنني لا ادري من أمر حلاوة الورد شيئاً

ـ مسكينة فريدة ما أطيب قلبك وما أعمق سذاجتك، ان هذا اسم أطلقه عليك رجال (ج) لصفاء بشرتك وجمالك..

تلعثمت من خجلي وارتباكي وأنا اقول: كيف؟ أنا؟ إذا حلاوة الورد التي يتحدثون عنها.. تلك التي يبحث عنها شباب الطريق ويتغنون لدهن خبزهم بها هي أنا... أواه ما أتعسني.. سترت وجهي بيدي لفرط خجلي وانا أتمتم: ما أفظع هذا وما أعيبه يا ربي! إذاً وقعت بلسان اهل الناحية رغم تستري وحجابي..

سحبت زميلتي يدي عن وجهي وبلهجة يختلط فيها المزاح بالجد قالت: لماذا تتألمين وتشكين؟ انك شغل رجال الناحية بكاملها.. لمن من النساء تتيسر هذه السعادة؟ ان الرجال مخلوقات رديئة.. أراهم لا يكفون عن إزعاجي هنا أيضاً.. رباه.. كيف يمكنني الخروج أمام الناس بعد الآن؟.. كيف استطيع رؤية جاراتي؟.

1 أيار (ج)

قبل هنيهة وانا أصحح وظائف تلميذاتي.. دق الباب فنادت مؤنسة أختاه! جاءك ضيوف. كانت في الباحة سيدة تدور وهي متسترة بملاءتها فلم استطع التعرف عليها. فقلت بتردد:

ـ من انت يا هانم؟ انطلقت من فم السيدة ضحكة ناعمة والتفت كالهرة على عنقي.. كانت مؤنسة... ارتدت الشيطانة احدى ملاءاتي تريد مباغتتي والفكاهة معي.. كانت تدور بي في الباحة وهي تلف ذراعيها حول خصري تقبل وجنتي وعنقي وكانت الملاءة على قدها وقد أحالتها الى شابة كبيرة. كبرت الصغيرة تماماً خلال السنتين وقد ازداد جمالها وتفتحت النواحي الغامضة من نفسها فاصبحت شابة لطيفة ظريفة. ان المرء لا يعطي بالاً للفروق التي تطرأ على ما يشاهده باستمرار.. كان من المفروض ان أطير فرحاً عندما رايتها كبرت واصبحت شابة لكنني بالعكس تألمت وسادني حزن عميق.. وقد ادركت مؤنسة ذلك فقالت:

أختاه! ماذا جرى لك.. اردت المزاح.. اخشى ان اكون قد أزعجتك. كنت أتطلع إليها بحزن كأنها اتت ذنباً وقلت: مؤنسة! لا يمكنني إبقاءك معي الى الأبد.. ارى ذلك مستحيلاً لا تقبلين به.. اشعر بأنك من الآن تطيرين فرحاً من الأعراس وانت تتزينين بقصب العروس. أنا واثقة يا ابنتي بأنك لا تبقين لي. ستطلبين في يوم من الايام ان تكوني عروساً.. وتتركيني وحيدة.

كأن قسوة تلك الوحدة المقبلة ووحشتها خيمت على نفسي من الآن فاغر ورقت عيناي بالدموع. كنت أتوسل الى مؤنسة بنظراتي ودموعي وكل جارحة من جوارحي

لتسليني بكلمة تقولها.. تطرد بها شبح الفراق عن نفسي.. لكن الظالمة قلبت شفتاها تقول ما العمل يا أختاه؟ هذه هي سنة الكون...

- إذاً ستتركينني لتكوني سيدة دار رجل غريب؟

لم تحر مؤنسة جواباً. واكتفت بالضحك ولكن كيف؟ بسرور ظهر بأن القاسية تحب زوج المستقبل اكثر مني..

عندما رأيت ذلك تمالكت نفسي واخذت أحدثها العكس فقلت: هناك وقت طويل لبلوغك العشرين.. حتى تصيري عروساً..

- أليس كثير حتى سن العشرين يا أختاه؟

- إذاً 19 او 18 عاماً.. لماذا لا تجيبينني. هل تكتفين بالضحك.. أراك تضحكين وكأنك تقولين: (أنا اعرف).. اقسم بأنه لا يمكن زواجك قبل بلوغك الثامنة عشر..

كانت الشيطانة تضحك ساخرة من مساومتي فلو لم اخجل من إظهار ضعفي لبكيت...

ان المخلوقات الصفر يكونون دوماً عديمي إخلاص ووفاء وكلهم يعذبون من حولهم بألوان تتناسب مع تماسهم بهم وان اختلفت بالشكل.

10 أيار (ج)

في المدرسة تلميذة بين الطالبات في الثانية او الثالثة عشر من عمرها ابنة باشا ثري.. متكبرة صلفة كأنها عادت فصغرت بعد الكبر.. قصيرة القامة بشعة التقاطيع.. اسمها (نادية هانم)- لا أقول ذلك استهزاء بل هذا هو اللقب الضخم الذي يطلقونه عليها في المدرسة- تسكن في أحسن قصر بحي (هضبة المرضى) تأتي كل يوم الى المدرسة بعربة أبيها يحرسها خادم نوبي يجلس قرب السائق بملابسه المزركشة.. أظنها تأتي الى المدرسة حباً بالسخرية من زميلاتها الفقيرات والمعلمات اكثر من حبها للدراسة والتهذيب.. كأن التلميذات جواريها... والمعلمات يتلقين سماجتها وغطرستها واجباً مفروضاً.

تدعو السيدة الوالدة معلمات ابنتها الى قصرها أحيانا وتولم لهن ولائم خاصة... فتقضي زميلاتي المسكينات وقتاً طويلاً بعد العودة يتحدثن بما رأين من الجاه والعظمة والترف. ان عمل زميلاتي هذا يثير الضحك في نفسي كما انه يزعجني ويؤلمني.. ادركت نفسية عائلة عبد الرحيم باشا انهم من النوع الذي يجد ذوقاً في إثارة دهشة الناس البسطاء والفقراء.. انها عائلة حديثة النعمة والثراء جن جنونها بمالها الذي جاء متأخراً وعلى غير عادة.. كثيراً ما ارادت زميلاتي سحبي معهن الى القصر.. فاحمر وجهي غضباً وظننت إلحاحهن تحقيراً لي. فتملصت وانا انفض كتفي استخفافاً رغم انني لا أتوانى عن ملاطفة ومداراة التلميذات الفقيرات حتى بربط أحذيتهن فانني انفر من تلك الفتاة المتكبرة المتغطرسة ولا اترك لها مجالاً للتقرب مني.. وكثيراً ما ابالغ في إزعاجها خلال الدرس وانها على الرغم من ذلك تلاحقني وتود التقرب مني اكثر من زميلاتي.. انها تكاد لا تفارقني..

وقفت اليوم عربة أمام داري قرب الظهيرة.. وإذا بها عربة عبد الرحيم باشا. فتح الخادم باب العربة فرأيت من النافذة دخول تلميذتي نادية هانم الى داري بعظمة تضاهي عظمة الأميرات وقد تراكض اولاد الحي يتفرجون عليها. دهش الجيران من الزيارة وامتلأت نوافذهم بأصحابها.

كانت نادية هانم تحمل لي رسالة من أختها الكبيرة التي تقول لي فيها: معلمة هانم.. والدي الباشا ووالدتي والداعية نرجو جميعاً تشريفك دارنا اليوم.. كما اننا نرجو ان تشرفي بالعربة التي وضعت تحت تصرفك في هذا اليوم.. نتوسل اليك ان لا تخيبي طلبنا نحن بانتظارك.

فهمت قصدهم للحال.. توهموا بأنهم سيجعلونني كالمعلمات رفيقاتي عبدة ثرائهم وسلطتهم.. يدهشونني بما لديهم من اثاث وتحف.. اول فكرة طرأت مخيلتي هي ان اعيد الهانم الصغيرة والعربة مرفقين بجواب يحوي كلمات شكر باردة.. لكن خطر لي فجأة ان اعطي هذه العائلة المجنونة بثرائها درساً يكون لهم عبرة وعظة. فلذ: رضيت بالذهاب.

رأيت كثيراً من الباشاوات في استانبول. كانوا اعلى قيمة واكثر جاهاً من هذا الباشا.. ولذا لم يكن قصدي رؤية الباشا وداره بل كان مرادي تعذيبهم بعض الشيء ليعودوا الى انفسهم ويتركوا تعذيب الغير.. اردت كشف نقاب الكذب والرياء عن وجوهم لاريهم بشاعة نفوسهم المتسترة بأردية العظمة الجوفاء الخداعة.. وكان هم عصفورة السياج الوحيد ان تظهر لهم خساسة نفوسهم.. ماذا اعمل؟ هكذا خلقت.. لست فتاة رديئة.. احب الناس البسطاء وعديمي الاهمية ولا استهتر بهم ابداً الا انني ظالمة مستبدة بالاثرياء الذين نفخوا بالعظمة والكبرياء..

ان من حقي ان اقوم ببعض الشيطنة بعد عامين قضيتهما بتعقل حتى المسكنة.. فلذا ارتديت ببساطة يتخللها ذوق عجيب.. ولحسن الحظ بأن لدي فستان كحلي جميل وظريف للغاية. ارسله لي عمي من باريس. لم اتورع من ترك نادية هانم وحدها في غرفة الضيوف بل بالعكس قصدت اهمالها فتركتها مدة طويلة وانا اماطل واعتني بل اسرف بترتيب ملابسي وزيي. قلدت في ترتيب شعري قصاصة كانت أعجبتني في احدى المجلات الاوروبية في (ب) فقصصتها واحتفظت بها. ثبتها فوق المرآة أمامي وبذلت جهداً في تقليدها حتى اصبح رأسي صورة عن تلك القصاصة. بعد قليل سأبذل جهدي في مراقبة الأثر الذي سأتركه في هذه العائلة التي تعد نفسها ملكة جمال واناقة.. ولنر من منا اكثر اعتناء وتفهما بالأزياء...

لم اترك الهانم الصغيرة تنتظرني تحت لا تزين فقط بل تركتها ايضاً لأرى في وسط الغرفة الحقيرة وجه الشابة التي تبسم لي.. كنت انظر اليها بخجل كأنني انظر الى شخص غريب... ما دامت مذكراتي ستبقى في مأمن من يد غريبة تعبت فيها لم لا اعترف بكل شيء واتكلم بصراحة؟ كنت اراها جميلة جمالاً يتزايد استنباط اسراره كلما ازداد الناظر تعمقاً بالنظر اليه. لم تكن العينان نفس العينين اللتين عرفتهما في استانبول... عينا عصفورة سياج تبرق بريق ضياء من نجوم.. لم تكن نفس العينين العسليتين بهما ألم عميق من أثر تلك الليالي الموحشة الطويلة.. بهما سواد انطبع في حدقتيهما من استمرار التحديق في الظلمات الحالكة... بهما خيال متعب... لم تشبعا

من النوم.. ومن اشياء اخرى. فاكتسبتا سكونا اطبق الجفن قليلاً... لو لم تنحكا قليلاً للاحتا عميقتين وكبيرتين كاضطراب حيوي دائم.. ولكن ما ان بان الضحك فيهما حتى تلاشى كل ألم وزال.. عندها تصغر حدقتهما فلا تتسع لضيائهما وتتناثر شعاعات صغيرة جذابة على الخدين.. ما اجمل الخطوط الدقيقة الحلوة التي يحويها هذا الوجه.. انها خطوط رقيقة جميلة تبعث البكاء للنفس... ارى الآن ظرافة خلابة حتى في عيوبه.. كان صهري الذي يسكن تكفورداغ يقول: (يا فريدة ان حاجبيك يشبهان كلامك يبدأن ظريفين رفيعين لكنهما يضلان الطريق قبل النهاية..)..

يا الله! ما اجمل ذلك الحاجبين اللذين نعتهما بأنهما يضلان الطريق.. ما اجمل تبعثرهما نحو الصدغ في نهاية الطريق!.. ثم شفتي تبدو كأنني اضحك لقصرها قليلاً تترك اسناني مكشوفة نوعاً.. ان هذه الشفة هي التي قال عنها المدير في بروسة بأنها ستوصلني الى القبر وانا ضاحكة..

كنت اسمع صدى خطوات الهانم الصغيرة وهي تتمشى بضيق وضجر في الغرفة لكنني لم استطع بحال الابتعاد عن المرآة ومفارقة تلك الشابة الظريفة التي فيها.. كم تأثرت وحزنت عندما سموني دودة الحرير في (ب) وحلاوة الورد في (ج) لكنني الآن لا أتضايق قط من تسمية هذه الشابة اللطيفة الجذابة التي أراها في المرآة يانعة كورود نيسان التي ترطبت بندى الربيع وقد أضاءها نور السحر البديع بشتى الأسماء الحلوة اللذيذة.. تلفت حولي كأنني اخاف من ان يراني احد ثم اقتربت من المرآة لأقبل خيالي من وجهه وخديه وذقنه... وكان قلبي يرتعش كالعصفور وشفتي ترتجفان بنشوة عذبة لذيذة.. لكن! هيهات!! يظهر ان المرآة من ايجاد الرجال.. صنعها الظالمون القساة بشكل لا يستطيع الانسان مثلاً أن يقبل فيها شعره او عينيه.. مهما اجهد نفسه فان قبلاته تنحصر بشفتيه وفمه.. آه! ماذا اقول؟ كانت (سور آله كسي) تقول (ان لباس الراهب يجعل نفسية لابسها راهباً). ترى هل الرأس المبالغ في بهرجته يجعل نفس صاحبه كذلك؟ ماذا؟ لا أدري... ما أسخف هذه الكلمات الفارغة من معلمة....

كان من حقي الشيطنة اليوم بعدما قضيت سنتين بهدوء وسكون.. عندما رأيت السيدات ينظرن اليّ عند دخولي الى الصالة كممثلة ناشئة اسند اليها دوراً لم تدركه اخذت اضحك في نفسي وأنا أقول: سترون اصبروا قليلاً...

اخذتهن الدهشة عندما لم اقبل اطراف ثيابهن كغيري بل اكتفيت بتحيتهن تحية بسيطة.. بدأن ينظرن الى بعضهن باستغراب.. لا سيما سيدة ظننتها مربية اخذت تحدجني بنظرات جفاء بعدما وضعت نظارتها الذهبية على عينيها.. كانت اطواري وحركاتي تنطوي على البساطة والمرونة وكلامي ينم على الثقة والطمأنينة التي قلبت نفسية الموجودات في الصالة رأساً على عقب.. فالصالة تشبه بمحتوياتها المخازن الملأى بالأشياء الثمينة المتراصة فوق بعضها والسيدات في اطراف الصالة كالتماثيل التي اودعت المخزن من سنين تنتظر الشاري ليأخذها ويخفف من تكاثف الأشياء في ارجاء المخزن... كل ما في الصالة كان لا يمت بصلة لما يسمونه الذوق او الترتيب... وكانت نساء (ج) الساذجات يمتزن بكثير من النواحي على تلك التماثيل...

بدأت بجرأتي الجنونية ان اكسب سيادة الصالة.. واضعهن موضع الزائرات الساذجات القليلات الحركة والتصرف بالأمور... كنت ابذل جهدي كيلا اخرج عن طوري الطبيعي فأظهر نيتي من الكوميديا المضحكة التي امثلها.. اشعرتهن عدم اهتمامي بكل ما أرينني اياه او أظهرنه لي بشكل اشعرتهن معه بأنهن مسكينات قليلات معرفة.. مثال ذلك: كانت ابنة الباشا الكبرى ترينا بعض اللوحات عندما قلت لها بلطف وكلمات بسيطة منمقة تفاهة اللوحات المأخوذة بها وأريتها تمثالاً صغيراً كان في الزاوية سائلة عن السر بعدم اهتمامهن به رغم ما ينطوي عليه من جمال الصنع والأثر وكنت اردد بين الحين والآخر اثناء الكلام انه التحفة الأثرية الوحيدة التي تحويها الصالة ويستحق الاعتناء والتقدير.. والحاصل لم ادهش بشيء من فخفختهن وثرائهن.. وانتقدت كل شيء يحويه قصرهن.. خاصة اثناء الأكل عذبتهن بأسلوب خفي وظريف.. من يعلم عدد الاشخاص الذي وقفت اللقمة في حلوقهم عندما جلسوا يأكلون على المائدة الثرية الفخمة... وكم من الاشخاص تصبب عرقهم خجلاً لعدم

معرفتهم استعمال الشوكة والسكين... وكم من الاشخاص ردوا الطعام الذي قدم لهم لعدم معرفتهم كيف يؤخذ من الاطباق... اليوم ثأرت لهم جميعاً... كانت حركاتي متزنة بدراية ومعرفة واسعتين جعلت السيدات ينظرن الي بدهشة واستغراب. وأنا ايضاً كنت اتطلع اليهن احياناً لكن نظراتي كانت تهز الشوكة في يدهن وتسد حلوقهن ويضطربن حتى بشرب الماء.. خاصة تلك السيدة التي كانت تجلس بخيلاء وعظمة تتكلم الفرنسية الركيكة المضحكة جعلتها تندم لمجيئها للدنيا لحركاتي العفوية الصادرة عن معرفة اكيدة عميقة...

كانت بحكم وظيفتها وهي مربية تفرض نفسها زميلة لي لكوني معلمة وتظن بأن دخولها الجدل الخفي معي مجبورية مسلكية.. لكنني ضحكت من هذه المهزلة وأخجلتها بشكل قالت بعده بأنها لا تستطيع اطالة البحث معي باللغة التركية لأنها محدودة الاطلاع للغة. عندها قلت لها لا بأس يا آنسة فلنتكلم بالفرنسية وبدأت أتكلم بالفرنسية... والحاصل ان معلمة المدرسة الابتدائية الحقيرة انقلبت الى محدثة لبقة تعالج شتى الامور.

ولدت شيطنة عصفورة السياج من جديد تلك الشيطنة التي كانت تسكت أكثر معلمات معهد (دام دوسيون) فصاحة.. ولم تأل جهداً في المناقشة بكل شيء حتى أفحمت المربية بحججها فاستسلمت ورضخت.. بعدها كررت قولها: على كل دخلت كثيراً المجالس الراقية ورأيت بعيني عاداتهم وأصولهم.. وكأني بها أرادت اسكاتي بقولها هذا... عندها نظرت اليه باستخفاف يخالطه الغرور وقلت:

أنت دخلت وخرجت اي كنت ضيفة زائرة للمحلات التي ولدت أنا وتربيت فيها يا آنسة... كاد الاضطراب يخنق انفاس الآنسة فهربت من بيننا بحجة ان الساعة ازفت لاعطاء الدرس لأحد احفاد الباشا..

انقلبت السيدات كحملان وديعة وطرحن رداء الغرور المزيف عن نفوسهن واظهرتها بوجهها الحقيقي.. والحق لم يكن اناس رديئي الطباع عندها تراجعت على مهل

لطور معلمة ابتدائي بسيطة تعرف موقعها وعدم أهميته.. ونقدر ما يحيط بها حق قدره..

رجت السيدة الكبيرة والآنسات الصغيرات زيارتي المتواصلة. فأجبت بأنني سأزعجهن أحياناً بذلك لكن لا اود ذلك باستمرار اذأ ماذا يقال عندئذ في الخارج؟ ان رأوا ترددي المستمر عليكن ظنوا بأنني انتظر منكن شيئاً فأكثر من التردد والتصديع..

كانت السيدة الكبيرة تود ان تعرفني على حقيقتي وتصر على ذلك فقلت لها: انني ابنة عائلة كبيرة دالت دولتها وأصبحت فقيرة معوزة..

فأجابت: آه يا ابنتي كان بأمكانك ان تكوني عروساً لأحسن عائلة بما تملكين من جمال وخصائص جميدة...

- يجوز ذلك يا سيدتي. قد يمكن ان اجد شخصاً يرحب بي ويكون لا بأس به ولكن..

أنا فضلت ان اكسب عيشي بعرق جبيني والعمل ليس بعيب.

- ان طلبتك عائلة طيبة لابنها الطيب ماذا تقولين؟ فأجبت:

بديهي ان اشكر الله لما احرزته بينكن من عطف والتفات ولكن. سكت ولم اجرأ على القول بأنني أرفض اذ ربما خطر لهن خاطر سيء.. عندها قالت السيدة: ولكن ماذا يا ابنتي؟ قلبت شفتي وقلت:

لا أدري يا سيدتي...

علمت فيما بعد مقصدهن الحقيقي.. لم يطلبوني اليوم لأرى عظمتهم وثراءهم.. بل كان هناك سبب آخر..

أرادت ابنة الباشا ان تريني الحديقة وكانت الحديقة تشبه الصالة فيها ألف صنف من الورود والحشائش فرشت الحديقة بها بشكل يزعج العين. وبينما كنا ندور بالمكان الذي يسمونه الحرش لوجود بعض أشجار الصنوبر الصغيرة فيه (لكي استطيع البحث بما جرى علي ان أعود لحادثة جرت قبل اثني عشر يوما).

يلاصق حديقة مدرستنا كرم كبير.. تهدم الحاجز بين الحديقتين فأصبحت واحدة تقريباً.. فلذا أخذ بعض العمال الفقراء يعملون في تلك الكرمة منذ أيام.. كنت أذهب

الى قربهم خلال الفرص وأتسلى بالتفرج عليهم وهم يكدحون بجد والعرق يتصبب من أجسامهم النحيلة.. قبل يوم من اليوم الذي دعيت فيه لقصر الباشا رأيت بينهم عاملاً شاباً يرتدي نفس الزي الا ان هناك فارق محسوس بينه وبينهم سواء كان في سماته أو حركاته.. كان هناك نقاء غريب في بشرته السمراء وبريق في عينيه وبالأخص كانت يداه ناعمتين ورقيقتين كيدي سيدة تماماً. لم اجرأ على الاقتراب منه لانه لم يكن كرفاقه قطع سن الشباب في العمل المرهق فأثقلت السنون كاهله وأضفت على وجهه مسحة دائمة من الالم السحيق.. الا انه تجرأ على الاقتراب مني ورجاني ان أتوسط بطلب كوبة ماء يشربها.. لانه عطش بسبب الحر والعمل..

لأنني لا استلطف السيدات المبالغات بالتحجب يكون يهربن من الديكة.. فلذا لم أظهر امتعاضاً من اقترابه وفكرت بأنني معلمة فلذا قلت له:

ـ حسناً يا ابني.. انتظر قليلاً.. ريثما آتيك بجرعة الماء.

كنت أفكر بنفسي انه لا شك ابن عائلة طيبة أخنى عليها الدهر مؤخراً فاضطر لسندها بعرق جبينه. وكان العامل خجولاً وجريئاً. كان خجولاً بالكلام لدرجة التلعثم.. لكن من جهة أخرى كان كثير السؤال جريئاً بأسئلته.. وكم من الاسئلة الغير مناسبة التي وجهها الي منها انه جاء منذ عهد قريب الى.. هل البلدة رخيصه؟ كيف يكون شتاؤها؟ هل التفاح والكمثري كثير فيها؟

بينما كان يشرب الماء كنت أضحك وأنا أقول لنفسي: يظهر بان هناك نقص في عقل المسكين.

ولا ننتقل الآن لحادث رأيته في تلك البقعة التي يطلقون عليها اسم (الحرش) في حديقة الباشا واستثارت دهشتي واستغرابي...

تقابلت بين أشجار ذلك الحرج بذلك العامل الشاب وجهاً لوجه ولكن اليوم كان زيه يختلف تماماً عن الزي الأول.. كان بزي عسكري كامل من البرة حتى السيف المعلق على جنبه والرتب المعلقة على كتفه تدل على انه رئيس في الجيش وقد مشط شعره بشكل يلفت النظر وقف بين شجرتين وقد رفع رأسه عالياً وضم رجليه الى بعضهما

كأن يستعد لأخذ صورة وقد ارتسمت الابتسامة على محياه وعيناه تبرقان كان بوضع من ينتظر أمر الاستعداد...

نريمة هانم ابنة الباشا الكبرى: واه احسان! أ أنت هنا؟ من اين ظهرت؟

قالت ذلك باستغراب مصطنع لم يخفف عليَ لأنها كانت تمثله بشكل ظاهر ملموس وكأن في نبرات صوتها معنى تقول فيه: آسفة لظهور كذبتنا للعيان...

نعم كنا سنمثل في هذا المسرح تمثيلية هزلية مضحكة.. لماذا؟ سأفهم ذلك فيما بعد.. اما الآن عليَ ان اتظاهر بالغباء وأكون صبورة جسورة..

على كل يظهر بان هؤلاء الباشوات أناس مغرمون بالمفاجآت.. اما أنا فان عنادي حاكمي اليوم.. ليصنعوا الذي يريدونه وأنا سأصمد ولا أتظاهر بالوحشة والاستغراب.. كانوا ينتظرون خجلي وهربي... فأنا بالعكس لم افقد توازني وسكوني...

قالت نريمة هانم: فريدة هانم! انت ايضاً مثلنا استانبولية الأصل فلذا لا أظنك ترين اي محذور من تقديم ابن عمي لك.. انه ابن عمي وأخي في الرضاع اسمه احسان..

فأجبت بعدم مبالاة ملحوظة: بالعكس اكون ممنونة جداً يا هانم.

ثم قدمت نفسي دون أن اترك لها مجالاً بالكلام:

ـ فريدة نظام الدين ضابطة صغيرة في جيش المعارف..

لم يتمالك الضابط الشاب سكونه الجريء وكان له الحق في ذلك.. معلمة مدرسة ابتدائية بسيطة تكون بطلة التمثيل.. ولا تفقد وعيها عندما ترى الشخص الذي رأته قبل يوم واحد بلباس العمال وقد تبدل اليوم الى زي ضابط تتلامع أزراره المصقولة..

نعم كسبت المعركة وكان الارتباك من نصيبه لأنه كان جاهلاً لعوائد واتيكيت الصالونات التي علمونا أياها سنين طويلة مستمرة.. جمدت يده في منتصف طريق وصولها الى أعلى وأظن بأنه كان على أهبة رفعها لأخذ التحية العسكرية.. ثم استدرك وفضل ان يمدها ويسلم عليَ عن طريق المصافحة.. لكنه في هذه المرة رأى القفاز في يده فشده كأنه نار لحقت جسده فأضرمته..

تحدثت اليه بلا كلل ما يقرب الخمس دقائق.. وكلما التقت نظراتنا كان المسكين يلقي ببصره الى الامام كأني به يتذكر لباس العمال الذي ارتداه فيخجل لشعوره بأنني اكتشفت المؤامرة لكنني لم اظهر اهتماماً وكنت أتكلم كأنني اراه للمرة الأولى...

بينما كنا بطريق العودة الى القصر قالت نريمة هانم بتردد:

- فريدة هانم! لا شك بأنك عرفت احسان..

اذن هي أيضاً كانت مطلعة على حادث المدرسة.. فقلت ببساطة..

- نعم

- أخشى ان يخطر لك خاطر سوء فلذا سأقول لك الحقيقة.. تراهن احسان مع رفاقه.. ما العمل هذا هو الشباب وكل شيء يراه الشاب ممكناً..

لم اتمالك نفسي من قلب شفتي بدهشة واستغراب وقلت: ما الداعي يا هانم؟

أخذت نريمة هانم تحمر خجلاً فلذا بدأت تضحك لتستر خجلها وقالت:

صادفك بعض الضباط مرة وأنت عائدة من المدرسة وقالوا بأنك جميلة جداً.. نحن من أهالي استانبول.. وبديهي اننا لا نعد هذا تحقير مثل أهل هذه البلدة مثلاً.. دخل احسان الرهان قائلاً: لا بد من تدبير أتوصل به الى معلمة هانم وأحدثها. ولم يتكاسل من أخذ بدلة احد العمال وقام بما قام وكسب الرهان.. أليس هذا بغريب؟

لم أحر جواباً وأدركت المسكينة تقل تأثير كلامها على نفسي..

لعبنا اليوم آخر فصل من هذه المهزلة في القصر عندما دخلنا الصالة وصل خبر مقابلتي لاحسان بك الى القصر قبل وصولنا.. وكانت الوجوه كلها تدل على ذلك...

خرجت السيدات من البهو باشارة خفية أتت بها سيدة القصر.. وبقيت أنا ونريمة هانم وحدنا معها..

بدأت سيدة القصر الكلام بعد تردد قصير فقالت: كيف وجدت احسان يا ابنتي؟

فأجبتها ببساطة: يظهر انه شاب لا بأس به يا سيدتي..

هي: حسن الطلعة.. حسن الثقافة.. عين الى الاسكندرون بترفيع ناله..

أنا- ما أحسن ذلك! انه شاب ظريف.. ويظهر كما تقولون معلوماته أيضاً طيبة..

نظرت الأم الى ابنتها وكانتا حائرتين من كلامي ومسرورتين أيضاً.. فقالت السيدة وهي تضحك بسرور: وفقك الله يا ابنتي.. هونت عليَ مهمتي.. أنا والدة احسان بالرضاع.. ربيته بنفسي كأولادي.. فريدة هانم ابنتي.. ليس من الاصول المعتاد التكلم مباشرة مع الشابة لكنك عاقلة مدركة ما شاء الله.. أنني أريد لاحسان بأمر الله.. لأنه معجب بك مفتون.. وما دمت قد أعجبت به.. انتهى الامر وفقكما الله وانني أتمنى كلما السعادة بأذن الله نأخذ له مأذونيه شهر.. نحتفل خلالها هنا بعرسكما.. هل تقبلين؟ بعدها تذهبا معاً الى الاسكندرون.

عندما وصلت الى هذا الحد من حديثها لم ار بدأ من الكلام.. لا أدري السبب لشعوري بالحزن والالم رغم أنها حادثة مضحكة تدل على السذاجة.. على كل لم أتظاهر بالحزن وقلت:

ان هذا شرف عظيم لجاريتك يا سيدتي.. انني اشكرك واحسان بك من كل قلبي لهذه الثقة وأنا أقول بأن هذا الامر ليس بالامكان..

دهشت السيدة من هذه المفاجأة وقالت: لماذا يا ابنتي؟.. ألم تقولي قبل لحظة بأنك أعجبت به ووجدته ظريفاً وجميلاً؟

فأجبتها ضاحكة: اكرر هذا ثانياً يا سيدتي الحق ان احسان بك شاب جميل وظريف له قيمته ولكن لو مر بخاطري احتمال الزواج أكان بالامكان ان اقول لك ذلك بهذه الصراحة؟ الا يكون ذلك جرأة تشبه الوقاحة من شابة صغيرة مثلي.

نظرت الاثنتان الى بعضهما وساد سكون قصير بعدها مسكت نريمة هانم يدي وقالت:

فريدة هانم! على كل آمل ان لا يكون هذا جوابك القطعي لان احسان سيتألم جداً..

ـ احسان بك شاب جميل وظريف أنا أكرر ذلك.. يمكنه الزواج من اي شابة يطلبها بدون استثناء..

ـ نعم! لكنه يريدك انت.. ألم احدثك قبل هنيهة عن رهانه مع رفاقه يا حبيبتي؟ مسكين انه بعذاب واضراب منذ عشرة ايام لا يفتأ عن القول: أموت ولا استغني عنها لا بد من زواجي بها..

كنت أشعر ان نريمة هانم تريد اطالة البحث املاً باقناعي بأشياء فارغة جوفاء لا تدخل بعقلي فقطعت عليها الحديث ببضع كلمات في منتهى الرقة واللطف أفهمتها بها استحالة ما تقوله.. وطلبت الاذن للانصراف.

تأثرت نريمة هانم كثيراً وبألم قالت لأمها: ارجوك يا اماه.. انت انقلي الخبر لاحسان.. لان لساني لا يدور لاعلامه وهو الذي لم يحتمل لحظة رفض فريدة هانم لطلبه.. سيتألم كثيراً عند سماعه الخبر..

آه من الرجال! كلهم يحملون نفس الغرور!.. وكلهم معجبون بأنفسهم لا يريدون أبداً ان يدركوا بأن لنا قلوب نشعر مثلهم ولا بد لنا من أشياء نريدها بإصرار.

عندما تركتني عربة الباشا امام الدار كانت مؤنسة عند الجيران.. اردت ان اتفرج على شكلي ثانياً قبل ان اخلع ثيابي وكانت الغرفة مظلمة تماماً.. كنت بالكاد ارى وجهي كالخيال في المرآة التي تشبه بلمعانها ضياء قمر باهت تسلل الى الغرفة.. لا أدري كيف حدثت خدعة الضياء. فالفستان الكحلي تراءى لي ابيض اضمحلت أطرافه الطويلة في غياهب الظلام..

سترت وجهي بكفي للحال.. ودخلت بتلك اللحظة مونسة الى الغرفة تنادي أختاه! مددت لها ذراعي كأنني استمد القوة منها وفتحت شفتي لاقول (مؤنسة) فخرج من بين شفتي اسم آخر.. اسم عدو أكرهه كثيراً..

6 أيار (ج)

علا سوقي هذا الاسبوع.. كنت بطلة كوميديا اخرى اليوم.. ان حادث اليوم أضحك من حادث الامس بألف مرة.. مهزلة تولد عصياناً أشد من عصيان الامس بكثير..

اسرد الحادثة كما جرت والمسرح هو غرفة الضيوف في داري..

أتت زوجة الشيخ قربان افندي زائرة اليَ وقد ارتدت ملاءتها الحريرية التي تذهب بها للاعراس وقد وصفت الذهب والمجوهرات على صدرها. لكن حالتها كانت غريبة انها مضطربة مشوشة. عيناها منتفختان تدلان على انها سكنت من البكاء قبل لحظة بدأنا الحديث..

أنا: يظهر انك ذاهبة لزيارة رسمية؟

هي: لا يا اختي جئت خصيصاً لزيارتك..

أنا: ما أكثر زينتك اليوم أكلها لأجلي؟

هي: نعم يا اختي.. كلها لأجلك..

أنا: (بدون اختيار مازحة) اذن جئتني خاطبة؟

هي: (بحيرة ساذجة بريئة) من أين عرفت ذلك؟

أنا: (بارتباك فجائي) كيف؟ هل أتيت خاطبة حقاً؟

هي: (بتنهد مرير وعميق) نعم يا أختي..

أنا: لمن؟

هي: (كأنها تبحث عن أبسط شيء في العالم) لزوجي.

بديهي بأن النكتة راقت لي واعجبتني لان سيدة ساذجة أتت بها فأخذت اقهقه لكنها لم تضحك لضحكي بل بالعكس لمعت الدموع في عينيها..

هي: أختي.. مالت عين الافندي عليك.. واراد تطليقي ليتزوج منك.. رجوت وتضرعت.. وقلت لا بأس تزوجها ولا تطلقني وأنا كفيلة ان نعيش معاً بصفاء.. أهيىء لكما الطعام.. واخدمكما.. بعد جدال قبل ذلك مني.. ارجوك يا اختي ان تشفقي علي..

أنا: الهذه الدرجة يثق قربان افندي من قبولي الزواج به اذا طلقك

هي: (ببراءة) طبعاً.. لانه يقول.. انا مستعد لدفع 50 ليرة مخمسة مهراً لها..

أنا: مسكينة انت يا جارة.. هيا اهدئي واطمئني.. ليس هناك اي احتمال لشيء مثل هذا في هذه الدنيا...

أخذت المسكينة تدعو لي بالتوفيق وأسدل الستار..

15 أيار (ج)

نادتني المديرة لغرفتها هذا المساء بعد الانصراف وبوجه عابس قالت لي: فريدة هانم أبنتي! أنا ممنونة جداً من جدك ونشاطك.. الا ان لك عيب واحد وهو انك ما زلت

تحسبين نفسك في استانبول.. هناك مثل مشهور: (الجمال مصيبة) وانت شابة وجميلة وفوق ذلك وحيدة.. كان عليك ان تحفظي نفسك من ألسنة الناس.. انت بالعكس قمت باعمال تنم عن بعض الاستهتار.. لا ترتبكي يا ابنتي.. لا اقول اتيت ذنباً بل عدم احتياط.. مثلاً ليست هذه البلدة متسترة ومتعصبة كغيرها من الاقضية لكن بوسع النساء ان يخرجن متبهرجات نوعاً.. بما فيه معلماتنا الشيء الذي يبدو عادياً لغيرك استرعى انتباه الناس عندما قمت انت به. لأن جمالك وشبابك بطغيان يا ابنتي.. على كل رجل يراك او يلتقي بك امتلأت الناحية بأقاويل وثرثرات خفية.. يتوهم الناس بأنني معتكفة هنا لا أدري من الحوادث شيئاً لكن الامر بالعكس انا عالمة بكل شيء.. لم يبق في الناحية رجل من الضباط او العمال حتى ولا الطلاب من رآك عن بعد الا واخذ يبحث عنك ليراك مرة أخرى..

وبما تتساءلين عن السبب في خوضي هذا الحديث وبأي حق؟ فأقول هناك سببان يا ابنتي.. أولاً: انك طفلة طيبة جداً رغم انعدام تجاربك في الحياة.. نحن صرافون نحبد التعرف لماهية الناس ولذا اردت ان أقوم حيالك بواجب ام او أخت كبيرة...

ثانياً هناك صالح المدرسة يا ابنتي.. أليس كذلك؟

كانت المديرة تتابع حديثها باضطراب وتردد دون أن تنظر اليَّ...

- المدرسة مكان مقدس كالجامع تماماً.. وان من أجل واجباتنا حمايتها من القيل والقال والافتراء.. لأن ذلك وصمة تبقى على جبين المدرسة الى الأبد.. أليس كذلك؟ وانني آسفة على العقول بان هذه الأشاعات قد تمادت فأصبحت تجلب الضرر على المدرسة.. الا تلاحظين الآباء والأخوة الذين يحضرون في المساء بناتهم من المدرسة وقد تزايد عددهم وأصبح كثيراً.. ربما لا تلاحظين ذلك.. لكنني اعرف ذلك والاحظه باهتمام.. يأتون خصيصاً ليروك لا ليأخذوا بناتهم جدلت في احد الايام شعر احدى الطالبات الفقيرات وربطت بأطراف الجدائل شريطاً.. لا أدري كيف سمعوا بذلك.. دفع ضابط خبيث الدراهم للطفلة واخذ الشريط من شعرها.. والآن يضع ذلك الشريط

أحياناً في ياقته وهو يقول: (أنا ملكت الدنيا الآن وأصبحت سيد الأسياد الا يكفني الوسام الذي نلته من حلاوة الورد؟) ثم يتضاحك وأصحابه.

نقل لي البواب محمد آغا خبراً غريباً نهار الأمس وهو أن قبل ليلتين وقف السكاري العائدون من المقاهي أمام باب المدرسة وقال أحدهم. رأيت بعيني حلاوة الورد تلمس هذا الحجر الأسود.. هلموا بربكم نقبله..

هل ترين يا ابنتي ان هذه المسائل لا نتمشى وصالحك حتى ولا صالح المدرسة.. وكأن كل هذه الحوادث لا تكفي بل زدت بطيش جديد وهو انك تحدثت مع الرئيس احسان بك بقصر عبد الرحيم باشا لو قبلت تكليف حرم الباشا لما كان بأساً من المقابلة.. ولكن مقابلتك لشاب ثم رفضك الزواج منه رغم محسناته ومزاياه لأمر يدعو الى الشبهة والظنون وهنا اخذ القيل والقال يتسع بالتساؤل: ما دامت لا ترضى باحسان بك زوجا لا بد من رجل غيره في قلبها.. تراه من يكون؟

استمعت لكل هذا الحديث دون ان اجيب او أبدي حراكاً.. فالمديرة التي كانت تخشى اعتراضي وعصياني اخذت تشتبه بي بعد هذا السكوت.. فسألتني بعد تردد قصير:

ماذا تقولين وبماذا تدافعين عن نفسك يا فريدة هانم؟

تنهدت وبعد لحظة افتكار قلت: ان كل ما تقولينه صحيح يا مديرة هانم.. وبدأت الحظ ذلك بالتدريج.. سأحن لهذه البلدة الجميلة.. ولكن ماذا اعمل؟ اكتبي للمديرية.. واطلبي نقلي الى جهة أخرى وبيني سبباً لذلك.. ان اكبر خدمة انسانية تقومين بها لي هو ان لا تبحثي السبب الحقيقي بل اختلقي سبباً آخر.. قولي بأنني جاهلة.. سيئة الادارة.. لا استطيع القيام بالعمل الموكل اليَ.. عاصية قولي ما شئت يا مديرة هانم لا أتألم ابداً الا ان تقولي لاكت الالسنة سيرتها في الناحية ولذا لا أريدها.. هذا امر اموت منه خجلاً..

كانت المديرة تفكر دون ان تقول شيئاً.. استدرت نحو النافذة كيلا أريها دموعي وأخذت اتطلع الى الجبال العالية التي يغطيها سحاب رقيق يشبه الدخان...

بدأت عصفورة السياج تشعر بالغربة من هذه الجبال.. رائحة الغربة والبعاد.. ما أسخف هذه الكلمة لمن لا يشمها بروحه.. يطول في خيالي طريق الاغتراب بشكل لا أرى له نهاية وينوح في اذني صدى أجراس عربات النقل..

الى متى يا ربي؟ الى متى؟ والى لقاء اي أمل أسير يا ربي؟

5 حزيران (ج)

نالني الجزاء من حبس طيوري وبقيت حبيسة مثلها طيلة العطلة الصيفية الطويلة.. اذ قالت لي المديرة بأنه يستحيل انتقالي من هنا قبل شهر أيلول.. أسعى جهدي أن انسي الناس وجودي فلا أخرج من الدار مطلقاً.. لا تفتش الجارات علي كالأول.. يظهر ان الاشاعات افزعتهن فأبعدتهن عني.. الا سيدة عجوز تشبه خالتي.. احدثها احياناً كم يشبه صوتها صوت خالتي.. طلبت منها قبل مدة بخجل ان لا تدعوني معلمة هانم بل تناديني فريدة فقط؟

عجبت جارتي من طلبي هذا لكنها لم ترفض.. عندما تحدثني أغمض عيني واتخيل نفسي في حديقة قصر (فوزياتلق).. اف! ما أسخف هذا الكلام.. يظهر بأن ضعف الاعصاب يدب في جسمي.. على كل هناك عدم استقرار.. ما زلت اضحك كالاول.. وما زلت ألعب مع مؤنسة تلقيني وألقيها على الارض.. وما زلت أصفر لطيوري.. ولكن لم يبق استقرار لمرحي كحزني تماماً تكاد الدنيا لا تسعني.

بينما كنت آتية الى هنا لم استطع النوم في الباخرة.. وسمعت أحد المسافرين يتأمل الامواج ويغني قائلاً: عندك قلبي الحزين عندك. نسيت الاغنية في نفس الليلة التي سمعتها فيها وبعد انقضاء شهور أراني أغنيها على مهل في الحديقة وأنا اسقي الزهرات الاولى من زهرات نيسان..

ان روح الانسان ومشاعره لغز لا يدرك.. كيف حفظت هذه الاغنية التي سمعتها مرة واحدة بنغماتها وكلماتها؟..

وبعد ذلك أصبحت الاغنية تتردد على شفتي كلما قمت بعمل او سقيت الازهار او اطعمت الطيور حتى وان جلست بالنافذة أتطلع الى البحر الذي أراه منها تدور الاغنية على لساني..

بينما كنت أغني مساء الامس المطلع الاخير (عندك قلبي الحزين عندك) بدأت ابكي بدون سبب. ليس هناك شيء يوجب البكاء في هذه الاغنية العادية في اللحن وفي الكلمات.. اما قلت؟ هذا ابتداء المرض.. ضعف الاعصاب..

سوف لا أغني هذه الاغنية أبداً..

20 حزيران (ج)

لي صديقة في المدرسة اسمها نظمية.. انها شابة في الخامسة والعشرين من عمرها جميلة الطلعة تحب الضحك والمرح.. حديثها شيق للغاية.. تجيد العزف على العود.. ولذا تتهافت العائلات الكبيرة على زيارتها.. يدعونها كل ليلة الى بيت.. لا تحبها المعلمات كثيراً.. وانني اسمع بعض الاشياء عنها احياناً.. يحتمل ان زينتها وعدم حرصها على التستر لا يعجبهم.. لا أدري.. يحتمل ايضاً انهم يكنون الحسد لها.

لنظمية خطيب يعمل ضابطاً في الجيش برتبة رئيس.. تقول بأنه شاب طيب جداً. لكنهما لا يعلنا خطوبتهما لان عائلته لا تقبل بزواجه منها في الوقت الحاضر.. حدثتني نظمية بذلك سراً ورجتني ان لا احدث أحداً بذلك.

جاءتني نظمية يوم الامس بوقت كنت أشعر فيه بضيق شديد وقالت:

فريدة هانم! جئت لاصطحابك.. أنا مدعوة الليلة الى دار خالة فريدون- خطيبها- في كرمتنا الكائنة على ضفاف النهر.. حدثتها عنك فرجتني ان أدعوك لمرافقتي..

ـ كيف يكون ذلك؟ كيف اذهب لدعوة لا اعرف أصحابها؟.

فقالت نظمية وهي تنظر اليّ نظرات ملؤها اللوم والعتاب.

ـ كيف تكون خالة خطيبي غريبة عنك؟ هناك فكرة أخرى.. سأعرفك بخطيبي. أظن بأنه سيروق لك ذوقي وانتخابي.. اقسم بأني لا أذهب ان رفضت مرافقتي..

قدمت اعذاراً عديدة لعدم الذهاب لكنها لم تعجز قط عن ايجاد حل لكل منها والحقيقة ان اعذاري كانت واهية صبيانية.. وكما قلت سابقاً ان نظمية فتاة شيقة الحديث حلوته تقنع مخاطبها ولا يعتريها الكلل فيما تقوله..

تكلمت طويلاً فرجتني حينا وأصرت أحياناً فلم استطع العصيان والتمردد ورضيت أخيراً..

الا ان هناك امر جلب اهتمامي هو انني عندما اردت الباس مؤنسة قطبت نظمية حاجبيها وقالت: أتاخذين الصغيرة معك.

ـ طبعاً! اذ كيف يمكنني ترك مؤنسة وحدها في الدار؟ أهناك مانع لوجودها؟

ـ كلا! لا مانع في ذلك.. الا انك تتركينها احياناً في الدار فلذا سألت..

ـ نعم! لكنني لم أذهب ابداً للمنامة خارج الدار...

لا يمكن ان أقول بأنني فتاة ساذجة.. وان كنت كذلك فيما مضى الا ان اغترابي خلال هاتين السنتين ورؤيتي وسماعي لحوادث كثيرة.. كان من حقه ان يجعلني شديدة الملاحظة ولكن رغم ذلك لا أدري كيف صادف كلام نظمية في تلك الآونة غفلة مني فلم تثر الشبهة في نفسي كثيراً ما فكرت في السبب فلم ادركه..

يحتمل ان تكون الوحدة وحاجة النفس الى النزهة والاختلاط والخروج من الدار أعمت بصيرتي فلم تدعني انتبه لعواقب الأمور..

مررنا الى الضفة الأخرى من النهر بعربة ثم نزلنا وسرنا نصف ساعة او اكثر في طريق ضيق بين البساتين صفت الأشجار على جانبيه بشكل منسق جميل.. وأخيراً وصلنا الى الكرمة.. ان هذه الكروم اماكن خالية الا انها جميلة للغاية.. صادفنا في طريقنا من الغنم كان الراعي يسقيها من البئر وكان بينها بعض الماعز تتناطح بقرونها الصغيرة.. ذكرتني ومؤنسة بمظلوم.. آه! لم تثير الذكريات كوامن النفوس..

تركنا العربة وعيوننا مبللة بالدموع وقد قبضنا على جدي صغير نشبعه ضماً وتقبيلاً.. فكرت لحظة بشرائه من الراعي ولكن ما الفائدة ما دمت سأتركه عما قريب.. لم اعد جرحاً لقلب لا تنقصه الأحزان؟.

كان القصر الذي وصلنا اليه بناء قديماً في وسط كرمة واسعة الارجاء لا يدرك أولها من آخرها.. وقد احيطت بالخضار والاشجار...

اما خالة فريدون بك فانها سيدة عجوز سمينة.. والحق انني لن أرتح ابدأ لملابسها وزينتها.. اذ كيف يليق بسيدة عجوز كل هذه البهرجة.. شعرها اشقر مصبوغ... ووجهها مملوء بالأصباغ.. ان منظرها غريب يثير الشكوك ويبعث الى النفور..

اخذتنا فريحة الى غرفة في الطابق العلوي واخذت ملاءاتنا ثم قبلتني من خدي قبلات خالية من اي كلفة وهي تقول:

سررت جدا لرؤيتك يا ابنتي الحلوة.. حلاوة ورد ما أحلاها من حلاوة!... تفتح النفس والشهية.. تستحق كل ما يدور حولها من حرفة وحسرات...

تأثرت جداً من طرز كلامها لكنني اخفيت شعوري ولم أتظاهر.. انها من ذلك الطراز الذي لا يفقه ماذا يقول..

تركتني ومؤنسة طويلة وحدنا في الغرفة.. كانت الشمس قد غابت وانطفأت انعكاساتها الحمراء من فوق الاشجار.. كنت اسعى للترويح عن نفسي بالمزاح مع الصغيرة.. ورغم هذا كنت اشعر باضطراب داخلي.. اضطراب لا يدعني للجلوس في محلي...

طرق مسامعي صوت كلام وضحك يأتي من الحديقة من رجال ونساء.. وهناك انغام خفيفة لكمان تعبث به الأنامل لضبطه.. مددت راسي من النافذة فلم أستطع رؤية شيء من خلال أوراق العنب المتراصة حول النافذة.. وأخيراً سمعت وقع أقدام آتية من السلم.. فتح الباب.. دخلت صاحبة الدار وبيدها مصباح كبير.. وقالت:

ابنتي العزيزة! تظني بأنني أهملتك.. قصدت تركك لحظة في الظلام ليتسنى لك رؤية المناظر الطبيعية الجميلة عند المغيب لانها خلابة..

بينما كانت العجوز تعدل المصباح وهي تتغنى بسحر الليالي القمرية في الكرمة دخلت نظمية فرأيت من فرجة الباب خيال شابين طويلين يرتديان الملابس العسكرية وكان راسي مكشوفا فتضايقت وأردت اخفاء شعري بذراعي..

قالت نظمية وهي تضحك: آه يا عزيزتي! كم أصبحت مثل أهل الأناضول.. على كل سوف لا تتهربين من خطيبي.. ارفعي يديك.. اقسم لك بأن هذا عيب لا يليق بك.. وكان لها بعض الحق لأنني بالغت بأظهار التعصب الاعمى.

دخل الضابطان الغرفة بعد تردد قصير وقدمت نظمية احدهما اليّ تقول: فريدون بك.. خطيبي.. فريدة هانم.. صديقتي.. ما أسعدني بالصدفة التي جمعت اسمين وجسمين حبيبين الى نفسي مع بعضهما.

ضحك الضابط الشاب للنكتة ملء شدقيه.

عندما كنت طفلة كانت جدتي تشتري علب كبريت مزينة بصور كاريكاتورية لرجال بشاربين مفتولين وكتف أعوج وقد تهدلت خصلة من الشعر الأجعد على جبينهم.. كأن فريدون بك قد قفز عن علبة الكبريت تلك وحضر الينا.. أخذ يدي بين يديه بدون اي كلفة وهزها بحرارة وشدة وهو يقول:

أدامك الله.. شرفت اجتماعنا نقدم لك خالص شكرنا وامتناننا.. ثم قدم اليّ الضابط الذي كان وراءه قائلا:

ان سمحت للداعي ان يقدم صديقاً له حميماً وولي نعمة حبيباً.. الرئيس برهان الدين بك.. رئيس! لكنه ليس كالرؤوساء الذين تعرفينهم.. انه ابن عائلة مشهورة وعريقة الحسب والنسب.

ان ابن تلك العائلة العريقة كان رجلاً متجاوز الخامسة والاربعين من عمره.. وخط الشيب شعره وشاربيه.. اما أطواره فكانت تنم عن كرم محتده.. يختلف بحركاته ولباسه وكلامه عن فريدون بك تماماً.. ايناسه وبياض شعره أزاحا قليلاً ما علق بنفسي من الخوف والرهبة من مرأى فريدون بك.. وأوشكت الطمأنينة أن تجد الى قلبي سبيلا.

كان برهان الدين بك يتكلم بسرعة وسهولة.. حياني من بعيد وبلطف زائد ثم انحنى قليلاً يقول:

خادمك برهان.. كان المرحوم والدي يحب هذه الكرمة أكثر من كل مزارعه وقد اعتاد أن يقول: (ان هذه الارض مجلبة للحظ.. جاءتني النعم كلها بعدما اشتريتها).

عندما تنازلت بقبولك دعوتي آمنت بتفاؤل المرحوم وأيقنت بالحظ الذي تجلبه هذه الارض اللطيفة..

كانت هذه مجاملة لطيفة من برهان بك ولكن ما علاقة الارض وملكيتها به؟

تطلعت باستغراب نحو نظمية أنتظر منها جواباً.. لكنها تصر على التهرب مني لا تنظر الى وجهي بأي حال.. وفي هذه اللحظة مسكت السيدة التي كنت أظنها حتى هذه اللحظة صاحبة الكرمة يد مؤنسة وأخرجتها من الغرفة.

بقينا في الغرفة مدة تزيد على النصف ساعة نتكلم من هنا وهناك.. والاصح انهم كانوا يتكلمون لانني لم استطع باي شكل الكلام حتى ولا الاصغاء لما يقال.. كانت يد حديدية جبارة تعتصر قلبي.. تضيق على الخناق.. وقدر كد ذهني عن التفكير فلا أفكر ولا أشعر.. انكمشت في مكاني كالعصفور الذي اعتدي عليه داخل عشه فلا يدرك طريقاً للدفاع.

عزفوا في الحديقة قطعة على الكمان.. وبعدها سمعت أصواتاً عدة متباينة تغني.

ازداد تقارب نظمية وخطيبها فوق الاريكة فأدرت لها ظهري مشمئزة من روحها المنحطة التي لم تشعر هما بالخجل من اتيان أعمال مخجلة أمامنا.. كان موقفهما يشبه التمثيل وقد التصق رأسيهما أف لها! انهما لا يقدران معنى لسمو الروح والمثل العليا.

تركت قبل هنيهة العجوز على المنضدة صينية ملأى بالصحون والزجاجات. صينية برهان بك يسير في الغرفة وقد وضع يديه في جيوبه.. وبين كل فترة وأخرى يدير ظهره الينا ويقف أمام المائدة.. في مرة من تلك المرات وقف الرئيس أمامي وقد انحنى قليلاً يقول:

الا تقبلين هذا تلطفاً يا سيدتي الصغيرة؟

رفعت رأسي بدهشة فرايت بيده قدحاً مملوءاً بشراب أحمر كالياقوت رفضته بحركة آلية من رأسي.. وبصوت خافت لا يكاد يسمع قلت: لا أريد. أسرف في انحنائه حتى شعرت بأنفاسه الحارة على وجهي وقال:

انه شراب لا يضر أبداً يا هانم.. انه ألطف وأرق (ليكور) في العالم.. أليس كذلك يا نظمية هانم؟

أشارت نظمية برأسها تصديقاً وقالت: لا تصروا يا برهان بك.. لتعمل ما يروق لها.. انها هنا كبيتها مطلقة الحرية.

حتى هذه اللحظة كانت ملامح وأطوار برهان الدين بك تبعث طمأنينة خفيفة الى قلبي لكن الآن بدأت أشعر بالخوف منه.. ما هذا الذي اصابني يا ربي؟ .. أين وقعت؟.. وكيف الخلاص؟

أخذ الضياء المنبعث من المصباح يخمد رويداً رويداً أمام ناظري فاستولى عليّ ظلام مخيف يتطاير الشرر من عيني رهبة منه وفزعاً.. والانغام تصل الى مسامعي كهدير أمواج بحر صاخب..

- ابنتي الغالية.. حان وقت الطعام.. هناك بضع ضيوف على المائدة- بانتظاركم.

قالتها السيدة العجوز فجمعت قليلاً من شتات نفسي وأنا أقول:

أشكرك أنا تعبة.. لا أستطيع الاكل.. اتركوني هنا..

عندها اقتربت مني نظمية تقول: فريدتي.. ليس الضيوف أناس غرباء.. انهم أصدقاء فريدون وبرهان خطيبات البعض معهم وزوجات الآخرين.. نعم زوجاتهم.. ان لم تحضري على المائدة يكون ذلك اهانة معيبة لهم.. لانهم جاؤوا خصيصا للتعارف بك..

جربت أن أخلص يدي من بين يدي نظمية وأنا أقبض باليد الأخرى على طرف الاريكة باصرار دون أن استطيع الكلام.. ولو لم أغلق فمي لسمع صرير أسناني من الرعشة التي انتابتني.

فقال برهان الدين بك: ان من واجبنا تلبية ما تأمره ضيفتنا العزيزة انزلوا الى الضيوف.. واخبروهم بأن هانم متعبة قليلاً.. وانت يا بيناز هانم احضري الى هنا.. من واجبي البقاء مع ضيفتنا.

كدت أجن أ أبقى في الغرفة وحدي مع برهان بك ثم أكل معه؟. قمت من محلي دون أن أدرك ماذا أعمل قلت وأنا أجمع البقية الباقية من قوتي: ها أنا ذاهبة معكم.. ليكن ما تريدون.

كانت نظمية تسير أمامي وقد تأبطت ذراع خطيبها وبرهان بك يتبعني متأخراً خطوة واحدة.

فتح باب في آخر باحة مظلمة وأحرق عيني بريق شع من الداخل.. سرت متهالكة بضع خطوات الى الداخل تحت أضواء المصابيح الكبيرة المعلقة..

تتلامع الجدران بمرايا كبيرة تكسب الصالة عمقاً لا يتناهى. انعكاس الأضواء عليها يشبه المشاعل المتراكضة في الطرقات المظلمة الأبدية..

رأيت كثيراً من العيون والوجوه متداخلة في بعضها كأنني أراها في الحلم.. وجوه نساء ورجال.. وأخيراً سمعت تصفيقاً مخيفاً حاداً.. وسمعت أصواتاً تصرخ بين أنين العزف على الكمان: مرحى برهان بك! لتحيا حلاوة الورد...

كانت الأصوات تبتعد كانعكاس الضياء على المرايا وتتعكر لكنها لا تسكت وتنطفىء.. وكانت الهمهمة تتعالى من بعيد كأصوات العاصفة: ليحيا برهان الدين بك.. لتحيا حلاوة الورد.. لتحيا.. حلاوة الورد.. حلاوة الورد..



عندما فتحت عيني وجدت نفسي بين أحضان مؤنسة الصغيرة: تمسح وجهها بوجهي وهي تنتحب صارخة: (أختاه.. أختاه). تقبل شعري المبلل وعيني المحترقتين بماء الكولونيا.. كانت ملابسي مبللة.. وكنت أشعر عيوناً كثيرة ترمقني رغم ظلام الغرفة.. أول حركة أتيت بها هي ان غطيت بذراعي رقبتي العارية.

سمعت صوتاً لم أسمعه قبل يقول: أخرجوا.. أرجوكم ان تخرجوا أردت القيام لكن يداً جذبتني من كتفي تقول:

لا تخافي يا ابنتي.. لا شيء في الأمر.. لا تخافي..

تطلعت الى وجه المتكلم وكان الشاويش السجين الذي يدور دوماً مفكك الأزرار. تطلع بدوره اليّ ثم استدار نحو الذي بجانبه وقال:

حقاً انها طفلة مسكينة.

كانت نظمية جاثية قربي تفرك لي رسغي وهي تقول: فريدتي.. أما صحوت قليلاً؟ طيرت العقل من رؤوسنا..

اغمضت عيني وأدرت رأسي كيلا أراها.. علمت فيما بعد ان هذه الغيبوبة دامت أكثر من ربع ساعة.. لم يؤثر معها أي كولونيا أو اسعاف. طالت لدرجة قطعوا خلالها الأمل من حياتي وأحضروا عربة ليستحضروا بها طبيباً من البلدة..

عندما استعدت وعيي تماماً طلبت منهم ارسالي بتلك العربة وقلت بأنني سأعود وحدي سيراً على الاقدام في هذا الوقت المتأخر ان عارضوا على ارسالي بالعربة.. قبلوا بعد جدال أرهقني وارتدى الشاويش معطفه وقفز الى جانب السائق ليرافقني..

بينما كنت خارجة من باب البستان اقترب برهان بك مني باستحياء ودون أن يجرأ على النظر الى وجهي قال: فريدة هانم. انت غلطانة جداً في حكمك علينا.. وأنني أوكد لك بأنه لم يكن هناك اي سوء قصد دبر ضدك.. أردنا فقط تكريمك واشراكك بسهرة في الكروم. ولم يخطر قط في بالنا بأن آنسة مثلك تربت في استانبول تكون رجعية الى حد ترى اجتماعها بشاب من الأصدقاء انتقاصاً في الاحترام.. أكرر تأكيدي بأنه لم يكن هناك أي فكرة سيئة.. وأطلب العفو والصفح عن الألم الذي لحق بك يا سيدتي دون أي قصد..



سارت العربة في الطرقات المظلمة الضيقة وأنا منكمشة في احدى زواياها أرتجف كأن بي برد شديد.. اغمضت عيني وأخذت تستيقظ في نفسي خيالات ليلة غير هذه الليلة.. خيالات الليلة التي هربت فيها من قصر (قوزياتلق). تلك الليلة التي لم أشعر أو أفكر بما عملت بل خرجت وحيدة الى الطريق أهيم في الليل والظلام.

كانت أغصان الأشجار تتلاطم أحياناً على خدي فتوقظني من أحلامي سمعت تأوه مؤنسة التي كانت تسند رأسها الصغير الى الطرف الآخر من العربة فقلت لها بصوت خافت: مؤنسة ألم تنامي يا حبيبتي؟

لم تحر جواباً بل زادت من احناء رأسها. عندها لاحظت أن صغيرتي كانت تبكي وهي تسعى لاخفاء دموعها عني في الظلام كما يفعل الكبار.

مسكت يديها وقلت! ماذا بك يا ابنتي؟

اخذت راسي بين يديها وبحركة من عاش اكثر مني واختبر الحياة باضطراب شخص كبير قالت لي بأذني: أختاه كم بكيت الليلة.. وكم جزعت.. انا فهمت سبب دعوتك الى الكرمة يا أختاه.. لا نذهب مرة اخرى الى أماكن لا نعرفها أليس كذلك؟ فان صرت لا سمح الله مثل امي. ماذا يكون مصيري يا أختاه؟.

آه: يا لها من ذلة وسفالة يا ربي.. لا أجرأ على النظر لوجه الطفلة كالمرأة التي ذلت وضلت الطريق.. ان بي شعورها تماما.

وضعت راسي على ركبتيها الصغيرتين وأخذت أبكي حتى وصلنا الدار كالطفل الذي يبكي بين أحضان أمه.



عندما ذهبت لدار المديرة كانت الشمس لا تزال ترسل أول خيوط من أشعتها.. دهشت المسكينة لحضوري في هذا الوقت الباكر وقد احمرت عيني من البكاء وذبل وجهي.. فقالت: خير ان شاء الله يا فريدة هانم.. ماذا جرى لك يا ابنتي؟ لم أرك قط في مثل هذا الاضطراب.. هل أنت مريضة؟

كان سكونها وحاجباها المقطبان سبباً دائماً لفزعي عن فتح قلبي لها.. لكن الآن وفي هذه الساعة وبالديار الغريبة لم أجد غيرها من أحدثه بمصيبتي.. ثم وظيفتي وموقعي كانا يجبراني على ذلك..

سردت لها حادثة الامس وانا ارتجف خجلا ولم أخف عنها شيئاً.. كانت تسمع اليّ دون ان تقول شيئاً وهي مقطبة الجبين.. وعندما انتهيت من سرد الحادثة لويت رقبتي ومددت ذراعي وأنا أطلب بعينين دامعتين كلمة تجلب لنفسي الراحة والسلوى.

بعد فترة سكوت قلت: مديرة هانم.. أنت اكبر مني سناً.. ولك خبرة أوسع في هذه الحياة ولا شك.. قولي لي الحقيقة بربك هل أصبحت بعد الآن من زمرة النساء المنحطات الرديئات؟.

حرك سؤالي اضطرابا وتأثيراً غير مأمولين بالمديرة فرفعت رأسي وهي تمسك ذقني ونظرت الى عيني من قريب وبعين لا تشبه قط عين مديرة أو عين أمراة غريبة.. نظرت اليّ بعين أم حنون ثم داعبت ذقني ويدي التي وضعتها على ركبتها وقالت لي بصوت يرتعش تأثراً:

فريدة لم أدرك حتى اليوم بأنك معصومة وبريئة بهذا الشكل.. سيكون هذا ألماً الى الابد في قلبي.. كان بوسعي أن أقربك اليّ وأحميك أكثر من الآن ولكن هيهات!!.. آه من نظمية! أنا أعرف أشياء كثيرة.. وأفهم كل شيء.. ولكن الوضع يتطلب اخفاء الكثير مما نعرف.. نظمية مخلوقة رديئة.. قمت بمراجعات كثيرة لتخليص المدرسة من شرها لكنني عبثا حاولت.. ومستحيل عليّ زحزحتها من مكانها.. اذ أن نقاط استناد من المحافظ حتى قائد المركز وامام الطابور ان ذهبت نظمية من هنا من سيكون نديم ومهرج السيدات الغنيات؟.. من سيعزف على العود في السهرات التي يعدها كبار الموظفين في الخفاء؟ ومن سيرقص لهم؟ بأي طريق سيصل أمثال برهان بك من الأغنياء الى الفتيات البريئات المعصومات مثلك؟ فريدة أنا أدرك البرنامج الذي دبروه لك.. ذلك البرنامج العاتي الظالم.. ان برهان بك يصرف ما ورثه عن أبيه من المال في طريق اغفال الفتيات البريئات.. انه عجوز مستهتر لا يتورع في البذل لخراب الكثير من البيوت الشريفة.. أصبح استهلاك فتاة مثلك يتغنى أهل (ج) بجمالها مسألة عزة نفس واثره بالنسبة اليه.. كان شرف عظيم أن يسمع من الانذال أمثاله كلمة (ليحيا برهان الدين بك) لانه استطاع أن يسير بجانب فتاة اشعلت نار الحماس في

قلوب الشباب ومن رآها تسير في الطريق وقد أسدلت خمارها عد نفسه سعيداً محظوظاً.. بالاخص بعدما سمع عن مقابلتك لاحسان بك.. انها مؤامرة محبوكة بدأت بأولى الادوار نظمية الخبيثة ويعلم الله يا ابنتي كم من الوعود الخلابة التي وعدت بها من حلي وجواهر وغيرها.. اشكري ربك يا ابنتي بأنه تلطف وتخلصت بهذا القدر.. اعذريني ان قلت لك بأنه لا يمكنك البقاء في هذه البلدة بعد الآن.. اذ من المحقق أن تشيع الحادثة خلال يومين فقط. عليك بالسفر على أول باخرة.. هل لك أقرباء أو أصدقاء تسافرين اليهم يا فريدة؟.

- لا يا مديرة هانم.. ليس لي أحد.

- اذن اذهبي الى ازمير.. لي صديقان.. احداهما معلمة.. والآخر رئيس كتاب مديرية المعارف.. سأعطيك كتاباً لكل منهما.. وأنا واثقة بأنهما لا يتقاعسان عن بذل كل ما بوسعهما لايجاد عمل لك يا بنتي.

عدت الى نفسي وتناسيت همي بالرأفة التي أظهرتها نحوي وأخذت أزيد اقترابا منها كالهرة الصغيرة التي تخلصت من الموت تحت المطر والثلج.. ألمس يديها يجزع وهما تداعبان شعري أرفعهما نحو فمي وأقبلهما مرات ومرات..

تنهدت السيدة العجوز وهي تتابع القول: آه يا ابنتي المسكينة.. لا يجوز عودتك الى دارك بعد الآن يا فريدة.. هلمي يا ابنتي سأدعك تنامين في الطابق العلوي.. وأنا أنقل مع مؤنسة أغراضك الى هنا... ستبقين هنا معي حتى يوم سفرك.

بقيت في الغرفة التي ارتئيها المديرة في دارها حتى المساء لم أخرج أنام وأستيقظ ثم أعود فأنام.. وكلما فتحت عيني جاءت الى جانبي ووضعت يدها على رأسي تداعب شعري الذي كنت أجدله جديلتين كبنات (ج) ثم تسألني: هل أنت مريضة يا فريدة؟.. هل تشعرين بألم في موضع ما من جسمك؟.

لم أكن مريضة ولا أشكو وجعاً لكنني القي برأسي على الوسادة بارتخاء وأنغنج كالاطفال لانه يخيل اليّ بأنني كلما زدت دلالاً وزاد عطف السيدة وحبها نحوي سيزيد انتشار هذا الحب.. الذي وجدته أخيراً في قلبي. ويكون لي مبعث سلوى وطمأنينة في

المستقبل عندما أشكو الوحدة والمرض.. كالمناديل التي تبقي شذى العطور فيها الى حين فتكون ذكرى وسلوى.

3 تموز (على الباخرة)

تدثرت بمعطفي اتقاء من الرطوبة وبقيت على سطح الباخرة حتى غياب القمر.. كانت المقصورة خالية سوى مسافر واحد طويل استند على الحاجز الحديدي بذراعيه منذ المساء يتأمل البحر ويصفر بعض الانغام الحزينة دون أن يغير من رضعه.

كنت أعرف البحر وأحبه.. كشيء عميق يضحك ويتكلم.. ينن، ويتألم على الدوام. لكن اليوم تراءت لي مياهه مثل الوحدة التي لا دواء لها ولا سلوى.

نزلت الى غرفتي أرتعش كمن سرت رطوبة الليل في عظامه.. تنام مؤنسة في سرير الباخرة الصغيرة.. أخذت اكتب مذكراتي وأنا أستمع للهزات العنيفة التي تضرب القلب في الصميم في هذه الوحدة العميقة الموحشة..



أوصلتني المديرة اليوم حتى الميناء.. لم أودع احداً من معارفي.. سوى السيدة التي تشبه خالتي.. مررت عليها وودعتها وسمعتها تقول لي لآخر مرة (فريدة) وأنا مغمضة العينين.

تركنا مظلوماً في (ب) وهنا اضطررنا للافتراق عن طيورنا. أودعتها للمديرة وأخذت منها وعداً بالاعتناء بها وعدم نسيان طعامها وشرابها.

قالت لي مديرتي: فريدة ما دمت تحبين طيورك بهذا المقدار يجب أن تعتقيها بيدك فتكسبي ثواباً.

ابتسمت بحزن وأنا أقول: لا يا مديرة هانم.. كنت أفكر مثل تفكيرك.. لكنني غيرت فكري لان الطيور مخلوقات مسكينة مجنونة لا تعرف ماذا تريد.. ترتعش متألمة من

الاقفاص الى أن تطير.. ولكن هل تعتقدين بأنها تكون سعيدة خارج القفص؟.. لا! ليس هذا بالامكان.. أنا أعتقد بأنها تعتاد على أقفاصها رغم كل قسر.. وفي الليالي المظلمة الباردة تفكر حتى الصباح بأقفاصها وهي تقضي الليل مرتعشة حتى الصباح تخفي رؤوسها بين اجنحتها.. تتحسر وهي ترمق بعيونها الضياء المتلامع من نوافذ البيوت. يجب أن نترك الطيور في أقفاصها يا مديرة هانم نعم يجب ان نغصبها على ذلك ونقسرها.

داعبت المسكينة ذقني وهي تقول: فريدة حقاً انت طفلة لا تدرك طباعها.. اهذه الامور البسيطة مدعاة للبكاء؟



كان في الباخرة بعض المسافرين غيري من (ج) وكنت ضيفة سمع لضابطين منهما يتحاوران بما يلي:

قال الشاب للأكبر: كان احسان بك ينوي السفر منذ أربعة ايام.. فأقنعت المسكين أن ينتظرني بضعة ايام نسافر بعدها معا الى الاسكندرون وكنت باصراري هذا سبباً للمصيبة التي وقع فيها دون أن أقصد ذلك.. لانه لو سافر قبل أربعة ايام لما أصابته المصيبة.

الكبير: الحق بأنها حادثة جديرة بالتأسف.. لم يكن احسان رجلاً شرساً ولكن لا أدري ماذا حدث.. أتعرف تفاصيل الحادث؟

ـ أنا رأيته بعيني.. كنا في كازينو البلدية يوم أمس.. وكان برهان الدين بك يلعب البليياردو.

في تلك الاثناء دخل احسان وأخذ يتكلم مع الرئيس بعدما سحبه الى ناحية منعزلة.. كان يتكلم في أول الأمر بهدوء ورقة ولكن لا أدري ماذا حدث حتى تراجع احسان خطوة الى الوراء ثم صفع برهان على خده صفعة قوية.. أراد الرئيس استعمال المسدس لكن احسان كان السباق الى استعمال مسدسه ولو لم يلق بعض الاصحاب

أنفسهم عليهما لقتل أحدهما الآخر بدون شك. سيبدأ ديوان الحرب محاكمة احسان غداً.

ـ لو وقع هذا الحادث لاحدنا لكان مصيبة.. الا أن احسان يمت بصلة القربى للثري عبد الرحيم باشا.

ـ انه ابن أخ زوجته وابنه بالرضاع.

ـ اذن سيتخلص من المحكمة بعقاب خفيف.. على كل نعم ما فعل ببرهان لان برهان زاد في طغيانه وخرج عن الحدود.

ـ ما السبب يا ترى؟

ـ حسب الاشاعات انها مجادلة سياسية.. لم يستطيعوا بحال ابعاد الجيش عن التدخل في السياسة.

ـ ان سئلت رأيي فأنني أقول بأنها سياسة امرأة.. ألا تعرف برهان؟ ابتعد الضابطان عني وهما يتكلمان. والآن أدركت صاحب باقة الورد التي أتى بها البحار قبل هنيهة الى غرفتي.

احسان بك: من المحتمل أن لا أصادفك في الحياة مرة ثانية.. وان صدف واجتمعنا فانه واجب علي أن أمر عنك دون أن أتعرف اليك.. لكنني سوف لا أنسى أبداً افتكارك بي حتى في اليوم الذي تستعد به لدخول المحكمة العسكرية لاجلي.. سأحفظ وردة من هذه الورود التي أظهرت رقة بالغة بأرسالها دون أن تذكر اسمك.. سأحفظها بدفتري كما أحتفظ بذكراك نقياً في قلبي.

لو كان الذي خمد في قلبي خيال الظالم وحده لاحببتك بدون شك يا احسان بك. ولكن ما العمل وقد انطفأت مع الخيال الى الأبد شعلة قلبي البائس.



كان المسافر الذي يصفر الانغام الحزينة ما زال مسترسلاً في تأملاته وأنغامه.. مددت رأسي من نافذة المقصورة فشعرت بأن هناك في البحر وبين طيات أمواجه سحر براق.

هيا يا عصفورة السياج اذهبي الى النوم.. الليل والتعب يجهدان عينيك المسكينتين.. مالك وللسحر؟.. السحر هو الوقت الذي يوقظ النائمين في البعيد. و.. هو الوقت الذي يفتح عيون الأزهار الصفراء السعيدة الراضية عن حياتها وسعادتها.

2

20 أيلول (أزمير)

مضى ما يقارب الثلاث شهور على وصولي الى ازمير.. الأعمال لا تسير حسنة.. بقي لي أمل أخير. فان فقدته غداً لا أدري ماذا سيكون مصيري؟.. لا أجرأ حتى على الافتكار.. ان الشخص الذي حملت له كتاب توصية من مديرتي في (ج) مرض قبل شهر وذهب الى استانبول بمأذونية ستة شهور للاستجمام والراحة. فلم أر بدأ من الذهاب وحدي الى مديرية المعارف. أتدرون من رأيت هناك؟ رأيت ذلك الذي كان يتكلم وكأنه نائم في (ب) ذلك الرجل القليل الحركة الذي يخشى أن يتكلم كيلا يتعب.. وبديهي ان تلك العينين اللتين خلقتا للنوم اكثر من الرؤية لم تستطيعا التعرف اليّ وهما نصف مفتوحتين وقال: مرّي بعد بضعة أيام علنا نوفق لايجاد محل لك. انا اعلم بأن الايام لا تكون عنده أقل من شهرين.. وهذا ما حدث.. مررت اليوم أيضاً وتلطف بالاهتمام قليلاً.. وقال لي بذلك الصوت الحليم الساكن: يا ابنتي توجد مدرسة في ناحية تبعد عن هنا مسيرة ساعتين.. ماؤها وهواؤها لطيفان مناظرها تبعث الراحة والسرور في النفوس.

ان هذا الوصف عينه سمعته منه عندما أرسلني للزينيات فلذا جن جنوني فجأة وقطعت عليه الحديث وقلت باستهزاء: لا تجهد نفسك يا سيدي.. أنا أصف الناحية بدلاً منك.. بذلت الادارة جهداً وتكبدت مصاريف باهظة فأحدثت مدرسة هناك.. وانها بحاجة لهمة ونشاط معلمة شابة مثلي أليس كذلك؟ يا مرسي بك؟ رأيت لطفك وتوجهاتك هذه مرة أخرى قبل الآن وذلك عندما ذهبت لقرية الزينيات..

بديهي بأنني كنت اتكلم وقد وضعت الطرد نصب عيني لكنه لم يغضب أليس هذا عجيباً؟ بالعكس ضحك مقهقهاً وبطور فلسفي قال: ما العمل يا ابنتي هذه دواعي ادارية.. أنت لا تذهبي.. وهي لا تذهب من الذي سيذهب اذن؟

لا تخلو غرفة مدير المعارف من الزائرين.. سمعت صوت زائر منزو على اريكة يقول: أوه! من هذه الشاطرة الدلوعة التي تشبه دودة البندق؟

دودة البندق؟ هاها! اكتملنا! بينما كنت أحترق غيظاً من اسم دودة الحرير وحلاوة الورد زاد على اسم دودة البندق..

استدرت بغضب وقد قبضت أخيراً على واحد ممن يسمونني. (اسماء مختلفة وكلها أسماء حلوة وخفيفة..) وأنا اتحفز لاعطائه درساً أثأر به من جميع الذين ينعتونني بتلك الاسماء.. لكنه استدار نحو المدير وقال بلهجة آمرة دون أن يترك لي فرصة للكلام: أعط هذه الآنسة ما تريده بربك.. ولا تؤلها لأنها طفلة..

فأجاب المدير: سمعاً وطاعة يا رشيد بك.. لكن في الحقيقة لا توجد شواغر في الوقت الحاضر.. سوى معلمة اللغة الفرنسية في مدرسة الرشدية وطبيعي بأن ذلك لا يوافق الآنسة.

- لماذا لا يوافقني يا سيدي؟ كانت الداعية في اول تعيينها معلمة اللغة الفرنسية في مدرسة دار المعلمات في (ب).

تردد المدير وهو يقول: نعم ولكن أعلنا مسابقة وسيكون غداً الفحص..

فقال رشيد بك: حسناً والآنسة أيضاً تدخل الفحص.. سأكون في الفحص. والله كريم.. احذري ان تبدأي الفحص قبل وصولي..

لا شك ان رشيد بك هذا شخصيته هامة لها قيمتها.. ولكن ما هذه البشاعة التي لا يتصورها عقل يا ربي؟ كنت أضغط على شفتي فأدميها لأمنع نفسي عن الضحك عالياً وأنا اتطلع اليه.

يكون المرء اسمر او أشقر أليس كذلك؟ كان بوجه هذا السيد ألف لون من لون الفحم الأسود حتى لوح الجروح الحمراء القانية.. كان به سواداً وسخاً استغرب كيف لا يلوث ياقته كأن احداً وضع يده في دقيق الفحم ثم مسح بها وجهه فلوثه بشكل غريب غير منظم.. كان جفناه كالقروح الحمراء بدون أهداب تحيط بعينين صغيرتين غريبتي

المنظر له أنف طويل يتدلى فوق شاربيه الأشيبين.. أما خداه فكانتا عجيبتي المنظر متدليتين تشبهان الأكياس التي بفم القرود تخبىء فيها الفستق والطعام..

على كل أراني شططت بالوصف. في الحقيقة ان المعروف الذي أسداه اليّ بكلماته القليلة شيء لا ينسى أبداً. وأرى ان القدرة الالهية قد رأت بأنها غالت وبالغت في خلقه بشعاً فتلافت تلك البشاعة وعوضتها بقلب طيب وهبته اياه.. وعندي ان جمال النفس وطيبته أحسن وأنفع بكثير من جمال الوجه والعين..

ما فائدة جمال الوجه بدون قلب رحيم.. انه جمال لا ينفع لأكثر من تحطيم ابنة خالة فقيرة واطفاء الحيوية من نفسها الشابة..

25 أيلول (أزمير)

أعلنت النتيجة ولم أكسب الفحص وقال لي أحد الكتاب:

لو أراد رشيد بك لنجحت للحال. من يستطيع عمل شيء يخالف رأيه؟ على كل لا بد من راي له في هذا الأمر..

لقد ساءت حالتي.. بعد يومين ينتهي الشهر.. على أن أدفع أجرة الدار ساعدني آخر عقد تبقى لي من أمي المسكينة.. أعطيته لاحدى الجارات سيبيعه زوجها، وتأتيني بالدراهم. لم أشأ التصرف بهذه الذكرى لأن به صورة والدي في أول عام من زواجهما. بقي الرسم المسكين عارياً بدون اطار لكنني وجدت حلاً لذلك.. وقلت لنفسي: لا شك ان والدي يرجحان السكن في قلب ابنتهما الوحيدة أكثر من قطعة ذهبية..

27 أيلول (ازمير)

تلقيت اليوم تذكرة من رشيد بك يعلمني فيها بأنه وجد لي عملاً.. يطالبني لمقابلته في قصره.. قال لي الكاتب بأن رشيد بك لم يشأ مساعدتي في الفحص.. ويظهر انه كان غلطان في كلامه.. سأتحقق ذلك غداً ان شاء الله..

28 أيلول (ازمير)

أعود الآن من قصر رشيد بك. انه دار كبير كالسراي.. الآن فهمت سبب الاعتناء والاهتمام الذي يناله هذا السيد..

قابلني رشيد بك برقة ولطف واعلمني بأنه أعجب من فرنسيتي لكنه لم يستطع تفادي الظلم الذي ألحقه بي رفاقه وان العمل الذي حدثني عنه في تذكرته هو تعليم بناته.. وقال لي.

يا ابنتي أنا معجب بأطوارك عجبي باقتدارك تماماً.. فلم تدورين في مدارس الحكومة تذهبين كل يوم لبلدة.. تعطين بناتي الدرس.. وتبقين معهن.. نعطيك غرفة جيدة.. هل تقبلين؟

كانت الوظيفة عبارة عن (مربية). على كل انها أحسن وأكثر راحة من التعليم في المدارس ولكن ما العمل وأنا لا أحب هذه الوظيفة منذ القدم اذ لا فرق بنظري بين المربية والخادم أبداً..

لا يجوز ايلام رشيد بك بعد الاعتناء واللطف الذي اظهره نحوي فلذا شكرته لاهتمامه بي وجعلت مؤنسة حجة لعدم قبولي العمل في داره لم يقنع رشيد بك بالحجة وقال:

لها محل على رؤوسنا يا ابنتي. ما عبء طفلة صغيرة في دارنا يا ابنتي؟

لم أعطه جوابي النهائي وطلبت مهلة ثلاثة ايام.. سأقوم بآخر تشبث.. فان حصلت على وظيفة فنعم المسعى والا فلا مناص من الخدمة عنده.

3 تشرين الاول (قارشي ياقة)

اعطوني غرفة في الطابق العلوي من القصر تطل على البحر لانام فيها مع مؤنسة.. انها غرفة صغيرة لكنها ظريفة تشبه قفص الطير.

تأملت الميناء والبحر الى وقت متأخر من الليل.. تطل نافذتي على الخليج كله، ان منظر ازمير وهي تبرق بأضوائها في الليل جميل للغاية.. لكن الحقيقة ان ميناء

(قارشي ياقة) نال اعجابي أكثر من ازمير.. ما أجمل الحياة هنا.. انها تبعث السلوى في النفوس.. يعمل الترام حتى منتصف الليل ويتنزه الناس على الشاطىء بلا حساب.. ويسمع صوت القيثارة وهي ترسل الانغام المحزنة حينا والمفرحة أخرى.

لا أدري لم يخيل اليَ أن الاشخاص الذين يمرون أزواجا ولا أستيطع تفريق شيء من ملامحهم اكثر من لون ملابسهم التي تتراءى لي بلوني الاسود والابيض.. انهما خطيبان يحبان بعضهما كثيراً.. لا يقف خيالي عند هذا الحد بل يتجاوز الى ان الشاطىء والمراكب مزدحمة في هذه الساعة المتأخرة والمظلمة بالعشاق والمحبين.

كأن تلاطم الامواج كلمات يهمس بها العشاق وكأن النسيم الذي يكاد يقطع انفاسي بثقله ليس سوى آهات وزفرات المحبين وهم يتطلعون الى أغوار تلك العيون الخضراء التي تزيد عمقاً في الظلام كالبحر تماماً.



استقبلوني بالقصر بلطف ورقة كأنني آنسة صغيرة جاءت لزيارتهم.. لم استثقل نفسي مرة مثل الآن.. وانني شعرت بغصة عندما أصرت الخادم العجوز لأخذ حقيبتي من يدي وأوصلتها الى غرفتي.. شكرتها والالم يحز في نفسي.. لا تستطيع مؤنسة بعد ادراك هذه المشاعر التي تنتابني لانها ما زالت طفلة.. يكفيها ان فرحت بل طارت فرحاً بعظمة القصر.. وأرادت أن تعيد اللعبة التي طالما لعبتها في دارنا وهي تصعد السلم.. تعلقت باذيالي في منتصف السلم لارجاعي فمسكت بشدة ذراعها وانحنيت على أذنها أقول: مؤنسة! طفلتي نحن الآن في دار غريبة.. عندما نعود الى بيتنا ان شاء الله تعودين الى لعبك يا طفلتي.. توقفت الطفلة للحال لأنها أدركت قصدي.. ولم نصل الغرفة الا وقد تلاشى السرور من وجهها الصغير.. ما أسرع تفهم هذه الطفلة

لمشاعري وادراكها لدقائق الامور التي تحيط حياتنا المضطربة.. التصقت بي وعانقتني وأخذت تقبل كل ناحية من وجهي.

تطلعت الى الأفق البعيد لآخر مرة قبل أن أغلق النافذة.. كان الشاطىء خالياً وقد أطفئت الانوار.. حتى البحر الذي كان قبل مدة يتلاعب بأمواجه مع فنار الساحل انسحب مبتعداً وقد اسند أمواجه على الصخور البيضاء كالطفل عندما يتوسد ذراع امه متأهباً للنوم.



بينما كنت آتية اليوم الى هنا.. لا! سوف لا أجرأ على تدوين ما حصل.. فليبق بين الضلوع..

تشرين الأول (قارشي ياقة)

تمضي الايام في قصر رشيد حسنة. ان تلميذاتي عبارة عن ابنتين احداهما تقاربني سناً والاخرى أصغر.. اسم الكبيرة فرهندة تشبه أبيها في الجمال.. ولذا طباعها شرسة جداً.. اما صباحة الصغيرة فأنها بعكسها تماماً.. جميلة كدمية.. حلوة.. بيضاء وجذابة.

أشارت احدى الجواري بعينها يوماً وهي تقول: كانت المرحومة مريضة اثناء الحمل.. وكان يتردد للقصر طبيب عسكري.. يظهر بأن الهانم قضت أيام الحمل وهي تنظر الى وجه الطبيب فانطبع ذلك في الجنين وولدت صباحة جميلة بهذا الشكل.

ان اكبر خوفي من الخدم.. لم اخفاء الحقيقة؟ ألست معهم رفيقة الخدمة وزميلتها؟ قمت بحركة لطيفة.. لا اكلف احداً بأي عمل.. فلذا يحترموني.. ولا انكر بأن الأهمية التي يعطيني اياها رشيد بك لها الاثر الأكبر في احترامهم.

ان القصر كخلية النحل لا ينفك عن الحركة والعمل ابداً.. لا ينقطع الزائرون عن القصر والمصيبة اصرار البنتين لاخراجي أمام الضيوف باستمرار.. هناك نقمة أكبر

في القصر هي ابن رشيد بك الاكبر جميل بك.. انه شاب في الثلاثين من عمره ثقيل الظل.. يقضي في اوربا عشرة اشهر من العام بدون اي عمل يصرف اموال ابيه ويعود ليقضي الشهرين في ازمير.. احمد الله بأننا في الايام الاخيرة من شهري وجوده بيننا.. لو لم يكن كذلك لاضطررت لترك القصر منذ ثلاثة أيام.. ستقولون مالك وماله أليس كذلك؟ عملت كما تفكرون ولكن رأيت نفسي أخيراً غلطانة في حسابها.

ابقتني فرهندة واختها لوقت متأخر في الصالة قبل ثلاثة أيام. بعدما افترقت عنهما بدأت اصعد السلالم في الظلام وما ان وصلت الى آخر السلم حتى تقابلت بخيال رجل.. فزعت لأول وهلة وأردت التراجع لكنني سمعت صوت جميل بك يقول: لا تفزعي يا آنسة.. هو أنا.. وكان ضياء خافت ينعكس على وجهه من فرجة احدى النوافذ الجانبية.

عفواً يا سيد.. لم أعرفكم لأول وهلة.. قلت ذلك وأردت المرور.

خطا جميل بك خطوة نحو اليمين فلم يبق محل لمروري أضيق أعلى السلم. ثم قال: عصاني النوم يا آنسة فخرجت أنتظر القمر من النافذة.

شعرت بقصده وأردت الهرب دون ان أتظاهر بما شعرت.. وكيلا أترك كلامه بدون جواب قلت: ليس الزمن وقت طلوع القمر يا سيدي. فقال على مهل: كيف يا آنسة؟ إذاً ما هذا القمر اللطيف الذي سطع فجأة على السلم؟ وأي ضوء قمر أشد وقعاً بالنفوس من هذا القمر؟.. ثم قبض على يدي وشعرت بأنفاسه الحارة تلفح وجهي. ألقيت بنفسي الى الوراء بحركة آلية ولو لم أتعلق بالحاجز لتدحرجت حتى الطابق الأسفل.. ضرب رأسي بالحديد ولم أتمالك ضبط نفسي عن صيحة ألم صرخت بها.

نزل جميل بك إلي يسعى جهده لتحاشي الضجة وكنت اشعر باضطرابه وهيجانه رغم الظلام الذي كان يحجب وجهه عني.. ثم قال:

ـ فريدة هانم! سامحيني.. هل أصابك مكروه؟ هل تشعرين بألم؟

ـ لا! لا! دعني..

ولم استطع القول اكثر من ذلك بل أخذت أنشيج بألم. اردت حشو فمي بالمنديل لأحول دون صوت نحيبي فرأيت قطرات دم تسيل على مهل من شفتي.. كنا بالقرب من نافذة السلم.. فرأى جميل بك الدم مثلي على نور الضوء الخفيف الآتي من الخارج.. فقال بصوت يرتعش تأثراً:

فريدة هانم! أتيت الليلة حركة دنيئة مثل أحط وأنذل رجل في العالم تأكدي بأنني لو قتلت بيدي نفساً بريئة لما اضطربت وندمت مثل ندمي الآن.. انا آسف لما سببته لك من ألم.. ولما أرقته لك من دم.

إذاً لم يكن ابن الذوات السفيه هذا عديم الحس والقلب بالشكل الظاهر.. كان المستحسن الاقتصار بقول ما طلب ثم الابتعاد.. ولكن، لا ادري ما الذي أصابني فلم تسكن كلماتي مثل دموعي واخذت تسيل من بين شفتي كأنات تمرد وعصيان على الحياة ومآسيها. أسندت راسي على حافة النافذة وقلت وأنا أبكي بحرارة وألم:

ان العفو الذي تطلبه يا جميل بك كلمة سهلة بوسعك ان تسمعها وهي تخرج من بين شفتي.. ولكن قلبي لا يصفح ولا يردد الكلمة بأي حال، لأن الإساءة التي صدرت منك الليلة ليست قابلة التلافي والإصلاح.. لم يبق عذاب لم أذقه ولا علقم لم أتجرعه منذ سنتين أكد خلالها لأطعم طفلتي وأعيش وكلما بنيت عشاً وبدأت اشعر بقليل من الراحة والسعادة ظهر ظالم من أمثالك فخرب عشي واضطرني لتبديل محلي بآخر ألوذ به. سوف لا أبقى في داركم بعد هذا الحادث وعليّ ان اذهب غداً وانا أجر طفلتي دون ان أطلب المعذرة او أبين السبب لتركي قصركم.. الى أين؟ هذا ما لا أعرفه.. ولا استطيع التفكير به.. على كل تأكد بانني لم أحضر الى هنا بمحض إرادتي.. وان الليلة التي وصلت الى هنا....

لم أستطع المثابرة على الكلام.. وكنت قد تجاوزت حدود الكلام الذي يقال الى شخص غريب منذ وقت طويل... فركضت اصعد السلالم الى غرفتي وقد أخفيت وجهي بمنديلي أجهش بالبكاء وتكاد أنفاسي ان تخمد.



مضى على الحادث ثلاثة أيام.. وانا ما زلت هنا لأنني لم أرحل كما قلت لجميل بك والسبب هو انه كان يجب عليّ تصديق ما قاله في اليوم التالي. قال انه مسافر الى أوربا خلال اسبوع وانه سينظر إلي بعد الآن بعين شقيقة فقط.

انا مضطرة للبقاء هنا رغم أوامر غروري الإنساني لأن.. عليّ ان اعترف بالشيء الذي خجلت من تدوينه في دفتري ليلة وصولي.

وصلت الى القصر في احدى الأمسيات وقد خيم الظلام. ألم يكن من الأنسب الانتظار الى الغد؟ هذا هو المفروض ولكن لم يكن أي إمكان لذلك.

كان القصر غاصاً بالضيوف في تلك الليلة البائسة التي وصلت فيها الى هنا.. وكان رشيد بك وبنتاه يقدموني الى الضيوف كالتحفة الثمينة التي فازوا بها مؤخراً من السوق.. وكان الكل ينظرون إلي نظرة إعجاب وان شئت نظرة إشفاق.. كنت أحدث الجميع بلطف وايناس وخجل عندما شعرت باضطراب ورعشة لم أكن في غيبوبة. جلست فجأة على طرف أحد الكراسي وانا أسعى لإبقاء الابتسامة الشاحبة على شفتي. أغمضت جفني مدة نصف دقيقة علني أستعيد روعي. اضطرب رشيد وبنتاه والضيوف وأتت صباحة بكأس ماء أسقتني منه بعض جرعات قسراً وهي تمزح معي.. فقالت سيدة كبيرة السن من الضيوف وهي تبتسم:

يظهر ان الطقس أثر على أعصابها.. آه من بنات هذا العصر ما أشد عصبيتهم وأرق شعورهن.. تبدل خفيف بالطقس يؤثر على أجسامهن فيشحبن ويذبلن كالأزهار.

ظنني الجميع شابة عصبية مريضة لا تستطيع احتمال المشاق. كنت مضطرة لقبول كلامهم بل كنت مسرورة لإسنادهم تخاذلي لذلك.. لكنني كنت كاذبة بالتصديق على أقوالهم لأن السبب لغيبوبتي كان شيئاً آخر.. كانت عصفورة السياج جائعة ولأول مرة في حياتها قضت يومين كاملين بدون طعام.

11 تشرين الاول (قارشي ياقة)

جاء الضيوف للبنتين من أزمير.. أربع شابات تتراوح أعمارهن بين العشرين والخمس والعشرين. كان المقرر ان نقوم بنزهة بعد الغذاء نذهب فيها بالمركب الى (بايراقلي) ونعود. ما ان خرجنا من القصر حتى هطلت الامطار فعدنا الى الصالة آسفات. عزفت الشابات قليلاً على البيانو وثرثرن بعض الشيء ثم انسحبن مثنى مثنى الى هنا وهناك وأخذن يتكلمن كل زوج على انفراد... معلومة تلك الأسرار التي تبحث هكذا بين الشابات عندما يتحادثن بمرح وانشراح.

صباحة بنت لطيفة جداً وشيطانة.. أوجدت نكت ظريفة للغاية سلت بها ضيوفها.. هناك رف وضعت ألبومات مملوءة بصور الاهل والأصحاب سحبت أحدهما وجلست وراء المنضدة وأخذت ترى صديقاتها المجتمعات حولها تلك الصور. لم تكن النكتة برؤية الصور بل بالكلمات التي كانت تقولها صباحة وهي ترينا الصورة.. كنا نستلقي عل الأرائك من كثرة الضحك كلما عرفتنا على صورة وهي تصف الشكل والحالة والحياة.. مثال ذلك: أرتنا صورة باشا مهيب الطلعة وقد امتلأ صدره بالأوسمة فقالت ان هذا الرجل رغم لحيته وبياضها وجثته وكبرها وأوسمته وعظمتها فان امرأته تضربه بالمكنسة كلما غضبت.. وبعدها قالت عن صورة احدى السيدات من الأقرباء بأنها تعيش في الأناضول وقد أرادت يوماً ان تركب الباخرة لتذهب الى احدى الجهات فانزلقت قدمها ووقعت في البحر... وأخذت تصيح بلهجتها الأناضولية الغريبة: سأفقد حياتي الحلوة.. خلصوني.. أنقذوني.

كان بين الصور صورة خال رشيد بك بالرضاع.. كانت صورة لا يشبع المرء من التطلع إليها.. وكان يتراءى هذا الرجل في احدى صفحات الألبوم بجبته وعمامته شيخاً صوفياً.. وأمامه صورة أخذت له بعدما صار نائباً وارتدى (الفراك) و (المونوكل). وكان الشيخ ينظر بغضب الى وهو يحملق بعينيه والنائب ينظر إليه وقد قلب شفته استهزاء. كان ذلك المنظر جميلاً لدرجة أننا كنا نقبض على يد صباحة لنمنعها من قلب الصفحة.

بدأت فرهندة المزاح معي وقالت: فريدة.. ان شئت زوجناك من هذا الشخص الجميل.. لأنه شاغر الآن.. طلق زوجته الاولى وهو يفتش عن زوجة عصرية تليق بمركز نائب برلمان.

ابتعدت عن المنضدة وانا أضحك ثم قلت: (اكتبي له حالاً.. وانا أقبل..) فان لم يجد الانسان من سعادة في حياته عليه ان يقضي حياته ضاحكا مسروراً على الاقل.

قلبت صباحة صفحة جديدة وأشارت لي بيدها قائلة: أخشى يا فريدة هانم ان ترفضي الزواج من نائبنا ان رأيت هذه الصورة.

وقالت الضيفات جميعا بصوت واحد آه ! ما أجمله! ثم نادينني وهن يشرن بأيديهم فقلت:

عبثا تحاولن.. مهما حدث انا لا أستغني عن نائبي.. واقتربت منهم أمد رأسي من بين كومة الشعر التي تتماوج فوق الألبوم .. لم استطع كبت صيحة خفيفة انطلقت من فمي لأن الصورة كانت صورة كامران... صورته تبتسم لي من بين صفحات الألبوم وهو ينظر إلي.



في هذه المرة لم تهزأ صباحة من صاحب الصورة بل أعطت التفصيلات الآتية لصديقاتها باهتمام وحرارة:

ان هذا السيد هو زوج خالتي منور.. صار عرسهما في الربيع الماضي.. بينما كنا في استانبول.. آه لو ترونه.. له عينان.. له أنف.. شيء يأخذ الألباب.. والأغرب ان هذا الشاب كان يعشق ابنة خالة له وكانت الفتاة سمراء ضئيلة الجسم، خفيفة المشرب، مدلعة للغاية.. حتى انهم كانوا يسمونها بعصفورة السياج لطيشها وخفة حركاتها. أما عصفورة السياج تلك لم ترض بكامران بك بأي شكل من الأشكال.. حقا! ما أغرب القلوب! بعدما أجبروها لقبوله هربت وحدها من الدار قبل ليلة الزفاف بيوم واحد. سافرت الى البلاد الغريبة البعيدة وفضلت ذلك على الزواج بمن نكره.. انقطع كامران

بك شهوراً عن الأكل والشرب وانتظر عودة تلك البنت العديمة الوفاء لعلها تعود.. لكنها لم تعد فلو كان بنيتها ذلك لما هربت ليلة العرس. عندما قبلت خالتي منور يد حماتها بعد العرس كنت قريبة منهما.. رأيت السيدة العجوز تبكي كالاطفال.. يظهر انها لا زالت تذكر عصفورة السياج وتتألم لفراقها.

سمعت هذه التفاصيل وانا أستند على البيانو دون ان أقول شيئاً او أبدي حراكاً.. ما زال كامران يبتسم لي من الألبوم فقلت له بصوت خافت: (يا عديم القلب).

استدارت صباحة نحوي تقول: لك الحق بما قلت يا فريدة هانم.. إذ لا يمكن ان يقال لفتاة تركت شاباً جميلاً ولطيفاً مثل هذا شيئاً غير (عديمة القلب).



كامران! انا أكرهك وإلا لكنت بكيت وانتحبت ولبست الحداد عندما علمت بخبر زواجك. انا بالعكس لم أضحك في حياتي يوما مثل اليوم.. حتى انني كنت سبباً لسرور من حولي.. ولولا حادث غير مناسب مر بي لعددت اليوم من أسعد ايام حياتي.

اعتدل الطقس نحو المساء فسمح لنا بنزهة خلوية طويلة وكنا نمر من طرف جدول ماء عميق عندما رات احدى الضيفات زهرة على الضفة الاخرى فقالت: ما أجمل هذه الزهرة.. آه لو استطيع قطفها.. فأجبت ضاحكة: أتريدين ان أقدمها لك؟

كان الجدول واسعاً وعميقاً والقفز عنه مخطراً. فلذا تضاحكت الشابات وقالت إحداهن: لو كان هناك جسر لهان الأمر.

فأجبت ببساطة: أظن بأنه ممكن العبور ولو بدون جسر.. ثم قفزت للحال. فتعالى الصياح من خلفي.

وفقت الى الوصول للطرف الآخر لكنني لم أوفق لقطف الزهرة التي وعدتهن بها.. لأنني عندما قفزت وصلت الى حافة الجدول فتعلقت بالشوك أتفادى السقوط وهكذا جرحت يدي.

لو لم يحدث لي هذا الحادث فتؤلمني الجراح ؛ لأشواك لدرجة أبكتني حتى القصر لقلت بأن هذا اليوم هو أسعد أيام حياتي.

كامران! هربت للبلاد البعيدة لأنني أكرهك. والآن ازداد كرهي ونفوري منك لدرجة انني لا أرى هذا البعاد كافياً.. أريد الهرب من الدنيا التي تعيش فيها كيلا أتنفس واستنشق من الهواء الذي تستنشقه أنت.

5 تشرين الثاني (قارشي ياقة)

قررت عدم البقاء في هذا القصر.. اذهب كل بضعة أيام الى أزمير مرة أراجع فيها مديرية المعارف. صادفت في الباخرة أمس احدى معلماتي القديمات (سور به ريتس). كنت رايتها مرة قبل شهرين أيضاً ولتفاهمنا القديم وحبي الزائد حدثتها قليلاً عن أحوالي فقالت لي (سور به ريتس): فريدة! انني أفتش عنك منذ ايام.. نحن بحاجة لمعلمة تدرس اللغة التركية والرسم في مدرستنا في (فالانتينا) أوصيت المديرة بك.. لم يبق لزوم لأخذ دار.. تبقين في المدرسة.. وخاصة لأنك معتادة على حياتنا.

لم أر لزوماً للافتكار فقلت للحال: حسناً (ماسور).. سأحضر.. أشكرك.

مررت بمديرية المعارف قبل الذهاب الى مدرسة الراهبات وبنيتي ان استرجع أوراقي فقالوا لي بأن المدير يسأل عني منذ ثلاثة ايام. دخلت لعنده لأستعلم ماذا يريد.. وما ان رآني المدير حتى قال: انتظرت طويلاً يا ابنتي.. ولكن لحسن حظك وجدنا لك محلاً جيداً. سأرسلك لمدرسة (قوش آدا).

(قوسش آدا سي).. جزيرة العصفور.. ما أجمل الاسم.. جزيرتي.. حدثتني نفسي بأنها لا شك جزيرة جميلة.. لكن الوعد الذي قطعته على نفسي للراهبة. ترددت قليلاً قبل ان أعطي الجواب.. ان حياة مدرسة الراهبات هادئة ساكنة.. وربما تكون بالطرف الآخر حياة عوز وفاقة ولكن أليس للعذاب أيضاً لذة وجاذبية؟

تتراءى لناظري شكل مدارسنا التي بقيت دون رعاية بين أيد غليظة لم تستطع تنشئة الصغار نشأة صالحة فكانوا المساكين كالورود التي تنتظر الشمس والاعتناء

لتتفتح. يعطون كل ما في قلوبهم من الحب والامتنان لتلك الأيدي التي تحوطهم بالعطف والحنان. عندها أدركت بانني رغم كل شيء اصبحت اشعر بحب عميق لأولئك المساكين. ألم تأتني مؤنسة من بينهم؟ خرجت بتجربتين من حياة هاتين السنتين كما يضر الضوء العيون المريضة كذلك السعادة تضر النفوس المريضة وتجعلها تئن وتضطرب.. وليس هناك دواء أنجع من الظلام للعيون والنفوس المريضة.

كنت قبلت مهنة التعليم كيلا أموت جوعاً.. لكنني أرى بأن حسابي لم يضبط. ويحتمل ان يقتلني مسلكي جوعاً في احد الايام. لا بأس أليس ذلك بسبب الرأفة والشفقة التي يتصف بها قلبي؟.. و.. يشعرني كذلك بأشياء اخرى.. تعطيني سلوى من اوقف حياته لسعادة الآخرين. على كل يستحيل احياء خيالات مندثرة لأيام ميتة.. تلاشت رائحة البخور من أنفي وانمحى أنين الأرغن من خيالي ببطء.. وابتسمت لخيال الصغار الذين سألتقي بهم ثانياً في جزيرة العصفور وهم ينتظرون مني الحب والحنان فقلت:

سمعاً وطاعة يا سيدي سأذهب.

لم أقل شيئاً في القصر قبل ان اتسلم أمر تعييني بيدي.. ولكن حادثاً جديداً اضطرني للقول. مضى على الوصيفة الكبرى وقت طويل وهي تحدثني عن اشياء غريبة ومنها ما قالته لي بالأمس بدون أي مناسبة:

اشعر بمحبتك تزداد في قلبي يوماً بعد يوم يا ابنتي.. لست وحدي بشعوري بل أرى جميع أهل القصر يشعرون ذلك. رغم ان فرهندة وصباحة شابتان لم تستطيعا نشر المرح في الدار مثلك.. فالحياة هنا اصبحت حلوة لذيذة بعد مجيئك.. طباعك حسنة وأخلاقك طيبة. تكونين كبيرة مع الكبار وصغيرة مع الصغار.

لم أعط بالاً لما قالته الوصيفة وتلقيته تقرب زميلة وليس أكثر. إلا انها صارحتني ليلة الأمس قائلة:

يا ابنتي ما الوسيلة لربطك بهذا القصر أبدياً يا ترى؟

يخطر لي خاطر ولكن.. أرجوا ان لا تسيء الظن بي.. واقسم لك بأنه لم يكلمني أحد بهذا الخصوص.

لم أشك بأن الوصيفة مدفوعة بكلامها لكنني لم أفهم قصدها بالضبط ولذا تركت لها المجال للمتابعة.. اما هي فكلما وصلت الى كلمة لم تتجرأ على قولها انتقلت الى حديث آخر الى ان قالت:

ليس سيد القصر برجل طاعن السن.. أنا ربيته وان لم يكن جميل الطلعة إلا انه واسع الثراء ذو شخصية ونفوذ أخلاقه قديمة وطباعه ظريفة وانه ليس بالإمكان بقاء القصر بدون سيدة تشرف على أموره يا ابنتي.. غداً تتزوج فرهندة وصباحة وكم تسوء الحال إذا رمانا الله بسيدة رديئة والعياذ بالله.. فريدة هانم بوسع الشابة ان تتزوج شاباً لكنها لا تستطيع بسهولة الوقوع على هذا الغنى والجاه.. آه لو استطعنا العثور على سيدة طيبة لسيدنا ماذا تقولين يا ابنتي؟

لم أقل شيئاً بل كنت ابتسم بحزن وانا أفكر.. إذاً اهتمام رشيد بك وطلبه بقائي في قصره لإعطاء الدرس لابنتيه ثم اعتنائه بي ومزاحه حتى ولعبه بالكرة معنا لم يكن مجرداً من غاية.. خطر لبالي كلام كاتب المعارف حين قال: لو أراد رشيد بك لعينك في المعارف للحال.. لا بد من قصد لعدم فعله ذلك.

قبل سنتين كنت أعلن العصيان والتمرد على حوادث كهذه أما الآن كنت هادئة وقطعت حديث المربية وانا أقول غير مبالية:

بودي مساعدتك على العثور على سيدة طيبة لرشيد بك ولكن ما العمل وانا مسافرة بعد يومين لجزيرة العصفور.. حيث يحضر خطيبي إليها بعد أشهر فنتزوج.. ثم قلت للمربية التي فغرت فاها دهشة: تصبحي على خير.. سأنام الليلة مبكرة.. ثم ذهبت الى غرفتي.

10 كانون الاول (جزيرة العصفور)

عندما قيل لي: أتذهبين لجزيرة العصفور؟ فرحت كثيراً وقلت لنفسي: جزيرة العصفور.. جزيرتي.. لا شك أني واجدة فيها الراحة والسعادة والسرور التي طالما افتقدتها منذ سنتين. لم أكن غلطانة في شعوري.. لأنني أحببت هذا المكان اكثر من اي مكان آخر.. الأنها بلدة جميلة؟ لا! لم تكن جزيرة العصفور مكاناً خلواً استطيع الحياة ومؤنسة (ببغائي الأصفر) وحدنا بحرية نقضي حياة لذيذة.

ألأن راحتي كانت مؤمنة من كل الوجوه؟ ليس هذا أيضاً.. بالعكس أعمل اكثر من اي وقت آخر.. وأتعب كثيراً.. اذن؟ أحب جزيرة العصفور لأنها ليست محلاً جميلاً ومريحاً.. واعتقد بأن الله لم يخلق الوجوه الجميلة والأراضي والبحار الجميلة إلا ليشعر الانسان بعذاب داخلي عميق من مشاهدتها والتماس بها.

عندما وصلت الى الجزيرة قبل شهر أخذتني المعلمة الاولى الى قبالتها. وهي امرأة مريضة تبلغ الخمسين من عمرها وقالت لي: دفنت ولدي الشابين في فترة ثلاثة شهور تحت التراب يا ابنتي.. ولم تعد عيني ترى شيئاً من الحياة.. أرسلوك الى هنا معلمة ثانية.. أنت شابة.. ويبدو انك ذات ثقافة واسعة وعالية.. سأترك لك المدرسة.. اشتغلي بإدارتها كما تريدين.. عندنا معلمتان غيرك.. سيدتان مسنتان. ولا فائدة ترجى منها.. وعدتها بالعمل قدر المستطاع وحافظت على وعدي.

قالت لي المعلمة الاولى بالأمس: فريدة هانم.. مهما شكرتك لا أفيك حقك.. تعلمين عشرة أمثال ما وعدت فالمدرسة والطالبات أصبحن كالزهرة اليانعة خلال شهر واحد. جزاك الله عنا خيراً.. الكل يحبونك.. من زميلاتك حتى أصغر تلميذة من تلميذاتك.. وانني غالباً ما أنسى جراح قلبي وابتسم عندما أراك تبتسمين.

مسكينة... تفكر بانني أعمل وأجد إكراماً لخاطرها.. ولذا تشكرني. ما ألذ العمل واعطاء الغير كل موجوديته وروحه. عادت عصفورة السياج لطباعها القديمة تماماً.. لم يبق أي أثر للتمرد الذي كنت اشعر به في أعماقي عندما كنت في ازمير ولا ذلك

الألم الخفي الذي كان ينتابني في (ج).. تلاشى كل ذلك من نفسي كغمامة صيف دون ان تترك أي أثر.

لم يعد يخيفني او يؤلمني ان أهب نفسي لخدمة اطفال الغير وتعليمهم حتى يخط الشيب مفرقي.. انتزعت الفراغ الذي شعرته في قلبي قبل سنتين. في احدى أمسيات الخريف عندما مات صغاري في نفسي وبين ضلوعي.. وبعدها لم أعد اشعر بذلك الفراغ أبداً.

جزيرة العصفور

منذ مدة وانا اسمع بحوادث حرب لكنني لا أعير ذلك أي اهتمام لأنني وهبت حياتي للمدرسة وحدها ولا اشعر بشيء سواها.. أما اليوم لم يبق مجالاً لعدم المبالاة. أذهب أهل القضاة مذعورين لأن الحرب قد استعرت نيرانها.

كانون الاول (جزيرة العصفور)

مضى خمسة عشر يوما على نشوب الحرب العامة ويقال ان الجرحى تصل المستشفى باستمرار. خيم الألم والسكون على المدرسة. ذهب آباء واخوة اكثر أطفالي الى الحرب.. وان كانت المسكينات لا يدركن الخطر إلا أنهن يشعرن به.. والدليل ان حزناً عميقاً استولى عليهن.

22 كانون الاول (جزيرة العصفور)

تسير الأمور عكس ما اريد يا ربي! أشغلت القيادة المدرسة اليوم لأنها ستكون مستشفى مؤقتاً.. ليعملوا الذي يروق لهم. مالي ومالهم؟ ولكن ماذا يكون مصيري ان ينتهي عملهم؟ كيف اقضي أوقاتي؟ وبمَ أقتل فراغي؟

24 كانون الاول (جزيرة العصفور)

ذهبت اليوم الى المدرسة لأخذ ما تبقى لي فيها من الكتب.. وكانت المدرسة مبعثرة يضيع المرء فيها مع كتبه. كنت راجعة بخفي حنين عندما فتحت الممرضة أحد الأبواب وهي تقول: دعينا نسأل رئيس الأطباء.. لأنه رفع بعض الكتب على ما أظن. كانت الغرفة مملوءة بالأربطة وعلب وزجاجات الأدوية.

كان رئيس الأطباء منهمكا بتنظيم الأشياء المبعثرة في الغرفة وهو يلهث من التعب وقد خلع سترته.. لم استطع رؤية وجهه وكل ما رأيته من جسمه هو شعره الأبيض ومنكبيه العريضتين ورقبته الضخمة الحمراء. شعرت بأن سؤال هذا الرجل المتعب عن كتاب قلة ذوق فلذا سحبت الممرضة من ثيابها وانا أهمس في أذنها (دعيك من السؤال) لكنها لم تبال لما قلت وقالت: (سيدي كنت وجدت بعض الكتب الفرنسية المصورة أين وضعتها؟).

احتدم الطبيب غيظاً وأجاب دون ان يدير رأسه بكلمات بذيئة لم استطع إلا إخفاء وجهي بيدي خجلاً عند سماعها وأردت الهروب لكن أدار وجهه في تلك الآونة فقال للحال.. واه يا صغيرة! أأنت أيضا؟

لم استطع ضبط نفسي عندما رأيت وجهه فقلت: (سيدي الطبيب.. طبيب الزينيات..) كانت كلماتي صادرة من أعماقي كالأنين ولا أكون مبالغة ان قلت بأنها صادرة من قلبي.

أتى نحوي ولم يبال بما داس عليه من زجاجات ومسكني من يدي ثم جذب رأسي نحوه يقبله. كنا رأينا بعضنا يوما فقط وليس يوما بل ساعات قليلة.. ما هذا الرباط الروحي الذي ربط قلبينا؟ لا ادري.

حقاً ان قلب الانسان مادة لا يستطاع تحليلها.. قال لي خير الله بك كعهدي به في الزينيات تماماً:

نعم شيطانة! حدثيني... ما الذي جاء بك الى هنا؟ وماذا تعملين؟ كانت عيناه الزرقاوان الصافيتان تتلامعان من بين أهدابه البيضاء ببريق حلو لذيذ.. فابتسمت لتينك العينين كما فعلت من قبل وقلت:

تعلمون بأنني معلمة يا حضرة الطبيب.. أجوب البلاد تباعاً بحكم الوظيفة.. والآن حط بي الرحال هنا ولا ادري أين اكون غداً.

فقال بأسف عميق كأنه يعلم ما بقلبي وحياتي: ألم تزالي منقطعة عن الأخبار يا صغيرة؟

انتفضت كالعصفور مرتجفة وقلت وانا أسعى للتظاهر بالدهشة:

ممن يا دكتور؟

هددني بأصبعه كأنه تضايق مني وقال: لمَ الكذب يا صغيرة؟ اعتادت شفتاك الكذب ولكن عينيك ما زالتا بريئتين.. عمن اسأل؟ عن الذي سبب لك اللف والدوران في بلاد الله الواسعة.

نفضت كتفي ضاحكة وقلت: تقصدون وزارة المعارف؟ بديهي انني احن لتعليم بنات الوطن فلذا خرجت من بلدتي وان كان هناك ذنباً فهو ذنبي.. وليس لأحد في ذلك دخل.

كرر الطبيب ادعاءه الذي أسمعنيه في الزينيات.. وبما ان كلماته كانت قد أثرت في نفسي كثيراً فلذا بقيت منقوشة في مخيلتي حرفياً.

في هذا السن.. وبهذا الوضع.. وبهذا الشكل.. طيب ليكن كذلك يا شيطانة ليكن.. يكفي ان لا تظهري وحشة وامتعاضاً.

وكان كلينا نسينا عملنا.. نسي أدويته تماماً وانا نسيت كتبي ونحن نتحدث:

ـ انت معلمة في هذه المدرسة أليس كذلك؟

ـ نعم.. كم تأثرت على اخذكم مدرستنا يا دكتور.

ـ تحضرني فكرة.. أي بلاء كان اسم تلك القرية؟ كنت أعطيتك فيها وظيفة التمريض.. هل تذكرين؟ أتقبلين مساعدتي هنا أيضاً؟.. على كل ليس هناك أي فارق

كبير بين فردتك الحلوة ودبيتي الحلوة.. تتشابه الاثنان بالروح.. نفس البراءة وعين الصفاء.. وان العمل لأولادي الذين يحترقون بنيران العدو ومساعدتهم أثوب عند الله يا طفلتي الصفاء.

ضحكت للحال وسردت كالاطفال.. ليكن لي عمل أبذل فيه قوتي وقلبي.. ولا بأس منه كيفما كان.

- حاضر يا دكتور... سأبدأ العمل عندما تأمرون.

- الآن! للحال.. انظري للوضع كم ينقصه الترتيب كأن يدأ لم تمسه.. ولم يفكر بترتيبه أحد.. وتفوه بكلمة بذيئة فأجبته بخجل: ولكن لي شرط يا دكتور.. وهو ان لا تتكلموا أمامي باللغة العسكرية.

فقال ضاحكاً: سأسعى يا صغيرة.. سأسعى لذلك.. على كل لا تؤاخذيني ان حدث ذلك قضاء وقدراً.

عملنا معاً حتى المساء.. فأعددنا السرائر للجرحى الذين علمنا بوصولهم غداً.

26 كانون الثاني (جزيرة العصفور)

أعمل ممرضة بمعية خير الله بك منذ شهور.. وما زالت الحرب مستمرة لا ينقطع سيل الجرحى عن المستشفى. والعمل كثير بدرجة أني كثيراً ما أنام هنا ولا استطيع العودة الى داري.

اضطررت ليلة الأمس لخدمة مقدم جريح طاعن بالسن الى وقت متأخر. تساقطت إعياء قرب الفجر ورحت في إغفاءة فوق مقعد في غرفة الصيدلية. شعرت بيد خفيفة تلمس كتفي.. فتحت عيني.. فرأيت الدكتور خير الله بك.. خاف علي من البرد فأراد تغطيتي بدثار محاولاً عدم إيقاظي.

رأيت على نور الفجر المتسلل من النافذة عينيه المتعبتين وهو يبتسم ويقول: نامي يا صغيرة.. لا تزعجي نفسك.

كم شعرت بلذة تلك الشفقة.. شعرت في تلك اللحظة بشعور لذيذ وغريب.. فأردت ان اقول له شيئاً لأظهر امتناني لكن التعب والنعاس تغلبا علي فابتسمت بارتخاء وعدت الى النوم.

رغم خطأيه الكبيرين فانني أحب هذا العجوز حباً جماً. أما خطأه الاول إسرافه في استعمال الكلمات البذيئة الغليظة. لا انكر بان من حوله يزعجونه كثيراً ولكن أيكون هذا سبباً كافياً لما يقول؟. كثيراً ما اهرب بعدما يتفوه بتلك الكلمات لأنني لا استطيع الوقوف.. ولا استطيع التطلع الى وجهه أياماً.. يشعر هو أيضاً بغلطته فيقول:

ـ لا تبالي يا صغيرة.. هذه كلمات لا مجل لها من الاعراب.. انها على الهامش.. ما العمل؟ هذه حياة عسكرية.

أحياناً يحدث ان تخرج كلمة من كلماته المعهودة خلال حديثه معي.. فيضبطها بمنتصف الطريق ويحول دون إتمامها ثم يحمر خجلاً ويقهقه كالاطفال.. ان خير الله بك يشبه الاطفال الذين يجعلون الكبار يتناسون غلطاتهم بندمهم البريء وخجلهم المحبب.. فيعفون عنهم.

أما خطأه الثاني فانه أعظم وأكبر.. تكمن في أعماق هذا الرجل الفظ الغليظ بالمظهر رأفة عجيبة. هو بارع بجذب الكلام الذي يتجرأ المرء من الاعتراف به لنفسه بسهولة فائقة... مثلاً: يعرف قسماً كبيراً من تاريخ حياتي التي أسعى جهدي لعدم التحدث به لأي انسان.. كيف قلتها له؟ وانا أيضاً لا اعرف.. لم أعمل شيئاً اكثر من إجابته على الاسئلة التي يوجهها إلي بين الحين والآخر بأجوبة جافة مقتضبة.. لكنه جمع هذه الاجوبة فأخرج منها قصة.

28 كانون الثاني (جزيرة العصفور)

عندما وصلت صباح اليوم الى المستشفى أعلمت بحضور أربع ضباط أصيبوا بجراح خطيرة. أخبرتني الممرضات بأن خير الله بك يفتش عني. كلما أراد إجراء عملية

دقيقة أرادني بجانبه وقال: في الحقيقة لا يستحسن وجودك ومشاهدتك لأشياء كهذه ولكن، لا ادري ماذا اعمل وليس لدي غيرك من يدرك أهمية الامور.

ألقيت ملاءتي ولبست قميصي بسرعة. لكنني ما وصلت إليهم إلا والعملية انتهت. ورأيت الجريح على النقالة يسيرون به نحو سريره.

ناداني خير الله بك وقال: يا صغيرة.. قمنا بخياطة مهمة (يقول للعملية خياطة). انه رئيس أركان حرب في الجيش.. لكنه شاب.. شوهت القنبلة ذراعه الأيمن وقسماً من وجهه. أعطيته غرفتي والآن جاء دورك تسهرين على راحته.. انه بحاجة لاعتناء كبير.

دخلنا الغرفة ونحن نتكلم.. كان الجريح نائماً بدون أي حركة او صوت. لف وجهه وذراعه بالقطن والضمادات. اقتربنا منه لنراه فلم استطع رؤية اكثر من جزء صغير من وجهه المغطى.. فلم أتعرف على صاحب الوجه.

مسك خير الله بك رسغ المريض يجس نبضه.. وانحنى نحوه ونادى مرتين: إحسان بك.. إحسان بك.

خطر لي للحال بان هذا الجريح ليس سوى إحسان بك رئيس أركان الحرب الذي تعرفت به في قصر عبد الرحيم باشا في (ج). تراجعت خطوة الى الوراء قصد الهرب أولاً ثم التوسل الى الطبيب ان يعفيني من خدمته. لكن المريض فتح عينيه ورآني.. عرفني لكنه لم يصدق احتمال وجودي هنا. من يدري كم مرة غاب عن وعيه بعد الصدمة وكم من الرؤى الملتهبة تراءت لناظريه خلال مرضه. نعم! تأكدت من نظراته العميقة بأنه لم يتأكد من شخصيتي. بانت ابتسامة باهتة على شفتيه المبيضتين ثم عاد لإغماض عينيه.

احسان بك! استغلوا سذاجتي وحرماني من ولي يدافع عني فجروني الى سهرة حمراء في احدى الليالي.

تركت البلدة وانا استر وجهي النقي بيدي.. يطفح قلبي ذلة وانكساراً كأحط امرأة ارسلت الى منفى بعيد جزاء استهتارها وانحطاطها. كنت أرى الدنيا كلها ظلماً ونسوة.

وأرى نفسي امرأة ذليلة لا حول لها لرد الظلم غير احناء الرأس والخضوع. في ذلك اليوم دافعت عني ووضعت نفسك ووظيفتك على كف عفريت بسبب ذلك الدفاع. ويمكن القول بأنك وضعت الموت نصب عينيك. فأتيت بتلك الأعمال التي تثبت على المروءة والشرف. بما أننا اجتمعنا بسبب صدفة اليمة فانني لن أهرب منك بل سأضع نفسي رهن أمرك وخدمتك خلال هذه الفترة البائسة والايام المؤلمة العصيبة.. سأكون لك اختا لا تعصي لك امراً.

7 شباط (جزيرة العصفور)

لم تكن جراح احسان بك خطيرة. سيتعافى خلال شهر آخر ان شاء الله.. لكن الجرح الذي يبدأ من حاجبه الأيمن ويسير حتى أسفل ذقنه مشوها خده الأيمن كله سيترك اثراً كبيراً يجعل منظره بشعا ومخيفا.

عندما يبدل خير الله بك الضمادات لا اقف معه. لا لأني لا احتمل رؤية الجروح.. اعتدت ان أرى في اليوم عشرات منها كبيرة وواسعة. بل انني ابتعد لأنني اشعر بان احسان بك فقد تماماً غروره واعتداده ينظر إلي نظرات تنم عن التوسل لأكف عن رؤية وجهه. وانني واثقة بأن النظرة التي تعلق من عيني على جراحه لأصعب وقعا وألما من ضربة سيف.

يعلم بأنه سيبقى مشوها الى الأبد.. اشعر بأنه يتألم بيأس قاتل وان لم يصرح بشيء يدل على ذلك.. ينتفض بألم كلما قال له خير الله بك مشجعا : تشجع أيها الشاب ستكون بعد عشرين يوماً معافى لا تشكو ألماً.

لا أبخل عليه بالعطف والحنان من كل قلبي.. وانني أسعى على الدوام لتخفيف آلامه... وجعل أيام مرضه خفيفة لطيفة. أظهر له الحب اكثر من أخت شقيقة أقرب له الكتب احياناً وانا أجلس قرب سريره وكثيراً ما اقص عليه القصص المسلية.

اشعر بألمه واضطرابه بل وشرود ذهنه للبشاعة التي حلت به بعد هذا الجرح الأليم. وكثيراً ما أسعى لإيجاد السلوى لنفسه المعذبة بوسائل خفية فأحدثه عن اشياء اخرى

لا تمت بصلة للحالة التي هو فيها.. أرمي من قصصي لمغزى ان الجمال ليس جمال الوجه.. وكثيراً ما كان جمال الوجه نقمة بدل ان يكون نعمة. علينا ان نفتش عن الجمال الحقيقي بالروح، بالنفس، وبالأخلاق السامية.

حدثته يوما بقصة (صديقة) تركت خطيبها الذي يسحر بجماله الألباب بمحض اختيارها رغم انها فتاة معدمة فقيرة لا اهمية لها ولا سنداً. كرهته لدرجة لا تستطيع ذكر اسمه. لا شيء سوى افتقاره للجمال الروحي والخلقي.. كرهته لظلمه وغدره.

25 شباط (جزيرة العصفور)

تعافى احسان بك بمدة أقصر مما تصورنا. عندما ذهبت إليه اليوم أحمل فطوره وجدته مرتديا ملابسه وقد ترك السرير. تراءى لناظري ذلك الشاب الجميل الذي كان يفيض غروراً وحيوية عندما رأيته في قصر عبد الرحيم باشا قبل عام من اليوم. ذلك الرئيس بملابسه العسكرية ونجومه البراقة تتلامع على كتفيه.. احقاً هذا الشاب الماثل أمامي وقد ألوى برقبته النحيفة على كتفه يشعر بالخجل لدمامته نفس الضابط المغرور؟

لم استطع كبت تأثري فلذا أردت إظهاره بغضب مزيف كيلا يشعر بما بي فقلت:

ـ احسان بك! ان عملك عمل صبياني محض. لماذا ارتديت ملابسك قبل ان تشفى تماماً ويسمح لك الطبيب بذلك؟

ألقى بنظره الى الارض وقال:

ـ لأن النوم والاسترخاء يزيدانني مرضاً.. فلذا قمت.

صمتنا نحن الاثنين.. مضت فترة صمت ثم قال وهو يسعى لإخفاء اضطرابه وعصبيته:

ـ اريد الذهاب.. لم يبق بي شيء.. تعافيت تماماً.

كان قلبي يتمزق حزنا وعطفاً... فبدأت المزاح حباً بإخفاء ما بي وقلت:

ـ احسان بك! .. أراك لا تسمع ما اقول.. استيقظ عنادك العسكري... فلذا انا مضطرة للوشاية بك. ها انا ذاهبة لأعلم الطبيب بكل شيء.. فليعاقبك كما يريد.. سترى النتيجة.

ثم خرجت مسرعة بعد ان تركت الفطور أمامه.. لكنني لم أذهب لرؤية الطبيب.

25 شباط (قرب المساء)

احتدم الجدل بيني وبين خير الله بك، لكنه ليس بسبب العمل او الوظيفة.. بل لأنه تمادى في التداخل بأمور غيره بشكل مزعج. كنا نبحث بشأن احسان بك فقلت بأن بشاعة وجهه وتشويهه يؤلمه كثيراً. فقلب خير الله بك شفته وقال:

ـ له الحق!.. لو كنت محله لألقيت بنفسي الى البحر. إذا ما نفع وجه مثل وجهه اكثر من ان يكون طعاماً للأسماك؟

احتدمت غيظاً وقلت:

ـ كنت أظنك تحمل قلباً يشعر بغير هذا الشعور يا دكتور.. ما أهمية جمال الوجه إذا قورن بجمال النفس والروح؟

سخر مني وضحك قائلاً:

ـ هذا كلام فارغ يا صغيرة.. لا يهتم احد بشخص له وجه بشع مثل وجه احسان.. بالأخص الشابات في سنك. وكان ينفض ياقته كمن يستزيد في الشكوى.. زاد تمردي وقلت بحنق:

ـ تعرفون قسماً من حياتي. وقد اغتصبتم البعض من أسرار قلبي.. كان لي خطيباً جميلاً.. وجميلاً جداً.. محوت اسمه من قلبي.. ونبذته الى الأبد لأنه غدر بي.. انا أكرهه.. أكرهه اكثر من الموت.

تعالت ضحكات خير الله بك ورمقني بنظرات عميقة وقال:

آه يا لك من طفلة مسكينة.. انت تحترقين لأجله. تحترقين كالهشيم منذ سنين.. خرب الأحمق حياته وحياتك.. لأن من الصعب والنادر وجود عشق مثل عشقك.. وإخلاص مثل إخلاصك.

اختنق صوتي من الغضب وانا اقول:

ـ لماذا تجدني أهلا لهذا الافتراء الثقيل؟ من أين تعرف بأنني أحبه؟.

ـ تذكرين.. بأنني أدركت هذا من اول يوم رأيتك فيه في تلك القرية النائية. عبثا حاولت وتحاولين الإخفاء. يشع العشق كالنوم من عينيك يا صغيرة.

اسودت الدنيا في عيني واضطرب سمعي وهو ما زال يتكلم:

تعيشين بين الناس وكأنك غريبة عنهم.. بعيدة منهم.. لك ابتسامة تشع تظلماً. كأنك في حلم تعملين وانت شاردة.. ان أطوارك تحرق قلبي يا صغيرة.. انت لا تشبهين غيرك من الفتيات... ولا من الوجه. يقال في الاساطير بان هناك أناس خلقوا من القبلات وتغذوا بالقبلات.. وعاشوا بالقبلات.. يجب ان نصدق ذلك ولا نقول عنها بأنها محض خيال. لها في هذه الدنيا عينات.. يا فريدة.. انت واحدة منهن انت مخلوقة خلقت لتحب وتحب.. آه يا مجنونة!. ما اكبر غلطتك وأعظمها.. كان عليك ان لا تدعي الملعون يفلت منك مهما جرى. لأنك رغم كل ما جرى كنت ستسعدين حتماً وتسعدينه معك.

قلت وانا أصيح صيحة عصيان واضرب الارض بقدمي:

ـ لماذا تقول كل هذا؟ ماذا تريد مني؟

ثم استرسلت في البكاء عندها أدرك الدكتور غلطته وقال:

ـ حقاً يا صغيرة.. الحق معك.. لم تكن هذه الاشياء لتقال.. غلطت كثيراً وأخطأت.. سامحيني.. ثم أخذ يسعى لتسكين ثورتي وتطييب خاطري. كنت غاضبة ثائرة لا اريد النظر الى وجهه عندما قلت:

ـ سترى كيف سأثبت لك بأنني أمقته ولا أحبه.

ثم خرجت وغلقت الباب بشدة ورائي.

25 شباط أيضاً في الليل

لم يكن احسان بك قد خلع ملابسه بعد عندما اخذت له المصباح. كان واقفاً أمام النافذة يتأمل غروب الشمس على البحر.. فقلت له:

يعلم الله كم انت مشتاق لبزتك العسكرية يا سيدي.

كان ظلام المساء قد استولى تماماً على الغرفة وكأني بإحسان بك استمد الجرأة من الظلام هز رأسه بابتسامة ذات مغزى خفي ولأول مرة صارحني بمصابه فقال:

ـ بزتي العسكرية يا سيدتي؟ انها أملي الوحيد.. وان كانت السبب فيما آلت إليه حالة وجهي.. فانني سأصلح ما لحقني من مصاب بواسطتها.

لم اكن افهم القصد من كلماته فلذا كنت انظر إليه بدهشة واستغراب وهو يتابع كلامه بعدما تنهد بألم:

ـ ان الإصلاح لأمر بسيط للغاية يا فريدة هانم.. ليس بأمر عسير. سأتراجع كضابط نظامي.. فأتمم الأمر الذي لم تتمه القنبلة بل تركته نصفاً.. وعندها أتخلص وأستريح.

قال الضابط كلماته ببراءة طفل صغير.. أدرت ظهري لأشعل المصباح فأطفأت عود الثقاب وانحنيت كأنني أصلح الفتيل وبصوت خافت حزين قلت:

لا تقل هذا يا احسان بك.. بوسعك ان تكون سعيداً إذا أردت تزوج بفتاة متوسطة مثلاً.. وشكل عائلة طيبة تنجب بعدها الاطفال.. وتنسى كل شيء.

كنت اشعر بأنه لا ينظر إليّ.. رغم انني لم أدر راسي ولم أره.. شعرت بأنه ما زال يتطلع الى البحر عندما سمعته يقول:

ـ فريدة هانم.. لو لم أطلع على طيبة قلبك لقلت بأنك تسخرين مني.. أين الفتاة التي تقبلني بحالتي هذه؟ انا الذي رفضتني شابة فيما مضى على الرغم من انني لم أكن بشعاً مثلي الآن.. كان في وسع امرأة ان تنظر إلي ولا تخجل ان قالت (زوجي).. أما الآن فما انا إلا مشوه عليل.

لم يستطع او بالأحرى لم يشأ الاستمرار فلذا جمع نفسه المشتتة وقال:

ـ فريدة هانم.. أقوالي سخيفة.. أرجوا ان تضربي عنها صفحاً وتتناسيها.. هل تضيئين المصباح؟

أشعلت عوداً آخر من الثقاب لكن يدي لم تصل الى المصباح بأي حال.. انتظرت انطفاء العود وانا أتأمل احتراقه وما ان عادت الغرفة الى ظلامها حتى قلت على مهل:

ـ احسان بك.. عندما صدمت بذلك الرفض كنت شاباً قاسياً مغروراً.. لم يكن الألم واليأس قد منحا قلبك هذه الرقة. دست الوظيفة بقدميك وربما وضعت الموت نصب عينيك عندما دافعت عن تلك الفتاة المسكينة المعلمة في مدرسة ابتدائية حقيرة.. والأهم انك لم تكن صريحاً مثل اليوم لا تخفي شيئاً.. انني اقدر فاجعتك وأدركها.. لم تكن شقياً من ذلك الحين مثل اليوم. لم لا توقف تلك المعلمة المسكينة حياتها لإسعادك؟

فأجاب الضابط المريض بصوت مبحوح:

ـ فريدة هانم.. أتوسل إليك.. لا تقتليني بأمل مستحيل المنال مثل هذا الأمل.

كنت قطعت بنفسي القرار النهائي فلذا استدرت نحوه وقلت وانا أتطلع أمامي خافضة الطرف:

ـ احسان بك! أرجوا ان تقبلني زوجة.. لأنني اريد ذلك.. سترى كم سأسعدك.. أننا سنكون سعيدين حتماً.

لم استطع رؤية وجه الضابط من بين أهدابي المغشاة بالدموع. لم يحر جواباً غير انه رفع يدي التي مددتها بجزع نحو شفتيه وقبل أطراف أصابعي. وشعرت مع هذه القبلة الاولى للخطوبة بدمعتين حارتين سقطتا على يدي.

انتهى كل شيء... لم يعد بوسع أي انسان ان يتجرأ بعد الآن للقول بانني أتحرق شوقاً في الخفاء على ذلك الغادر الظالم.

26 شباط (جزيرة العصفور)

لم تعد بعد ذلك اليوم اكثر من شخص غريب بالنسبة لي يا كامران.. كنت اعرف بأننا لن نلتقي ولن نرى بعضنا.. ولكن رغم كل ذلك.. لم استطع محو شعوري بأنني ما زلت خطيبتك. مهما قلت ومهما عملت لا استطيع التخلص من الشعور بأنني ملكك وحدك.

نعم! لم الكذب؟ رغم كرهي وتمردي... ورغم كل ما حدث... كنت ملكي نوعاً... وكنت ملكك بكليتي.

شعرت بكل هذا الشعور عندما استيقظت اليوم وانا خطيبة رجل غيرك؟. بعد ايام متوالية كثيرة مرت خلال هذه السنين الطويلة وانا استيقظ وأحيا بشعور انني خطيبتك.. كامران!.. في الواقع هو اليوم فقط الأول لفراقي عنك.. وكيف؟ كالمسافر المسكين الذي لا يحق له ان يلتفت الى الوراء ليحمل ذكرى من بقايا عمره وقلبه وحبه.



كنت مصممة على أخذ احسان بك صباح اليوم الى غرفة الطبيب خير الله بك لأعلمه بخبر خطوبتنا بعدما أرى أولاً احسان في غرفته. ولذا لم أجد قميص العمل يتوافق مع المناسبة التي سأقوم بها.. ويحتمل ان يزعج شكلي خطيبي الجديد.. فلذا جمعت بعض الازهار الصغيرة من الحديقة وعلقتها على صدري.

وجدت احسان بك مرتدياً ملابسه في هذا الصباح الباكر.. وما ان رآني حتى ابتسم بصفوة الاطفال. فكرت بأنه اصبح بعد اليوم واجبي إسعاده.. ولا يجوز إظهار حزني وان كنت بائسة حزينة.. فلذا أجبرت نفسي على الضحك وانا أمد يدي وقلت:

ـ صباح الخير يا خطيبي.

ثم أخذت بعض الازهار من صدري وعلقتها في عروة سترته وانا أقول:

ـ أظنك نمت مستريحاً هذه الليلة؟

ـ وانت؟ هل نمت مستريحة يا فريدة هانم؟

ـ نمت كطفل لم يتجاوز الشهور الست الاولى من عمره.. نوم عميق ومريح... وممنونية زائدة.

ـ إذاً ما الداعي لشحوبك؟

ـ يخيل لي بان السعادة أيضاً ترهق الانسان وتتعبه كالشقاء أحياناً.

سكتنا كلانا بعد هذا الجواب.. كانت شفتا احسان بك بيضاء.. طار الدم منها تماماً. بعد سكوت قصير بدأ الحديث. كان يسكت بين الحين والآخر لضبط أعصابه واستعادة رباطة جأشه ويتردد لحظة ثم يتابع:

فريدة هانم!.. انا غريق لطفك وأسير فضلك حتى الموت. منحتني ليلة سعيدة كانت الوحيدة في حياتي قضيتها بالأمل والخيال.. كذبت عليك قبل لحظة.. لأنني لم أنم حتى الصباح. لأن صوتك الذي قال لي أتقبلني زوجة؟ انا خطيبتك بعد الآن لم يذهب صداه لحظة من أذني ما زال يرن في مسامعي. لم أنم.. لأنني لم اشأ ان اقضي لحظة من الليلة السعيدة التي جعلتني بها خطيبك تفوت دون الافتكار بها والتلذذ فيها.. سأبقى مديون عطفك الى آخر نسمة من حياتي.

رفعت عيني إليه وقلت:

ـ سأسعدك الى الأبد.

كان مضطرباً ومهتاجاً أراد ان يقبض على يدي لكنه لم يجرأ.. وبصوت ساكن عميق كأنه يخاطب طفلاً مريضا قال:

ـ لا! يا فريدة هانم! لا يمكن ان يكون لهذه الليلة مثيلاً. كنت اعرف ذلك.. وكنت سعيداً جداً.. ولكن رغم كل ذلك.. انا راحل اليوم.. سأفارقك بعد بضع ساعات.

ـ لماذا يا احسان بك؟ لماذا لا تريدني؟ لا يجوز ان تتركني بعد كل هذا الأمل.. لا يجوز.

أسند الضابط ظهره الى الحائط وأغمض عينيه وقال:

ـ آه من هذا الصوت.

ثم انتفض فجأة وبصوت خشن تقريباً قال:

ـ لو طال بنا الحديث لسولت نفسك الرحيمة ان تقولي بانك تعشقيني.

ـ لم لا يا احسان بك؟ ما دمت اريد الزواج بك فلا بد من سبب لذلك.

فأجابني باستهزاء مرير:

ـ نعم ما دمت قبلت الزواج مني فأنت تحبيني.. ولكن انا لم أطلب ان اكون محبوباً منك بهذا المقدار. كنت أكثر سعادة لو شعرت يوماً بجزء من ألف من تلك الكراهية

التي حدثتني عنها يوماً بأنها شعور صديقتك نحو خطيبها. أحقاً وجدت احتمالاً لهذا الزواج يا فريدة هانم؟

- ....

كان يكلمني بشفقة وحنان كمن يكلم طفلاً فقال:

- لم تتحملي خدشاً بسيطاً في كرامتك.. أظهرت غروراً برفضك عشق عميق بحجة مساس لعزة نفس. ولا اعتقد بان أحداً يستطيع حبك اكثر من ذلك. فريدة هانم أتظنيني ضعفت وتخاذلت لدرجة قبول صدقة تتزيا بزيّ العشق وما هي اكثر من احسان شفقة لعليل بائس يا فريدة هانم.

اطرقت راسي بحزن وألم وقلت:

- لك الحق يا احسان بك.. كلانا مخلوقان بائسان. كنت احسب بأننا لو جمعنا بين الفجيعتين أتيح لنا التخفيف مما بنا من بؤس وربما عشنا براحة.. ولكن.. أراني مخطئة (واستزدت وانا أريه سيفه المعلق على الجدار) أنت أحسن مني حظاً.. لك سلوى على الأقل.. بوسعك كما قلت ان تعود الى عملك.. أما انا فانني امرأة.. انا امرأة بائسة استحق العطف اكثر منك.

❋

اجتمعا خطيبين.. بصدريهما بعض النفحات الساكنة التي تشبه الازهار في صبيحة يوم شتاء بارد ترتسم بسمات شاحبة على شفاههما. لكنهما افترقا بعد عشر دقائق من لقائهما وبعيونهما الدمع، فراق أخ بائس لأخته الصغيرة التي لا حول لها ولا طول.

2 نيسان (جزيرة العصفور)

أعيدت المدرسة الى حالها منذ أيام ثلاث.. بعد انقطاع دام خمسة شهور عدنا بالأمس الى الدروس. ولكن ما العمل؟ وقد قاربت السنة من الانتهاء.. والربيع يملأ الصفوف

بأشعة الشمس البراقة. وشذا الازهار الحلوة.. فالكل يتراخى بكسل ولا يرى بنفسه ميلاً للعمل. لا فرق بين كبير وصغير في ذلك الشعور.

لا تريد المعلمة الاولى البقاء في جزيرة العصفور فلذا ارسلت منذ شهر تقريباً الى مكان آخر.. عينوني بديلة لها.. وارتقى اسمي من معلمة الى (مديرة).. لم أرتح لهذا العمل لأن زميلاتي ينظرن إلي نظرات غريبة قلقة.

في الواقع ليست المعلمات ذات معلومات عالية وثقافة واسعة ولكن على كل حال انهن سيدات تجاوزن العقد الثاني ولهن خدمات تربو عن الـ 15 او 20 عاما كما يقول موظفو المعارف. وأظن بأنه يصعب عليَ أيضاً لو كنت محلهن ان يأتوني بطفلة أصغر من أولادي تراسني.. لن اكون اقل منهن حقداً عليها.

أحيل خير الله بك على التقاعد منذ أول شهر آذار.. انه رجل ثري.. ليس له أي حاجة للراتب. ولكن على الرغم من ذلك أظهر ألما وقال:

ـ أغمضت بيدي عيون الكثير من دببي العزيزة.. وكنت أريد ان يغمضوا بأيديهم عيني.. ويوصلوني الى قبري.

ان خير الله بك رجل واسع المعلومات قضى شبابه بالمطالعة والتتبع. لديه مكتبة كبيرة، لكنه بالرغم من ذلك يقول بأنه ليس في الدنيا شيء أسخف من القراءة.. ويدعي بأن الذين يقرأون الكتب في الحياة هم الحمقاء الذين يقضون حياتهم دون ان يتمتعوا بشيء من ملذات الدنيا مثلهم كمثل المؤلفين تماماً.

اردت قبل مدة أن أغلبه باعتراض قوي فقلت:

ـ ما دام الأمر كذلك... فلمَ قرأت كثيراً؟ وما زلت تقرأ بشوق مثلنا تماماً.

ان كلماتي هذه كانت اعتراضا قوياً يوقف المياه الجارية كما يقولون.. لكنه لم يبال أبداً بل بالعكس قهقه ضاحكاً وقال ساخراً:

ـ حسناً ما تقولين.. ولكن من الذي قال لك بأنني لست أحمقاً يا صغيرة؟

لا افهم هذا الطبيب العجوز.. يشاكس بكل شيء يحبه.. حتى انني اشعر بأنه عندما يوبخني يكون شاعراً بحب نحوي اكثر من أي وقت آخر. كثيراً ما يقضي أياما طويلة

قابعاً في داره يقرأ الكتب.. وهذا هو سلواه بعدما ترك العمل والمستشفى. وأحياناً يلبس جزمته الباقية من ايام الوظيفة ويحمل بندقيته ويركب دلوله (الدلول هو اسم حصانه الذي يحبه كثيراً) يفتش في القرى المجاورة عن عمل يتسلى به كعيادة المرضى والمعوزين.

تعيش في الدار معه امرأة عجوز تبلغ الثمانين أرضعته في صغره، وجنائني أعرج يطلق عليه اسم (الشاويش).

دعاني الى داره ومؤنسة قبل ثلاثة ايام وكان مرحا جداً.. بينما كنت أفتش على كتب في المكتبة كان يلعب مع مؤنسة كالاطفال. يعطيها التعليمات والايعازات يقع المرء لسماعها على الارض من الضحك.. فيقول لها مثلاً: سنلعب الاستخباء.. ولكن لا يجوز الاستخباء بمحل صعب.. لأن جسمك صغير بطول الأصبع.. تعلقين بزاوية وتضيعين.. فتتعبيني ساعات طويلة بالتفتيش. ثم، لا تشغلي بالك ان لم تجديني.. ربما استغرقت في نوم لذيذ بالمكان الذي اختبأت فيه.

سترتدي مؤنسة الملاءة خلال بضعة ايام.. لأنها عما قريب تدخل في عامها الرابع عشر.. قارب طولها من طولي.. تفتحت صغيرة كالوردة. وصارت حلوة كأميرات الاساطير التي يقال عنها بان الورد يتناثر من خدودها ان ضحكت وتتساقط اللآلئ من عينيها ان بكت. حقاً ان جمالها ساحر فتان.

ان خير الله غاضب جداً لاهتمامي بالملاءة.. وانا أيضا لا أحبذ ذلك وأدرك بأنها ما زالت صغيرة ولكن ما العمل؟ انا خائفة وكثيرات من الجارات يقلن لي على الدوام: (فريدة هانم.. خبئي ابنتك من الرجال... لأنك ستصبحين حماة قبل الأوان...) عندما اسمع ذلك يعتريني شعور غريب... افرح واضطرب معاً. ألا يقال بأن الحماوات والعجائز غريبات الأطوار تنتابهن عوامل متناقضة غريبة؟

كنا بالأمس عائدتين من المدرسة فالتقينا بتلميذ يتراوح عمره بين السادسة عشر والسابعة عشر.. يسير على الرصيف المقابل.. استغربت نظراته الموجهة إلينا بين

الحين والآخر. فراقبت مؤنسة بطرف عيني دون ان أدعها تشعر بذلك. ماذا أرى؟ ان الصفراء الظالمة تنظر إليه بطرف عينها وهي تبتسم.. اضطربت لدرجة كدت أقع على الارض. تمالكت نفسي وقبضت على يد الملعونة وجئت بها الى الدار. ثم ضيقت عليها الخناق. انكرت في بادئ الأمر، لكنها اعترفت عندما لم تشعر بأي احتمال لتصديقي ادعاءاتها. ثم اخذت تستدر عطفي بالبكاء لأنها تعرف بأنني لا استطيع المقاومة وأبكي للحال كلما رأيتها باكية.

قلت: سأدبر لك جزاء يليق بعملك.

وبدأت للحال بخياطة ملاءة لها اشتريتها من الحرير الاخضر القاتم. قامت في الدار صباح اليوم مشادة (ئه ليه تروب). قلت قبل شهور خلال حديث جرى بانني أحب كثيراً عطر (الئه ليه تروب). ولا ادري من أين وجد خير الله بك العطر فأتاني بزجاجة منه بعد بضعة ايام. استعملها بتقتير مبالغ خشية نفاذها. لكن الخبيثة لا تدعني ارتاح.. تسلطت عليها.. كلما بقيت وحدها ووجدت فرصة فاحت رائحة العطر في أرجاء الغرفة. ثم تقول بسذاجة:

ـ لم أتعطر... اقسم لك يا أختاه.

5 أيار (جزيرة العصفور)

استيقظت مؤنسة صباح اليوم متوعكة شاحبة تشع الحمى من عينيها المحمرتين. لم يكن بوسعي البقاء في الدار لكثرة الاشغال في المدرسة. مررت بدار خير الله بك لأرجوه ان يمر علينا ويفحص مؤنسة، لكنه لم يكن في الدار. سافر الى قرية ما قبل نصف ساعة من وصولي.

عندما عدت الى الدار وجدت مؤنسة في السرير. كنت رجوت جارة لنا عجوز ان تفتقدها بين الحين والآخر.. جزاها الله عنا خيراً.. لم تفارقها أبداً.. جلست بقربها تحيك الجوارب حتى المساء.

تزايد مرض مؤنسة.. يشتعل رأسها كالنار.. تزايد سعالها عن الصباح.. حتى بح صوتها. تشكو من ضيق خفيف في نفسها... فتحت لها فمها فرأيت ورماً في حلقها. وقد تراءت لي نقط بيضاء في أطراف لسانها.

سخرت مؤنسة من قلقي واضطرابي وقالت:

ـ ما خطر السعال يا أختي؟ هل نسيت السعال الذي أصابني في الزينيات؟

لها الحق فيما تقوله الصغيرة.. ألم تسعل في الزينيات بعد الليلة التي قضتها بين الثلوج وكانت تموت برداً؟ ما خطر السعال والرشح عند الاطفال؟ انما يضايقني تأخر خير الله بك في العودة.

مر (الشاويش) قبل هنيهة وأعلمني بأن سيده سيبقى في القرية هذه الليلة.. آمل ان تتعافى صغيرتي حتى عودته ان شاء الله.

18 تموز (جزيرة العصفور)

ها لقد مضى 73 يوماً على نوم صغيرتي تحت التراب. اعتدت بالتدريج على هضم هذه المصيبة أيضاً.. ما الذي لا يستطيع المرء احتماله؟

ذهبنا قبل هنيهة مع طبيبي العجوز الى شاطئ البحر.. جمعت الحصى والأصداف من الشاطئ الرملي واخذت بإلقائها على المياه الساكنة.

كان خير الله بك فرحاً كالاطفال يضحك فتبرق عيناه الزرقاوتين ويقول:

ـ آه! ما أحلى الشباب وما ألذه!.. اشكر الله على نعمه. تغلبت على المرض أيضاً. انظري كيف اخذت تستعيدين لونك مثل مرحك.

ضحكت وانا اقول: هذا أمر طبيعي لكل انسان.. عندما يتوفر له طبيب مثلك يرعاه ويسهر عليه.

هز رأسه بألم وقال:

ليس طبيعي يا صغيرة.. كلا ليس ذلك أمر طبيعي فالطبابة أيضاً مثل الناس، مثل الكتب، مثل الصدق والوفاء.. اسطورة لا أصل لها ولا حقيقة. ما نفع الفن ان لم استطع بواسطته تخليص طفلة صغيرة؟

- ما العمل يا دكتور؟ هذه مشيئة الله.. ولا راد لمشيئته.. كفاك حزناً وألماً.

نظر إلي بحزن عميق وقال:

- يا لك من طفلة مسكينة.. أتعلمين السبب الحقيقي لحزني وألمي؟ إذا داهمتك مصيبة وكنت بين أصدقاء، تجاهلت نفسك ومصيبتك وشرعت بتسليتهم وانت أحوج منهم للسلوى. ان أطوارك هذه تعجبني لكنها تكاد تبكيني يا صغيرة. لأنك لا تحاولين قط ان تشعري بذرة من حب الذات.

سكت قليلاً ثم أخذ يشكو لنفسه على مهل:

- اشعر بأنني اصبحت رجلاً لا نفع فيه.. ما أسخفني! أرى أعراض الشيخوخة كلها تظهر بالتدريج. هيا بنا يا صغيرة.. لنعد الى الدار.

أخذنا نسير في الحقول المصفرة عائدين. يعرف المزارعون الطبيب. تحدثنا مع امرأة عجوز بالقرب من احد البيادر... عالج الطبيب قبل سنين حفيد هذه العجوز. بعدما ابتهلت العجوز بالدعاء الكثير نادت شاباً يعمل تحت وهج شمس تموز المحرقة وقالت:

- تعال يا حسين.. قبل يدي ولي نعمتك.. لو لم يكن لكنت الآن حفنة من تراب.

بعدما داعب الطبيب خد حسين المحترقة من الشمس والمبللة بالعرق قال:

- انا لا افهم الشكر الذي يقدم بتقبيل اليد يا شاطر.. هلم وأركبنا على النورج... لنتقبل شكرك ونشكرك.

ركبنا النورج الذي يجره ثورين كبيرين ودرنا ما يقارب الربع ساعة فوق الأمواج الصفراء من بحر التبن.



أرى اليوم بنفسي القوة لتدوين تلك الحادثة المشؤمة.

اشتد مرض مؤنسة صباح اليوم الذي كتبت فيه آخر صفحة من مذكراتي. بح صوتها لدرجة لا تقوى على الكلام. كانت المسكينة تتحرق على ذرة هواء. بينما كنت أتأهب للخروج الى طبيب آخر، وصل خير الله بك. بعدما فحص الصغيرة فحصاً قصيراً أعلمني بان مرضها بسيط، لكنه كان مقطب الجبين جزعاً. هز كتفيه بعد برهة تفكير وقال:

جئت من طريق دام أربع ساعات... هلكت من التعب. ماذا تريدين مني.. ألا يكفيك خدمتي لك فتطلبين مني ان أكون مهرجاً لم تكشرين هكذا؟. دعيك من الدلال الآن.

يكون خير الله بك فظاً غليظاً كلما يرى المرض شديد الخطورة. قال لي غاضباً ودون ان يتطلع الى وجهي:

وإن لم يكن أي داع لطلب زملاني للاجتماع إلا انني سأطلب ذلك زيادة في الحيطة.. هلمي أسرعي وأعطني ورقة وقلماً.

تسير الأعمال بالعكس. أرسلوا لي الإذن مرات من المدرسة لأن هيئة المعارف يرأسها المفتش جاءت لتزور المدرسة يريدون سؤالي عن بعض الاعمال. احتدم خير الله بك غيظاً وقال:

- ماذا تعملين هنا؟ هيا اسرعي الى عملك. كأن أعمالي قليلة بعد هذا التعب... فأزيدها بإجهاد النفس بك أيضاً.. هلمي وارتدي ملابسك. ان بقاءك معنا يعرقل أعمالنا. اقسم بأنني أتركك وشأنك واذهب إذا أصررت في البقاء.

أعطى الطبيب أوامره هذه بصراحة وشدة لم يكن بالإمكان عصيانها.. لم أجرأ على الاعتراض بأي كلمة. ذهبت الى المدرسة ودموعي تسيل على خدي طول الطريق.

لو أغرقتني مديرية المعارف بنعم الدنيا لا تساوي جزءاً من التضحية التي قمت بها اليوم. يدور المفتشون في الصفوف... يسحبون التلميذات للفحص.. يريدون رؤية السجلات.. يسألون ألف سؤال وسؤال.. لا ادري كيف أجيب وكيف أفكر بقلبي الميت ورأسي الفارغ. الحقيقة لا ادري ولا استطيع إدراك شيء مما يدور حولي.. انني كالآلة

الصماء التي تدور على نفسها. قارب وقت الانصراف وما زالوا في المدرسة لا يودون الذهاب.

أخيراً شعر أحدهم باضطرابي فقال:

ـ هل انت مريضة يا مديرة هانم؟ أراك شاحبة كثيراً.

لم استطع السكوت، وكأني أطلب الرحمة والعون قلت بذل وانكسار:

ـ طفلتي تموت في الدار.

تأسفوا لما حدث.. وأرادوا تشجيعي وتسليتي بكلام فارغ. ثم أذنوا لي بالانصراف.

ان المسافة بين المدرسة والدار لا تزيد عن مسير خمس دقائق.. قطعتها بنصف ساعة... وربما بأكثر من ذلك. بعدما كنت أتلهف شوقاً وحسرة منذ الصباح للعودة الى الدار.. أراني لا اريد العودة بأي حال.

كنت استند على الجدران وأجلس على الاحجار في الطريق كالمسافرين المتعبين من عناء السفر. كان يتراءى لي من خلال نوافذ داري المفتوحة رؤوس رجال لا اعرفهم.

فتح (الشاويش) الباب.. لم أجرأ على سؤاله وكنت أرجوا ان لا يقول لي شيئاً.. لكنه قال شيئاً لم انتظر سماعه لأنه قال:

ما زالت المسكينة مريضة جداً... شفاها الله.

مادت الارض تحت قدمي... ظهر بتلك الآونة خير الله بك في اول السلم مفتوح الصدر مشمر الساعدين عاري الرأس وهو يصرخ قائلاً:

من الطارق يا (شاويش)؟

جلست على طرف السلم. وما ان رآني على تلك الحال في ظلام الباحة حتى قال بارتباك:

أأنت يا فريدة هانم؟ حسناً يا ابنتي.. حسناً.

ثم نزل إلي بتمهل وبطء.. كانت حالتي تدل على انني أعلم كل شيء مسك يدي وبصوت متقطع قال:

ـ يا ابنتي تشجعي اضبطي نفسك سنخلص ان شاء الله. حقناها بالمصل وما زلنا نعمل كل ما يلزم ان الله كبير لا تقطعي أملك.

ـ سيدي الدكتور.. اسمحوا لي ان أراها.

ـ ليس الآن يا فريدة انتظري قليلاً انها في غيبوبة. اقسم لك بأنها حية.. اقسم بأنها غيبوبة فقط تأكدي مما اقول.

بإصرار هادئ قلت: لا بد لي من رؤيتها يا دكتور لا يجوز لكم منعي، ثم تنهدت بحسرة وتابعت: انني أقوى مما تظنون لا تفكروا بأنني سأقوم بأعمال غير مناسبة.

فكر خير الله بك قليلاً ثم هز رأسه ألماً ووافق وهو يقول:

حسناً يا ابنتي.. ولكن يجب ان تعلمي ان الصراخ والأنين يجفل المريضة ويزعجها ولا ينفعنا شيئاً.

ما أغرب طباع البشر بعدما يضطرون لمواجهة الألم يداخله توكل وسكون الملائكة مهما عظمت آلامه. دخلت الغرفة أسند رأسي على كتف خير الله بك ولم يكن في عيني أثر للدموع وقد سكن خفقان قلبي.

إنني أرى منظر الغرفة الآن وقد مضى (73) يوماً على الحادث ثقيلة كأنها (73) عاماً. كان بالغرفة طبيبين وسيدة عجوز. كانت شمس الأصيل تبعث الحياة في الغرفة وهي ترسل أشعتها الصفراء الباهتة من النافذة.. تزقزق العصافير في الخارج وتصل أنغام الحاكي من بعيد. الغرفة مبعثرة.. الكراسي والرفوف ملأى بالأدوية والقطن.. والكثير من الأغراض العائدة لمؤنسة معلقة على الجدران. وهناك أمام المرآة باقة ورد ذابلة كانت مؤنسة جمعتها بيدها من حديقة الدكتور. على المنضدة حصى وأحجار ملونة جمعتها أيضاً من شاطئ البحر، تحت احدى الكراسي فردة من حذائها. وعلى الجدران صورتها التي رسمتها لها بالدهان المائي في (ب) وعلى رأسها طاقة من الأزهار البرية وبأحضانها يرقد الجدي (مظلوم).. ثم كثير من الاشياء كالخرز والقماش والصور... اشياء حبيبة الى نفس فتاة تود إشباع رغباتها منها.

اشتريت لها قبل اسبوعين سريراً أصفر مذهباً وزينته بالحرير والموصلين كأنني أفرش سرير دمية صغيرة وانا فرحة أقول: (ها قد اصبحت مؤنسة شابة سترتدي الملاءة).

كانت طفلتي تنام بين هذه الكومة من الحرير.. وكانت هي أيضاً كومة حرير بيضاء.. وقع رأسها على الوسادة كأنها غارقة في أحلام عميقة وثقيلة.. يتدلى من جانب سريرها قطعة من ملاءتها الخضراء التي لم تتم خياطتها بعد. وعلى الرف الذي بقرب السرير تجلس دميتها التي اشتريناها في (ب) تتطلع على صغيرتي بعينيها الزرقاوتين وقد شحب خداها من كثرة تقبيل مؤنسة لها.. انطفأت من وجهها معالم المرض وأشجانه. تنام نومة هادئة.. ترتعش على فمها آخر نسمة من نسمات الحياة.. تتراءى أسنانها البيضاء من بين شفتيها المنفرجتين قليلاً كأنها تبتسم بسكون.

آه! ان هذه الاشياء الحلوة أسعدتني زمناً بدأ من ايام مدرسة القرية المظلمة حتى هذه اللحظة.

ما زالت الطيور تزقزق بمرح.. وما زال الحاكي يغني.. إلا ان شمس الأصيل اخذت تنسحب بسكون تاركة وراءها بعض ذرات من البريق واللمعان على وجه صغيرتي الشاحب.

لا صيحة فزع... ولا اضطراب... ولا عويل.. حتى ولا ارتماء فوقها... كانت يداي مقفلتين حول عنق الطبيب.. وراسي على كتفه.. كأنني أتفرج على هذا الجمال والظرف بسعادة مريرة أليمة.

الموت!... ذلك الظلام.. ذلك الشبح الاسود المخيف يقترب من صغيرتي بحلاوة ضوء القمر... يلمس جبينها وشفتيها كقبلة هادئة دون ان يزعجها او يخيفها.



اقترب الأطباء من السرير... ورأيت أحدهم يخرج ذراعها العاري من تحت الأغطية الحريرية، يقرب الحقنة منها.

استدار خير الله بك نحوي وجعل جسمه حاجزاً أمام ناظري.. وكان أحدهم يهمس: (كولونيا... كولونيا...) أراهم الطبيب العجوز احدى الرفوف بإشارة من رأسه.. ما زالت الطيور تغرد.. والحاكي يرسل الأنغام.. يرسلها بشدة ومرح يتزايدان باستمرار. فاحت فجأة رائحة (الثه ليوتروب) من انحاء الغرفة، لم يجدوا الكولونيا فاستعملوا العطر.. (ثه ليوتروب).. تلك الزجاجة التي منعتها عن صغيرتي بشتى الوسائل.. ما افظعني! هل كنت بدون قلب وحس لدرجة أغار وأمنع عنك رائحة تحبينها؟ ورخيصة جداً بالنسبة للسعادة الكبيرة التي منحتنيها ردحاً من الزمن.

قلت بصوت يشبه الأنين: صبوا الزجاجة كلها على السرير... تموت سعيدة وبهنا: ان ماتت والعطر يفوح منها.

كان خير الله بك يداعب شعري قائلاً: هلمي يا فريدة.. هلمي يا ابنتي لنخرج من الغرفة.

كنت اريد تقبيل مؤنسة قبلة الوداع.. لكنني لم أجرأ. فاكتفيت بلمس ذراعها العاري فقط. اعتادت صغيرتي ان تمسك يدي وتقلب كفي وتقبلها.. فعلت كما كانت تفعل.. قبلت كفيها الشاحبتين قبلات صغيرة عميقة.. وشكرتها على السعادة التي منحتها لأختها خلال حياتها القصيرة.



لم ار بعد تلك اللحظة مؤنسة أبداً... مددوني على سريري وتركوني وحدي.

كنت أرتجف ويسيل العرق البارد من جسمي... وقد استولت علي موجة من رائحة (الثه ليوتروب) المنتشرة بقوة في انحاء الدار. كانت الرائحة تضغط على صدري وتضيق أنفاسي.. وقد تهيأ لي بأن هذه الرائحة.. وهذا الضياء.. وصوت الطيور.. وأنغام الحاكي دامت سنيناً طويلة. وبعدها عم الظلام رويداً رويداً... يرتجف أمام ناظري خيال تلك الليلة المظلمة الرهيبة التي غابت فيها مؤنسة بين عاصفة من

الثلج كنت أسمع طرق صغيرتي على الباب.. اسمعه لحظة ثم يتلاشى بين أصوات الرياح العاصفة.

لا ادري بأي ساعة من الليل كنت عندما اضطربت عيناي من ضياء قوي ساطع.. شعرت بيد تلمس جبيني وشعري.. فتحت عيني. كان الدكتور منحنياً عليَ وبيده شمعدان.. كانت الدموع تتراقص بين أهدابه البيضاء. وتجلل عينيه الزرقاوتين.. أذكر بانني سألته كأنني في حلم:

(كم الساعة؟ انتهت؟ أليس كذلك؟). ثم سرحت ثانية بتلك الليلة وخيالاتها_ ليلة الزينيات.

عندما فتحت عيني ثانية لم أعرف المكان الذي أنا فيه... غرفة غير غرفتي.. وسرير غير سريري.. ونوافذ غير النوافذ التي في غرفتي. استندت على مرفقي أحاول الجلوس، لكن رأسي وقع على الوسادة كأنه لم يكن مني.. كنت أتطلع حولي باستغراب.. فرأيت عيني الدكتور أيضاً.

ـ فريدة هل عرفتني؟

ـ لمَ لا أعرفك يا دكتور؟

ـ الحمد لله.. الحمد لله.. زال الشر عنا جميعاً.

ـ ماذا جرى يا دكتور؟

ـ انه حادث بسيط لمن هو في سنك... نمت قليلاً يا ابنتي.. نمت قليلاً... لا شيء يستحق الاهتمام.

ـ ما الوقت الذي استغرقه نومي؟

ـ وقت طويل ولكن.. لا بأس.. سبعة عشرة يوماً تقريباً.

ـ ما أغرب هذا النوم! سبعة عشرة يوماً.. يا للغرابة!.

أغمضت عيني ثانية لأن الضوء كان يزعجني... وضحكت عاليا من ذلك النوم الذي دام سبعة عشر يوماً كأن غيري الذي أصيب بذلك ضحكت باستغراب ثم عدت الى النوم ثانية.

أصبت بحمى دماغية شديدة.. نقلني الطبيب الى داره. لم يفارقني قط خلال مرضي.. كانت هذه اول مرضة شديدة أصبت فبها في حياتي. دامت ايام النقاهة اكثر من أربعين يوماً. لم استطع مغادرة السرير مدة طويلة. تساقط شعري بعد المرض خصلاً خصلاً... طلبت مقصاً وقصيته محاذيا لشحمة أذني.

ما أعذب دور النقاهة.. يشعر المرء خلاله كأنه خلق من جديد. يتطلع لأتفه الاشياء... كالطفل الذي يتلهف لدماه الملونة بسرور وسعادة. ان فراشة ملونة تضرب الزجاج بجناحيها.. أو ضياء الشمس عندما يولد على المرآة انعكاسات ملونة. أو صوت رنين أجراس الخراف من بعيد... كانت تبعث الفرح في قلبي فارتعش لها بنشوة وسرور.

لقد مسح المرض بيده القوية على سموم السنين الثلاث الماضية فمحاها من نفسي.. أما ذكريات تلك السنين كنت اشعر بها كأنها جرت لشخص غيري لكنني أطلعت عليها وتوقفت على أسرارها. لا تثير في نفسي ألما او اضطراباً.. كنت أسأل نفسي باستغراب أحياناً عما إذا كنت قرأت هذه الذكريات في رواية خيالية انها صدى حلم ماض بعيد. نعم! كنت كمن رأى تلك الخواطر في لوحات بهت دهانها واتسخت إطاراتها... كأنها رؤى أحلام مرت في المنام وعلق منها شيء في الخاطر.

كان خير الله بك نعم الرفيق خلال ايام النقاهة والمرض.. لم يتركني يوماً وحدي... يسعى لتسليتي بقراءة الروايات أحياناً... وسرد القصص وإضحاكي بالنكت اخرى.. لقد تعب المسكين كثيراً معي.. وكان يقول:

انهضي من السرير... واستعيدي صحتك تماماً... وبعدها يعلم الله بانني سأرتدي ملابس النوم وأبقى في السرير ثلاث شهور.. لا أقوم خلالها أبداً... وان لم أكن مريضاً.. اتدلع وأتعبك بدلالي وكثرة طلباتي.

أحيانا كان ينتابني شرود يشبه النوم.. أبقى مغمضة العينين لا استطيع حراكاً... عندها كان خير الله بك ينام على أريكته أمام السرير او يشغل نفسه بقراءة كتابه.

كنت اشعر خلال ذلك الشرود بان روحي افترقت عن جسمي وحلقت كالضياء او الصوت في الفضاء اللامتناهي.

أين؟ في أي البلاد كنت أجوب؟ لا ادري.. إلا انني عندما افتح عيني منتفضة وجلة كأنني أقع في هاوية كنت اشعر بإعياء من يعود من بعيد.. من بلاد بعيدة. بأذني طنين من هواء المحلات التي اجتزتها بسرعة الضياء.. تتلامع عيني بخيالات البلاد البعيدة التي تتراءى لي بأشكالها الباهتة كأنني رايتها في طبقات الاجواء العالية وقد تدثرت بطبقات الهواء كالضباب الخفيف.



قلت اول الأمس لخير الله بك: يا طبيبي العزيز.. لقد تعافيت تماماً.. أتسمح بزيارتها بعد الآن؟

رفض في بادئ الأمر طالباً مني ان أتريث اسبوعاً او اثنين.. ولكن أنى له الصمود أمام إلحاح وعناد المرضى؟.. أخيراً أجبرته على القبول.. فجمعنا من الحديقة باقتين من الورد.. وأحجاراً ملونة كثيرة من شاطئ البحر.. (لأن صغيرتي كانت تحب الأحجار الملونة أكثر من الورود).

ترقد مؤنسة فوق هضبة صغيرة تطل على البحر الابيض المتوسط تخيم عليها شجرة سرو صغيرة مثلها... مكثنا ساعات بقربها... ولأول مرة تكلمت والدكتور بحديث صغيرتي بعد موتها... كنت اريد ان اعرف كيف ماتت.. وكيف دفنت، لكن خير الله بك لم يعطني الايضاحات التي أتوق إليها رغم إلحاحي وتوسلاتي. علمت فقط بشيء واحد وهو ان الإمام سأل عن اسم الوالدة عند الدفن... وكان طبيعي ان لا يعرف احد اسم أم مؤنسة.. فتذكر الدكتور بأنني كنت لها بمثابة أم تقريباً.. ولذا أعطاه اسمي. وهكذا أودعوا صغيرتي التراب باسم (مؤنسة بنت فريدة).

1 أيلول (جزيرة العصفور)

قال لي خير الله بك صباح اليوم: يا صغيرة.. طلب إلي في قرية مجاورة ان أعود مريضاً، فلذا اترك (دلول) في أمانتك. حذار ان تسلمي تضميد جرحه لـ (الشاويش) الدب لأنه مصمم على قطع ساقه ليجعله أعرجاً مثله.. آه من ذلك الخائن... استغرب عدم شفاء ساق دلول حتى الآن. أتعرفين كيف يكون الغيار؟ يجب تسيير الحيوان على مهله بعد الآن. بعدما تضمدين له جراح ساقه سيري به لمدة عشر دقائق في الحديقة.. حتى إذا كان بالإمكان دعيه يركض ولكن أرجو ان لا تسرفي في ذلك... افهمت؟ أما العمل الثاني فهو ان الفران خورشيد آغا سيحمل اليوم إلينا أجرة الفرن تبلغ 28 ليرة على ما أظن.. لا اذكر تماماً.. والحاصل استلمي المبلغ بدلاً عني. ثالثاً: ماذا كنت أود القول؟ ها! ها! نعم.. انقلي المكتبة الى غرفة في الطابق الارضي.. لأنني سأعطيك الغرفة المطلة على البحر.. لأنها أجمل من غرفتك.. خاصة في أيام الشتاء فإنها دافئة لا تشعرين فيها بالبرد.. هواء البحر يعدل مناخها.

لقد آن وقت الكلام... طالما فتشت عن طريق أفتح به الحديث فلذا قلت:

ـ لا تشغل بالك بدلول يا دكتور.. سأقبض الايجار أيضاً... ولكن هل ترى حاجة للعمل الثالث؟ ان ضيافتي طالت بدرجة مبالغ فيها فلذا اسمح لي بالذهاب.

أسند الطبيب يديه على خصره وقلد صوتي وقال بحدة وغضب:

ـ ضيافتي طالت بدرجة مبالغ فيها... ان سمحتم انا ذاهبة.

ثم هز قبضة يده بعنف وقال:

ـ ماذا تقولين؟ اتذهبين؟ ما أسخف ما تقولين!... سأمزق فمك فأوصله حتى أذنيك لتبقى ضاحكة حتى يوم القيامة.

ـ ولكن ضيافتي طالت يا دكتور.

أعاد يديه الى خصره وقال:

ـ طيب يا حضرة الهانم الصغيرة تريدين الذهاب.. ولكن الى أين؟

أجبته ضاحكة: الى أين انا ذاهبة؟ هذا ما أسأل نفسي عنه يا دكتور لكن ذهابي ضروري... إذ لا استطيع البقاء في ضيافتك الى الأبد. هذا طبيعي... ساعدتني في أحرج ايام حياتي... وانا لك شاكرة ولن أنسى لك صنيعك أبداً.

قبض خير الله بك على ذقني قائلاً:

- أيتها البنت الصغيرة... كفاك ثرثرة. أصبحنا انا وانت (شاويشين صديقين). هلمي الى عملك ودعي الكلام الفارغ.

ما زلت على إصراري اقول: يا دكتور... اتمنى البقاء ثق بذلك.. اكون سعيدة جداً بقربك... ولكن الى متى أكون عبئاً على كاهلك؟ وان كنت لا انكر إنسانيتك ومروءتك، ولكن يصعب عليَ جداً ان أكون عالة.

استمر الدكتور في مزاحه وهو يلعب بشعري يبعثره ساعياً تقليد حركاتي وكلامي بصوته الذي يخرجه ناعما ورقيقاً... ويقول:

إنسانية.. مروءة... تضحية.. نقوم بتمثيل مسرحية من نوع الدرام العنيف أيتها الطفلة المجنونة. لم أستطع افهامك.. انا لا أبالي بالإنسانية ولا بالتضحية يا صغيرة.. انا اعيش لمزاجي وذوقي.. خدمتك مرضاة لمزاجي.. فلو لم استلطفك لما أدرت وجهي نحوك... لو سمعت بانني ألقيت بنفسي من المأذنة الى الارض لا تصدقي بأنني عملت ذلك لعمل انساني او تضحية مثلاً... بل قولي.. لا بد من سعادة شعر بها هذا العجوز الأناني فألقى بنفسه وقتلها. هناك بطل لموليير.. يعجبني كثيراً يأتي الناس لتخليصه بينما يضربه الآخرون فيطرد الرجل المضروب الناس قائلاً: هلموا الى أعمالكم.. ما أسخفكم! وما أغرب تداخلكم... قد يجوز بأنني استذوق الضرب ويحلولي... مالكم وشأني؟

والآن هلمي يا صغيرة ودعي الثرثرة.. ان لم أجد الغرف جاهزة مرتبة كما قلت عند عودتي فالويل لك.. يشهد الله بانني سأنادي الحارس الضخم الشاب واعقد نكاحك عليه.. عندها ترين القصاص.. جميل.. هذا ليس بقصاص حقيقي.. وان كان.. (لا اريد... لا امسك... ضعه في جيبي الجانبي..) .. ولكن.

ادركت بأن خير الله بك يستعد لمزاحه الثقيل والغير مناسب والذي يعن لباله بين الحين والآخر فلذا ابتعدت هاربة.

❃

كان خير الله بك نعم الأب والرفيق. لا اشعر بالوحشة في داره.. وانني سعيدة بالقدر الذي يتاح لفتاة مثلي تصدع قلبها وتبعثرت حياتها ان تكون سعيدة. أجد ألواناً من الاعمال اشغل بها نفسي.. أساعد المرضع العجوز.. أرتب الدار.. ألاحظ الحديقة.. وأعتني بالطعام.. ثم أدقق حسابات الدكتور. فلا أجد فراغاً أخلو به الى نفسي فأستثير كوامن آلامي.

ما العمل الذي استطيع القيام به إذا ابتعدت عن هذه الدار؟ أصبحت عليلة تقريباً.. وان كانت صحتي تتحسن على مهل.. ولكن محال. اشعر بأن في داخلي شيئاً محطماً لا يجبر الى الأبد.. لا استطيع استرجاع صحتي القديمة.. ومرحي القديم الذي كان يريني كل شيء في الحياة جميلاً.. أبكي وانا أضحك.. وأضحك بينما أبكي. لا تتمشى لحظة من حياتي مع اللحظة الاخرى. مثلاً كنت مرحة جداً ليلة الأمس وكنت احسب نفسي سعيدة نوعاً ما عندما تهيأت لإغماض عيني استعداداً للنوم.. وإذا بي استيقظت عند الفجر وانا انتحب باكية بدون سبب ما. كنت اشعر بأن الليل في دورانه جمع اليأس والكدر كله فألقاه على صدري.. كنت أرتجف خلال هذه الثورة الأليمة التي لا سبب لها ولا مصدر وانا أردد: (أماه.. أماه آه يا أماه..). أغلقت فمي بأصابعي خشية الصياح.. لكنني سمعت من الغرفة المجاورة صوت خير الله بك يناديني:

ـ فريدة.. هل صحوت من النوم؟ ماذا جرى لك يا ابنتي.

ثم ركض العجوز الى غرفتي وبيده شمعة مضيئة. فأعاد السكون والطمأنينة الى قلبي بكلمات رقيقة مليئة بالشفقة والحنان.. ولم يرَ داعياً لسؤالي عن سبب بكائي.. كان يقول لي:

لا بأس يا ابنتي.. حادث بسيط. انها نوبة عصبية بسيطة.. ستزول يا حبيبتي. واه لك يا طفلتي.

كانت دموعي تهطل بغزارة كالمطر. أكاد أختنق من شدة البكاء. عندما استدار صاحبي نحو النافذة وهز قبضته في الظلام وهو يتطلع الى الأفق البعيد ثم قال:

ـ آه! يا لك من خائن.. حطمت طفلة كانت كالزهرة اليانعة.

ما العمل يا إلهي ان داهمتني نوبات المرض واليأس وانا وحيدة؟ أف مالي أفكر بهذا قبل حصوله؟. على كل سوف لا يدعني الدكتور اذهب قبل شهر على الأقل.. علني أكون قد تعافيت قليلاً.

10 أيلول (مزرعة آلاجه قايا)

انا في المزرعة منذ اسبوع.. قال خير الله بك قبل عشرة ايام:

ـ فريدة.. لي مزرعة في (آلاجه قايا) أي (الصخرة الملونة). مضى زمن طويل لم أتفقدها.. ليس من المعقول ترك الفلاحين وشأنهم دون أي ملاحظة . سآخذك الى هناك لقضاء اسبوع او اثنين.. يكون ذلك تبديلاً لك في المناخ والمحيط.. فالهواء الطلق ينعش النفس ويبعث فيها المرح والسرور.. بالأخص ستفتح المدارس أبوابها بعد قليل.. وتبقين محصورة سنة طويلة.

ـ يا دكتور.. انا أحب كثيراً الهواء الطلق والأماكن الخلوية.. لكن المدارس على وشك الافتتاح.. ولا ادري كيف يكون ذلك.

هز كتفيه بحدة وقال: آه! لم أسألك رأيك في الذهاب ليتسنى لك إبداء الملاحظات.. قلت سآخذك... ماذا يعنيك؟ هذه مسألة من اختصاص الطبابة والطبيب.. ان لم أوفق إدارياً... سأعمل تقريراً طبياً وآخذك عنوة. هلمي رتبي بعض الملابس وضعي من المكتبة كتب روسو لنأخذها معنا.

يدير خير الله بك شؤوني كتلميذة صغيرة.. ليس بإمكاني الاعتراض والمقاومة بعدما ضعفت اعصابي بسبب المرض الطويل والأغرب انني لا أشكو ولا أتذمر من أوامره.. بل بالعكس تعجبني هذه الأوامر كثيراً وأتلذذ بإطاعتي العمياء لها.

ان مزرعة خير الله بك جميلة جداً. رغم انها بقيت مدة طويلة دون رعاية ويقال بان هذه الاماكن في ربيع دائم حتى في ايام الشتاء القارصة. هناك أراض صخرية في المزرعة الواسعة.. منظرها جميل للغاية تشبه البرج في وسط السهل. لا يمل المرء من النظر إليها.. تتغير ألوان صخورها بتغير أوضاع الشمس وانعكاس ضياءها. يؤثر عليها أيضاً صفاء السماء او تلبدها بالغيوم.. تكون حمراء تارة وزهر اخرى... بنفسجية او سوداء.. وهذا ما دعاهم لإطلاق اسم (الصخور الملونة) عليها.

اشغلتني المزرعة اكثر مما كنت أظن.. أحلب البقرات مع الفلاحين.. أركب (دلول) الذي اصبح صديقي فأدور به المزرعة وأطرافها. والحاصل انها حياة الريف التي طالما حلمت بها وافتكرت. على كل لست مرتاحة تماماً.. ستفتح المدرسة أبوابها بعد ايام. عليّ ان اكون على رأس عملي.. لأراقب المسح والتنظيف ولكن ليس بالإمكان إفهام خير الله بك بأن هذا ضروري.

اقرأ الروايات لخير الله بك في الليل وهو يقول:

ـ وان كان احتمال هذه الكلمات عسيراً لأنها سخيفة لا طعم لها.. إلا انها جميلة ما دامت تصدر من فمك عذبة لذيذة.

كنت أقرأ له بالأمس كتاباً وكان بالكتاب بعض التعبيرات (المكشوفة). كنت احمر خجلاً كلما مرت كلمة من ذلك.. وانا أسعى لتركها وإبدالها.. كان يلاحظ ارتباكي فيقهقه ضاحكاً.

نبحت الكلاب فجأة في الظلام. فتحنا النافذة فرأينا خيالاً يدخل من باب المزرعة. نادى خير الله بك سائلاً:

ـ من الطارق؟ فأجاب الشاويش: انا سيدي.

ان مجيء الشاويش بمثل هذه الساعة المتأخرة من الليل من جزيرة العصفور حتى المزرعة يطوي حادثاً هاماً... ولذا قال لي الدكتور:

ـ خيراً ان شاء الله.. ها انا ذاهب إليه لا ستطلع الخبر المسبب لحضوره.. ان تأخرت نامي يا صغيرتي ولا تنتظريني.

مكث خير الله بك مع الشاويش مدة تقارب الساعة وعندما صعد إليَ كان وجهه مقطباً ومحمراً فلم أتمالك نفسي عن السؤال:

ـ لم جاء الشاويش يا دكتور؟

فأجاب بصوت جاف وشديد؟

ـ قلت لك اذهبي ونامي.. مادا يعنيك؟ ما هذا الفضول عند بنات هذا الجيل يا إلهي؟.. انه عمل يتعلق بي وحدي.

تعلمت طباعه فليس بالإمكان الاصرار في مثل هذه الحالات. ذهبت الى غرفتي حاملة الشمعدان استنير بضيائه.

عندما استيقظت صباحاً علمت بسفر الدكتور.. وقيل لي بأنه يحتمل تأخره وعدم عودته سريعاً فلذا عليَ ان لا أقلق... على كل لا بد من حادث أزعج الدكتور.

بينما كنت ارتب غرفته وقت الظهيرة وقع على نظري مغلف حكومي ملقياً بالقرب من سريره. أخذته بيدي فقرأت (جزيرة العصفور مديرة مد...). لا بد ان الغلاف يخصني أشغلتني كثيراً قصاصة الورق هذه... ترى هل أحضرها الشاويش ليلاً؟ هذا مستحيل!.. يخطر لي خاطر آخر... لا بد ان يكون هذا الغلاف جاء معي بين الكتب من جزيرة العصفور.

25 أيلول (جزيرة العصفور)

أيتها الحياة! ما أصدق الذين ينعتونك بالحزقة البالية!.. .



ها انني أدون هذا الحادث الاخير على آخر صفحة من دفتري كما هي لا اريد ان أضيف عليها ذرة من التمرد او الدموع أبداً.

انتظرت خير الله بك في المزرعة يومين. ازداد قلقي في الليلة الثالثة لدرجة قررت السفر صبيحة اليوم التالي الى الجزيرة وسيان عندي ما يحدث... لكنني رأيته في المزرعة عندما استيقظت في الصباح.

لم أر مرة هذا الرجل مرهقاً ومضطرباً مثل اليوم.. رغم ان من طبعه عدم المبالاة بالقيود الاجتماعية. لمس بشفتيه شعري كالمعتاد وحملق في وجهي باهتمام ثم قال:

جزاهم الله.

كنت اشعر من كلمته نذير سوء لكنني لم أجرأ على السؤال.

سار خير الله بك في الغرفة يقطعها ذهاباً وإياباً وقد وضع يديه في جيبه مفكراً. واخيراً وضع يده على كتفي وقال:

ـ يا صغيرة.. لا شك انك تشعرين بشيء غير عادي.

ـ لا يا دكتور.

ـ قد يجوز ذلك.. إذ لو كان بالعكس لأسترعى اهتمامك الحالات الغير طبيعية التي تدور.

فأجبته بتأثر وسكون: لا يا دكتور.. انا لا اعرف شيئاً.. إلا انني اشعر باضطرابك. لا بد من شيء يكدرك.. انت حامي الوحيد.. وانت بمثابة أب وعائلة لي.. كدرك يكدرني ويقلق بالي. هلا حدثتني بما يقلقك؟

ـ فريدة.. ابنتي.. هل تشعرين بنفسك القوية الكافية لتحمل ما سأقول؟

كان حب الاستطلاع يفوق مخاوفي وضعفي فلذا تظاهرت بالسكون وقلت:

ـ قل بربك يا دكتور.. انا فتاة تعرف كيف تتجلد... هناك براهين عديدة لصدق قولي وتكفيك مثالاً لصبري.

ـ فريدة... خذي القلم واكتبي ما سأمليه عليك.. هلمي يا ابنتي... واعتمدي على صديقك العجوز.

انحنيت على الورقة لأخفي اضطرابي وانتظرت بصبر فارغ ما سيقوله. بعد تفكير طويل أملى عليَ النص الآتي:

ارجوا ان تسمحوا لي بالاستقالة من مدرسة رشدية أناث الجزيرة لأسباب صحية تضطرني لترك العمل. وتفضلوا بقبول شكري واحترامي.

ثم قال:

ـ هلمي يا ابنتي وقعي الورقة بدون ان تسألي عن الاسباب. أعطني الورقة... أراك ترتجفين يا فريدة.. لمَ لا تجرأين على النظر الى وجهي؟ حسن... نعمَ ما تفعلين يا ابنتي.. ان نظرت إليَ بعينيك الصافيتين البريئتين سيزداد حتماً اضطرابي.. والآن فهمت بأن هناك أمور غير عادية تدور أليس كذلك؟ إذاً اسمعي ما اقوله يا فريدة.. ان أظهرت تأثراً أجبرتني على قطع الحديث.. والحقيقة يجب ان تعرفيها.. فريدة، هل تفكرين بأنك اختبرت البشر خلال هذه السنين الثلاث التي دخلت فيها معترك الحياة؟ عبثاً تحاولين يا ابنتي.. لأنني بلغت الستين من عمري ولم استطع اكتشاف كنه البشرية ولا التعرف على بعض طباعهم... وهذا على الرغم مما صادفني من أنواع الرذيلة والانحطاط. ولكن بمزيد من الأسف اقول بانني لم أتوقع انحطاط المجتمع الى هذه الدرجة ولم يخطر لي في بال.

ألسنا أنقى صديقين على وجه البسيطة؟ أتعرفين ماذا يقال عنا يا فريدة؟ يستحيل ان يخطر ذلك في بالك انا عاشقك.. لا تستري وجهك بيديك.. بل بالعكس ارفعي رأسك عالياً.. ان هذه حركة يقوم بها من يشعر بالخزي والعار... انظري الى عيني... ما الداعي لخجلنا من بعضنا؟ اسمعي يا فريدة.. دعيني أتمم حديثي الى نهايته.

ولد هذا الافتراء في المدرسة... أشاعه زميلاتك هنا وهناك والسبب ظاهر... لم يستطعن احتمال ترقيتك للإدارة رغم وجودهن هنا منذ سنين طويلة.. (أردت القيام بخدمة صغيرة فكتبت قبل ستة أشهر لصديق لي في أزمير أرجوه تدبير ذلك.. ولم أشأ إعلامك لأنني اردت ان تكون خدمتي البسيطة خافية عنك). ليتني ما فعلت.. لأن توسطي أثار الشبه والظنون عند ذوي النفوس المريضة.

كانت نار الحسد والأقاويل تشتعل على مهل تحت الرماد منذ شهور وشهور.. الى ان وجدت طريقها لأذن المدير والقائمقام. كتبت الرسائل العديدة بهذا الصدد.. وأجريت

التحقيقات.. ودققت المديرة ترجمة استقالتك من مدرسة المركز وقبولك السفر الى قرية نائية مقفرة بشكل يشبه الفرار تماماً. ثم استحصالك على سند مجهول بعد أشهر قليلة وترقيتك بواسطته بسرعة لم تحدث في حياة موظفي المعارف.. من معلمة قرية الى أستاذة في دار المعلمات. ثم استقالتك بدون سبب ظاهر ثم السفر الى بلدة اخرى لم تقبض فيها بشيء.. ثم جواب مديرة معارف (ج) الذي كنت أصعق عند قراءته يا فريدة.. لأنه يقول: بأنك هناك.. لا! لا اريد الاسترسال.. ولا أجرأ على القول رغم فمي العسكري البذيء الذي لا يتورع عن لفظ أحط وأقذر الكلام. كيف استطاع أولئك المثقفون حاملو مشاعل الأدب والعرفان ان يكتبوا ذلك؟ تصوري ما أفظعها كلمات يقشعر لها بدني.. انا الذي لا استطيع حبس أردأ كلمة بين شفتي.. والحاصل يا فريدة.. أحاطوك يا ابنتي كما تحاط الغزلان الجريحة بكلاب الصيد.. وفسروا أبسط وأنقى حركة من حركاتك كدليل ضدك هاجموك به. أثبتوا من محاضر تحقيقهم بأن دعوتك لي أحياناً الى المدرسة لمعالجة التلميذات الفقيرات.. وإسناد رأسك الى كتفي عند موت صغيرتنا.. وخدمتي لك وبقائي قرب سريرك خلال ايام مرضك.. كلها خيانة لا تغتفر ودليل قاطع على استرسالنا في الغي والاستهتار. سخرنا من العرف والعادات وتنكرنا لكل ما يسمى عفة او شرف لأننا لم نبال بشيء ولم نحسب للناس أي حساب.. بينما أعلن للناس مرضك كنت أركب معك النوزج في الحقول وتركضين بالخيول في حديقتي بدل اهتمامك بالوظيفة والعمل. لم نكتف بكل هذا بل تمادينا في غينا وانسحبنا الى المزارع خارج البلدة نعيث فيها شراً وفساداً. فريدة.. ابنتي... اسرد لك الحوادث بشكلها العاري الدنيء وقد كان بوسعي التمويه مدة أخرى فأنسيك إياها الى اجل ما.. أحطم خلالها آمالك بالتدريج أملاً بعد الآخر.. ولكن لم أفعل ذلك.. لماذا أتدرين؟ لأن مهنتي وسني علماني بأنه يجب ان يشرب السم جرعة واحدة فإما الموت او الخلاص.

ان شرب السم مع الشراب والسكر جرعة بعد اخرى تبقي على المرء لكنها تحطم النفس وتجعله عليلاً.. انه عمل قبيح.. لا أستسيغه.. وهكذا إعلان المصيبة بتمهل

يشبه بتر الانسان بمنشار لا بسيف ماض. في الواقع يا فريدة صفعتنا الظروف صفعة قاسية شديدة تكاد لا تنسى.. ولكن احمدي الله بأنك لست وحيدة.. لو كنت كذلك لقضت عليك الضربة لا محالة.. إذ كيف يكون حال طفلة تجمع الناس ضدها وتكتلوا كالنحل؟ اشكري ربك الذي أرسل لك عجوزاً يسندك. وان كانت الحياة عندي تدق الحادية عشرة قبل الغروب.. ولكن لا بأس يكفيني هذا الزمن القصير لخدمتك يا ابنتي. عندما أوفق لذلك سوف لا اندم ولا أتأفف من حياتي التي انقضت قبل ذلك التوفيق بين كومة من الحادثات السخيفة. لا تجزعي يا فريدة.. كل شيء يزول. لا تقطعي أملك من ايام تأتي أحسن وأوفر راحة وهناء في مستقبلك لأنك ما زلت شابة في مقتبل العمر.. كان بودي ان احمل كتاب استقالتك بيدي للمديرية.. لكنني عدلت.. لأنني لا أجرأ على تركك وحدك بين هذا الألم المفاجئ... إذ من يدري والشباب له جنونه وتهوره.. هيا يا فريدة.. هلمي نخرج معاً الى الهواء الطلق نرعى الأغنام والأبقار.. تأكدي ان هذه الحيوانات تحفظ الجميل ولا تجحد بالنعمة التي تلقاها.

سلم الطبيب كتاب الاستقالة للشاويش ليوصله الى المديرية.. أما انا فانني دفنت في هذا الكتاب آخر عزاء لقلبي المحطم... بعدما اصبحت حطاماً وضيعت أجمل ايام شبابي في المصائب والنكبات. ما أشد وقع هذه الحوادث على نفسي يا إلهي.. أي أمل أتشبث فيه يفلت مني.. وكل شخص أحبه يموت. نعم! ان أحلام شبابي ماتت قبل ثلاث سنين مع مساء أحد ايام الخريف. وبعدها مات أطفالي.. ثم مؤنسة.. وبعدها تلميذاتي اللواتي كنت أمنى النفس بهن.. لأنهن شغلي الشاغل وعزائي الوحيد لإملاء فراغ قلبي اليتيم. ان كل عزاء ارتجف حرصاً على دوامه يصفر كأوراق الخريف ويتساقط الواحد بعد الآخر.. ثم يتلاشى ويموت.. .

لم أصل للثالثة والعشرين من عمري بعد.. امتلأ قلبي بالأحزان وطفح عليّ فقداني أعزائي الذين أحببتهم وما زالت آثار الطفولة باقية لم تمح من وجهي الشاب.



انقضت ايام ثلاث لم يتركني خير الله بك لحظة وحدي.. يكاد لا يصدق الصبر والسكون الذي أظهره... بعد ما انتابتني تلك المصائب الجسام... بعدما انسحب الى غرفتي يأتي إلي سائلاً:

ـ فريدة.. هل تحتاجين شيئاً؟ اتشعرين بأرق؟ انا على استعداد لتسليتك.

في صباح اليوم الثالث استيقظت مبكرة وكان النهار جميلاً ودافئاً مثل ايام أيار الحلوة. حلبت البقرة بيدي وأحضرت الفطور لخير الله بك.

سر الدكتور كثيراً عندما رآني ادخل غرفته وبيدي الفطور.. على شفتي ابتسامة مرح وهدوء فقال:

ـ مرحى يا فريدة.. سررت جداً.. مالك والأحزان.. آأنت الوكيلة لاحتمال آلام الحياة؟

فتحت نافذة الغرفة ورتبت بعض الأغراض المبعثرة. تحدثت بالامور العائدة للمزرعة والأغنام.. كنت أتكلم بلا انقطاع وأضحك بسرور.. حتى انني صفرت بعض الألحان كما كنت أفعل بالمدرسة تماماً.

كان سرور خير الله بك لا يوصف.. وكلما شعرت بسروره زدت مرحاً. وأخيراً حكمت بان الوقت حان فسحبت مقعد الدكتور نحو النافذة. وألقيت على ركبتيه دثاراً وجلست على حافة النافذة وقلت:

ـ لدي ما اريد قوله يا دكتور.

فقال لي وهو يغمض عينيه بيده:

ـ قولي ولكن انزلي أولاً من النافذة... معاذ الله إذا وقعت.

ـ لا تشغل بالك. قضيت طفولتي كالسنجاب على الاشجار... والآن سأحدثك عن قرار يعجبك ويجلب السرور الى قلبك.. طبعاً انت شاعر بالهدوء الذي انا فيه. قررت ليلة الأمس قراراً مهماً وحاسماً.

ـ ماذا قررت؟

ـ قررت الحياة.

ـ ماذا تعنين؟

ـ مسألة بسيطة للغاية... قررت الحياة. وطردت فكرة الانتحار وقتل النفس. فكرت أياماً بجد واهتمام في الموضوع وأخيراً قررت.. .

كنت أقول ذلك بخفة ومرح... قفز الطبيب العجوز بخفة واضطراب وقال:

ـ ماذا تقولين يا شيطانة؟ ما هذا؟ لو جلست مكانك لوقعت الى أسفل لشدة حيرتي واضطرابي فأصبحت اربا... انزلي بربك. إذ من يدري والعياذ بالله.

قلت ضاحكة: ألا تجد خوفك هذا سخافة بعدما قررت الحياة يا دكتور؟ لمَ قررت ذلك؟ فلأسرد لك السبب........ .

هناك اسباب كثيرة.. أولاً تنقصني الشجاعة والجرأة.. لا تصدق ما أقوله وأتبجح به عن الموت أحياناً.. مهما حدث فانني اخشى الموت.. ولا أجرأ على احتماله رغم انه لم يبق لحياتي سواه يا دكتور.

قلت ذلك وانا أمد ذراعي وألوي رقبتي بصفاء وسكون. قبض خير الله بك على رسغي باضطراب وأنزلني عن النافذة بالقوة ثم أجلسني على كرسي صغير بجانبه وقال:

كم انت طفلة غامضة.. كثيرة التعقيد.. انت مخلوقة لا تدرك طباعها يا فريدة. رغم حداثة سنك فان في أعماقك تعقل واتزان ومشاعر عميقة تكاد لا تصدق.. طيب يا فريدة قولي... حدثيني... كلي آذان صاغية.

ـ أنت صديقي الوحيد وحامي ووالدي.. فلأستمر على الحياة... هذا جميل.. خاصة بعدما أعلمتك مقدار جزعي من الموت.

قال خير الله بك بعد تفكير دام لحظة وهو مقطب الجبين:

ـ فريدة انا أيضاً فكرت بكل ذلك.. وكنت أود الانتظار مدة اخرى قبل الكلام.. ولكن ما دمت تستطيعين التحكم على نفسك الى هذا الحد فلنتكلم يا ابنتي. قبل كل شيء يجب ان تقطعي كل أمل في العودة الى التدريس.. بوسعي اليوم إعطاؤك بعض التفاصيل عن الحادث:

جاء قبل عشرة ايام مفتش من المحافظة (ذا سحنة بشعة يشبه الغراب.. وقد برزت أسنانه الى الأمام من فكيه..) وشكلوا هيئة للتحقيق برئاسته.. أرادوا استجوابك أولاً قبل إقرار رفتك. وكانت الورقة التي أحضرها (الشاويش) تلك الليلة شبه ورقة جلب. تصوري يا فريدة.. كيف بإمكانك الصمود أمام هيئة مثل تلك الهيئة؟ وكيف كنت تستطيعين الاجابة او الدفاع عن تلك الاتهامات البشعة الدنيئة؟.. عندما علمت بذلك طار صوابي.. ورأيت بعين الخيال غرفة الهيئة وانت واقفة بملاءتك السوداء ووجهك الشاحب ألويت عنقك حزناً وخجلاً أمام أنياب أولئك الوحوش الضارية. في الواقع ان أولئك الرجال الأدنياء الذين عزموا على تمزيقك يجدون الاسباب من لماء كما يقولون في قصة (الذئب والحمل). يعيدون تلك الافتراءات البشعة باستمرار كأنهم حمقى لا يفقهون شيئاً. وانت التي تحمرين خجلاً ويطير صوابك كلما سمعت كلمة نابية من هذا العسكري الخشن.. أنى لك الصمود أمام الوحوش؟ كالغزال النافر وحيدة بلا نصير.

كان خير الله بك يهز قبضته بعصبية ظاهرة وهو يرتجف وقد ارتسم بريق مخيف في عينيه الصافيتين لم أره من قبل بهذا الشكل أبداً... تابع حديثه قائلاً:

فتحت فمي (الظريف) بشكل استوليت به على ذلك الغراب حتى اصبح بحالة لو أطلق عليه الرصاص لما سال دمه النجس. علمت قبل يومين بأنه راجع المحاكم يشكوني للقضاء.. وانني انتظر بفارغ الصبر يوم المحاكمة لأثبت للمفترين وساخة العمل الذي قاموا به وقيمة نفوسهم الخسيسة.

سكت الطبيب العجوز حتى تلاشى ذلك البريق المخيف من عينيه.. واستعاد حلمه وسكونه فتابع حديثه:

ـ ان ما حدث كل هذه المدة كان ضدك. وانت وحدك من احترق بالنار.. لا اريد ان تفكري بي سوءاً في المستقبل لأنني أجبرتك على الاستقالة. كان من الضروري قطع علاقتك تماماً، لأن الله خلق هذه العين وتلك الشفة للضحك وبعث السعادة والسرور فيمن حولك.. ولم يخلقها لتبكي وتنوح أمام ذلك الغراب وجماعته. فريدة سأقول لك

شيئاً آخر.. ان مسؤوليتي تجاهك اصبحت مضاعفة لأنني كنت السبب للمصيبة التي لحقت بك. ولذا عليّ ان أصلح ما حدث. كما قلت أولاً لا يمكن ان تتعشمي خيراً بالعودة للوظيفة.. وان وجدنا سبيلاً اليوم لا بد يلقوك أرضاً في الغد لسبب أوهى مما كان. وربما لا أكون في ذلك الغد... هيا دعينا نفكر معاً بطريق آمن يهيئ لك الراحة. هل بالإمكان عودتك الى عائلتك في استانبول؟

أخفضت رأسي وقلت: لا يا دكتور.. انهم اضمحلوا وتلاشوا تماماً بالنسبة لي.. وبالأخص بعد هذه الحوادث.

ـ حل آخر.. أليس بإمكانك الزواج من شاب طيب؟

ـ لا يا دكتور.. انا مصممة ان أموت عذراء.

ـ وانا ايضاً لست مقتنعاً بهنائك لو تزوجت.. فريدة! ان ذلك الملعون يحتل قلبك بشكل يستحيل علينا انتزاعه منه.

ـ يا دكتور! أرجوك وأتوسل إليك.. ابحث بكل شيء ما عدا هذه المسألة.

ـ حاضر يا صغيرة.. تحت أمرك.

ـ اشكرك يا دكتور.

كان خير الله بك يمضغ شاربه الابيض مفكراً عندما قال:

ـ إذاً ما العمل؟ ليس هناك أي خوف من عوزك واحتياجك لأنني أملك بعض الثروة التي تكفينا.. كنت أفكر فيما مضى على طريق أصرف فيها دراهمي.. والآن وجدت الطريقة والحمد لله إذ ما هو الشيء الذي يستحق ذلك اكثر من طريق سعادتك وهنائك؟

كنت واثقة بأن الجواب الذي سأقوله يغضبه. لكنه كان ضرورياً فلذا قلت جزعة وانا أداعب ركبتيه:

ـ ولكن يا دكتور.. بأي صفة يحق لي ان أقبل معونتك المادية هذه؟ وكيف استطيع الاحتفاظ بالمكانة الاجتماعية التي تليق بمثيلاتي لو فعلت ذلك؟

لم يغضب خير الله بك. بل اكتفى ان ينظر إلي نظرات شكوى مريرة وقال:

عيب يا فريدة.. هذا لا يليق.. ان كلامك مخجل بعد التفاهم الذي ساد روحينا وربطهما برباط وثيق... ولكن ما العمل؟ انك رغم جرأتك وصراحتك وعدم مبالاتك بالقيم الاخلاقية الزائفة لا تخرجي عن كونك فتاة بسيطة ذات عقل محدود ونفسية ساذجة. انت من النوع الذي تسميه العجائز (خروف بحناء).. ما كان يجب ان تكوني هكذا ولكن هذا هو الواقع.. وما العمل بشيء حدث وصار؟

والآن أصغي لما أقول يا فريدة... كيف تعيش فتاة معتدة مغرورة مثلك وحدها بعد كل هذه الحوادث وهي لا تقبل معونة صديق عجوز مخلص مثلي. فكرت بتزويجك وسعيت له خصيصاً لهذا السبب يا فريدة.. لا تقبلين المعونة من اي كان.. وان أردت العمل يستحيل عليك بعد ما كان.. وان طلبت منك البقاء معي رفضت بشدة.. أليس كذلك؟ لا تجرأين على الاجابة.. لكنك تحنين رأسك دليل الاقرار.. وان سألت الحقيقة فأنا أيضاً لا أقر هذا الحال ولا أجده حلاً أميناً.. لم لا نتكلم بصراحة؟...

ذهبت هيئة باسم الحي الى القائمقام وقالت بأن بقائي في هذه الدار بصحبة شابة لا تمت إلي بصلة ينافي اصول الشرع والدين حتى انها طلبت ابعادك لبلدة اخرى. اشعر بأن الكل لا يحبوني لأني اصفعهم بأغلاطهم فلم لا يستفيدون من هذه الوسيلة لضعفي ولو مرة والحاصل يا فريدة ليس بالإمكان ان تعيشي معي ولا وحدك ايضاً فالشبهات والظنون السافلة ستسمم حياتك وهذه الوصمة الملعونة ستلاحقك أينما ذهبت والنقطة المشبوهة في ماضيك ستجعل سبيلاً لكل مستهتر ان يجد سبباً لإزعاجك ما العمل يا فريدة؟ ماذا نقول؟ وبأي وسيلة ندافع عنك؟

تطلعت الى وجه الطبيب بجزع المريض الذي حكم عليه الموت.. وتبسمت رغم اليأس المستولي علي وقلت: وأخيراً تعطيني الحق للتشبث بالموت والانتحار. انظر يا دكتور لهذه الشمس.. وهذه الاشجار وذلك البحر الواسع الذي يبدو لأنظارنا من بعيد.. هل يرضى الانسان بمحض اختياره عن كل هذه الاشياء الجميلة ان لم تضق الحياة بوجهه مثلي؟

أغلق خير الله فمي بيده وقال:

كفى يا فريدة كفى.. ستجبريني على عمل لم أعمله في حياتي.. ستجعلينني أبكي وانتحب كالاطفال. أشار بيده الى شعاع شمس الخريف المتلامع بين الاغصان العارية وقال:

انا عجوز.. رايت الوانا من المرارة والآلام.. وكم من عيون أغمضتها بيدي. لكنني لم أرَ فاجعة أقسى من هذه الطفلة الظريفة التي تبحث بسكون عن الموت واضطرارها للجوء إليه كحل لأزماتها العصيبة. كأني بها تفتش عن وسيلة للضحك فتهتز شفتاها حرصاً على تلك الوسيلة ولا أظنكِ رايت ذلك كثيراً رغم تجاربك الكثيرة في الحياة.. وان كانت لا تقبل أي نسبة مع تجاربي بحكم الفارق العظيم بين عمرينا.

القى خير الله بك الدثار عن ركبتيه وأخذ يدور بالغرفة ثم وقف أمامي بالغرفة وقال:

إذاً سنرجع الى آخر حل في الجعبة سأبقيك في داري زوجة أدافع عنك.. استعدي يا فريدة سنتزوج يوم الخميس القادم.

منذ اسبوع وانا في جزيرة العصفور سيكون عرسي غداً. ذهب خير الله بك الى أزمير منذ ايام لقضاء بعض الاعمال وشراء بعض الأثاث الجديد. تلقيت قبل لحظة برقية يخبرني بعودته هذا المساء قلت له بأنه لا لزوم للأثاث الجديد فاعترض بحزم قائلاً:

لا يا حضرة الخطيبة اعتراض مثل هذا لعمل يشتم منه انك تعيبين على شيخوختي.. في الواقع ان الظروف مخطئة وقاسية وضعت فارقاً لا يقل عن 35 او أربعين عاماً ولكن لا بأس.. فالشباب الحق هو شباب الروح لا الجسم.. دعي التأمل بشكلي لأنني رغم سني اقوى وأنشط من شاب في الخامسة والعشرين وانني أود ان أراك امامي عروساً كاملة الزينة. سأجلب لك فستان العرس من ازمير انتخبه بديعاً مدهشا.

لم أقل شيئاً... كنت اخفض بصري استحياء وألما فاستمر خير الله بك على كلامه وقال: سأعطيك ثمن رؤيتك لكنه ثمن مدهش اعرفي ما هو؟ حلق؟ خاتم؟ لؤلؤ؟

ماس؟ لا شيء من كل ذلك.. لا تتعبي نفسك فانك لا تجدينها. انها ميتم لإيواء اليتيمات.

نظرت إليه بدهشة فضحك بسرور وقال:

كيف اكتشفت ما يروق لك؟ سأجعل مزرعة الصخور الملونة ميتماً لثلاثين او أربعين طفلاً نجمع الأيتام الذين نجدهم حولنا هناك فأكون انا الطبيب وانت المعلمة والأم.. انا لست كهلاً لدرجة.. ولكن من يدري ربما لا نرزق أطفالاً.. يحتمل ذلك.. من يدري. كان خير الله بك يضحك وهو يتحدث لكن هذه الضحكات الصافية التي كنت فيما مضى أحب نغماتها ورنينها أراها تجرح قلبي الآن.. .

أكتب هذه السطور أمام نافذة الغرفة التي قضيت فيها ايام نقاهتي من المرض.. يهطل في الحديقة مطر من أوراق الاغصان اليابسة باستمرار.. يلقي الهواء البعض من هذا الحب الاصفر الذي تلقيه الاشجار من أذرعها العارية الى دفتري المصفر الاوراق من النافذة المفتوحة.

ان النظرات التي تشع من عيني صديقي العجوز شفقة و[illegible] وغيرية كمحبة اب حنون تعيش كآخر ورقة خضراء في نفسه لكنها اصفرت اعتباراً من اليوم الذي اجبرت للنظر إليها بعين الزوجية ما العمل؟ هكذا هي الحياة... علينا ان نتحمل هذا ايضا.

❃

وصلت الى الصفحة الاخيرة من دفتري المدرسي الذي غاص بكتابة رفيعة تشبه أرجل النمل.. ما أتعس الصدفة ينتهي الدفتر بانتهاء تاريخ حياتي وحوادثها. ليس بالإمكان كتابة حوادث حياتي الجديدة بدفتر جديد. إذ ما الذي بقي لي لأدونه؟ ثم غداً عندما اكون لغيره زوجة فأي حق يبقى لي؟ على كل لا أجرأ على ذلك. ما العلاقة

التي ستكون بعد غد بين الشابة التي ستستيقظ بغرفة الغير وبين عصفورة السياج التي كانت حياتها عبارة عن النغم تارة والدموع اخرى.

تموت عصفورة السياج اليوم والى الأبد تموت بين صفحات دفترها الباهتة من أثر الدموع. تنتهي حياتها بين أوراق الخريف الاخيرة المتساقطة على الدفتر.



لم إخفاء الحقيقة في آخر لحظة من هذا الفراق؟

كتبت هذا الدفتر الذي سوف لا تقرؤه من أجلك يا كامران.. نعم كتبت ما كتبت وقلت ما قلت لأجلك وحدك.. سأعترف اليوم بأنني سرت في طريق خاطئة.. وخاطئة جداً كان بوسعي ان اكون معك سعيدة جداً _ رغم كل شيء. نعم كنت عاشقة قبل كل شيء ولم أكن جاهلة بأنني كنت معشوقة لكن ذلك لم يكن كافياً لي. اردت ان أحب وأحب بشكل أشد وأقوى وان لم يكن بنسبة حبي _لأن هذا ليس بالإمكان_ اردت ان اكون محبوبة بنسبة تعادل عظمة حبي. أكان من حقي ان أتطلب حباً بهذا المقدار؟ لا أظن ذلك يا كامران.. انا بنت صغيرة.. جاهلة.. هناك وسيلة للحب والتحبيب.. أليس كذلك يا كامران؟ والحقيقة بأنني ما كنت اعرف شيئاً من تلك الوسائل ابداً أبداً.

ان زهرتك الصفراء (لا أقولها بقصد.. ثق من صدق ما اقول.. أحبها لأنها استطاعت ان تسعدك.. فلذا أقدرها وأعيش معها في خيالي..) من يعرف كم كانت جذابة. من يدري الكلمات المعسولة التي تقولها لك.. يعلم الله عدد الرسائل الجذابة التي كتبتها لك.. ربما كان بوسعي أن أكون أماً طيبة لأولادك.. او بالأحرى لأولادنا ويكفي.. وأظن بأن هذا لا يكفيك بل الأحق لا يكفيكم يا معشر الرجال. ان التجارب التي اعترضت حياتي _لا تظن بحب الآخرين.. كلا علمتني حبك_ تعلمت ذلك بتعلقي بخيالك الجميل الذي يعيش في أعماق قلبي الحزين.

في ظلام الليالي المقفرة التي قضيتها بالقرب من مقابر (الزينيات)، تلك الليالي المظلمة التي تئن حتى الصباح بالرياح والعواصف... وفي الصحراوات المقفرة النائية التي تطن فيها أجراس العربات بصوتها الرفيع المحرق.. ومن الطرق الضيقة للحدائق التي تفوح بعبير الصنوبر والازهار البرية كنت دوماً معك وجهاً لوجه.. عشت بين أحضان خيالك.

يظن الرجل المسكين الذي ساكون في الغد زوجته بأنني عذراء كالزنبقة نقاءً وطهراً.. ما أخطأ ظنه! لا اعتقد بان الحب دغدغ جسم امراة اكثر من جسمي.

كامران! في الحقيقة هذا هو اليوم الذي فرقنا عن بعضنا.. اصبحت اليوم أرملة بكل ما في هذه الكلمة من معنى.. انك رغم كل الذي حدث لي كنت لي ولو بالخيال... وكنت لك بنفسي وقلبي وروحي.

انتهت مذكرات فريدة عند هذا الحد...

3

ـ كامران.. اقسم بأن السفر معك مصيبة... سألتك خلال الساعتين ما يقارب المائة سؤال ولم أتلق جواباً أكثر من (نعم) او (لا). عد الى نفسك يا بني.

كان كامران جالساً في زاوية العربة وقد رفع ياقة معطفه اتقاء لبرد المساء يتفرج بشرود على بحر مرمرة. رفع بتثاقل عينيه عن البحر وقال مبتسماً:

لا أظن مائتي جواب على مائتي سؤال في ساعتين يكون قليلاً... وان كان بنعم او لا.. أجوبة قصيرة صغيرة يا صهري العزيز.

حسناً ولكن يا بني العزيز.. انت لا تجيب مفتكراً بالحديث ومهتماً لما تقول.. بل تردد الأجوبة كالآلة الصماء.

ـ جميل أصول هذا التداوي وطريقة تبديل الهواء يا صهري.. لا بد ان لك قصداً من إرهاقي في السؤال والجواب.

ـ آه يا جاحد... في الحقيقة لا ينفع التقرب إليك. اريد في الواقع استرعاء انتباهك.. ليس قصدي الارهاق. ان بغيتي منعك من الاسترسال في التفكير بأشياء اخرى. وهكذا أراك تقطع كل أمل من تنشيطك. مثلاً أخذتك قبل ثلاثة ايام للقرية بحجة حضور حفلة عرس رأيت أشخاصاً عديدين. وسمعت طبلاً وزمراً.. وتفرجنا على الرقص والبهلوان. لم تشعر بأي سلوى وان كنت انا قطعت الوقت بتسلية راقت لي. أليس كذلك؟ لا تنكر قل الحق. لا يخفاني شيء ولي القدرة الكافية لإدراك كل شيء.

ـ ليس بوسعي اتهامك يا صهري.. ميولي تختلف تماماً عن ميولكم.

ـ لا يا بني، أهملت نفسك، وأسأت إليها. انظر إلي وقد قاربت من الستين، واشعر بانني ازداد شباباً وحيوية كل يوم عن الذي قبله.

ـ احذر ان تسمعنا خالتي عائشة.

ـ لا أبالي بذلك، فلتسمع. أما كانت هيئتي قبل خمس سنوات تدل على الكبر اكثر من اليوم؟

ضحك كامران وقال: أي خمس سنوات يا صهري؟.. مضى عليَ عشر سنوات لم أحضر خلالها الى تكفور داغ... انقضت عشر سنين بالضبط.. باليوم والساعة تقريباً. ما زلت أتذكر.. كان وصولي الى هنا في احد ايام شهر آب أيضاً.

ضرب عزيز بك يديه ببعضها وهو يقول: لا تقل بربك.. ما أسرع كر السنين. في الحقيقة اليوم لك طفلة في الرابعة من عمرها. وقد بقيت على خطوبة (فريدتك) أربع او خمس سنوات.. آه يا كامران! لم أفهم حتى الآن كيف استطعت ترك فريدة.. ما زال قلبي يتفطر ألماً كلما تذكرت صوت عصفورة السياج الحلو كتغريد البلبل.. ووجهها الظريف كالورود. مضى عشر سنين على الحادث... وما زلت لا أقوى على الخروج الى الحديقة الخلفية في دارنا. تأكد بأنني لن أسامحك حتى يوم القيامة.

ـ يا صهري! يقال كل هذا لمريض جاء الى قصرك بدعوة منك حباً بالترفيه عنه وتبديل الجو والمناخ؟

ـ نعم! ما علاقة علتك ومرضك بهذا الحديث؟ تزوجت بامرأة كنت تحبها. لكنك لم تسعد في زواجك لأن منور وقعت في الفراش مريضة. فقضيت ثلاث سنين من زواجك في التمريض. أخذتها الى الجزر والى سويسرا أيضاً.. حباً في إنقاذها من دائها.. لكنك ويا للأسف لم تستفد شيئاً... وعاجلتها المنية في الشتاء المنصرم. فظهرت الآلام مجسمة بجسمك الناحل وشرودك المستمر. عبثاً حاولت جمع شتات نفسك المعذبة المتألمة.. ما زلت كالمريض. فما علاقة كل هذا بفريدة؟ وانت الذي احببت امرأة اخرى.. وقاسيت ما تقاسيه من أجلها.

أجاب كامران بابتسامته الحزينة: صهري.. لم يصدقني احد وانت أيضاً لا تصدقني.. ستراها غريبة. مضت حوادث عديدة في حياتي وكان بعضها مؤلماً.. لكنني اقسم لك بانني لم احب شيئاً في الحياة ولا أي انسان مثل حبي لفريدة.

تمتم عزيز بك قائلاً: ما اعظم هذا العشق!.. وما أصفى هذا الغرام.

ـ أما قلت لك يا صهري؟ بانك ستسخر مني ولا تصدقني. ليس هذا بغريب لم يصدقني احد قبلك. مزكان غاضبة علي منذ سنين.. لا تدع لي فرصة لأذكر اسم فريدة.. وان فعلت مرة قطبت حاجبيها وقالت: (لا يا كامران.. لا يحق لك ان تذكرها..). كذلك أمي.. وخالتي فالجميع يسمعونني النغم نفسه.. هناك انسانة واحدة استطيع التحدث معها عن فريدة وهي نرمين. بلغت نرمين السابعة عشر من عمرها. تذكرها كالخيال.. تذكر فريدة كثيراً وتتحدث عنها قائلة بأنها أختها ذات الفستان الاحمر.. أرجحتها مرة في الارجوحة. كثيراً ما درت حول نرمين لأجعلها تحدثني عن أختها ذات الفستان الاحمر.

ـ يا لك من مخلوق غريب.. يا كامران.. إذاً والأخرى؟

ـ هي.. كانت امرأة عليلة.. ويحتمل ان تموت بسببي لو لم أتزوجها. أردت ان أقوم بخدمة انسانية بعد ما نفضت يدي من فريدة ويئست من الحصول عليها بأي ثمن.. هذا كل ما في الامر.

ـ إنها حادثة غريبة،، وانت مخلوق غريب الاطوار ذو روح قلقة مضطربة يا كامران.

ـ هذا صحيح،، ولكن ماذا تريدني ان اعمل يا صهري؟ كنت متقلباً في طباعي،، انا نفسي لا أدرك الذي أريده، ولكن هناك شيء متأكد منه وهو ضعفي تجاه فريدة. وانني أشعر بخجل من هذا الضعف لدرجة لو خطر في بالي وانا أحتضر لمت باكياً منتحباً، ولأسرد لك دليلاً على ضعفي يا صهري:

عندما قيل لي بضرورة تبديل الهواء،، اول مكان خطر لي هو تكفور داغ،، أتظن بان إصرارك جاء بي الى هنا؟ او ان أعراس القرية أبقتني شهراً هنا؟ لا تغضب ان صارحتك بأنني جئت الى هنا لأعيش الذكريات المحطمة في فجر شبابي.. جئت لأعيش مدة في الماضي الذي لم يبق لي منه سوى الألم والذكرى.

ـ ما دمت تشعر بغلطتك.. ألم يكن بالإمكان إصلاحها؟

ـ غلطت يا صهري... وأخطأت جداً.. تركتنا فريدة وهي ثائرة ومضطربة. خشيت إزعاجها للحال _عندما اكتشفت محل وجودها_ وكان لها الحق ان تثور وتتألم.. لأنها

لم تصب بقلبها وحده بل أهينت وجرحت نفتها وكبرياؤها يمكنك تقدير ألمها وثورتها من انتقالها السفر الى البلاد النائية البعيدة. كنت أقدر بأنها لو رأتني قبل مرور ست شهور على الاقل عن الحادث لازداد تمردها وعصيانها وربما أتت بأعمال جنونية أشد من الاولى.. فلذا انتظرت الربيع بفارغ الصبر.. وكنت استعد للسفر الى القرية التي كانت تعمل فيها عصفورة السياج.. ولكن داهمني المرض في ذلك الوقت وبقيت طريح الفراش ثلاث شهور. وعندما ذهبت الى (ب) لأراها كان الوقت فات.. وقيل لي بأن فريدة أحبت ملحناً مصدوراً حباً أعمى.. وكم وضعت راسها على ركبته تستمع الى عزف الطنبور وهي تسبح في تأمل عينيه وتشعل حباً وغرماً. تصور يا صهري بعدما انتظرت سنيناً وانا أحسب ذلك الرأس وتينك العينين لي.. ولي وحدي.. أراها اصبحت لغيري.

لم يستطع كامران متابعة حديثه.. بل ازداد في اخفاء رأسه بين طيات ياقة معطفه كأنه يحرص على الاحتفاظ من البرودة.. برودة المساء الآتية من بحر مرمرة.. وسرح بصره بتأمل النيران التي اخذ السماكون في إشعالها على الشاطئ.

زال مرح عزيز بك وبان عليه التأثر والألم وقال:

كامران.. ابني.. أخشى ان تكون اتيت بحماقة اخرى في ذلك الحين. ليت عصفورة السياج كانت مخلوقة عادية تستطيع مسايرة عواطفها بعشق مبتذل كما تقول.. ليتها كانت فتاة تستطيع النسيان بسرعة.. لتعود الى مرحها وحيويتها.. على الاقل تعيش سعيدة. انني اخالفك اعتقادك ولا أظن او أتوقع ذلك منها أبداً.

هز كامران رأسه وقال وهو يبتسم ابتسامة حزينة:

طمن فكرك يا صهري.. يقولون ان فريدة سعيدة جداً منذ سنين. سمعت ذلك ممن رأوها بالذات زوجها عجوز لكنه طبيب ثري. رأتها زوجة صديق لي يعمل مفتشاً ملكياً في جزيرة العصفور وهي صديقة قديمة لفريدة. اجتمعا معاً هناك في العام الماضي وكانت فريدة كعادتها تضحك باستمرار وتتكلم مرحة ترسل النكات الواحدة تلو الاخرى. قالت بأنها تعمل بتربية ما يقارب العشرين يتيماً في مزرعة تبعد عن

الجزيرة مسيرة أربع ساعات تقريباً.. وانها سعيدة جداً.. لا تستطيع الابتعاد عن زوجها حتى ولا نصف ساعة. ارادت الصديقة ان تحدثها عن استانبول والأهل والأصحاب، لكن فريدة قطعت الحديث للحال قائلة: انا لا أتذكر تلك البلدة حتى ولا أولئك الأشخاص أبداً. انا مذنب ومقصر بحق فريدة.. انا اعترف بذلك يا صهري.. ولكن انصفني بربك.. أمن المعقول ان تنساني بهذه السرعة وعلى هذا الشكل؟. على كل هذا حديث سخيف.. لنقطع الاسترسال به.. مع السلامة يا صهري.. سأنزل من العربة لأذهب الى الدار مشياً.. إذ ان هذه الطريق المخربة تزعجني.

تنهد عزيز بك وقال:

ما أتعس رجال الاعمال. أصلحت هذه الطريق قبل سنين على نفقتي. واحترقت تحت أشعة الشمس في ايام الصيف القائظة وانا أرقب العمل. على كل ليست الطريق التي تزعجك يا كامران.. حرام عليك يا كامران ان تتهمها.. كم أحسنوا صنعاً عندما أقالوني قبل سبع سنين من هذه المحافظة.. هيا يا ابني انزل.. ولكن لا تتأخر لأن الشيخوخة خربت أمك وخربتني. فان تأخرت أغمي عليها من القلق عليك.. واغمي علي من الجوع.



ان المكان الذي نزل فيه كامران من العربة كان مبدأ الجسر. أتى إليه قبل عشر سنين في احد أمسيات شهر آب وجلس على أخشابها البالية يهز رجليه ويتمتع بالمناظر التي حوله.

اعتاد منذ وصوله الى تكفور داغ أي منذ خمسة وعشرين يوماً ان يأتي كل مساء الى هذا الجسر ويعود على مهله وهو يفكر.. في الظلام الذي يسود طريق عودته.

قالت له مزكان التي جاءت مع أولادها منذ ايام الى تكفور داغ بسبب سفر زوجها بوظيفة مؤقتة الى الاناضول: يظهر انك ذهبت بعيداً.. لأنني أراك متعباً جداً.

فأجاب كامران وهو يبتسم بحزن وألم: أصبت يا مزكان.. ذهبت الى البعيد.. الى ماض يبعد عشر سنين.

أراد ان يقول اشياء اخرى لكن مزكان قلبت شفتها كأنها لم تفهم شيئاً وأدارت ظهرها بعد ان قالت ببرود: (أصحيح؟). كانت مزكان غاضبة من كامران منذ سنين وهي تعد بشعور امرأة تشعر بشعور أختها ان تبقى كذلك.. ولذا لا تقول أمامه ولو كلمة عن فريدة.

عندما كان كامران عائداً الى البيت من بين البساتين.. كان الظلام قد خيم تماماً على الكون. لكن آثار النهار لم تتلاش بعد تماماً عن الجبال الشاهقة.. كان الليل يبتدئ مثل بنفسجة ذابلة شحبت أطرافها.

وقف الشاب على رأس طريق بين البساتين وتطلع على أطرافه طويلاً.. كانت فريدة قد خرجت من هذه الطريق في تلك الليلة.. قبل عشر سنين. وما زال يرى خيال فريدة أمامه بملابسها المدرسية القصيرة تضرب الاحجار بحذائها.

تأخر الوقت لا بد ان أهل الدار قلقون عليه كعادتهم.. لكنه رغم ذلك لا يريد العودة. كأنه يفتش عن آثار حلم قديم.. يماطل ويسعى للتأخر والوقوف.

رأى من بعيد أمام الباب خيال امرأة ترتدي البياض.. كانت مزكان.. تخرج الى الطريق في أغلب الأمسيات مع أصغر أطفالها.. تمسكه من ابطيه لتمرنه على السير وحده.

عندما رأت كامران هزت له يدها من بعيد وقالت:

ـ كامران.. ما هذا الإبطاء.. أين انت حتى الآن؟

ـ لا شيء يا مزكان.. ان الوقت لطيف ولذا.. .

لم تكن الشابة على عادتها.. ان الاضطراب بادِ على محياها رغم هدوئها. سألها الشاب:

ـ ما بالك يا مزكان؟ أراك مضطربة على غير عادتك.

كانت الشابة تريد ان تقول شيئاً.. لكنها لا تجد كلاماً. تراجعت خطوة الى الوراء وأشارت الى الزاوية التي بين الباب والجدار الداخلي وقالت: انظر يا كامران من جاءنا اليوم.. .

أدار كامران رأسه باستغراب فرأى على نور الفانوس المعلق على الباب عيني فريدة الشهلاويتين تبرقان بالقرب منه. كانت تبتسم رغم الشحوب البادي على وجهها.. انها تبتسم كما يراها كلما أغمض عينيه منذ ست سنوات.. _بالقرب منه تماماً.. فضحك من قلبه وروحه_. اهتز كامران قليلاً وكمن خشي زوال حلم لذيذ أغمض عينيه لحظة وفتش عن مكان يستند إليه.

لم يجدا ما يقولانه لبعضهما فلذا وقفا ساكتين يرتعشان. وبينما كانا يسعيان للابتسام لبعضهما كانت عيونهما تبرق بطبقة من الدموع.

شعرت مزكان بصعوبة هذه اللحظة.. فمسكت فريدة من يدها وأخذتها نحو كامران.. وبصوت تكمن فيه كل المعاني المؤثرة العميقة قالت:

ان أولاد الخالة يكونون كالأخوة.. وبما ان فريدة محرومة من الأخ فأنت بمثابة الأخ الأكبر لها يا كامران. قل لأختك: (أهلاً وسهلاً).

ما زال كامران ساكناً لا يبدي حراكاً وقد أذهلته المفاجأة.. وأخيراً انحنى قليلاً ولمس بشفتيه شعر فريدة وقال بصوت خافت يكاد يكون همساً:

ـ لا أجد كلاماً لوصف سروري برؤيتك ثانية يا فريدة هانم.

تجرأت فريدة على الكلام واستعادت البعض من توازنها وقالت بصوت مرتعش شاكي:

ـ اشكرك يا كامران بك.. وانا كذلك سررت جداً.

ـ متى جئت؟

ـ اليوم قرب الظهيرة.. جئت قبل عشرة ايام الى استانبول وعلمت بوجودكم جميعاً هنا. والحق انني مشتاقة جداً لخالاتي ولكم جميعاً فقلت لنفسي: ربما أجد بينهم من يبادلني شوقي.. وان تكفور داغ محل جميل لمن اعتاد الحركة والسير. أليس كذلك يا كامران بك؟

تداخلت مزكان ثانية وقالت:

جميل.. الهانم، البيه.. التكليف، الرسميات.. ما لزوم ذلك.. قلت لكما قبل لحظة انكما اخوان.. فلو ناديت كامران (آغا بك_ أخي الكبير) يكون ذلك جميلاً وأصح بكثير يا فريدة.

نظر الاثنان الى الارض وقالت فريدة بجزع:

حقاً؟ أتسمح لي يا كامران ان أناديك (آغا بك)؟. كانت تنتظر جوابه مطرقة لا تنظر إليه.

وكانت تفتش في الظلام بنظرات حالمة عن شيء.. شيء ضاع منها وافتقدته كثيراً.

أجاب كامران بحدة وعصبية:

ليكن ما تريدين يا فريدة.. افعلي ما يحلو لك.

وبعدها استعادا سكونهما وتمكنا من الحديث بسكون. سردت فريدة بكلمات مقتضبة سياحتها وقالت: لدى بعض الاعمال في استانبول ثم كما قلت سابقاً اشتقت لكم جميعاً. أعطاني صهرك الدكتور اجازة شهرين. آه! كم انا مسرورة لرؤية خالاتي ورؤيتكم بصحة.. إلا انني تأثرت لفاجعتك عندما سمعت بها يا كامران. علمت بذلك في استانبول وحزنت جداً.. ما أصعب فقدانك لزوجتك. ولم تعيشا معاً سوى فترة قصيرة وقصيرة جداً.. ليكن عزاؤك بطفلتك.. عوضك الله عنها بنجدة وأطال الله لك عمرها. ما أجمل طفلتك يا كامران.. كم أحببتها صرنا أصدقاء عند وصولي للحال. ومكثت في حضني حتى الآن.. سرعان ما اكون صديقة الاطفال أفهمهم ويفهمونني!.

استمرت فريدة على الكلام واخذت تتحرز من انكماشها.. وتستعيد هدوءها وخفتها شيئا فشيئا.

اكتفى كامران بالسعادة التي غمرته من استماعه صوتها.. ورؤية وجهها.. ولم يفكر بشيء آخر قط.. حتى انه لم يخطر له في بال أنها زوجة رجل غيره.. ان كان مصير هذه السعادة الزوال بعد شهر. كان يخشى في تلك الآونة أمراً واحداً.. وهو ان يشعر

أهل القصر بوصوله.. فيقطعوا عليه أسباب السعادة التي هو فيها. أخيراً أصابه ما خشي منه... شأنه في ذلك ما يخشاه دوماً ويلاحقه.

كانت نرمين اول من رآتهم أمام الباب.. بعدما صرخت الشابة تعلن وصول كامران. ركضت نحوهم وأخذت فريدة بين ذراعيها وقالت:

ان كامران (آغا بك) يشهد على عدم نسياني لك يا فريدة (آبلا). غالباً ما أتحدث معه عن (الآبلا) ذات الفستان الاحمر.. أليس كذلك يا كامران (آغا بك)؟

❋

كانت سفرة العشاء في تلك الليلة تشبه سفرة العرس تماماً. كان على رأس السفرة عزيز بك جالساً يمزح كالاطفال ويقول:

آه يا عصفورة السياج.. تركتني كالعليل بلا دواء.. كلما خطر لي صوتك الحلو.. ترقرق الدمع في عيني كالاطفال. لم ادر قبل غيابك مبلغ تعلقي بك وحبي لك.

وكأن عصفورة السياج قد أعادت معها رقة وصفاء الايام الماضية.. بعد تلك السنين التي قطعوا فيها الأمل من رؤيتها. عم العائلة المرح والسرور.. فالوجوه ضاحكة مستبشرة.. والقلوب ترتعش كالفراش الذي يحوم حول المصباح. إلا ان بسيمة هانم أخذت تبكي فجأة في آخر الطعام. وسرعان ما مسحت دموعها وقالت:

لا شيء.. لا شيء أبداً.. تذكرت أمها.. تذكرت كزيدة فبكيت.

أحنت فريدة رأسها بينما كانت تطعم طفلة كامران العنب وقد أجلستها على ركبتيها.. أخفت وجهها لحظة بين خصلات شعر الطفلة الذهبي الأجعد.. ثم استعادت مرحها الاول. كانت بسيمة هانم تتحدث عن نجمية التي سافرت مع زوجها الى طرابزون فقالت:

يا لها من تعسة.. فقدت ابنتها في العام الفائت حيث ذهبت ضحية (الخناق)... تنهدت فريدة بألم وقالت:

اعرف هذه اللوعة يا خالتي.. ان صغيرتي أيضاً ماتت بنفس المرض.

تطلع الجميع الى وجهها بدهشة وقالت الخالة عائشة:

هل كان لك طفلة؟ لم نكن نعلم بذلك.

هزت فريدة راسها بألم وقالت: طفلة كاللؤلؤة.. لو رأيتم جمالها.. لم يكن بالإمكان إنقاذ طفلتي من ذلك الوباء الفظيع.

سألتها الخالة عائشة: كم كان عمر طفلتك عندما ماتت يا فريدة؟

اجابت فريدة بنفس الصفاء والحزن وهي تقلب شفتيها:

أتمت الثالث عشر.. كنت أخيط لها اول ملاءة.. كنت سأصبح حماة بعد زمن قصير.

تعالت الضحكات وقال عزيز بك:

آه يا عصفورة السياج.. لو بلغت المائة من عمرك.. لن تتركي المزاح والمجون.

كان الجميع يتضاحكون على ابنة فريدة التي بلغت الثالثة عشرة من عمرها.. لكن أهداب فريدة كانت ملآى بالدموع.. جذبت نجدة بقوة الى صدرها وقصت عليهم قصة مؤنسة.. وطفح ألمها باستمرارها على الحديث فلم تتمالك دموعها.

تأخروا في تلك الليلة بسهرتهم.. وكان عزيز بك يقول من وقت لآخر:

فريدة.. ابنتي.. انت تعبة من السفر. ألا تودين الراحة والنوم؟

وكانت فريدة تجيب ضاحكة وهي ترعى نجدة النائمة بين ذراعيها منذ مدة لا تتركها بأي شكل:

لا بأس يا صهري.. في الواقع انا مرتاحة جداً بينكم.. ولا أنكر بأن الوحدة أتعبتني وبعادكم أضناني.

تكلمت بمرح ونشاط ساعات طويلة.. وقد استيقظت روح عصفورة السياج القديمة من سباتها.. بل ازدادت حركاتها دلالاً وخفة كلما أطمأنت لاهتمام الجميع بها وبحديثها.. وثابرت على الحديث بشكل انتشى منه الصهر العجوز ولم يستطع ضبط لسانه عن نكتة قديمة فأخذ يكررها.

اعتاد ان يفرك شفة فريدة العليا بيده عندما كانت طفلة ويقول:

آه يا شيطانة.. سرقت لي الكرز كله من الحديقة.. أعيديها لي.. هيا عجلي.

ثم يقبلها من فمها قبلة مغتصبة.

كانت فريدة تصرخ: انا كبرت يا صهري... وهذا لا يليق.

ضحك الجميع عندما جذبها عزيز بك من ذقنها وكرر مزاحه.. ثم دقق وجه فريدة باهتمام وقال:

ما العمل يا عصفورة السياج.. الذنب ذنبك.. اصبحت امرأة متزوجة وربة دار.. لكن طباعك ما زالت طباع اطفال.. حتى وجهك يشبه وجوههم. من يقول عن هذه الملامح بأنها ملامح سيدة وقور؟

شعر كامران بشحوب وجهه وانكمش على نفسه مرتعشاً.. لانه لأول مرة شعر هذه الليلة بأن عصفورة السياج ملك رجل غيره.



لم يستطع كامران رؤية فريدة في اليومين اللذين تليا تلك الليلة إلا لماماً.. كانت لعصفورة السياج صديقات عديدات في تكفور داغ. صادفتهن عندما جاءت قبل عشر سنين لقضاء الصيف في قصر خالتها. أصبحن الآن ربات منازل وزوجات. لا يتركن فريدة لحظة.. يزرنها باستمرار ولا يكتفين بذلك بل يسحبنها معهن للنزهة في الحدائق القريبة المجاورة.

وكانت مزكان مرتاحة نوعاً ما للألم الذي يبدو على محيا كامران تقول له بنشوة يشوبها تشفى سافر: لا فائدة من القول.. لا يتركن فريدة لنا أبداً بأي حال.. على كل.. المهم ان تكون فريدة ممتنة ومسرورة.

رأى كامران فريدة مرتين خلال اليومين. الاولى على الطعام والثانية كانت عائدة من الخارج وقد التفت بملاءتها الحريرية.

كان صباح اليوم الثالث عندما استيقظ كامران مبكراً خلافاً لعادته. كانت الشمس في اول شروقها وأهل القصر نيام.. فتح أحد مصراعي النافذة ليستنشق هواء الصباح اللطيف.. لانه كان يشعر بكابوس يثقل رئتيه. شد ما كان استغرابه عندما رأى

فريدة في الحديقة. سمعت كذلك فريدة صرير النافذة فرفعت رأسها نحو النافذة لترى مصدر الصوت وقد وضعت يدها فوق عينيها لتجعل منها حائلاً للشمس التي ترسل أشعتها نحوها.. ثم قالت:

أراك تستيقظ مبكراً يا كامران خلافاً لعادتك.. كم غيرت من طباعك.. كنا نلقي حفنات من الحصى في الصيف وكرات من الثلج في الشتاء كلما أردنا إيقاظك فيما مضى.. أراك تطبعت بطباع الريف. عندنا هناك في مثل هذا الوقت يعيبون على كسلي قائلين: (كسلانة.. هل يدع المرء الشمس تشرق عليه وهو نائم؟)

كان في صوت عصفورة السياج ونكتها رنة تمنح القلب هدوءاً ونشاطاً.. كانت تولد في النفس المشاعر البراقة لأنها تعود بها الى الايام الحلوة الماضية.. سألها كامران وجلاً:

أتسمحي لي بالنزول إليك يا فريدة؟

أجابت وهي لا تزال واضعة يدها على عينيها تتقي بها ضياء الشمس. تبدو كالغزالة بمرحها:

لا بأس من نزولك ان كنت لا تخشى رطوبة الصباح ان تزعج جسمك اللطيف. ان نزلت أكرمتك على الطريقة الريفية.

اخذت كامران الى ظل شجرة جوز كبيرة.. وأجلسته على كرسي ترك في الحديقة منذ المساء وقالت:

ـ والآن ستنتظرني قليلاً يا كامران بك.

ـ أما قلنا بأننا سنترك الرسميات والألقاب؟

ـ اصبر قليلاً.. سيأتي ذلك مع الأيام.. لا أجرأ على رفع الكلفة دفعة واحدة. ضحك كامران وقال:

لكن هذه المعاملة شاذة وغريبة بين الأقارب يا فريدة.. أمنعك.. لأنه يخيل إلي عندما أسمعك تناديني كامران بك انك تسخرين مني.

كانت فريدة تضحك أيضاً وهي تجيب:

صحيح.. لك الحق.. لك الحق.. سأسعى لترك ذلك. والآن اسمح لي ان أتركك قليلاً.. فأذهب لأغلي الحليب.

ـ فريدة أرجوك.

ـ عبثاً تحاول.. ان أحسن معاملة بالنسبة لامرأة ريفية هو ان يسمح لها بالخدمة والعمل.

واستمرت تقول بلهجة يشوبها الحزن والسخرية معاً:

ـ ان المرأة الريفية فقيرة من كل جاذبية... ولا تستطيع ان تنال الإعجاب إلا بالخدمة والعمل.

ثم أخذت تروح وتجيء في الحديقة وبيدها جردل تجمع الاغصان اليابسة وتتحدث الى البستاني الذي استيقظ قبل قليل. وأخيراً وصلت وبيدها كأس من الحليب تتصاعد الأبخرة منه وقالت:

ليس الحليب كما أريد يا كامران.. ولكن بعد ثلاثة ايام.. في أي يوم نحن؟ الاثنين.. ادعوك يوم الخميس لتناول فطور الصباح في الحديقة. سأسقيك حليب الغنم نفسه. ولكنك تشعر بتبدل في طعمه ولذته.. سيكون الحليب بطعم فاكهة لذيذة.. هذا سري.. احتفظ به.. أراك لا تبدي اهتماماً لاكتشاف السر؟.. ما أقل فضولك. سأقول لك الآن.. اسمع! اغذي الغنم بالكمثرى ثلاثة أيام.. أخشى عليك البرد لأن الطقس ما زال رطباً.. أتريد ان تؤاخذني خالتي بسيمة قائلة: (أيتها البنت المجنونة... بجنونك صرت السبب لمرض ابني..) انتظر.. هاك شالي.. انا معتادة على الرطوبة والبرد.

ثم رفعت الشال الصوفي الاحمر عن كتفيها وغطت به كتفي وصدر كامران الذي كان يرتجف كأنه تأثر من رطوبة الصباح.

اخذت تستيقظ أمام ناظري كامران ذكريات أمسية انقضت قبل عشر سنوات... فرأى بعين خياله تلك الأمسية التي وضعت فيها ابنة المدرسة الصغيرة معطفها الكحلي على كتفيه في حديقة قصره. ورأى أصابعها الصغيرة الملوثة بالحبر الازرق.. وسمع صوتها الرقيق الذي قال له بطور فتاة ناضجة:

اصبح أمر المحافظة على صحتك موكولاً إلي ومن واجبي واختصاصي...

ـ كامران أراك سرحت كالأبله ستلقي الكأس من يدك.. فتحرق ركبتيك بالحليب.. لم هذا الشرود؟

ـ لا شيء.. خطر لي خاطر.

فقالت فريدة بسرعة من يريد منعه عن التحدث بما خطر له:

ـ وانا كذلك.. عندما رأيتك متدثراً بشالي.. خطرت لي الايام التي كنت أدعوك فيها بكامران هانم.

جلست فريدة على كرسي صغير أمام كامران. كان يغطي جسمها فستان من الحرير الفضفاض.. تسند مرفقيها على ركبتيها وتضع يديها تحت ذقنها وقد ضمت خديها في قبضتيها واسترسلت في الحديث.

كان كامران لأول مرة يرى وجهها عن كثب وعلى ضوء الصباح النقي. كان وجهها قد نحل قليلاً عن قبل وشحب لونه.. وظهرت عيناها أوسع من قبل بسبب ذلك التحول. تظللها هالة حزن خفيفة تكاد لا تدرك. ان عيني عصفورة السياج البراقتان واللامعتان قبل سنين تبدلت الى عينين ذابلتين كأزهار تركت قرب النار فذبلت بتأثير الحرارة.. وان كانت ضاحكتين كالأول.. تتطلعان دون وجل ببراءة وصفاء.. إلا انه تراءى لكامران بأنه اصبح مستحيلاً الوصول الى أغوارهما لادراك كنههما.

كانت ترسل شعرها جديلتين ألقتهما على كتفيها كبنات الريف تماماً. وكان شعرها مجدولاً بشدة يشد الشعر معه بشرة جبينها وصدغيها وترفع طرفي حاجبيها الى فوق قليلاً فتتراءى أظلال الشرايين الرقيقة الزرقاء من تحت بشرتها الناعمة الملساء.

استرعى انتباه كامران شيء خلال استماعه لصوتها فاهتم به اكثر من التطلع الى وجهها الجميل.. ما كان شكل فريدة يدل على انها زوجة سعيدة تحيا حياة زوجية طبيعية هانئة. كان ذلك الطابع يخفي ناراً تشتعل باضطراب في الأعماق.. انها كالوردة التي حكم عليها بالذبول قبل ان تقطع عن غصنها. كان يبدو على وجهها الناعم مخيل فتاة حكم عليها ان تعيش بدون حب وقلب.. وكانت أضواء الصباح

تضيء خطوطاً جذابة ذات معنى عميق في ذلك الوجه فيتأسر الشاب.. وتبعث الى قلبه الحزن والألم فتتوق نفسه الى البكاء.. لم يتصور كامران من قبل بان الألم والاضطراب يزيدان من جمال شابة على هذا النحو.

كانت فريدة تتحدث عن ذكريات طفولتها بصوت مؤثر حزين.. لا تفارق الابتسامة شفتيها كأنها في حلم. تجرأ كامران وسألها عن ذكرى حديثة العهد:

هزت فريدة رأسها بسكوت وقالت:

لم يبق في بالي يا كامران.. أتذكر الحوادث التي مرت حتى الخامسة عشر من سنين حياتي.. وانني أذكر الوقائع حتى مجيئي الى هنا.. أما الباقي فقد جلله رداء من دخان كثيف لا استطيع رؤية شيء من خلال ذلك الستار.

عندما كانت تتحدث عن ذلك الدخان.. كان دخان آخر يجلل عينيها فتدير رأسها لتتطلع الى الأفق البعيد.

قفزت بخيالها الى ذكريات حياتها التي تلت ايام الطفولة.. ذكريات السنين الخمس الاخيرة. حالة من حالات الحاج (قلفة) وكلمة من كلمات مختار الزينيات وحركة من حركات المدير رجب أفندي فأخذت تسردها وهي تضحك.. لكنها كانت تشعر بالغم من ذلك المرح بتعب خفي يستولي على حركاتها فيولد اهتزازاً في صوتها ويزيده عمقاً واضطراباً.

بينما كانت تتحدث عن شاطئ نهر.. أغمض كامران عينيه وسأل نفسه باضطراب:

أخشى ان يكون ذلك الشاطئ هو نفس الشاطئ الذي كانت تضع بجواره رأسها على ركبة عشيقها عازف الطنبور.. وهي تحدق بعينيه برغبة وغرام.

بعدما سردت عصفورة السياج أسخف وأتفه الحوادث عن حياتها قالت فجأة وكأنها تذكرت شيئاً:

ـ كامران لم أرك بعد صورة صهرك.

ومدت إطاراً من ذهب ربط في عنقها بسلسال من الذهب نحو كامران. بذل الشاب جهداً ليخفي اضطرابه وهو يتناول الصورة.. كانت فريدة تمد رأسها وتقرب وجهها من وجهه لترى الصورة معه. وقالت:

تأمل هذا الوجه يا كامران.. ما أنجبه! وما أجمله!.. أليس كذلك؟

كان الشاب يرمق فريدة بطرف عينيه دون ان تشعر هي بذلك لأنها كانت سارحة تتأمل الصورة بحب وإكبار.

كانت هذه اللحظة أقسى لحظة أهاجت قلب كامران.. إذا هذا الجمال البريء الناعم اصبح طعماً لهذا العجوز الأشيب؟

استيقظ خيال مريع في نفس كامران.. كان يرى فريدة بعين خياله ترتعش في أحضان هذا العجوز وعلى شفتيها رعشة تشبه التوسل وعلى خديها المحمرتين آثار للدموع.

كأن عصفورة السياج شعرت بأفكاره وتخيلاته.. سحبت الصورة بتمهل تعيدها الى صدرها دون ان تنظر الى كامران... وقالت:

اسمح لي يا كامران.. لقد حان وقت الدخول الى القصر.. أظن بأن هذا اليوم يوم قبول الزائرين.



لقد مضى عشرة ايام على عودة عصفورة السياج الى عشها.. وكان عزيز بك يكرر كل مساء قوله:

- هل انتبهتم يا اولاد؟ عم السرور الدار وأهلها.. واصبحت عصفورة السياج كالسنونو الآن.. جلبت لنا الربيع والحيوية تحت جناحيها.. ان ضيافة الاربعين يوماً هذه تشبه أعراس الاساطير التي تدوم أربعين يوماً وليلة.. ولكن يا للخسارة.. انقضى يوم آخر منها.

تضحك فريدة وتقول: (ما عليش يا صهري..) بعد بضع سنين أعود ثانيا.. لا تتأثروا وخاصة أمامنا ايام طويلة لم تنتهِ بعد.. لمَ نسمم سرورنا بالكدر منذ الآن؟ استعادت عصفورة السياج طورها القديم تماماً.. وكانت تزداد نشاطا وحيوية يوما بعد يوم كالورود التي فوجئت بعاصفة عابرة.. ثم التقت ثانياً بالشمس فاستعادت نضارتها.

صارت من جديد رئيسة عصابة اطفال.. واصبح الاطفال من طفلة مزكان البالغة ثلاثة سنين من العمر حتى نجدة الأكبر قليلاً حتى نرمين البالغة السبعة عشر عاماً أصدقاؤها.. لا يتركونها من الصباح حتى المساء.. يزعجون القصر بضحكاتهم العالية وصخبهم وضجيجهم.

يشكو الكبار أحياناً من الضوضاء لكنهم على الرغم من شكواهم مسرورون. إنهما كانا قبل كل شيء خطيبين قديمين.. وان خافوا في بادئ الامر من نكس الجراح التي كادت تندمل خلال السنين الاخيرة.. إلا انهم استسلموا ورضخوا فاظهروا ارتياحاً بعدما رأوا مرح فريدة الجنوني.. وسكون كامران الذي لا يطمع بشيء اكثر من رؤيتها ولو من بعيد.

على كل لم يتركوا الحيطة والحذر.. يسعون جهدهم لإيقاظ شعور الأخ الكبير والأخت الصغيرة في نفسيهما.. يخشون من نبش الماضي أمامهما بكلمة تشير إليه.. كمن يخشى الكلام في غرفة مريض ثقل داؤه واستسلم لإغفاءة إعياء.. توقظه كلمة وتستثير كوامن دائه حركة.

كان عزيز بك يسألها احيانا:

ـ أليس بالإمكان تمديد الزيارة يا ترى؟

فتجيب عصفورة السياج التي لا تسمع حديث السفر إلا وتضطرب:

ـ لا يمكن ذلك يا صهري.. مهما تكن عصفورة السياج فهي أم لعش غير هذا القصر.. وهناك من ينتظر طريق عودتها.



كانت صداقة نجدة وفريدة المتينة تقلق كامران وتؤلمه.. والسبيل الوحيد لتفريقهما كان الانتظار حتى تنام نجدة بين ذراعي عصفورة السياج.

سمع كامران جدلاً قوياً بين نجدة وفريدة في احد الايام.. كانت عصفورة السياج تقول بألم:

ـ قولي يا نجدة.. مرة اخرى.. عمتي.. عمتي.

إلا ان نجدة لا تطيعها وتهز رأسها بإصرار وهي تقول:

ـ أمي.. أمي.. ماما... ماما.

فقال كامران وجلاً: دعيها يا فريدة.. لتقل كما تريد.. أيضرك ذلك.. ربما تشعر المسكينة بحاجة في نفسها تدفعها لما تقول.

أطرقت فريدة دون ان تجيب... واكتفت بان تداعب رأس الصغيرة بحنان مدة طويلة... .



استيقظ كامران في صباح احد الايام على صوت سيل من الاحجار الصغيرة تقع على خشبة نافذته.. كان يعلم بان هذا أصول خاص للإيقاظ تتبعه فريدة منذ القدم.. كانت عصفورة السياج تدعوه مرة اخرى للإفطار تحت شجرة الجوز.. كان يوجد مع الحليب الذي وعدت ان يكون ذا رائحة ذكية تفوح منه رائحة الكمثرى اللذيذة.. نوع من الكعك الريفي مع حلوى تشبه المربى.. لونها زهر. قدمتها إليه وهي تقول:

ـ هذه من صنع يدي. لا اعرف اسم الكعك.. لكن الحلوى تسمى (حلاوة الورد).

بعدما أنهت عملها جلست قباله على الكرسي الصغير بالقرب من موضع قدميه وقالت:

ـ والآن قل لي يا كامران... هل أعجبتك حلاوة الورد؟

فأجاب الشاب ضاحكاً: نعم أعجبتني.

ـ هل أحببتها؟

ـ نعم أحببتها.

ـ قل ثانيا..

ـ أحببتها.

ـ ليس هكذا يا كامران.. قل.. انا أحببت حلاوة الورد.

كان كامران يضحك دون ان يدرك سبباً لهذا الإصرار الصبياني وهو يقول:

ـ انا أحببت حلاوة الورد.

كانت فريدة ترتعش وقد احمر خداها خجلاً.. تقرب وجهها من وجهه.. تحني رقبتها كالطفل المتوسل وبأنفاس تكاد تتلاشى على شفتيها تقول:

ـ مرة اخرى يا كامران قل: انا أحب حلاوة الورد كثيراً.

كان الشاب يتطلع بدهشة الى هاتين الشفتين اللتين ترتعشان.. وقد ارتجف بسبب خفي لم يدركه وقال:

ـ انا أحب حلاوة الورد كثيراً.. احبها بالدرجة التي تريدينها انت.

صفقت فريدة كالاطفال ولكن بينما كانت شفتاها تبتسمان.. كانت عيناها تسكبان الدموع.. وقالت كأنها تعيب شخصاً يبكي لأمر تافه:

ـ يا له من جنون!.. ما أسخف هذا التهافت على السرور بعمل أعجب الغير. حقاً ما أقل عقل من يظهر كل هذا الفرح لشيء يعجب الناس.

كانت ترتعش وهي تسعى لتجفيف الدمع من عينيها بأطراف أصابعها.. لكن الدموع خانتها.. فاسترسلت ببكاء شديد واخذت تشهق بزفير حاد ثم هربت الى القصر منتحبة وقد أخفت وجهها بيديها.



اعتاد الاطفال ان يصطفوا أمام الباب كلما رأوا عودة كامران وصهره من السوق محملاً بالهدايا ينتظرون حصصهم من الفاكهة والحلوى والشوكولاته. بينما كان راجعاً في

احدى الأمسيات مع صهره يوزع الحصص للواحد تلو الآخر.. شعر بسقوط حجر صغير بالقرب من قدميه. بعدما وزع آخر حصة التفت حوله يفتش عن مصدر الحجر... فرأى عصفورة السياج واقفة بالقرب من شجرة كستناء كبيرة تشير إليه بيدها وتقول:

الا تدرك معنى الاحجار يا كامران بك؟ أنا هنا.

اعتادت ان تخاطبه بالكلفة والألقاب كلما أرادت إثارته بنكتها.. فأردفت تقول ضاحكة:

أراك أسرفت كثيراً بإحالتي للتقاعد.. أين حصتي؟ أحسبت الذنوب القديمة قد أعفت يا سيدي؟ اما تعطيني أجرة سكوتي.. أو اثير من جديد وأنبش حكاية شجرة الكرز القديمة الليلة على المائدة؟

كانت تأتي الحركات التي اعتادت ان تقوم بها قبل عشر سنين أمام الباب نفسه.. تمد لسانها الاحمر وهي تقهقه ضاحكة.. .

أخرج كامران علبة من جيب معطفه وقال ضاحكا:

يا لحسن الحظ يا فريدة.. ما أجمل الصدفة.. وجدت اليوم علبة (فوندان) وكان بنيتي ان لا أريها لأحد فآكلها وحدي.. ولكم ما دمت تصرين على التهديد والوعيد.. فلا حيلة لي بالاستغناء عنها.

لمع بريق سرور صبياني في وجه فريدة وقالت:

ـ ما أجمل ذلك.. ما أجمل ذلك.

ـ ولكن لي شرط واحد يا عصفورة السياج.. سأضعها بيدي في فمك.

ـ كيف يكون ذلك؟

ـ كيف يكون ذلك؟ يكون تماماً كالماضي عندما كنت في الثانية او الثالثة عشرة من عمرك.

وبينما كان يقول ذلك.. قرب قطعة (الفوندان) من فم فريدة.. ترددت عصفورة السياج ثم مدت رأسها وفتحت شفتيها المرتجفتين. لكنها رغم إصرار كامران الشديد لم تأكل قطعة اخرى.. بل قالت:

ـ أعطنيها... سآكلها مع نجدة بعد الطعام.

ـ لنذهب يا فريدة حتى نهاية سور الحديقة.. انظري ما أجمل البحر.. ونتحدث ونحن سائران نتمتع بالمناظر الخلابة.

ـ حسناً ولكن اسمح لي لحظة لأضع العلبة في غرفتي.

ولأول مرة تجرأ كامران ان يلمسها فقبض على رسغيها قائلاً:

لا يا فريدة.. انا لست أميناً منك.. انتظر.. لحظة.. ستقولين بانك تعودين للحال.. ثم.. لا تأتين.. او ان جئت.. يعلم الله كم ساعة تنقضي حتى تعودي.. وكيف؟ انك تشعرين ولا شك بانني اضعت ثقتي فيك تماماً.

احنت فريدة رأسها دون ان تقول شيئاً.. ثم اخذت تسير على مهل بجانبه.

كان يشعر كامران الليلة بحزن يسود نفسه.. لا يستطيع معرفة سبب لذلك. يشكو باستمرار بكلمات متقطعة غير موزونة. أراها سرباً من الطيور تطير في السماء المكفهرة لهجوم الظلام وقال:

ـ فريدة.. ستطيرين بعد حين مثل هذه الطيور.. فتغيبين عنا.. أليس كذلك؟

ـ ... .

ـ قولي بربك.. أيحلو لك فراق من تتركينهم من خالات وأولاد خالات وأصحاب؟... بل وأماكن عزيزة قضيت فيها ايام طفولتك؟

ـ ... .

ـ عندما تسعدين وتسعدين بعشك... ألا تفكرين بالعش الذي تركته خرباً موحشاً؟ ألا يزعجك خيال ذلك العش المهدم؟

فريدة لا تجيب.. كما انها لا تسمع.. كانت شاردة تقوم بحركات عصبية. فقال لها كامران بشكوى مريرة:

ـ لمَ لا تجيبيني يا فريدة؟

تطلعت عصفورة السياج الى وجهه بوجوم وقالت:

ـ سامحني يا كامران.. كان عقلي يفكر بشيء آخر.. لم استطع سماع ما تقول.. تذكرت أغنية كنت سمعتها مرة.. ونسيتها ولا ادري لم تذكرتها الآن على حين غرة. كنت اكتبها رغم الظلام على علبة الحلوى.. كيلا أعود فأنساها.. اقرأها ان شئت.. بدأت اشعر بالبرد.. انا ذاهبة الى القصر.

رأى كامران على غطاء علبة الحلوى هذه الأبيات الأربعة وقد كتبت بخط تداخل بعضه في الآخر.. يدل بوضوح على عصبية كاتبه:

احذر ان تفتح فـــمي	لأنني اشتعل بنار
لا تدعني اتكلم يا ظالم	ان فـي قلبـي نار
الا تـــعـرف فعـــلتـك	لا تحـاول الإنكار
لا تدعني أتكلم يا ظالم	ان في قلبـي نـار...



مر على هذا الحادث اربعة ايام.. وكانت فريدة تتهرب من الاجتماع بصديق الطفولة. ذهبت حيل الشاب ومساعيه للقياها ادراج الرياح. حتى انها إذا اضطرت للتحدث معه أمام الناس تجنبت ان تنظر الى وجهه كيلا تلتقي عيناهما.

كان قرب مساء اليوم الرابع.. وكان أهل الدار مدعوون الى جهة ما.. ولم يكن محتملاً عودتهم قبل الغروب. لم يستطع كامران البقاء في الدار فخرج الى الحديقة رغم العاصفة التي كانت تثير الغبار كالدخان.

كانت الرياح تغني على التلال البعيدة بعويل مستمر.. ويسمع حفيف الاوراق المتساقطة وقد امتلأ الطريق الطويل الممتد أمام باب القصر بالأتربة والغبار المتطاير الثائر.

اضطر كامران ان يقف بعد كل بضع خطوات لمسح الأتربة عن عينيه ليتسنى له اتمام طريقه. بينما هو في احدى وقفاته رأى على هضبة عارية قرب شجرة جوز كبيرة صخرة وبجانبها شجرة هزيلة تهتز باستمرار ولا تستطيع الصمود للرياح. أتجه نحوها مبدلاً طريقه.. وعندما وصل إليها جلس بالقرب منها وقد جعل من الصخرة حاجزاً يقيه عصف الرياح.. وأخذ يتأمل ترنح الأشجار.

رغم كل تلك الضجة التي أثارتها الطبيعة اليوم كان يرى الأطراف خالية موحشة تشبه البادية تماماً.. لم ير الطبيعة ساكنة وقد فقدت رداءها وحياتها مثل اليوم. رأى جمالها كله اليوم بدون جدوى.. وشعر بأن الحياة كلها بائسة لا أمل فيها ولا نفع منها.

تراءى له خيال امرأة تسير على شاطئ البحر من بعيد.. فنزل عن الهضبة لغير سبب ظاهر.. واخذ يسير نحو الخيال.. بعد قليل تعرف على ملاءة نرمين الوردية اللون. وكأن الشابة رأته فأخذت تشير إليه بمظلتها من بعيد.

لمَ افترقت نرمين عن الجماعة؟ ولمَ هي آتية وحدها؟ انشغل بهذه الأفكار التي تواردت الى ذهنه واخذ يسير مسرعاً نحوها.

كانت الشابة مطرقة لا تدري كيف تسير.. تسعى لضبط أذيالها التي تعصف بها الرياح فتتطاير حولها كالأجنحة. اقترب منها وما ان رأى وجهها حتى خفق قلبه بشدة. كانت فريدة مرتدية ملاءة نرمين الوردية.

ما ان صارت بجانبه حتى طير الهواء مظلتها.. أرادت فريدة استعادتها فتبعثرت أذيالها وطار دثارها فنبش الهواء شعرها وأخذت تصرخ غضباً وحنقاً. التقط كامران المظلة من طرف سياج ورفع معطفه حاجزاً ليساعد فريدة على اصلاح ثيابها وملاءتها فقالت عصفورة السياج:

وصلت عند الحاجة يا كامران.. افتكرت نفسي عصفورة سياج حقيقية عندما لعب الهواء بثيابي فجعلها كالأجنحة.. وكاد يطير بي.

كان بودها ان تقول اشياء اخرى لكن العاصفة اضطرتها لاحناء رأسها وإغماض عينيها وإغلاق فمها. سارا جنباً الى جنب ساكتين وما زال كامران يحمل معطفه جاعلاً منه حاجزاً من الهواء يقي فريدة عذاب التبعثر والطيران.

استعادت فريدة روعها واصبحت تستطيع الكلام. ولكن يظهر بأن حاجتها للضحك كانت اكثر من الكلام.. لا تستطيع ضبط نفسها وتضحك باستمرار.. افهمته سبب ضحكتها بكلمات متقطعة وقالت:

أتدري لم أضحك يا كامران؟ كنا بالضيافة... فخطر لي بأن لدي أعمالاً هامة جداً في السوق. كنت ارتدي معطفاً.. فلم أجسر للذهاب به وحدي الى السوق. أرادت المسكينة نرمين ان تقوم بخدمة لي فكلفتني ارتداء ملاءتها. وبينما كنت قبل هنيهة أعود من السوق.. رأيت ضابطاً يتعقب خطواتي وما ان وصل الى جانبي حتى قال: (أأنت هنا؟ يا نرمين هانم.. ما هذه السعادة المفاجئة؟..). تصور المسكينة في الوقت الذي أرادت فيه ان تسدي إلي معروفاً اوقعت نفسها بورطة.. كشفت سرها. لم استطع ضبط نفسي عندما سمعت الضابط يقول لي ذلك فضحكت. عندها شعر الضابط المسكين بغلطة فهرب مني بسرعة البرق.. لا شك ان الفزع دب في قلبه عندما رأى سيدة كبيرة تحل محل نرمين الصغيرة.

كان كامران يستمع مبتسماً وما زالت فريدة مسترسلة في الكلام فقالت:

ـ أظنني أسأت التصرف بإعلامك سر المسكينة.. أف من لساني الثرثار الذي لا يسكت!.. أرجوك ان تساعدهما على الوصول الى بعضهما ان استطعت لذلك سبيلاً.

ـ أعدك بذلك يا فريدة.. لأن نرمين طفلة طيبة جداً.

فقالت فريدة كأنها تشتكي: قد يجوز ذلك.. ولكن قلوب أطفال مثلها لا تكون قط حسب شكلها الظاهر.

سكت الاثنان وأخذا يسيران جنباً الى جنب.. خفت العاصفة.. فأبطئا المسير وكانا شبه خائفين من انتهاء الطريق.. كان كامران شارداً يفكر بحزن ويحدث نفسه قائلاً:

كنت قبل لحظة ارى الطبيعة فارغة لا طعم لها ولا معنى.. وارى نفسي فيها شخصاً عديم النفع.. أما الآن بعد ما استطعت حماية هذه المخلوقة اللطيفة من العاصفة وتيارات الهواء القوية.. اشعر بسعادة تكاد لا تصدق. كان بالإمكان ان يكون ذلك الى الأبد ولو أردت لأسعدتها وسعدت بسعادتها.. ولكن.. واحر قلباه.

كانت فريدة تزداد تبطؤاً في سيرها وهي شاردة مفكرة.. بعد مرة عادت الى الحديث واخذت تقول اشياء لا محل لها:

على الرغم من كل شيء أراني مسرورة جداً من هذه السياحة.. انها ذخيرة تكفيني سنة او سنتين. وهكذا تمر السنون.. فيبدأ شعري بالمشيب تدريجاً.. وكلكم تصبحون كذلك. نفرح كلما التقينا ببعضنا وقد يجوز ان نفترق ثانيا. لكننا نشعر بحزن أقل واخف لذلك الفراق ومن يدري ربما جئت في المستقبل الى غير رجعة.. أليس كذلك؟ هكذا الحياة.. كل شيء فيها ممكن وجائز.. عندها تكون لي أخا الى الأبد وكلما انسحب واحد من الكبار بعد الآخر ازددنا تمسكاً ببعضنا وارتباطاً عندها ترى نقائننا وهفواتنا حلوة لطيفة فنتسامح عنها.. وهكذا نقضي سنيننا الاخيرة في نفس الأماكن التي قضينا فيها طفولتنا.

اخذ الجرح الغير مرئي يزداد عمقاً فيعطي لكلامها الحزن.. وكانت كلماتها تسيل من فمها كوصية خفية. صادفا على الطريق متسولة تسير وطفلها. كان الطفل يركض بين أرجلهما ويداعب بيده الهزيلتين أذيال فريدة.

وقف كامران المراة إحساناً.. ولم تشمئز فريدة من مداعبة رأس الطفل.. لأنها اعتادت لذلك بحكم تماسها المستمر بالفقراء والمساكين وعندما عادا الى سيرهما قالت الفقيرة:

ـ لا فرق الله بينكما.. وأطال عمر زوجتك وأبقاها لك.

وقفا بدون اختيارهما وقال كامران وقد تجمعت آلام نفسه كلها في نظراته:

ـ فريدة أسمعت ما قالته المراة المتسولة؟

اجابت قطرتان كبيرتان من الدمع سقطتا من عيني فريدة على سؤاله وخانت الشجاعة كليهما فأطرقا يسيران صامتين.

❋

وصلا القصر وقد عم الظلام وهدأت العاصفة.. سكنت الاشجار بعد ما أرهقتها الرياح طويلاً. رأيا بصيصاً من النور يتلامع في الظلام فقال كامران:

- ما زال الوقت باكراً يا فريدة.. لم يرجعوا من المدينة. أتريدين ان نذهب حتى الصخور؟

فأجابت فريدة بتوسل واسترضاء وقد اخفضت رأسها:

- اسمح لي يا كامران.. فلأذهب لأخلع ثيابي.. أثقلت العاصفة دماغي.. وانني اشعر بصداع في راسي.

ثم جلست على حجر كبير قرب الباب متعبة متهالكة تبرهن بذلك على عدم استطاعتها على المسير. واخذت تخط على الرمال بمظلتها خطوطاً عميقة كاليأس الذي يخالج صدرها.. ومنكسرة كحياتها المتصدعة.

اضطربت بعد قليل عندما جلس كامران بجانبها وشعرت بكتفه يلامس كتفها.. وقد أمسك يدها بيده.. تطلعت بجزع الى ما حولها وودت الإفلات.. لكنها عدلت.

شعر كامران بزفراتها وأنينها المستمر لحظة استعادت بعدها هدوءها واشتعلت عيناها لحظة ببريق وحشية متمردة لكنها عادت فاستكانت وشملها الهدوء والسكينة. فأرخت يدها المثلجة بين يدي خطيبها الاول وأغلق الاثنان عيونهما. اخذ كامران يفكر بثورة يشعر معها بالشرر يتطاير من عينيه في الظلام.. (ان هذه اليد التي ترتعش بين يديه هي يد فريدة.. إذاً بوسع المرء ان يحصل على اشياء قد يظنها ضرباً من الاحلام لليالي المقفرة المظلمة..). فتح عينيه ثانيا فرأى فريدة تتنهد كالطفل الذي نام بعد بكاء طويل وقد ألقت برأسها المتثاقل على كتفه باسترخاء. وكان طورها ينم عن استسلام مؤلم وغريب. كلما تحرك كامران قليلاً ازدادت التصاقاً به واقتراباً منه كأنها تخشى ان يفلت منها تشد على يديه بقوة وجزع.. فقال الشاب على مهله ودون ان يدرك سبباً لما يقول:

ـ انا أحب حلاوة الورد.

فتح الباب على حين غرة فأيقظهما من حلمهما الجميل.. قفزت فريدة من مكانها بخفة عصفور سمع صوت الرصاص. كانت نرمين في الطليعة فارتمت عصفورة السياج باضطراب يستره المرح في أحضانها. واخذت تشد البنت الى صدرها وتقبل رأسها وخديها.. لم يدرك احد سبباً لهذا السرور المصطنع.. ولم يبق أثر للتعب الذي شكت منه قبل لحظات.. اخذت تقفز وترمي بالصغار في الهواء ثم تعود فتقبض على أجسامهن الصغيرة وهم يصرخون فرحين وفزعين.. وعندما حان وقت دخولهم تأخرت بضع خطوات تنتظر اقتراب كامران.. فلما دنا منها قالت في خفوق:

ـ شكراً يا كامران.

ذهبت فريدة في اليوم التالي أيضا الى السوق وحدها.. وكان التعب باد على محياها عندما عادت الى القصر قرب العصر. لكنها رغم تعبها جمعت الاطفال حولها ونصبت لهم أرجوحة كبيرة في الحديقة الخلفية واخذت تلاعبهم بها.

عندما تخلص كامران من ضيف ثقيل الظل أتى يزور صهره، وجد فريدة في الارجوحة مع نجدة. تطير فريدة بالأرجوحة فتنكمش نجدة كالهرة الصغيرة وقد لفت ذراعيها بقوة حول عنق فريدة.

سمع كامران خالته عائشة تصيح نفس الصياح الذي كانت تصيحه قبل عشر سنين:

ـ فريدة.. ابنتي... دعي الجنون.. ستقع الطفلة.

أما عصفورة السياج فانها مسترسلة في لعبها لا تبالي بصراخ الخالة وأخيراً قالت:

آه يا خالتي.. لمَ تخافون.. وهنا صاحب نجدة الحقيقي لا يشكو ولا يتذمر.. أليس كذلك يا كامران؟

كانت فريدة تترك طفلاً لتأخذ الآخر.. تلاعب الجميع وترضيهم. وألقت أخيراً (أكبر طفلة لكن أقلهم جرأة وشجاعة) من الارجوحة بعدما جعلتها تصرخ خائفة.. نزلت نرمين وقد تبعثر شعرها واحمر خدها فنزلت فريدة بعدها والعرق يتصبب من

جبينها وقد التصق شعرها المبعثر بخديها المحمرتين تفرك يديها المتورمتين من شد الحبل... فقالت:

أظن بأنه لم يبق أحد من الاطفال لم يتأرجح.

فقال كامران بتردد: أنسيتني يا فريدة؟

ابتسمت فريدة ابتسامة شاحبة دون ان تقوى على الاجابة بنعم او لا.. قبضت على الحبل تعاينه وتعاين الغصن بعينيها تنتظر تشجيعاً وأخيراً قالت:

كيف يكون ذلك لا ادري.. أخشى ان لا يحملنا الحبل معاً.. أليس كذلك يا كامران؟

مسكت مزكان بالحبل وحملقت بعيني كامران وقالت:

المسألة ليست مسألة الحبل.. لكن فريدة تعبة منهوكة.. تأمل حالتها يا كامران.. أظن بأنه لا يجوز ارهاق امراة اكثر من هذا.

كانت فريدة تقول في اول الامر: لا بأس.. ما أهمية ذلك.

لكنها أدركت قصد مزكان فأخفضت راسها كطفل مذنب وقالت بصوت خافت:

ـ نعم! في الواقع انا متعبة جداً.. ويحتمل كثيراً ان امرض من جراء هذا التعب.

قالت ذلك وقد انطفأت جذوة المرح من عينيها وبان عليهما التعب.. فقالت مزكان على مهلها وهي لا تزال تنظر الى وجه كامران:

ـ انت عديم القلب اكثر مما أتصور يا كامران.

فسألها بنفس الصوت الخافت وهو يخشى ان يسمعه احد:

ـ لماذا؟

اضطرته مزكان ان يسير معها في الحديقة بعيداً عن فريدة ثم قالت:

ـ ألا ترى وضع المسكينة؟ ألم تكتف بما حدث.. حطمت قلبها وحياتها. فماذا تريد بعد ذلك؟

ـ مزكان..

ـ لم يفكر احدنا ان يفتش عنها خلال هذه السنين الطويلة التي مرت... فلم تطق صبراً على الفراق.. تناست ألمها.. ضمدت جراحها بدموعها.. وعادت إلينا.. عندما

جاءت إلينا كانت الجراح آخذة في البرء تكاد تندمل.. لكنك لم تتورع من فتح جراحها وإيلامها ثانياً.

كانت مزكان مسترسلة في كلامها بألم وقد ترقرق الدمع في عينيها:

أخشى عليها من الوحشة التي ستشعر بها غداً عندما تذهب من هنا.. نعم يا كامران.. ان فريدة ذاهبة غداً.. استعدت لذلك واتمت كل شيء. لم أعلم بذلك قبل الآن.. لأنها لن تشأ اعلامي بذلك. اخفت ذلك عني كما تخفي كل شيء يخصها عني.. لم تشأ هذه المرة ان تفتح لي قلبها.. سألتها السبب لقرارها الفجائي فحدثتني عن كتاب وصلها من زوجها وانا واثقة بأنه سبب مختلق لا صحة له. ان فريدة تهرب منك لأنها اصبحت لا تقوى الاحتمال اكثر مما احتملت. هناك مطلب أطمع فيه منك يا كامران وهذا ما عدا بي ان اتحدث إليك بكل هذا.

ان فريدة تملك قدرة خارقة على ضبط شعورها والتحكم بأعصابها ونفسها.. ولكن مهما أوتيت من قدرة فهي امراة. ان لفريدة دين عليك.. أعد إليها بعض الدين بان تكون هادئاً او ساكناً يوم الفراق والسفر.. اسع جهدك اخدم المرأة التي حطمت حياتها في الماضي.

اصفر كامران وترقرق الدمع بعينيه فقال:

ـ أراك تتحدثين كثيراً عن الضيم الذي لحق بفريدة.. ولا تقولين شيئاً عني.. الم أصب بشيء..؟

ـ أنت السبب بكل ما حدث.

ـ لا تكوني قاسية بحكمك الى هذا الحد يا مزكان.

ـ هل تفكر بانني اقف مكتوفة اليدين وانا اشعر بأن هناك إمكان الإصلاح؟.. سبق السيف العذل وما باليد حيلة لما كان.. لا تنسى ان فريدة اليوم زوجة رجل آخر.. فالمسكينة مقيدة.. وليس بالإمكان الإتيان بأي عمل.. علينا ان نرضخ للواقع.

مضى الهزيع الاول من الليل.. نام اهل القصر منذ زمن طويل.. خرجت مزكان من غرفتها وقد تدثرت بشال خفيف وبيدها الشمعدان.. سارت على أطراف أصابعها نحو غرفة كامران.. لم تكن بالغرفة حركة او ضياء.. لمست الشابة الباب.

فوجئ الجميع بسفر فريدة في اليوم التالي.. لكن أحداً لم يتحدث بذلك. تناولوا طعام العشاء بحزن وسكون واخذ عزيز بك الذي بان عليه الكبر كثيراً هذه الليلة يداعب كتفي فريدة التي جلست بجانبه يجذبها من ذقنها بين الحين والآخر ويتطلع الى عينيها ويقول:

آه يا عصفورة السياج... سببت لي الهم والكدر في شيخوختي.

انسحب الجميع مبكرين الى غرفهم لا ليناموا بل لينفردوا بحزنهم وألمهم.



مضى الهزيع الاول من الليل.. سكن القصر منذ زمن طويل.. خرجت مزكان من غرفتها تتشح بشال خفيف وتقبض على الشمعدان تستنير بنوره.. سارت على أطراف أصابعها نحو غرفة كامران.. لم تكن بالغرفة حركة او ضياء.. لمست الشابة الباب على مهلها وقالت بصوت خافت يشبه الهمس:

ـ كامران.. كامران.. هل نمت يا اخي؟

فتح الباب بسرعة ولم يكن كامران قد خلع ملابسه بعد. رأت على ضوء الشمعة الخافت شحوب وجهه وذبوله. كان يخفض عينيه كأنه يخشى الضياء ان يرهق عينيه.

ـ ألم تنم بعد يا كامران؟

ـ ترين حالتي.

ـ لم أطفأت النور؟

ـ لأن عيني تحترق من النور هذه الليلة.

ـ ماذا تعمل في الظلام؟

فأجاب وهو يبتسم بمرارة وألم: لا شيء.. أسعى لأجتر يأسي وشقائي. ولكن انت ما الذي أتى بك إلي في مثل هذه الساعة؟ ماذا تريدين؟

أجابت مزكان وهي تسعى لضبط أعصابها:

- هناك حوادث اضطرارية.. لا تقلق يا كامران.. تمالك نفسك وتشجع سأسردها عليك.

دخلا الغرفة ووضعت مزكان الشمعدان على الارض. ثم أغلقت الباب على مهل لا تدري من أين تبدأ الحديث. تسعى جهدها لضبط نفسها.. واخيراً قالت:

أرجوك... تشجع يا كامران... سوف لا أحدثك بخبر سوء.. بل بالعكس انه خبر مفرح سار للغاية.. لكنني اخشى عليك من اضطرابك.

بينما كانت الشابة تسعى لتهدئته وتطييب خاطره.. كان الدمع يترقرق في مآقيها ويرتعش صوتها: كامران! جاءت إلي فريدة قبل هنيهة ولم تكن طبيعية في حركاتها... فقالت:

مزكان! انت الوحيدة التي استطعت ان أطلعك على خبايا نفسي وقلبي في هذه الدنيا.. وليس لي احد اقرب منك. اريد ان استودعك سراً أرهق كاهلي.. عديني ان تحتفظي به حتى الغد.. لا تقوليه إلا بعد سفري. عندما جئت إليكم فجأة في احد الايام استغربتم ذلك.. فقلت لكم بأنني لم أعد أطيق صبراً على فراقكم.. هذا صحيح.. لكنه ليس بالسبب الحقيقي. جئت إليكم لأنفذ وعداً قطعته على نفسي قبل ثلاثة أشهر لشخص أحببته كثيراً.. وعدته وهو يحتضر... فكيف أحنث بوعدي؟. اضطررت ان أكذب عليكم يا مزكان.. انا امرأة أرملة الآن.. توفي زوجي بمرض السرطان قبل أشهر ثلاث. كانت فريدة تقول ذلك وقد اسندت رأسها على كتفي تبكي بكاء مراً. لم تستطع الانقطاع عن البكاء فاستمرت على القول وهي تبكي: ناداني طبيبي إليه يوم وفاته وقال: فريدة! لا أخاف عليك العوز والفاقة بعد الآن.. لأن مالي سيبقى لك لأنك زوجتي.. وهذا يكفي لامرأة مثلك ان تعيش به عيشة رغد وهناء.. لكن هناك شيء آخر يا فريدة.. ليس من السهل ان تعيش سيدة

وحدها حتى ولو كانت غنية.. فالعطف والحنان شيء.. والمال شيء آخر.. ولذا أردت ان أموت مستريحاً يا فريدة.. اقسمي لي.. اقسمي ان تعودي الى أهلك في استانبول بعد موتي.. وان لم تشائي البقاء عندهم ابقي شهرين او ثلاث على الاقل بينهم.. ان مشاغل الدنيا كثيرة من يدري.. ربما جد لك أمر احتجت لمساعدتهم في احد الايام.. او شعرت بحاجة للعطف والحنان العائلي.. والحاصل يا فريدة.. ان تأكدت من قبول وعدك وعودتك الى أهلك مت قرير العين مرتاح البال.. أرجوا ان لا تدعي عيني تبقى خلفي بعد الموت.

قلت له بأنني سأنفذ له ما يريد.. وكنت أبكي واذرف الدمع السخين.. لكن الدكتور لم ير هذا كافياً لأنه لا يريدني أن أصالح خطيبي القديم ويقول لي بأنه في الإمكان ان يكون لي أخاً بعد الآن.. فلذا أعطاني ملفاً مغلقاً وممهوراً وطلب مني ان اسلمه بيدي لكامران... وقال:

ان هذا الملف كتاب قلب حزين أثار يوماً أشجاني.. ولذا اردت ان يقرأه خطيبك.. اقسمي بأن تسلميه له بشكله تماماً دون ان تجربي الاطلاع عليه.

هذه هي الحقيقة يا مزكان.. اصبحت تعلمين كل شيء الآن. كان الدكتور رجلاً نبيلاً وكريماً.. ظن بأن هناك دواء وسلوى لقلبي المحطم ان عدت الى أهلي.. لم يفكر بان هذا أمر صعب على نفسي. بعدما أودعت طبيبي الى مؤنسة.. جئت الى استانبول.. والذي علمته هناك صعّب عليّ أمر تنفيذ الوصية. علمت في استانبول بوفاة زوجة كامران وبعدها علمت بأن هناك إشاعات سيئة أشيعت ضدي. فلو كانت زوجة كامران على قيد الحياة لكانت ضيافة امرأة أرملة مثلي عند أهلها بضعة أيام أمراً طبيعياً.. الحالة بالعكس.. وانكم جميعاً حتى كامران وانت يا مزكان انت التي تعلمين الكثير عن قلبي ماذا تفكرون بي؟ كم تسؤون بي الظن تقولون.. عاشت وحدها سنيناً.. وحدث لها ما حدث من الوقائع.. ومن يعلم بأي ثمن بخس باعت نفسها لذلك العجوز. ولكن ما ان سمعت باستعادة خطيبها القديم لحريته... حتى عادت إلينا بتلك

الحسابات الدنيئة ناسية لعنات الغضب التي صبت عليها عندما فارقت هذا العش منذ عشر سنين.. ان أرحمكم قلباً سيتمنى قتلي ولا يشعر بأي رحمة تجاهي.

كانت مزكان تتكلم بحرارة واضطراب يتزايد مع الكلام...

ـ آه يا كامران! لو سمعت فريدة كيف كانت تسرد لي حكايتها وهي تبكي.. بالأخص عند أوشكت تنتهي من قصتها.. سوف لا أنسى كلماتها الى الأبد سأتذكر وصفها بألم شديد عندما قالت:

ـ آه يا مزكان.. ليس بوسعي ان اشرح لك بأي شعور هربت من عشي العائلي. ولا التعاسة التي منت فيها.. وأي ألم ساحق ملأ حياتي وأي داع قاهر جبار اضطراني للزواج.. انني يا مزكان.. امرأة وصلت للخامسة والعشرين من عمرها.. وقضت العشر السنين الاخيرة بعذاب مستمر.. قضت قسماً منها بالحوادث والمفاجآت والقسم الاخير بدار زوجها. ستسخرين ولاشك ويسخر الجميع معك ان قلت بأنني امرأة لم يمس جسمها رجل بشفتيه.. وربما سقطت من اعتبارك. بل ربما قلت بأنني مجنونة.. ألا تقولين عن ذلك بأنه كذب وادعاء؟. كيف أثبت لكم ذلك؟ لا استطيع ان أزيد شيئاً على ما قلت.. وانني لا اعرف محتويات الملف الذي تركه الدكتور لكامران.. ربما فيه شيء لا يمكن ان يكون.. لا تسألي عن العذاب الذي أقاسيه وانا على أهبة القيام بتنفيذ وصية الدكتور الاخيرة. انني فقدت كل قوة وشجاعة فلذا أرجو ان تسلمي هذا الملف لكامران بيدك بعدما اركب الباخرة ليطلع على محتوياته بعدما أكون بعيدة.

سكتت مزكان.. كانت تبكي كالاطفال.. تلك المرأة الهادئة التي يخيل لمن يراها بأنها لا تعبأ بشيء ولا يستفزها أي حادث لمَ تبكي الآن؟ وأي شعور يبكيها؟. بعدما شعرت ببعض السكون بعد البكاء مدت يديها المرتجفتين نحو كامران وقالت باضطراب:

ـ سوف لا تتركها بعد الآن يا كامران.. وان اقتضى الأمر ستتبعها قسراً.. كيفما كانت الحوادث وكيفما كان الماضي يجب ألا تفترقا بعد الآن. عليك ان تتحمل كل شيء طمعاً بسعادة كليكما.

ان هذا الأمل الكبير بالنسبة لهذا الشاب الخيالي الذي غذى روحه المريضة بالأحلام الذهبية حتى الآن كان كمخدر قوي المفعول.. خدر أعصابه فبات كأنه في حلم. ينظر حوله في الظلام بعيني من استفاق من إغماءة طويلة.. لا يقوى على التفكير.. يحرك جفنيه بحركة عصبية لا يدري لها سبباً.

أخرجت مزكان ملفاً ممهوراً بالشمع الاحمر من تحت شالها وقالت:

ـ هاك الملف استلمه يا كامران.. ولا بأس عليَ من الحنث بالوعد. ثم أخذت تستعد للخروج تصلح الشال على كتفيها. حال كامران دون خروجها قائلاً:

ـ لي رجاء يا مزكان.. انت الوحيدة التي اطلعت على مأساة قلبينا الحزينة.. فلذا اسمحي ان نفتح الملف معاً.. لنطلع على محتوياته سوية.

بينما كانت مزكان تضيء المصباح، فتح كامران الملف فظهرت منه رسالة مدونة بخط عريض ومعنونة باسمه.. معها غلاف كبير.. أخذ يقرأ الرسالة:

ابني كامران بك!

قضى الرجل الذي كتب لك هذه الرسالة قسماً من حياته بين الكتب، وأوقف النسم الآخر لتضميد جراح الانسانية المعذبة والمتطاحنة لتنازع البقاء.. سيصلك كتابه بعد مدة من رحيله عن هذه الدنيا الفانية. ان أمله وتلهفه لخدمة مخلوقة أحبها كثيراً جعله يستسيغ التعب الذي لاقاه لكتابة هذه السطور في ساعاته الاخيرة فاسمع:

صادفت في احدى الايام وفي زاوية بيت مهجور من قرية نائية شابة صغيرة استانبولية، براقة كالضياء، وحلوة كالحلم. بماذا تشعر لو فتحت نافذة غرفتك في ليلة مكفهرة الظلام (ازداد صقيعها بالثلج الذي ينزل من السماء) وسمعت صوت البلبل يغرد في ذلك الظلام؟ خالجني نفس الشعور في تلك اللحظة.. أي سوء طالع ألقى بهذه الفتاة النضرة الراقية في خرائب هذه القرية الموحشة؟ بينما كانت روحها

تئن وتضطرب، كانت شفتاها تبتسمان.. كانت تسعى لإغفالي بأحاديث التضحية وحب الوطن. يا لها من طفلة مسكينة.. أأنا عاشقك الأبله الذي تركته في استانبول لأصدق ما تدعين؟. ان عينيها حالمتان كعيني طفل لم يشبع نومه.. وحركاتها تنم عن جهل لما يدور حولها.. وشفتيها المرتعشتان لقبلات خيالية وافتقارها للحب والحنان.. أفهمتني كل شيء.

كثيراً ما كنت أذكر (قيس) الذي انطلق في الصحاري والقفار يفتش عن (ليلاه) في الاساطير القديمة لكنني تركت ذكراه بعد ذلك اللقاء وأخذت أفكر بك يا (ليلى) الصغيرة المعصومة التي تفتشين عن حلم غرامك بين مقابر هذه القرية الموحشة النائية.

التقيت بها ثانياً بعد انقضاء عامين على اللقاء الاول.. لم يكن الداء قد توقف.. ما زال ينخر باستمرار في جسمها المسكين. آه! لم لم أضعها خلفي على الفرس عندما رأيتها اول مرة؟ لمَ لم أحملها قسراً الى استانبول؟ أعيدها الى دارها وذويها.. حقاً انها حماقة لا يمكن غفرانها.

لقد فات الأوان.. لأنك تزوجت.. فلذا كنت أقول لنفسي: انها شابة.. عسى الايام تنسيها جراحها.. لكن هذا الدفتر الذي وقع بيدي خلال مرضها جعلني أدرك مدى حزنها وألمها.. فأفهم مدى تعلقها وارتباطها بعشيقها. كانت تدون حياتها وشعورها كاملين في هذا الدفتر.. ما ان قرأته حتى قطعت كل رجاء من شفائها. كم كنت أريد التخفيف عنها.. لأنني اشعر لها بحب لا أفرقها عن ابنتي لو كان لي بنتاً. لكن فساد البشر وسوء نيته لم يتيحا لي القيام بأي عمل.. فكرت لحظة ان أزوجها من شخص طيب انتقيه لها.. ولكنني خشيت لما في ذلك من خطر. إذ كيف يمكن لزوجها ان يتسامح معها ويستغني عن حبها ويسكت عن انشغال قلبها بغيره؟ وان كانت طفلتي خلقت للحب.. إلا انها كانت تحتضر وتموت من الحب أيضاً. ولذا كان حب شخص غريب والتآلف لأمر صعب شديد الوقع على نفسها المعذبة.. حتى يمكنني القول بأنه مستحيل ولو من قبيل التمثيل. ربما عجل عليها فقتلها.. كيف تستطيع تمثيل الحب

بين ذراعي شاب تهوى غيره؟. لم أر في آخر الأمر علاجا أنجع من عقد نكاحي عليها حرصاً على سمعتها وكرامتها وضناً عليها مما قاست وتقاسي.. أدافع عنها ما حييت.. وتعيش بعد موتي بما أتركه لها من أملاك. إذ ان حياتها بعد موتي أرملة ذات مكانة أفضل بكثير من عيشها عذراء تلوك الألسن سمعتها. وفكرت بأكثر من ذلك.. ربما تصل الى ضالتها المنشودة يوماً ما.. لأنني لا أؤمن بالمستحيل في هذه الحياة.. خاصة وفاة زوجتك أحيا في نفسي الأمل وقواه.. بل بعثه من جديد. كنت استقي أخباركم باستمرار.. يحتمل ان يكون وفاة زوجتك قد حز في نفسك وألمك.. ولكن ان قلت لك بأنني شاركتك هذا الألم أكون كاذباً.. كنت افكر بتدبير مناسب. فكرت لحظة ان أطلق فريدة من عقد خادع مزيف وأرسلها إليكم.. لكنني لا ادري لم خشيت من تقولات الناس.. رغم انني لا كنت أعير الناس اهتماماً. ومرضي اشتد خلال هذه المدة فأدركت بأن المسألة ستحل من نفسها خلال شهور قليلة. ولا ادري ان كان هناك داعيا لزيادة الايضاح؟.. ها انا ارسل إليكم فريدة بحجة واهنة.. لا أشك بتسليمها كتابي ليدك بالضبط.. لأنني جربتها وتعلمت طباعها جيداً.. انها طفلة غريبة.. ربما تقوم بأعمال صبيانية.. لا تدعها تفلت منك ولو ماتت. وان اقتضى الأمر كن فظاً غليظاً مثل الرجال الذين يهربون النساء في الجبال. وتأكد بأنها لو ماتت بين أحضانك فانها ستموت من فرط سعادتها. اريد ان أصارحك بأنني اقوم بهذه الخدمة دون ان افكر قيد شعرة بك.. لأنني لا أؤمن بتسليمك هرة داري فكيف أسلمك شابة نقية طيبة مثل فريدة نادرة المثال عن طيب خاطر.. ولكن ما العمل؟ وليس بالإمكان إفهام بنات الجيل المجنونات.. لا ادري ما الذي يستهويهن بشبان جاهلين وعديمي قلب أمثالك؟.

المرحوم - خير الله -

حاشية: يوجد في الغلاف دفتر فريدة.. أخفيته العام الماضي مع الصندوق الذي يحتويه عندما نقلنا دارنا الى المزرعة.. بداعي انه ضاع بيد الحمالين. شعرت بأنها تألمت كثيراً لضياعه.. كم أحسنت صنعاً باعتقادي ان هذا الدفتر يفيدنا في احد الايام.

❋

كان الصبح قد انبلج والطيور تزقزق على الاشجار عندما انتهت مزكان وكامران من قراءة دفتر فريدة.

وضع كامران رأسه المكدود على صفحات الدفتر المصفرة وأخذ يقبل كلمات المحنة التي أوشكت ان تنمحي عن الورق. أتت مزكان بحركة خفيفة وهي تغلق الدفتر. قربت غلافه الازرق من المصباح.. دققته باهتمام ثم قالت:

ـ لم ينته الدفتر بعد يا كامران.. هناك سطور مكتوبة على الغلاف.. لكن لون الحبر أزرق من لون الغلاف فلذا يصعب على المرء رؤيته وقراءته بسرعة.

رفعت المصباح وقربا رأسيهما يقرءان بصعوبة ما يلي:

صرت بالأمس عروساً.. تركت نفسي كالورقة في مهب الريح.. أعمل كل ما يطلب مني ولا أعترض على أي عمل.. حتى انني رضيت ارتداء الملابس البيضاء التي جاء بها الدكتور من ازمير. ولم أعارض على وضع أكليل زهر الليمون على شعري كالعروس السعيدة.. إلا انني أغمضت عيني عندما قربوني من المرآة الكبيرة كيلا أرى نفسي.. هذا هو التمرد الذي صدر مني في يوم عرسي.

جاءت الكثيرات للتفرج عليّ.. وكانت بينهن البعض من زميلاتي في التدريس.. كنت لا اسمع ما يقال إلا انني كنت ابتسم بشفاه مرتعشة لكل شيء.. فقالت احدى العجائز على مسمع مني:

ما أعظم طالع العجوز... أصاب الهدف بعينه.

جاء خير الله بك الى الدار وقت العشاء. كان يرتدي بذلة سوداء تعتصر جسمه المترهل كالمشد. وقد أعوج رباط رقبته ذا اللون الاحمر الفاقع.. فلم استطع ضبط ابتسامة انفرجت عنها أساريري رغم ما بي من ألم وشقاء. افتكرت لحظة بأنه لأمر شائن ان أترك هذا الرجل الطيب موضع سخرية ولذا ألقيت برباط رقبته الاحمر جانباً وعقدت له آخراً مناسباً.. كان يضحك قائلاً:

ـ مرحى يا صغيرة... شكراً لك ما أحسنك! انت سيدة بيت بكل معنى الكلمة.. أترين فضائل الزواج بشابة صغيرة مثلك؟

تفرق الضيوف... وجلسنا قبالة بعضنا على الطاولة في غرفة الطعام فقال:

يا صغيرة! أتعلمين لماذا تأخرت هكذا؟.. قمت بزيارة واجبة.. أودعت ضريح مؤنسة بعض الازهار وإكليلاً من زهر الليمون.. مثل الذي زينت به شعرك.. ام تجرأ المسكينة ان تقول أمامك.. لكنها كانت لا تنفك عن القول كلما خلت بي: (عندما تصير أختي عروساً، سأتزين مثلها بزهر الليمون). كنت سأضع للمسكينة بيدي الزهر في شعرها الاشقر... ولكن الموت عاجلنا... فاختطفها من بيننا.

لم استطع ضبط نفسي عندما سمعت بذلك. فأدرت رأسي نحو النافذة وبكيت بعيني اللتين تقرحتا من الحزن والآلام.

قضينا الساعات الاولى من السهرة كالمعتاد في غرفة الطعام. وضع خير الله بك نظارته على عينيه وكتاب (روسو) على ركبتيه وقبع في احد الأركان... بعد مدة قال:

يا عروس.. وان كان لا يصح للعريس ان يقرأ الكتب في ليلة عرسه.. ولكن اعذريني.. لا تخافي... الليالي طويلة.. سأجد وقتاً لقراءة العشق والغرام للعروس الصغيرة.

أحنيت رأسي على منديل بيدي اشغل نفسي في حياكة أطرافه ولم أبد حراكاً. آه من هذا العجوز.. أحببته كثيراً في الماضي.. لكنني الآن أنفر منه وأمقته. الآن اتضح لي بأنه كان ينظر إليّ بعينيه البريئتين وهو يحتمل الزواج بي... ولم يكن حنانه علي وعطفه في ايام محنتي عندما كنت أضع رأسي المثقل بالهموم على كتفه سوى استعداد.

أخيراً وضع الدكتور الكتاب على المنصة ثم تثاءب قائلاً:

والآن هيا يا عروس.. حان وقت النوم.. هيا بنا.

ثم وقف ووقفت فسقط المنديل والخيوط.. أخذت الشمعدان عن المنصة.. واقتربت من النافذة بحجة إغلاقها. فتطلعت الى الظلام اللامتناهي. كانت فكرة الهرب من هذه الغرفة تراودني والانطلاق في الطرقات المظلمة الطويلة يهون علي عندما قال الدكتور:

- أراك شاردة يا عروستي هلمي الى الطابق الأعلى.. سأتبعك بعد ما أحدث (الشاويش) قليلاً.

خلعت المرضع الملابس عني تساعدها جارة عجوز.. وأعطيتاني الشمعدان ثانياً.. ثم أرسلتاني الى غرفة زوجي. ما زال خير الله بك في الطابق الاول.. كنت واقفة قرب الخزانة وقد عقدت ذراعي حول صدري كأنني أتقي بهما البرد... ارتجف بشكل يهتز له الشمعدان فيحرق شعري بناره بين الحين والآخر. أخيراً وصلت وقع أقدام خير الله بك على السلم ثم في البهو.. وسمع صوته يتمتم أغنية. دخل الغرفة وهو يخلع سترته وعندما رآني قال كأنه صعق من الدهشة: أما نمت بعد يا بنت؟

فتحت فمي لأجيبه، لكن أسناني اصطكت ببعضها. اقترب مني ونظر الى وجهي باستغراب ثم قال:

- ما هذا؟ ماذا تريدين مني؟ لم انت في غرفتي؟

ثم رن صدى قهقهته في الغرفة وتابع قوله:

- يا بنت! انتبهي.. لا تعودي ثانياً الى غرفتي.

لم يستطع متابعة الحديث من فرط الضحك.. كان يضرب بيديه على ركبتيه.. وأخيراً أخذ أصابعه نحو فمه وقال:

- إذا جئت الى هنا ثانياً، ها! ها! الآن فهمت... فكرت بأننا أصبحنا زوجين حقيقيين، أف لك يا ماجنة!. جزاك الله.. هل تتزوج شابة رجلاً بعمر والدها؟

كانت الغرفة تدور بي.. والسقف يكاد يخر على رأسي عندما عض على أصبعه وقد احمر خجلاً وقال:

ـ آه منك! يا خبيثة... ألم تخجلي من دخولك عليّ بغلالة النوم؟

كنت أتمنى رؤية وجهي في تلك اللحظة.. الله أعلم باللون الذي استحال إليه وجهي. وأخيراً تشجعت وقلت:

ـ يا دكتور.. ما ذنبي؟ اقسم لك بأنني طبقت ما طلب مني.. ليست فكرتي.

ـ هيا اخرجي.. ان اخطأوا مالي ولهم... اما انت.. لم يخطر لبالي قط ان تتجاوز حرمتي بعد هذا السن فتاة صغيرة مثلك.

آه! يا إلهي ما افظع هذا... كنت أعض على شفتي حتى أدميتها.. تمنيت لو انشقت الارض وابتلعتني. كلما تحركت ازداد شره المصطنع.. وأخيراً هرب نحو النافذة وستر رقبته بطرف قميصه وقال:

ـ ابتعدي عني يا بنت.. أصبحت على وشك ان افتح النافذة وأصرخ: الحقوني يا ناس.. بعد هذا العمر تنتهك فتاة.

لم اسمع نهاية حديثه... لأنني هربت.. لكنني لا ادري لمَ عدت الى الغرفة وصحت بدافع من داخلي يضطرني احياناً للإتيان بأعمال لا ادري سببها:

ـ أبتاه!... أبتاه.. .

ثم ارتميت بين أحضانه انتحب وأبكي.

فتح ذراعيه وبنفس الحنان والمحبة:

بنتي... آه يا طفلتي.

لن أنسى ما حييت تلك القبلة الأبوية التي طبعها على جبيني في تلك اللحظة.



عندما عدت الى غرفتي كنت أضحك وأبكي بآن واحد... كنت أضج بالحركة لدرجة ان الدكتور ضرب الحائط قائلاً:

- احذري يا بنت، ما هذا الصخب؟ سيلقي الجيران تبعة ضجيجك عليَ.. سيقولون بأن العجوز لم يترك العروس تهدأ حتى الصباح.. على كل لم يكن ضجيجه بأقل من ضجيجي. كان يدور في الغرفة قائلاً:

عفتي، عرضي، بأمانتك يا رب من بنات آخر زمان... .

ربما استيقظنا عشر مرات في تلك الليلة... وهو في غرفته وانا في غرفتي.. نزعج بعضنا بضرب الحائط وتقليد الديكة والعصافير والضفادع.



لم تستطع فريدة النوم قبل الفجر.. وعندما استيقظت شعرت بأنها مرهقة تعبة اكثر من قبل النوم. كانت الشمس قد انتصفت في كبد السماء.. والساعة تجاوزت الحادية عشر. ألقت بنفسها في السرير بسرعة طفلة تأخرت عن المدرسة.

كانت مزكان مشغولة بعمل في البهو فقالت لها فريدة بصوت عاتب:

- مرحى لك يا مزكان.. لمَ تركتني أغط بالنوم وأتأخر في يوم سأسافر فيه؟

فأجابت مزكان ببرودها المعتاد:

- جئت مراراً لغرفتك ورأيتك تغطين بالنوم الهادئ فلم استحسن ازعاجك. لست متأخرة بالشكل الذي تخشينه.. وأظن بأن وصول الباخرة اليوم أمر مشكوك فيه.. في البحر نوء شديد.

- ليكن سأسافر حتماً.

- وأنا قلت ذلك لأبي.. ذهب الى الميناء.. لينجز أعمالك... وقال: لتتهيأ... ان جاءت الباخرة أرسلت العربة.. او جئت لآخذها.

لم تفكر فريدة ان يكون يوم وداعها بسيطاً مثلما كان.. مزكان مشغولة بطفلتها.. الخالات يتحدثن بسرور مثل كل يوم. ان هذا الوضع أحزن فريدة.. وجرح قلبها...

وأين كامران؟

قالت مزكان على مهلها خلال الحديث:

ـ فريدة.. أحببت خدمتك.. وتوفقت لإبعاد كامران عن الدار. قام بهذه التضحية خشية الزيادة في إيلامك.

ـ هلا يحضر أبداً؟

ـ أظنه سيحضر لوداعك على الباخرة. لا شك انك مسرورة الآن.

كانت سارحة، تفكر ترتجف وهي تضغط على صدغها. وأخيراً قالت:

ـ طبعاً.. نعم ما فعلت.. أشكرك.

عندما كانت تعلن شكرها لمزكان بكلمات مقتضبة كانت تشعر بداخلها موت صديق الطفولة الى الأبد.. وانها لن تعود إليه قط.

عندما هموا بالجلوس الى الغذاء وصل خبر من أحد الكروم بأن الجيران أقاموا حفلة قبل نزوحهم عن الكرم الى قصور الشتاء وإكراماً لفريدة لتكون لها بمثابة ذكرى قبل سفرها.

كانت فريدة تقول: كيف يكون ذلك؟ سيحضرون لأخذي.

فقالت الخالات: عيب يا فريدة.. المسافة لا تبعد اكثر من مسيرة خمس دقائق.. على كل انت على استعداد.. ارتدي ملاءتك من الآن.

اخفضت بصرها دون ان تنظر الى وجه الخالات اللواتي كن لها بمثابة نصف أم. ولكنهن رغم ذلك لا يبدين أي اهتمام لفراقها حتى ولو بنسبة هرة الدار المريضة.. ثم قالت:

ـ حاضر.. ليكن ما تريدون.

قاربت الساعة من الثالثة فقالت فريدة لمزكان وهي ترقب الطريق:

ـ هناك عربة آتية يا مزكان.. أظنها لي.

ـ لا أظن لأن الميناء خال من البواخر .

ولكن ظهرت في تلك اللحظة باخرة آتية نحو الميناء فصرخت فريدة بجزع:

ـ ها هي الباخرة آتية.

ساد الكرب والاضطراب الجميع.. تراكض الخدم بالمعاطف وقالت فريدة لخالاتها سأسبقكن.. تأتين بعدي على مهل.

ثم أخذت تركض تتبعها مزكان من طريق بين الكروم.. تقفزان عن الأسوار المنخفضة حباً باختصار الطريق التقيا بالطباخ أمام باب الحديقة فقال لهما:

كنت آتيا إليكما... لأن سيدي حضر العربة وطلب مني إحضاركما.

استقبلهما عزيز بك وكامران في بهو الطابق الثاني... وأشار عزيز بك الى الغرفة قائلا:

- جاء ضيفان ثقيلان... لا تحدثا ضجة من فضلكما.

ثم أخذ يتأمل فريدة وقال:

- ما هذه الحالة يا آنستي الصغيرة؟.. أراك تلهثين تعباً.

- الباخرة آتية... فلذا أسرعت.

اقترب منها عزيز بك ضاحكاً وقبض على ذقنها يتطلع الى وجهها وقال:

- الباخرة آتية.. لكنها لا تنفعك.. لأن زوجك لا يرضى بسفرك.

ارتدت فريدة مذعورة الى الوراء وقالت بدهشة واستغراب:

- ماذا تقول يا صهري؟

فقال عزيز بك وهو يشير باصبعه نحو كامران:

- هذا لا يعنيني... هاك زوجك يا ابنتي.

اخفت فريدة وجهها بيدها بعدما ندت عن فمها صيحة خفيفة. كادت تقع على الارض.. لكن يداً قوية قبضت على رسغيها... فتحت عينيها فرأت كامران بجانبها.

قال عزيز بك بقهقهة وسرور:

- ها! ها! وأخيراً دخلت القفص يا عصفورة السياج... هلمي لتري.. انتفضي واهربي بعد الآن لنرى كيف يكون ذلك.

كانت فريدة تود ستر وجهها لكنها لا تجد مكاناً غير صدر او كتف كامران... فقال عزيز بك بنفس السرور:

نصبت الشباك حولك يا عصفورة السياج.. ان مزكان الخائنة باعت أسرارك.. رحمه الله رحمة واسعة.. أرسل المرحوم دفترك لكامران. فما ان وصل الدفتر ليدي أخذته

للقاضي وأريته بعض الفقرات التي خطها قلمك.. عقد القاضي نكاحك بناء على كتابتك للحال. أتفهمين يا عصفورة السياج؟ هذا الرجل أصبح زوجك.. لا أظنه يفلتك مرة اخرى.

احمرت فريدة وتصاعد الدم لوجنتيها وطار الشرر من عينيها لكنها لا تبدي حراكاً.

ـ هلمي يا عصفورة السياج.. كفاك دلالاً... نراك تذوبين من فرط السعادة.. هيا قولي: لا بأس من عملك يا صهري.. كنت اريد ذلك..

واخيراً أجبرها عزيز بك ان تقول ذلك... ثم فتح باب الغرفة وقال ضاحكا منتصراً:

ـ انا حائز للوكالة الشرعية يا سيدي.. عصفورة السياج.. عفواً باسم فريدة هانم أتزوج كامران بك هذا... اقرأوا الدعاء ونحن نقول الآمين من هنا.

ثم قال لفريدة: كيف يا عصفورة السياج؟ لعبنا بطولك الذي يقدر بطول الأصبع سنيناً طويلة أليس كذلك؟ أرأيت كم نوعاً من الحيل لعبتها عليك؟

كان صوت الاطفال آتياً من الحديقة عندما قال عزيز بك:

ـ والآن يطول الوقت بالتهاني وتقبيل الأيادي... لندع ذلك الى المساء. سأجهز بيدي مائدة عرس مدهشة.. هلم يا ابني لا فائدة لكما من الثرثرة... لا بد من اشياء تودان شرحها. اهرب بزوجتك من السلم الخلفي الضيق هذا.. وابتعد بها كيفما تريد.. وعندما تشاءان تعودان إلينا.

بينما كان كامران يهرب بفريدة يكاد يطير بها لحقت بهما مزكان فقبلت الصديقتان بعضهما وهما تتباكيان. هز عزيز بك يده بطور خطيب... ماسحاً انفه يخفي الدموع من عينيه وقال:

ـ أي عصفورة السياج! يا من سرقت (كرزي) لقد أزفت الساعة التي تعطين فيها الكرز لغيري. هلا أعطيتينها مرة نصفي الحساب بعدها؟

ثم اختطف الشابة من بين ذراعي كامران الذي يقبض عليها بكل ما أوتي من قوة وقبلها ثم أعادها الى أحضانه وقال:

ـ خلصناك الليلة من دوار البحر وعاصفته.. ولكن يخيل إليَ بأن العاصفة الصفراء أشد وأقوى بكثير من تلك التي خلصناك منها. أعانك الله يا عصفورة السياج.

كانا يهبطان السلم الضيق كأنهما يطيران. أحاط كامران خصر فريدة بذراعه يشدها إليه بشكل يكاد يمنعها عن التنفس.. يؤلم أصابعها بالضغط عليها بيديه.

علق ثوب فريدة في ناحية من السلم فتوقفا لحظة يلهثان.. وبينما كانت الشابة تحاول رفع أثوابها قال كامران بصوت خافت يشبه الهمس:

ـ فريدة.. أحقاً أصبحتِ زوجتي؟ أكاد لا اصدق. انا بحاجة لاستماع ذلك من فمك.. ليطمئن قلبي.

ثم اخذ فريدة لأحضانه فكانت ترتعش كالاطفال عندما يذعرون.. وعاد يهبط السلم وقد دفن وجهه بين خصلات شعرها يستمد القوة والحرارة من جسمها الذي يعتصره بين ذراعيه. وكانت الشابة قد تركت جسمها المرتعش بين أحضانه.. تبكي وتضحك بآن واحد.. وما ان وصلت الى الباحة حتى قالت:

ـ انظر الى حالتي يا كامران.. كيف نستطيع الخروج بهذا الشكل؟ اسمح لي ان اصعد لحظة الى غرفتي.. فأبدل ثيابي.. ثم أعود إليك حالاً.

لم يتركها كامران بل قال ضاحكاً:

ـ يستحيل ذلك يا فريدة.. حدث ذلك مرة.. أيمكن ان أفلتك مرة اخرى بعدما عدت إليَ؟.

اسندت الشابة رأسها على صدره كمن فقد الحيلة والرجاء واعترفت خجلة تخبئ وجهها بصدره:

ـ أتظنني لم أندم على طيشي وذهابي بعيداً عنك؟

لم يستطع كامران رؤية وجهها لكنه شعر بحرارة الدموع المتساقطة على يديه التي كانت تداعب ذقنها وشفتيها.



كانا يسيران وهما بأحضان بعضهما تقريباً.. افترقا عندما رأيا صيادين آتيين نحوهما.. كانا لا ينبسان ببنت شفة.. أسكرتهما سعادة المسير متلاصقين بخمرتها العذبة.

عندما وصلا الى طريق الكروم الذي التقى فيه كامران بفريدة قبل عشر سنوات قبض على كتفيها وقال:

- ربما لا تذكرين هذه الطريق يا فريدة.

كانت الشابة تبتسم وهي تحدق بعينيها في الطريق.. فقال:

- ان في نظراتك معنى يدل على انك تذكرين.

تنهدت فريدة ونظرت الى كامران باسمة كمن يتطلع الى حلم لذيذ وقديم وقالت:

- كم سعدت في تلك اللحظة.. أينسى المرء لحظات السعادة؟

مسك الشاب ذقنها كيلا تدير رأسها فتضيع نظراتها عن عينيه وقال بصوت هادئ عميق:

- فريدة... ان قصتنا كلها جرت هنا... اسمعيني. أرى بأن هاتين العينين تألمتا بدرجة أصبحتا لا تستطيعان احتمال رؤية آلام نفسي الحساسة. عندما شعرت بحبي لك لم تكوني اكثر من طفلة ماجنة لا تعرف غير الضحك... كنت عصفورة سياج كالضوء او الصوت ليس بوسع احد القبض عليك. كنت ضعيفاً تجاهك استيقظ كل يوم لأشعر بأن حبك يتزايد في قلبي ويتمكن في أعماقي. أما ضعفي فكان يخيفني بل يخجلني. كانت لك نظرات وكلمات يخفق لها قلبي أملاً وطرباً أحياناً.. لكنك سرعان ما كنت تتبدلين. ما ان ترتسم تلك الرقة رقة شابة حساسة في عينيك حتى تتلاشى وتزول... فكنت أقول لنفسي:

يستحيل على هذه الطفلة ان تدرك مشاعري. وتقدر حبي.. ستحطم حبي وحياتي وقلبي. لا شك في ذلك أبداً.

ما كنت أتعشم قط بأنك ستوقفين حياتك وجسمك إخلاصاً لحبي ووفاء.. والآن فقط أدركت سبب تهربك مني.. كنت تتهربين مني كيلا ألحظ شحوبك وارتعاشك من

فرط ما تكنيه من العشق والغرام. أما في ذلك الوقت كنت أخاله مجون عصفورة سياج.. اضطرب له وأخاف منه.. اخبريني بربك يا فريدة... في أي ركن من صدر عصفورة السياج الصغير خبأت هذا الوفاء وغذيت هذه الروح الحساسة الرقيقة؟

سكت كامران لحظة وأخذ العرق يتصبب من صدغيه ثم تابع الكلام بصوت أرق وأهدأ فقال:

لم يقتصر عذابي على هذا القدر يا فريدة.. كنت أغار عليك نفسي.. ومن توالي الساعات والايام.. لأنني كنت أخشى ان يتبدل شعوري وحسي فيفقد حبي لك رداءه على مر الايام.. إذ من يكفل تقلبات الايام.. وكثيراً ما كنت اقول لنفسي:

- ماذا تكون حالي لو تناقص حبي لفريدة على مر الايام؟ ماذا اصنع لو فقدت هذا الشعور النادر اللذيذ؟

عندها كان يدب الذعر في قلبي وأسعى لإبعاد خيالك عن ناظري مثلي كمثل الذين يطفئون الشموع البراقة خشية ذوبانها ونفاذها.

تنبت في الجبال زهرة برية لا اعرف اسمها يا فريدة. لها رائحة زكية وشذى عاطر لذيذ.. ان تهافت المرء على استنشاق ذلك الشذى تناقص شعوره بعطرها وفقد رداءها مع الزمن وبحكم الاعتياد. حتى ان علاج ذلك يكون على الأغلب بحرمان المرء الكلي من تلك الرائحة وتقريب أي رائحة اخرى عادية او أي وردة صفراء مبتذلة من أنفه لتعيد إليه حاسة التذوق برائحته المحببة التي يذوب شوقاً الى استعادتها.. ان الدواء الوحيد هو بتعذيبه وقتل نفسه.

طالما وقعت هذه الزهرة بالمحن والمصائب بسبب عبيرها الحلو الجذاب ان وصلت أصابع الناس إليها أذبلوها وأماتوها تشوقاً ولهفاً بعبيرها.. وهكذا انا يا فريدة كلما أرى عينيك والآلام المرتسمة في حدقتيهما من ظلم الايام وتعنتها واستعرض حرصك على ابقاء عشقك النقي الطاهر بين حنايا ضلوعك.. أشبهك بتلك الزهرة التي يزيد شذاها كلما ضيقت عليها الخناق أنامل القساة الظالمين.

تدركين ما اقول يا فريدة أليس كذلك؟ انا واثق من ذلك. لأن عينيك لا تضحكان كالماضي.. وانك لا تسخرين من كلامي الذي يبدو كأنه أجوف لا معنى له.

اخذت فريدة تغمض عينيها اللتين تبرقان بالدموع... كطفلة تتأهب للنوم.. كانت منهكة مكدودة من هذا الاضطراب اللذيذ... لدرجة اصطكت لها ركبتاها فتركت جسمها بين ذراعي كامران غير عابئة بما تسببه له من تعب.. وبحركة تشبه الهمس في الأحلام قالت:

ـ ها انك ترى بان عصفورة السياج قد ماتت وتلاشت الى الأبد.

الصق الشاب رأسه برأسها وبنفس الصوت الهادئ قال:

ـ لا بأس.. انني أودع غرامي العنيف لعصفورة السياج الى حلاوة الورد بعد الآن.

شعر كامران بأن النشاط والحيوية دبا في جسم الشابة المستكنة بين ذراعيه فانتفضت كالعصفور وقالت:

كامران.. أرجوك.. بربك لا تقل ذلك... أتوسل إليك.

ثم أعادت رأسها الى وضعه فوق صدر كامران إلا انها أدارت وجهها نحو وجهه وقد تصاعد الدم الى خديها فصبغهما بحمرة حلوة سبقتها رعشة خفيفة سرت في جسم كامران كالكهرباء.

كرر كامران قوله بحرص وعناء:

ـ حلاوة الورد.. لي.. لي فقط... حلاوة الورد... حلاوتي.

وقفت فريدة على أطراف أصابع قدميها بجسم يرتعش وقبضت على كتفي الشاب ثم مدت شفتيها القانيتين من تصاعد دم جسمها إليهما.



افترقا بعد غيبوبة خفيفة.. وقد دبت الحياة بفريدة كعصفورة ارتوت بالشرب من منهل براق بعد ظمأ طويل. كانت تقفز بضجيج تضرب الارض بقدميها وتدير وجهها الى هنا وهناك وهي تقول:

يا للخجل!.. يا للعار!... يا إلهي.. انت السبب يا كامران... انت السبب. اقسم بأنك انت السبب أيها الظالم الاصفر.

وكانت عصفورة سياج على غصن قريب تزقزق بنشوة وسرور.

خاتمــة

والآن أيها القارئ الكريم انتهيت من قراءة قصة من صميم الواقع جرت حوادثها قبل عشرات السنين وقد نقلها الى قراء اللغة التركية الكاتب الكبير والقصصي الشهير رشاد بك نوري فأحدثت ضجة في وقتها ورضي عنها من رضي وغضب أولئك الذين لا ينفكون عن العمل لتشويه الحق والتمويه عن الحقائق بالباطل والزيف.

أما أنا قرأتها قبل سنين طوال انا ما زلت شابة لم أر في الحياة التجارب الكافية التي تخولني على الحكم.. وبالرغم من ذلك أعجبتني وأعدت قراءتها في ظروف متباينة وفي كل مرة كنت أجد بين سطورها اشياء تتمشى مع الكثير مما يدور حولي في الحياة.

والآن وقد تجاوزت العقد الرابع من العمر وأصبح لي الحق ولو قليلا للحكم على الوقائع وسردها بصراحة وإخلاص.. وبحكم مهنتي التي مارستها منذ اكثر من 25 سنة استطيع الحكم بأن القصة وإن جرت حوادثها قبل سنين طويلة فان الحياة الاجتماعية لم تتحسن ويا للأسف وتسير نحو البعض من الطيبة وسمو النفس بل انني اشعر في كل حادثة تدور مهما كانت تافهة وبسيطة بأن موكب المدنية الزائف يزيد من أطماع النفوس البشرية ويجعلها تسترسل في أنانيتها وخداعها اكثر من الزمن الماضي. ذلك الزمن الذي كانت فيه العربات وسائط النقل بدل السيارات والطائرات.. وان الآلية التي استحكمت على حياتنا وأعمالنا قد أثرت بقوة على نفوسنا وجعلت منها نفوسا متحجرة لا تشعر بشعور غيرها وان أظهرت نوعا من التعاون او الغيرية فلا بد من غاية تكمن في أعماقها فتتستر بتلك الخصال الحميدة ذراً للرماد في العيون.

لم أر في حياتي العملية حوادث أنعم وأرضى مما جرت في هذه القصة لكنني لن أيأس بحال من صفاء بعض النفوس التي لا بد لها ان تكون منارا هاديا للنشء الجديد عله

يستضيء بنبراسه فيقضي حياة أهنأ تتيح له الطمأنينة الكافية على تأمين سبل عيشه ليتفرغ الى النواحي الاخرى أدبية كانت أم عملية ليبدع ويظهر للوجود ما يجعله أهلا ليكون إنسانا بالمعنى الصحيح الكامل.

وأنت يا زميلتي العزيزة يا من كنت لي بمثابة البنت قبل الزميلة أرجو ان تأخذي قسطا من درس الكفاح والنضال الذي لازم طريق بطلة القصة (فريدة) ولا تدعي اليأس ان يتسرب الى قلبك النقي الصغير فيسود الحياة في عينك ويجعلك تعملين كالآلة الصماء لا تشعرين بلذة في عملك. اعملي وتجلدي ولو قاسيت بعض المتاعب وثقي بأن الحياة جميلة بكفاحها وما قيمة المرء إلا بنسبة ما يعتور طريقه من عقبات يمهدها باحتماله ورحابة صدره وبشاشته التي تكسبه حنكة ودراية تجعله ناضجا كل النضوج.

والى الأمام يا أختاه وفقك الله ورعاك.

روشن بدرخان